موسوعة تاريخ الأمبراطورية العثمانية

السياسي والعسكري والحضاري



المجلد الأول

الدار العربية للموسوعات

مَوسُوعَة
تاريخ الأمبراطورية العُثمانية
السّياسي والعسكري والحضاري

٦٢٩-١٣٤١هـ / ١٢٣١-١٩٢٢م

تأليف

يلماز أوزتونا

ترجمة

عدنان محمود سلمان

مراجعة وتنقيح

د. محمود الأنصاري

المجلد الأول

الدار العربية للموسوعات

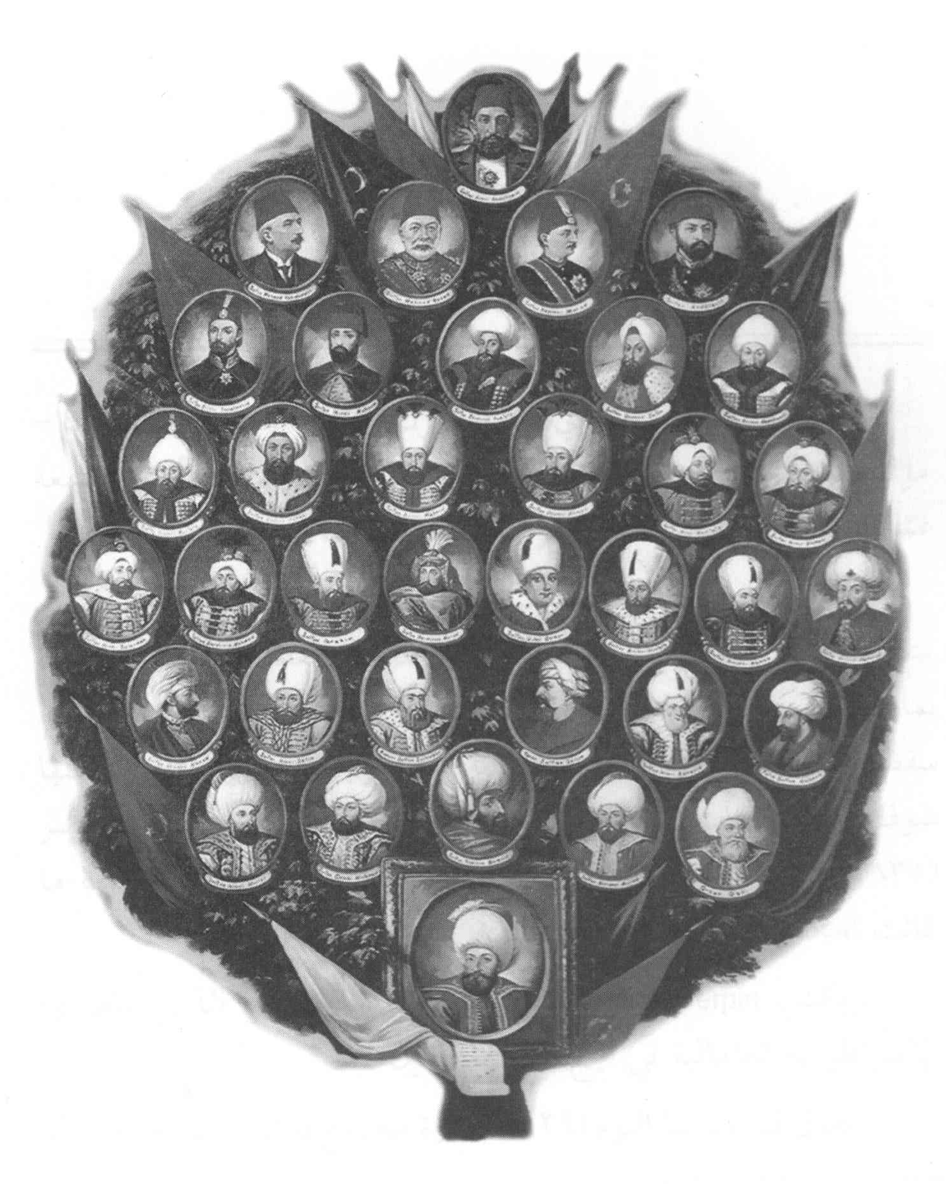
الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣١هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

خالد العاني: مؤسسها ومديرها العام



سلاطين بني عثمان

المقدمة

يستهل المؤرخ النمساوي البارون فون هامر Baron Von Hammer - مؤلف أشهر كتب التاريخ العثماني حتى يومنا هذا - مقدمة الأجزاء التسعة عشر لترجمة كتابه إلى اللغة الفرنسية(١) بالكلمات التالية:

«الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية واسعة. وهي ذات أهمية غير متناهية من الناحية التاريخية... الإمبراطورية العثمانية أشبه ما تكون بمارد يقبض بأذرعه الجبارة على ثلاث قارات في وقت واحد، لو أنها سقطت في وقت من الأوقات - كأية إمبراطورية أخرى - فإن أنقاضها سوف تغطي قارات آسيا وإفريقية وأوروبا. وحتى في الوقت الحاضر (١٨٣٥)، فإن الإمبراطورية العثمانية تحكم أقطاراً «تفوق سعتها ما كانت تحكمه الإمبراطورية البيزنطية في أوج عظمتها»(٢).

ويكتب Pené Herpin أحد المفكرين الفرنسيين الذين عاصروا الإمبراطورية العثمانية في أوج عظمتها فيقول:

«تفوق قدرة تركيا اليوم (١٦٢٩) قدرة مجموع دول العالم أجمع»(٣).

---

(١) نشر هذا الكتاب عام ١٨٣٥.

(٢) Histoire de l'empire Ottaman جزء ١، باريس، ١٨٣٥، ص ١-٢.

(٣) Apalogie، جنيف، ص ٦، ١٦٢٩.

ومثل هذه الأفكار يسجلها المؤرخون والمفكرون المعاصرون الذين كتبوا بعد سقوط الدولة العثمانية؛ فمثلاً يقول Margnthan آخر سفير للولايات المتحدة الأميركية لدى الدولة العثمانية، في كتاب Soliman لدوني (ص ٢٤٠) ما يلي:

«أسس العثمانيون في آسيا وإفريقية وأوروبا واحدة من أوسع الإمبراطوريات التي عرفها العالم»[١].

أما المستشرق الفرنسي Sovwaget فيقول: «لم يشهد التاريخ الإسلامي كياناً سياسياً قوياً ومستقراً كالإمبراطورية العثمانية. لقد كانت الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الأكبر، والأوسع، والأكثر استقراراً. كانت تمتلك أكبر المصادر الاقتصادية في أوروبا، وكان جهازها الإداري في حد ذاته بناءً راسخاً يخدم ويرعى مصالح الشعب العثماني. كان الأسطول العثماني يسيطر على كامل البحر الأبيض، وكانت اسطمبول تبهر أنظار السياح الأوروبيين كأكبر مركز للحضارة في العالم، يضاف إلى ذلك كله التميز المتفرد للأتراك بالطاعة والنظام»[٢].

ويؤكد المستشرق الألماني Babinger: «كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرى بحق»[٣]

ونفس الكلمات تقريباً يسجلها Grausset من الأكاديمية الفرنسية، حيث يقول: «كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرى بحق»[٤].

---

(١) Downey, Soliman, N.Y, 1929

(٢) Sawaget, Intraduction à l'Histoire de l'Orient Musulman، ص ١٦٤، باريس ١٩٤٣.

(٣) Balrnger, Mehmed der Eroberer، ص ٤٦٩، ميونخ ١٩٥٣.

(٤) L'Empire du Levant، ص ٦٤٣، باريس ١٩٤٩.

أما المؤرخ الإنجليزي Downey فيقول: «الدولة العثمانية هي إحدى أهم ظواهر التاريخ العالمي المذهلة جداً، والخارقة للعادة، فقد حاولت هذه الدولة أن تجمع حضارات البحر الأبيض كلها في إمبراطورية واحدة»[١].

ويقول الفيلسوف الإنجليزي Toynbee «الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الوحيدة التي جمعت الشرق الأوسط تحت حكمها أطول حقبة في التاريخ، وذلك أمر لم توفق إليه الإمبراطورية الفارسية أو الرومانية أو العربية»[٢]، **ويضيف توينبي إلى ذلك**: إن كافة الأقوام الناطقة بالعربية اجتمعت تحت راية دولة واحدة، ويسترسل قائلاً: «إن أياً من الدول الأوروبية الاستعمارية التي أخذت مكان الدولة العثمانية، سواء إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو روسيا لم تتمكن من إدارة هذه الأقطار مدة طويلة وبطريقة مستقرة كما أدارتها الدولة العثمانية، فهذه الدول عندما استولت على تلك الأقطار لم تلبث أن تركت أماكنها إلى الدول البلقانية والعربية خلال فترة قصيرة، على الرغم من أن استيلاءها عليها كان بزعم إدارتها بصورة أرقى، ويضيف توينبي: إن إدارة الدولة العثمانية للشرق الأوسط كانت خير إدارة على مدى التاريخ وحتى يومنا هذا، وإن الدولة العثمانية هي الوارث بحق للإمبراطورية الرومانية.

لقد أطلق المؤرخون المعاصرون على الأسلوب العثماني الذي حكم الشرق الأوسط لعدة قرون مصطلح Pax Ottomana وهو يقابل Pax Romana وهو التعبير اللاتيني لمفهوم «النظام العالمي» الذي يرد ذكره في دستور فاتح «قانون نامة».

لقد كان من الممكن الاسترسال في إيراد الكثير من كتابات

---

(١) Downey, Soliman، ص ٣٣، نيويورك ١٩٢٩.

(٢) Toynbee, the Ottaman state and its place in the world, lieden 1974, P.15

المؤرخين الأجانب أو الأتراك التي تعالج موضوع نشأة الدولة العثمانية واتساعها، غير أننا نكتفي بما أوردناه من نماذج.

إننا نحسب - دون إدعاء أو إسرافاً - أنه يتعذر تفهم وإدراك الجمهورية التركية الحالية والعالم العربي وتكوينه دون معرفة التاريخ التركي، بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إنه لا يمكن إدراك سير التاريخ العالمي وتفهم البحوث إلتي دارت حوله دون معرفة التاريخ العثماني، والقارئ للتاريخ العالمي دون التعرف على التاريخ العثماني كالسائر في الظلام.

إن المشكلة الهامة والجادة هي حاجة جمهور الشباب والجماعات الأخرى إلى كتاب يحيط بالتاريخ العثماني في سلاسة ودون تقصير وبغير أخطاء متعمدة أو غير متعمدة، ومن أجل هؤلاء ولسد هذا الفراغ... كان اهتمامنا بتأليف هذا الكتاب الذي استغرق وقتاً غير قليل.

واستكمالاً للفائدة فقد حرصنا في تأليفه على أمرين، أولهما: السرد التاريخي للأحداث حتى وقت الانتهاء من تأليف الكتاب (١٩٨٥) وثانيهما: تناول موضوعات التشكيلات الثقافية والحضارة والفن العثماني. ولم نهمل عند تحريره أي مصدر من المصادر الجغرافية والأدبية.

وحرصاً على ألا تزداد صفحات الكتاب تضخماً عما هي عليه، فقد آثرنا ألا نضع خرائط جغرافية في المتن، وإن كنا نوصي بشدة بأن يستصحب القارئ أطلس يضعه تحت يده وهو يطالع الكتاب.

ولعل تركيزنا على الجانب الثقافي من التاريخ العثماني كان له ما يبرره، فلئن كان القارئ الأجنبي يجهل الثقافة العثمانية فإن الجيل التركي الحالي. مع الأسف - لا يقل عن الأجنبي جهلاً بمكتسبات ومعطيات هذه الثقافة على الرغم من أنه من أبنائها.

وأمر آخر كان يمثل جزءاً من دوافعنا لتأليف هذا الكتاب، ذلك هو أنه على الرغم من أن التاريخ العثماني ما يزال يمثل أحد التشكيلات السياسية للأمس القريب، فإن المعروف عنه أقل بكثير من المعروف عن الإمبراطوريات المناظرة كروما والخلافة العربية والإمبراطورية البريطانية، ولا ينسحب ذلك على الجانبين: السياسي والعسكري من التاريخ العثماني فحسب، بل يمتد كذلك إلى الجانب: الثقافي والحضاري في التاريخ العثماني.

إن تجربة نظام الدولة التركية التي أتخذت شكل الإمبراطورية التركية العربية على يد العثمانيين موضوع جدير بأن يكون أحد موضوعات الدراسات التاريخية الهامة.

وفي هذا الصدد قد تجدر الإشارة إلى أنه ينبغي على الأقطار العربية أن تهتم أكثر من غيرها - بعد الجمهورية التركية - بدراسة التاريخ العثماني. وهنا يرد تحفظ على جانب كبير من الأهمية، مؤداه أن التاريخ العثماني الذي تعرفه الأقطار العربية قد حررته وصورته أقلام أجنبية موتورة، ومن ثم فإن هذا التاريخ يأتي مزيفاً متحيزاً يجرد التاريخ العثماني من كثير من عناصر العظمة والتميز، وذلك بعينه هو الذي يدعونا اليوم إلى تنبيه المسلم المثقف إلى أن يقرأ ما كتبه الأجانب (الإنجليز والفرنسيون وغيرهم) ببصيرة ويقظة وفكر ناقد.

وقد يصحح هذه المسألة ويقلل من أخطارها أن يكتب التاريخ العثماني قلم تركي نابع من تركيا ذاتها، ولا يقدح ذلك في أن الكتابة عن التاريخ مجال مفتوح للجميع، وانشغال غير أبناء الشعب بكتابة تاريخ الشعب أمر محبب وجميل، وإن كان يقفز إلى الذهن هنا أن أفضل وأرقى ما كتب عن التاريخ الألماني حرره المؤرخون الألمان، وينسحب ذلك بنفس المقدار على التاريخ الإنجلوسكسوني والتاريخ الروسي.. إلخ، ويساند هذه المقولة اعتبار مهم نستطيع أن نلاحظه في

أخطاء كتابة التاريخ التي قد لا تنشأ عن عمد وإنما عن عدم تفهم أو تمثل لقيم وعادات وثقافة وطريقة معيشة الشعب الذي يكتب عنه أو يؤرخ له، ومن ثم فإننا نأمل في أن يكون كتابنا هذا الذي يكتبه تركي من تركيا قد تحاشى الكثير من الهنات التي أشير إليها وحقق الغايات التي أشرنا إليها من قبل.

وإنه ليمكن القول دون مغالاة إنه يتعذر أن نتعرف على كيفية ظهور وتشكيل الدول العربية الحالية دون معرفة التاريخ الصحيح للدولة العثمانية، ولقد حرصنا بالفعل في هذا الكتاب على أن نركز البحث في مواطن عديدة منه على الأقطار العربية. وعندما يطلع القارئ العربي على التاريخ العثماني فإنه يكون بذلك قد اطلع على تاريخه هو لفترة أربعة قرون، وسوف يتذكر وهو يقرأ النظام والدستور السياسي الذي عاشه شعبه لمدة أربعة قرون، وسوف يقرأ كذلك مجريات الأحداث في الإمبراطورية التي هي دولته، ولا شك في أنه سوف يجد إجابات شافية عن كثير من الأسئلة التي بقيت عالقة في ذهنه ولم يجد لها جواباً من قبل.

وكم يحدونا الأمل في أن يكون الكتاب شائعاً بالنسبة للقراء جميعاً على اختلاف جنسياتهم، وأن يكون أكثر تشويقاً للقارئ العربي بوجه خاص؛ ذلك لأن القارئ العربي قد عاشت أمته في ظل الدولة العثمانية عدة عصور يستوي في ذلك من كان مقيماً في اليمن أو في الجزائر، وهذا أو ذاك كان أبوه أو جده من أفراد تلك الدولة، شعر بشعورها، وعاش مصيرها، وشاركها فعالياتها، وإن كانت هناك أمور أو حالات تعارضت فيها المصالح فمن حقه أن يعرف الأسباب والحقائق التي كانت وراء الأتفاق أو التعارض.

والمجلدين الأول والثاني يعرضان التاريخ السياسي والعسكري للدولة العثمانية، ملقياً الضوء على الإمبراطورية منذ ظهورها إلى انحلالها، وحتى يسهل على القارئ تفهم كيفية ظهور الدولة العثمانية

على مسرح العالم فقد قدمنا لذلك بتلخيص مجمل للمجريات التاريخية للأتراك قبل العثمانية وخارج النظام العثماني.

أما المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة فيتناولان الحضارة العثمانية بما يشتمل عليه مفهوم الحضارة من ثقافة وفن وأسلوب حياة.

وقبل أن نودع القارئ نريد أن نرد على نقد قد يثار، ذلك أنه كان ينبغي لهذا الكتاب أن يتناول التاريخ الداخلي للقوميات التي ارتبطت طوال ستة قرون بالنظام العثماني، وأن يتناول كذلك الجوانب الثقافية والفنية لتلك القوميات، ولكن ذلك كان غير ممكن لسببين أولهما: أن ذلك كان سوف يخرج بالكتاب عن الحجم الممكن المعقول، وثانيهما: أن هذه الموضوعات قد تناولها بالفعل بدقة وعمق واستفاضة مؤرخو تلك القوميات، ويكفي في ذلك أن نشير إلى ما كتب عن أدب اللغة العربية في تونس، وأو ما كتب عن الفن في رومانيا في العهود العثمانية.

أما القائمة الببلوجرافية التي يحتويها هذا الكتاب فإنها يمكن أن تعطي فكرة لطالب الدراسة في التاريخ العثماني عن مبلغ ما نشر في مختلف اللغات عن هذا الموضوع، ومع أن القائمة الببلوجرافية في كتابنا هذا لم تسجل كافة أسماء الكتب التي تمت الإفادة منها كمصادر وعلى الأخص تلك التي كانت على شكل مقالات، فإنها على كل حال تفي بالغرض لأولئك الذين يرومون البحث والتعمق في موضوع التاريخ العثماني.

بقيت كلمة أخيرة تحتم الأمانة أن نثبتها، تلك هي أن النظام العالمي العثماني Pax Ottomana، لم يستهدف يوماً إنكار كيان أية قومية مهما صغرت، ولم يعمل أو يفكر في محوها، بل على العكس من ذلك كان نظاماً حريصاً على أن يجعل من هذه القوميات تحت مظلته قوى فاعلة ومشاركة في صنع السياسة المدنية والعثمانية.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المؤلف

المبحث الأول

الأتراك قبل تأسيسهم الدولة العثمانية



الباب الأول

فترة قبل الإسلام

١) الأتراك :

الأتراك ، عرق أبيض عريض الجمجمة Braehyeephalic وغالبا مايطلق عليهم فى الكتب الأدبية لفظ « طورانى » (بالفرنسية : Touranien) وهم القوم الذين ينحدرون من فرع آلتاى Altay التابع لمجموعة أعراق أورال – آلتــاى Ural-Altay . اللغة التركية كثيرة المقاطع ، تشتق كلماتها باضافة مقاطع إلى نهاية الكلمة الأصلية وهى لغة غنية جدا بصيغ أفعالها .

يدين الأتراك القدامى بدين كوك تنرى Gök Tenri (وباللغة التركية القديمة : كوك تنكرى Kök Tengri) . إلا أننا نجد الشامانية لدى القبائل التركية التى ابتعدت كثيرا وبقيت فى سيبيريا وظلت تحت تأثير مغل شامان .

ديانة كوك تنرى ، ليس لها نبى ، ولا كتاب مقدس ، ولامعبد ولاعبادة منظمة . لها معبود واحد (تك تنكرى) . وهو رب الأتراك فقط وليس ربا للعالمين كإله المسلمين .

السماء والأرض والماء مقدسة . يدفن الموتى ، يمكن تحنيطهم . تدفن معهم كذلك حاجياتهم الضرورية لاستعمالها فى الدار الأخرى .

لايجوز لأى فرد من المجتمع التركى أن يصبح عبدا أو جارية داخل مجتمعه التركى . يستخدم المجتمع التركى العبيد والجوارى من الأقوام الأجنبية . كل تركى حر وكلهم محاربون ، حتى المرأة تمتطى الحصان وتستعمل السلاح ولاتتحجب وتختلط بالرجال ولاتنفر منهم . لايربى الخنزير ولايؤكل لحمه إلا عند المجاعة . إن تربية الخنزير وأكل لحمه ، علامة للمغول . يهتم المجتمع التركى بالبكارة وعفة المرأة اهتماما كبيرا . اكرام النساء للغير وعدم الإكتراث بالبكارة ، علامة أخرى من علامات المغول . ان العقوبة الوحيدة لهتك العرض هى الإعدام . إلا إذا قبلت التى اعتدى عليها – وكانت سيدة غير متزوجة أو أرملة – الزواج ممن اعتدى عليها .

إن نظام المراتب المتسلسلة Hierarchy هو الأساس فى المجتمع التركى القديم ويستند على النظام العسكرى . لقد سلح هذا النظام المجتمع وجعل منه مخيما عسكريا يمكنه الوقوف حتى أمام أكبر جماعات الأعداء فى سبيل الذود عن الحرية والاستقلال أو بقصد الفتوحات .

إن سبب تنظيم الأتراك على هذه الشاكلة ، هو مواجهتهم منذ فجر التاريخ ، للصينيين الذين يفوقونهم عددا واضطرارهم إلى مجابهتهم فى معركة حياة أو موت . طبقة الأشراف جزء من المجتمع . أكثرية الضباط من الأشراف . تمنح رتبة الجنرالية ، إلى سلالة عائلة الخان أو الخاقان ، وفى حالات كثيرة خصصت لامراء الخاقانية – الذين يطلق عليهم اسم « تكين » Tegin و« شاد » Sad – والأمراء فقط هم الذين يمكن أن يصبحوا جنرالات . ولايستحسن انتسابهم إلى سلك آخر .

الأتراك القدامى ، عرق الأقاليم الباردة ، يقاومون البرد ، ويرتدون اللباس الخاص لاتقائه . يزاولون التزحلق ويستعملون المزالج ، لكن الأتراك الذين جاءوا إلى الشرق الأوسط وإلى تركيا ، فقدوا على مر الزمن هذه المقومات ، وأصبحوا يخشون البرد ويتحملون الحر .

تعلم الأتراك ، فى أوقات مبكرة جدا ، تطويع المعادن وصناعة الأسلحة وترويض الخيول والأغنام ، وخاصة للضرورات العسكرية . هم أمهر صناع الجلود

وأمهر الفرسان وأمهر مزيني الخيول فى العالم . يرتدون الثوب والسروال والسترّ وقد علموا ذلك أولا للصينيين ثم للرومانيين إبتداء من القرن ٥ الميلادى ، وأصبحوا مؤسسى اللباس الأوربى بشكله الحالى . يطيل الرجل والمرأة من الأتراك شعره ويدليه خلف ظهره أو يعطيه شكل ذيل الحصان . الشعر القصير واللحية الطويلة هى علامات أخرى للمغول . يطيل الرجال الشارب ونادرا مايطيلون اللحية .

إن الأتراك القدامى المتهجنين (المختلطى المولد) لونهم فاتح وعيونهم زرق (أزرق ، أخضر ، أخضر - أزرق ، كستنائى ، أصفر) ، يميلون إلى الشقرة ، عيونهم ليست ممشوقة ولاكروية وعظام وجناتهم ليست بارزة . تلك هى علامات المغول والصينيين . ويشاهد كذلك أتراك اختلطوا مع هذه الأقوام . وبالنسبة إلى قانون مندل ، فان اللون الغامق يطغى على اللون الفاتح . يلد على الأغلب من الرجل والمرأة ذوى العينين المختلفى اللون أحدهما غامق والآخر فاتح ، طفل غامق العينين . وبالنسبة إلى لون البشرة ، يسرى القانون نفسه ، الأتراك ناصعو بياض البشرة ، السمرة تبين الاختلاط بالأعراق الأخرى .

لايروق للأتراك البقاء فى مكان واحد ويسرهم الترحال . ولقد كانت هذه الخاصية أحد أسباب ذهابهم إلى أقطار مختلفة جدا . أسسوا فى الأزمنة المبكرة مدنا كبيرة وقلاعا أيضا . أكثرها اكتشف فى عصرنا . وقد كان الاعتقاد قبل اكتشاف هذه الآثار ، أن الأتراك القدامى رحّل تماما .

يمتطون الخيل منذ صغرهم . يوضع الطفل ، وهو فى الرابعة من عمره وعلى أقصى تقدير فى الثامنة ، على ظهر الحصان ويقوم والده بسحب الحصان ويجرى به جولة بطيئة . ولايفارقون الحصان بعدها . « لذلك يقال عنهم إنهم ولدوا مع الحصان » . ونتيجة لذلك ، لايهابون المسافات ويسوقون خيولهم إلى حدود البحار المفتوحة والمحيطات ويقفون عندها . لايحبون البحر ولاالبحرية ، لكنهم اضطروا إلى مزاولة الأمور البحرية عندما استوطنوا تركيا الحالية فى أواخر القرن ١١ . لاتوجد بحرية تقريبا لدى الأتراك خارج تركيا . هم أناس عاشوا فى السهول القاحلة . ونادرا مايعيشون فى الجبال ، كذلك لايروق لهم العيش فى الغابات كالمغول والسلاف ، يذهبون إلى الغابة للاصطياد فقط . آلاتهم الزراعية وأسلوب الرى عندهم متقدم ، تعودوا بصعوبة على الزراعة ، لأنهم يفضلون أن يكونوا ملاك

أراضٍ فقط ، وقد استخدموا فى أراضيهم ، الأقوام الذين سيطروا عليهم . لكنهم يعشقون تربية الحيوانات . هم أساتذة فى تربية الخيول والأغنام . ان لحوم الخيل والأغنام غذاؤهم الذى لاغنى لهم عنه . ثم هم أضافوا إليها بعد ذلك الجمل (خاصة ذا السنامين) والبقر والجاموس . يشربون الـ « قيميز Kimiz » من المشروبات الكحولية (ويصنع من لبن الفرس) والشراب من الكروم . منع الإسلام المشروبات . يندر أن يشاهد القمار لدى الأتراك القدامى .

ليست لديهم أى أفكار إيجابية أو سلبية تجاه لغات أو أديان أو ثقافات أو اعراف وعادات الأقوام الأجنبية . لايحاولون اجبار الأقوام الأخرى على تعلم دينهم ولغتهم . يتقبلون بعد عدة أجيال دين ولغة الأكثرية فى الأقطار التى دخلوها كفاتحين وينصهرون فيها .

لهم رؤساء قبائل ، إلا أنه لغرض رئاسة اتحاد القبائل وخاصة اتحاد ولايات القبائل المتحالفة وحكمها ، يقتضى الأمر الحصول من الإله كوك تنكرى على السعد والبركة والقداسة Kut almak أما الإله Tengri فقد منح هذا السعد إلى السلالة المسماة آجين أوغوللرى Açinögullari فقط ولم يمنحه إلى سلالة تركية أخرى . إن كافة السلالات التركية الخاقانية اعتبارا من سلالة هون فى القرن الثالث ق . م وحتى بنى عثمان فى القرن ٢٠ ، ينحدرون من آجين أوغوللرى وسلالة مته Mete ، أما الذين ينحدرون من عائلة غيرها فإنهم يعتبرون غير شرعيين كما يعتبرون غاصبين لاتجب طاعتهم .

يعتبر الامبراطور التركى المسمى « خاقان » مؤلها ومقدسا ، هو ليس إلهاً تاماً ، ولكنه « شبيه الإله » . ان الخاقانية تتوارث من الأب إلى الأبن وعلى الأغلب يرثها الابن الأكبر ، وإن كان هذا لايعتبر قاعدة ، فقد يتمكن أمير من أمراء السلالة أن يدعى حقه فى العرش ، لأن سلالة مته منحها الإله « القداسة Kut » فإذا ماتفوق وتمكن من الجلوس على العرش ، فإنه يعتبر مختارا من قبل كوك تنكرى ، وعندئذ تلزم طاعته . وقد كان هذا النظام سبباً فى تجزئة الامبراطوريات التركية واضمحلالها بسرعة ، كما كان سببا كذلك فى تكوين نظام اقطاعى وشللى ؛ فالأمراء الآخرون الذين لم يعتلوا العرش ولم يصبحوا خاقان ، ويتولون صلاحيات الحاكم على الأقطار والأراضى الواسعة ، لايطيعون الخاقان إلا بنسبة اقتداره ،

ويتمردون عليه فى حالة ضعفه . وبموجب هذا النظام أيضا ، فإن الحاكم إن كان ذا إمكانية واقتدار ، فإنه ينهض بالدولة ويعلى شأنها ، أما إذا كان ضعيفا ، فإنه يسبب الاسراع فى اضمحلالها وسقوطها . ولقد ظل هذا النظام ساريا فى العهد الإسلامى التركى إلى أن تمكن بنو عثمان من تغييره .

إن موضوع وطن ومنشأ الأتراك ، ليس من المواضيع التاريخية التى لاتقبل النقاش كما هو الحال فى أقوام كثيرة أخرى . ولكى نصل فى هذا الصدد إلى صورة قطعية ، فإن الأمر يقتضى مزيدا من التوسع فى تناول الحدود الزمانية والمكانية .

إن وطن الأتراك بالنسبة لمعلوماتنا حاليا ، هو المثلث الكبير الذى ينحصر بين بحيرة آرال – جبال آلتاى – جبال تانرى (تيانشان) والذى تدخل فيه بحيرة بالقاش . لكنهم فى الأزمنة المبكرة انتشروا فى المنطقة بسرعة وتقدموا خاصة نحو الشمال الشرقى واستوطنوا فى شمال الصين ، عن قوة ، وامتزجوا مع الأقوام الإيرانية وتدفقوا نحو الغرب باسم سقا Saka (Skit) .

يحتمل أن يكون نطق كلمة « ترك » Türk قبل القرن ٧ بعد الميلاد على شكل « تُرُك » (بضم حرفى التاء والراء) Türük وتعنى « قوى ، مقتدر ، كثير ، مكثر » وهو جذر للمصدر Türemek (تكاثر) . استعملت هذه الكلمة كاسم مشترك لجميع الأقوام الناطقة بالتركية منذ القرن ٦ ومنذ أتراك كوك (كوكتوركلر) .

وكانت فى القرون السابقة ، تطلق الكلمة على واحد فقط من الأقوام أو القبائل التى تنطق التركية . وللمرة الأولى مرت كلمة « ترك » فى المصادر الصينية التى ترجع للقرن ١٨ ق . م . بنطقها بصورة تك Tik ولم يعثر على مصدر موثوق أقدم منه .

إن العائلة التى منحها الإله كوك تنكرى القداسة والسعد Kut لتتولى حكم الأتراك ، هى سلالة آجينا Agina . أو باللهجات التركية المختلفة آشينا Asina ، بورى Böri ، قورد Kurd وهو اسم الحيوان الذى يسمى ذئب . إن هذا الذئب هو كوك بورى Kök Böri أى ذئب املح . إن جد السلالة تناسل من هذا الذئب ،

وبذلك تكاثرت السلالة . الذئب الأملح رمز وطنى . والقمر على شكل هلال ، رمز وطنى آخر (رمز النجمة ، حديث جدا) إن اللون السلالى لأسرة بنى آجين هو الأحمر (حمرته ليست حمرة تامة وإنما بلون اللهب الذى يميل إلى الطرنجى أو الأحمر الفاتح) وهو اللون السلالى للسلالات التركية الخاقانية (الحاكمة) الكبرى ومنها بنو عثمان ، والذى كونّ لون العلم التركى الحالى . كما أن لون سلالة جابت Capet الأبيض ، الهاشميون الأخضر ، العباسيـون الأسود ، الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية الافلاطونى (الارجوانى) .

يستمد امبراطور الأتراك الكبير - الذى كان يطلق عليه فى السابق اسم « ياكبو » Yagbu ثم « كغان » Kağan وهو اللفظ الذى تطور على أساس تفضيل المقطع الطويل وأصبحت « خاقان » - سلطته على الأتراك من إله الأتراك الذى يسمى « تنكرى » ، ثم أخذ يستمده من الله فى الفترة الإسلامية . قال بلكه كغان فى كتابات أورهن مايلى : « جلست على عرش آبائى لأن التكرى أراد ذلك » . ان السلالة شرعية من الناحية القانونية لكونها هى مؤسسة الدولة والوحدة الوطنية ، بواسطة الفتوحات .

الخاقان لايأمر ، بل يصدر إراده ، ومنبع هذه الإرادة هو الإلهام الإلهى (تنكرى) ، لذا فإن إرادة السلطان لاتناقش وتعتبر مناقشتها مخالفة للإله . يطلق على زوجة الخاقان التى من السلالة ذاتها اسم « كتون » Katun التى أصبحت تنطق بعد ذلك : « خاتون » وهى نفس كلمة « قادين » Kadin (وتعنى امرأة ، لها دور مشروع فى أمور الدولة بقدر معين ، تتمكن من الجلوس على العرش بجنب زوجها الخاقان » .

٢) تصنيف التاريخ التركى :

إن الأزمنة التى تسبق القرن ٣ ق . م ، هى فترة قبل التاريخ بالنسبة للأتراك . ونحن نستطيع أن نتعرف على عدة أسماء من حكام الأتراك للفترة التى تسبق هذا القرن فقط ، ولاتوجد لدينا قائمة حكام كاملة .

إن المنطقة الرئيسية للدولة التركية فى القرن ٣ ق . م ، هى شمال المنطقة الوسطى لدولة مغولستان الحالية ، أى جنوب بحيرة بايكال مباشرة وحوض نهر

أورهن وهى المنطقة التى بقيت قاعدة للدولة التركية حتى عام ٨٤٠ . أما الأتراك الذين انتقلوا فى هذا التاريخ إلى تركستان الشرقية ، ووسط آسيا ونحو أقصى الجنوب - الغربى فقد نقلوا مركز ثقلهم بمرور الزمن من تركستان الشرقية إلى تركستان الغربية وأخيرا نقلوا مركز ثقلهم مع السلاجقة إلى خراسان وإيران .

وعند تأسيس الدولة التركية فى الأناضول عام ١٠٧٤ ، تكّون أتراك الغرب . وأخذ خاقانات تركيا فى تمثيل أتراك الغرب والشرق ، قد دام هذا الوضع إلى زمن قريب من وقتنا الحاضر . ان التاريخ التركى الأساسى هو : تركستان وتركيا ،

إلا أنه إلى جانب ذلك ينبغى أن نذكر أنه قد تأسست امبراطوريات تركية جانبية ، فقد تشكلت فى كلتا شعبتى خاقانية تركية الكبرى ، امبراطوريات تركية جانبية فى أوربا الشرقية ، الهند ، إيران ، مصر والصين ، كخاقانيات جانبية ليست لها علاقة مع تركية وتركستان . ويقتضى ان نضيف إلى ذلك الشعبة السفلى للهند الجنوبية . وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف المناطق التى تأسست فيها الامبراطوريات التركية على الشكل التالى :

١ - الشرق أو تركستان .
٢ - الغرب أو تركية .
٣ - أوربا الشرقية .
٤ - إيران .
٥ - الهند .
٦ - الهند الجنوبية .
٧ - الصين .
٨ - مصر .

ومع أن الأتراك أسسوا امبراطوريات فى تركستان وفى أوربا الشرقية والهند قبل الإسلام ، لكنهم لم يتمكنوا من تأسيس امبراطوريات فى تركية وإيران والهند الجنوبية ومصر إلا بعد دخولهم الإسلام .

وبموت تيمور أوغلو شاه رخ فى ١٤٤٧ ، ينتقل مركز ثقل التاريخ التركى بصورة نهائية من الشرق (تركستان) ، إلى الغرب (تركية) . وبذلك لاتصبح

الدولة التركية الأساسية الأهم فى تركستان ، وإنما فى تركيا وهى الدولة العثمانية .
جلس على عرش الخاقانية فى الدولة التركية الأساسية ١٨٢ خاقان تركى ، وهم ينقسمون إلى ١١ سلالة حاكمة تنحدر من سلالة آجينا أومته Mete وهى :

١ - الهون (٣٩ خاقان) : ٢٦٥ ق . م - ٢١٦ ب . م = ٤٨١ سنة .
٢ - التابغاج (١٦ خاقان) : ٢١٦ - ٣٩٤ = ١٧٨ سنة .
٣ - الافاريون (١٣ خاقان) : ٣٩٤ - ٥٥٢ = ١٥٨ سنة .
٤ - كوكترك (٢٧ خاقان) : ٥٥٢ - ٧٤٥ = ١٩٣ سنة .
٥ - اويغر (١٤ خاقان) : ٧٤٥ - ٨٤٨ = ١٠٣ سنوات .
٦ - القره خانيون (١٠ خاقانات) : ٨٤٨ - ١٠٤٠ = ١٩٢ سنة .
٧ - بنى سلجوق (٢٠ خاقان): ١٠٤٠ - ١٣٠٨ = ٢٦٨ سنة .
٨ - الايلخانيون (٢ خاقان) : ١٣٠٨ - ١٣٣٥ = ٢٧ سنة .
٩ - جغتاى (٧ خاقانات) : ١٣٣٥ - ١٣٧٠ = ٣٥ سنة .
١٠ - بنى تيمور (٣ خاقان) : ١٣٧٠ - ١٤٤٧ = ٧٧ سنة .
١١ - بنى عثمان (٣١ خاقان) : ١٤٤٧ - ١٩٢٢ = ٤٧٥ سنة .

كان الخاقانات حتى عام ٩٢٤ يدينون بدين كوك تنكرى أما الذين بعد هذا التاريخ فهم مسلمون سنيون حنفيون .

[الإستثناءات هى : ٢ خاقان خلال ٥٥٤ - ٥٨١ بوذيين ، الذين حكموا خلال ٧٤٧ - ٨٤٨ مانويين ، وخاقان واحد خلال ١٣٣٥ - ١٣٣٨ مسيحى أرثوزكسى] .

السلاجقة خلال ١١٥٧ - ١٣٠٨ ، هم سلاجقة تركية .

٣) السقه Saka (القرن ٧ - ٣ قبل الميلاد) .

إن أهم كيان سياسى كونه الأتراك قبل الفترة التاريخية ، أى قبل القرن ٣ ق .م ، هى الدولة التى أسسها السقه ، وهم الأتراك الذين نزحوا إلى الجنوب - الغربى ، نحو إيران والذين اختلطوا على نطاق واسع بالعناصر الإيرانية الآرية . ويطلق اليونانيون على هؤلاء القوم اسم « سكيت » Skit . إن هذه العائلة المالكة والعنصر الحاكم ، أتراك ، وهذه هى التجربة التاريخية التى حققها الأتراك لإدارة الآريين والأقوام الأخرى ، وجمعهم تحت رايتهم .

إن حاكم السقه الأكبر هو آلب – أر – نتغا الذى يسميه الإيرانيون أفراسياب هو أحد أجداد مته . ويحتمل أن يكون جده فى البطن العاشر . عاش فى القرن ٧ ق . م ، ولم ينس رغم مضى قرون طويلة ، جاء ذكره فى « ديوان لغات الترك » (القرن ١١) ، كما جاء فى « شاهنامة » الفردوسى ، فهو إذن لم ينس حتى الفترة الإسلامية ، لا من قبل الأتراك ولا من قبل خصومهم الإيرانيين .

دخل آلب – أر – نتغه صراعاً طويلاً جدا مع الإيرانيين . طارده شهنشاه إيران كيخسرو لغاية جبال الطاى ، وأخيرا قتله خصمه الشهنشاه فى اذربيجان عام ٤٢٦ ق . م . بدأ يتشتت اتحاد سقه أثر ذلك ، لكن ملوك سقه حكموا لعدة عصور أخرى وجاءت القبائل التركية من جماعة سقه إلى إيران ، قفقاسيا ، أوربا الشرقية ، البلقان وأخيرا إلى الأناضول ووضعوا فيها أول دم تركى . إن الامبراطورة توميريس (تقابل كلمة « دمير » التركية التى تعنى حديد) التى حاربت عام ٥٢٩ ق . م شهنشاه إيران الشرقية دارا الكبير ، هى ابنة حفيد آلب – أر – تونغه .

٤) الهون Hun (٢٦٥ق . م – ٢١٦ ب . م) .

يطلق الصينيون على سلالة أو قبيلة هون Hun اوكن Kun اسم هيونك – نو Hiung-nu ، ويحمل حكام الهون من سلالة آشينا وعشيرة توكو Tuku (من المرجح أن هذه الكلمة هى نفس كلمة « ترك ») لقب Tanhu التى تحورت فى اللغة الصينية إلى لفظ شانيو Sanyu . إن الاسم الخاقانى لخاقان الهون الذى يحمل هذا اللقب والذى يعنى « الإله كوكنتكرى الذى يمنح القداسة » ، هو ياكبو Yabgu ، وتعنى هذه الكلمة التى تعتبر أكبر لقب للحكم لدى أتراك أوغز ، فى فترة الهون : « خاقان ، الامبراطور التركى ، الامبراطور الكبير » .

تم تدوين اسم أول حاكم تركى فى التاريخ فى المصادر الصينية عام ١٧٦٦ ق . م . باسم جون – كوى çun-Goey وهو الذى يحتمل أن يكون جد مته فى البطن الـ ٥٠ . نظم كل من شانيو ابو تيؤمان (٢٦٥ – ٢٤٤ ق .م) وابنه تيؤمان (٢٤٤ – ٢٠٩) الهون ، وجعل ابن تيؤمان مته Mete (٢٠٩ – ١٧٤) من الامبراطورية دولة عالمية كبرى تمتد اعتبارا من الخزر إلى البحر اليابانى ، ومن جبال الهمالايا إلى سيبيريا فى آسيا الشمالية ووسّعها وجعلها تبلغ نحو ١٨ مليون كم[٢] . وقد أصبح من المؤكد بدرجة كبيرة فى الوقت الحاضر ، أن أصل أسمى

الحاكمين الذين يطلق عليهما اسمى تيؤمان ومته هو تومان Tuman وموتن Motun .

كان مته هو أول من أسس الجيش النظامى والوحدات على نظام العشرات ، حيث ينقسم الجيش الذى يتكون بأجمعه من الخيالة إلى أقسام مؤلفة من ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ شخص . يسمى القسم الكبير المؤلف من ١٠٠٠٠ شخص والذى يقوده الأمراء . Tumen ، وتستعمل هذه الكلمة فى الجيش التركى الحالى كذلك . يعظم الأتراك مته فيطلقون عليه لقب « أوغزخان » أى الخان الأعظم ، وتنحدر سلالة آشينا من أولاد مته الـ ٦ ومن الأبناء الأربعة لكل واحد منهم . ويعتبر الذين ينحدرون من قايى خان Kayi Han [الابن الأكبر لابنه الكبير وخلفه كونخان Gun Han (١٧٤ - ١٦٠] ، أشرفهم حيث ينحدر منهم بنو عثمان ، ويعتبر تنرى كوت وهو خان يابكو (٥٨ - ٥٦ + ٣٦ - ٣١) وأخوه تنرى كوت جيجى يابكو (٥٦ - ٣٦) وتنرى كوت يولو يابكو (٨٤ - ٨٩ ب . م) ، هم حكام الهون العظام .

٥) التابغاج Tabgac (٢١٦ - ٣٩٤) والآفار Avar (٣٩٤ - ٥٥٢) .

اعتلت عرش الخاقانية الكبرى بعد الهون ، سلالتا تابغاج ومن ثم آفار Apar الملكيتان . ويطلق الصينيون على التابغاج Sien- bi و T'o- Pa . وهم ينحدرون من سلالة أحد أمراء هون التى كونت فى البداية ملكية تابعة للهون ، ثم أخذت مكان الهون واصبحت تابعة للملكيات الهونية التى دامت عدة قرون أخرى ، وأشهر حكامهم هو رابعهم Lievi (سلطنته ٢٦١ - ٢٧٧ ب . م) الذى يقال إنه عاش ١٠٤ سنوات .

يقابل اسم آفار باللغة الصينية لفظ جوان - جوان وقد ترك الآفار لقب « يابكو » واستبدلوا به اسم « كغان » Kagan ، حيث استخدم الحكام العثمانيون هذا اللقب حتى عام ١٩٢٢ . واصبح « يابكو » بعد ذلك ، لقبا يتخذه ملوك الأتراك التابعون للكغان .

أعظم حكام الآفار هم الأول والسادس والثانى عشر واسماؤهم بالترتيب : طولن

Tolun (٣٩٤ - ٤١٠) ، جلك Guluk (٤٤٤ - ٤٦٤) وأونابوى Onaboy ، وكلهم كغان .

أخذت حدود الدولة التركية فى التقلص بعد مته ، فمثلا ، بقى الآفار بين بحيرة بالقاش والبحر اليابانى كالتابغاج ، حقيقة لقد حافظوا على تركستان الشرقية وبعض مناطق الصين الشمالية ، لكنهم لم يتمكنوا من الامتداد نحو الغرب ، إلى المناطق القريبة من أوربا وإلى بحر الخزر مثل الهون . وكنتيجة لعدم تمكنهم من بسط نفوذهم على القبائل التركية فى الغرب ، أخذ شأن المغول المقيمين فى شمال شرقى الأتراك يتعاظم وبدءوا يختلطون بالأتراك .

ومن المهم أن نذكر أن سد الصين الشهير الذى شيد فى تلك الأثناء ضد مته لم يمنع مته ولاخلافه فقد اخترقه الأتراك مئات المرات .

إن اسماء أكثر من ٣٠ ملكية وإمارة تركية فى أواسط آسيا وشمالها قبل الإسلام ، معلومه ، وبعض هذه الملكيات والامارات استمر قرونا طويلة تابعا للخاقانات الذين ينحدرون من السلالات السالف ذكرها .

٦) كوكترك Gokktrk (٥٥٢ - ٧٤٥) .

تنحدر سلالة كوكترك من مته ، وقد سميت فى البداية توسوكو Tusuku (يحتمل انها صيغة الجمع لكلمة ترك) ، ثم كوكترك Gokturk (Kokturk) . وبعد أن بقيت هذه السلالة وقبيلة كوكترك ٩٦ عاما فى البلاد التى تسمى « ارغنكون » Ergenkon ، خرجت منها في ٥٣٥ ، وأخذ رئيسهم بومين Bumin اللقب الامبراطورى كغان Kagân أو هغان Hgan . وصنعوا الحديد من منجم كبير في ارغنكون ودججوا أنفسهم بالسلاح بصورة متقنة وكسروا الآفار واحتلوا مكانهم . ثم تمكن بومين من التنسيق والعمل مع اخيه استمى Istemi ، فقضى على الآفارين عام ٥٥٢ وحصل على لقب الخاقان الأكبر (بيوك - خاقان) .

حتى ذلك التاريخ كانت تطلق على القبائل التركية التى تنطق باللغة التركية ، أسماء مختلفة ، ولكن بعد أن حصل أتراك كوكترك على الشهرة وأمنوا الوحدة ، أطلق اسم ترك على كافة الأقوام الناطقة بالتركية . وكلمة كوك Kok,gok تعنى باللغة التركية « سماء ، سماوى (أزرق ، أزرق - أملح) ومن المهم أن نشير

إلى أن كلمة كوك ترك Gokturk ، وتعنى « الأتراك السماويين » قد تم استخدامها على سبيل ادعاء العظمة ؛ ذلك أن الأتراك الذين دخلوا ارغنكون كقبيلة هونية خافتة الذكر تعاظم شأنهم فيها خلال قرن وخرجوا منها على شكل كوكترك . كما أنهم اخضعوا كافة القبائل التركية وفتحوا شمال آسيا ، واستطاعوا لأول مرة بعد متة ، أن يدركوا الحدود التى أدركها .

ولدخول هؤلاء إلى إيران واجتياحهم أوربا الشرقية ، وفتحهم قرم فى العام الأخير من حكم استمى كغان Istemi Kagan فى ٥٧٦ ، (بذلك يكونون قد اجتازوا حتى الحدود التى ادركها متة) ، فإن المؤرخين يعتبرون أنهم الأجداد الأصليون للعثمانيين والطليعة المبشرة لهم . وقد استعمل كثير من المؤرخين الأوربيين الحديثين تعبير « من أتراك كوكترك إلى العثمانيين » .

واتوكن Otuken هى مدينة عرش أتراك كوكترك الذين يدينون بدين كوكتنرى ، وهى على مسافة ٦٠ كم من شمال قره قورم Karakurum مدينة عرش جنكيز ، وتقع بين نهرى أورهون وسلنكه (Tamir) فى شمال مغلستان الحالية وقرب بحيرة كوشو جايدا (٣٠ / ٤٧ درجة عرض و٣٠ / ٩٧ درجة طول) ، وقد أطلق على أباطرتهم لقب (كغان) كالآفاريين ، ثم اصبحت هذه الكلمة تتلق منذ عهد أتراك كوكترك بلفظ هكان Hagan ويوجد « كغانان » منفصلان أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب ، والمقيم منهما فى اوتكن هو كغان الشرق ، وهو الخاقان – الأكبر ويتبعه كغان الغرب .

ولعل أهم الأسماء بين خاقانات وأمراء كوكترك هم : Bumin Kagan (وفاته ٥٥٣) ، أخوه Istemi Kagan (وفاته ٥٧٦) ، Mukan Kagan (وفاته ٥٧٦) ، Bilge Tardu Kagan (وفاته ٦٠٣) ، TOng Yabu Kagan (وفاته ٦٣٠) ، Kur Sad (وفاته ٦٩٣) ، Ilteris Kulug Kagan (وفاته ٩٦٣) ، Bulankagan (وفاته ٦٤٠) ، Bilge Tonyukuk (وفاته ٧٢٥) ، Kapgan Kagan (وفاته ٧١٦) ، Kul Tegin (وفاته ٧٣١) ، Bilge Kagan (وفاته ٧٣٤) ، ومؤلف كتابات أورهون الداهية Yulig Tegin (وفاته ٧٣٥) .

وبينما انشغل أتراك كوكترك الشرقيون بالصين ، استمر أتراك كوكترك الغربيون

فى صراعهم الطورانى - الإيرانى القديم مع إيران الساسانية . وقد سعوا فى مناسبات كثيرة إلى تحسين علاقاتهم مع البيزنط (روما الشرقية) لمواجهة إيران . وبلغ حد العلاقات الودية أن تبادل استمى كغان السفراء مع معاصره جوستينيان الكبير (Justinianus) . وقد بدأ العرب المسلمون فى عهد الأمويين فى نهاية القرن ٧ وبداية القرن ٨ فى فتح بلاد ماوراء النهر فى تركستان الغربية . (أراضى أتراك كوكترك الغربيين) . حيث جرت حروب عربية - تركية طاحنة استمرت سنوات صعاب ، وفى غضون هذه الحروب اهتدى إلى الإسلام أتراك كثيرون ، ومنذ ذلك الحين أخذ المسلمون الأوائل من الأتراك فى الظهور . وبالرغم من أن المسلمين احتلوا سمرقند وبخارى أيضا ، فإنهم لم يتمكنوا من التقدم إلى أبعد من ذلك بسبب المصاعب الجغرافية التى واجهتهم . وقد زالت إثر ذلك ، العداوة التركية - العربية ، حيث قبلت قبيلة كارلك Karluk التركية الدخول فى الإسلام .

وفى عام ٧٥١ ، حاصر الصينيون الذين ساروا بجيش عرمرم ، القائد الأعلى العربى زياد بن صالح فى Talas ، وفور أن علم خاقان كوكترك الغربية ذلك ادرك جيش كوتلغ بلكه كغان وأخذ الكوكترك اماكنهم فى صفوف العرب المسلمين ضد الصينيين أعدائهم التقليديين ، فمنى الصينيون بهزيمة كبرى ، وقد لقيت هذه المساندة من الأتراك ، الذين اهتدوا حديثا إلى الإسلام ، امتنانا كبيرا من العباسيين الذين تسلموا الحكم حديثا ، والذين لم يكونوا متعصبين للعنصر العربى كالأمويين ، وبدأ التقارب التركى - العربى ، وأمتلأت بغداد بالأتراك المسلمين الذين وفدوا إليها للانخراط فى جيش الخليفة .

فتح طونغ - يابكو كغان ، رى (طهران) واصفهان من إيران عام ٦٢٠ وأضعف الشهنشاهية الإيرانية فى الصميم . وبذلك سهل على العرب المسلمين فتح إيران بعد ٢٠ عاماً ، ولولا ذلك لكان فى استطاعة إيران المقتدرة أن تقاوم المسلمين كالبيزنطيين ، ولولا ذلك أيضا لاستمر المسلمون عاجزين عن اقتحام السد الإيرانى ، ولتبدل عندئذ سير التاريخ .

٧) أتراك أويغر Uygur (٧٤٥ - ٨٤٠)

احتل دوقوز - اوغز - اون - اويغولر (وباختصار ايغرلر Uygurlar) ، مكان كوكترك كفرع من سلالتهم ، من أهم حكامهم Moyuncur Kagan (٧٤٧ -

٧٥٩) وابنه Bogu Kagan (٧٥٩ – ٧٨٠) . ترك مويتجر وخلفاؤه ديانة كوك تنرى ودخلوا الديانة المانوية Mani . ولعل هذا مما قد تسبب خلال نسلين فى اضمحلالهم وفقدان الاويغريين لقوتهم القتالية . كانت مدينة عرشهم قره بالاساغون ، المجاورة لاوتوكن Otugen .

طرد أتراك قيرغز الوحشيين القادمين من الشمال ، والاويغريين من غابات أوتوكن . ترك Uge Kagan (وطن الأتراك الذين يرجع تاريخه إلى ألف سنة) بعد أن أستصحب معه الأكثرية العظمى من الأتراك . وبقيت مغلستان الحالية مدة لدى أتراك قيرغز . وقد تنازعت القبائل مع بعضها بسبب عدم وجود كغان على رأسهم يستمد القداسة (قوت آلمش) من سلالة مته الملكية ، ولكونهم قلة من ناحية أخرى . دفع المغل القادمون من غابات الشمال ، أتراك قيرغز نحو الجنوب – الغربى وحازوا على الأكثرية فى مغلستان الحالية ، على أنه ينبغى ألا تعتقد أن جميع الأتراك اخلوا مغلستان (بلاد المغل) . إذ من المعروف بشكل لامجال للشك فيه ، انه حتى فى القرن ١٣ على عهد جنكيز ، كانت أكثر القبائل التركية الموجودة فى البلاد تنطق باللغة التركية .

أصبح التاج الخاقانى التركى الكبير بعد عام ٨٤٠ موضع نزاع بين أتراك أويغر ، قرلوق وقره خان الذين يترأسهم جمعيا كغانات من سلالة مته ، والصحيح الذى يجب ألا يفوت علينا أن الكغان القره خانى يعتبر أكبر حاكم تركى بعد عام ٨٤٠ .

جاء الاويغريون الذين كانوا يعيشون على الأغلب فى شمال تركستان الشرقية فى المنطقة المتاخمة لمغلستان ، إلى تركستان الحالية . تركوا الديانة المانوية وتقبلوا البوذية . وعندما أزاح الكيتان ، وهم قبيلة مغولية ، أتراك قيرغز من مغلستان الحالية ، راجعوا كغان أويغر المقيم فى قره هوجو ، وطلبوا إليه أن يقدم إلى أوتوكن مرة أخرى ويصبح خاقاناً عليهم ، وفى هذا دليل على عدم اطاعة المغل للحكام الذين لاينحدرون من نسل مته ، لكن الأويغريون المستقرين فى هذه المنطقة والذين انتقلوا إلى حضارة متأثرة بالبوذية والذين ابتعدوا عن تقاليد اوتكن لم يقبلوا الدعوة إلى الهجرة .

وقد أخذت ملكيات الأويغريين ، الذين كونوا حضارة وثقافة لامعة ، تتقلص ، بعد أن دامت دولتهم التابعة لخاقانات الترك والمغول حتى عهد قريب جدا من

عام ١٤٠٠ . ويشكلون حاليا الأكثرية الكبرى من أتراك تركستان الشرقية . أما الأويغريون الصفر (صارى أويغرلر) فهم الأويغريون الذين قطنوا ايالة قانصو الصينية واعتنقوا البوذية وإن كانوا لايزالون يتكلمون التركية .

إن جميع الأويغريون الموجودين فى تركستان الشرقية حاليا ، مسلمون سنيون – حنفيون – استعملوا أحرف الهجاء العربية فى القرون الأخيرة . نسوا حاليا أحرف كتاباتهم . وتركوا الأحرف الهجائية لكوكترك واستعملوا ونشروا الأحرف الأويغرية . وعلى الرغم من استخدام أحرف الهجاء العربية فى القرن ١٠ ، عاشت الأحرف الأويغرية حتى القرن ١٥ ، وفى القرن ١٥ ، كانت لاتزال تستعمل فى القطر العثمانى . أما الأويغريون الصفر ، فإنهم استعملوا هذه الأحرف حتى العصر ١٧ ، ثم استخدموا فى هذا العصرالكتابة الصينية . أما أماكن سكن الأويغريين الصفر فى قانصو حاليا ، فهى سوجوف وكاجوف . (عثر العالم الروسى مالوف Malov فى بداية عصرنا الحالى ، على أحد كتب اللغة التركية القديمة التى لاتموت Altun - Yaruk Sutra لدى الأويغريين الصفر) .

ان كوجلغ خان Kuelug Han الذى كون امبراطورية خلال ١٢١١ – ١٢١٨ وقوضت امبراطوريته من قبل جنكيز ، هو حاكم قبيلة نايمان التركية ومن نسل خاقانات أويغر . وقبيلة Kereyit التركية المسيحية النسطورية والتى قضى عليها فى القرن ١٣ من قبل جنكيز أيضا ، تستحق الذكر كذلك .

٨) خاقانية هون الأوربية :

لما لم تتمكن السلالة الهونية من الحفاظ على عرشها وانتقل العرش إلى تابغاج ، جاء بالامر Balamir حفيد مته فى البطن ١٥ وجيجى يابكو فى البطن ٩ من آسيا الوسطى خلال ٣٥٥ – ٣٦٥ مع فريق من القبائل الهونية ، واستوطن فى الوطن الأعلى (بين الخزر وآرال) ، وفى ٣٧٤ ، انتقل منها إلى ضفة نهر أورال ودخل أوربا ، وقضى على دولة غوت Got الشرقية فانتحر ملكها Ermanarih ، ثم جاء فى العام التالى إلى ضفة دنيبر (أوكرانيا) وأغار على آتانارين ملك غوت الغربية (Vizigot) ولم يشأ أتانارين أن تصبه عاقبة سلفه فأخذ شعبه وانسحب إلى أسبانيا ونجا من الهلاك . وهكذا بدأت « هجرة الأقوام

الكبرى » فى أوربا . ساق Balamir كافة الأقوام الآرية والأقوام الجرمانية والسلافية أمامه إلى أوربا ، وبذلك تكونت الجغرافية العرقية الحالية لأوربا ، واضمحلت امبراطورية روما الغربية كذلك نتيجة الهجرة ، وانتهت القرون الأولى وبدأت القرون الوسطى (٤٧٦) .

أجتاز بالأمر خاقان نهر الطونة (الدانوب) ودخل تراقيا . وعبر جيشه الآخر نهر الدون وجبال القفقاس ودخل إلى الأناضول . حقق هذا الجيش الذى يقوده الأمير Basik والأمير Kursik حملات ارضروم - ملاطية - أورفه - انطاكية - قدس ، وعاد إلى شمال البحر الأسود مجتازا القفقاس عن طريق فلسطين - لبنان - سوريا - الأناضول الوسطى والشرقية - اذربيجان الشمالية . تمكن ابنه اولدز Uldiz (بالتعبير التركى الحالى : يلدز وتعنى كوكب) (٤٠٠ - ٤١٠) ، من اكساب حركات ابيه العسكرية نطاقا عالميا ، فقد اباد جيش التحالف الذى تشكله الأقوام الجرمانية فى واقعة Friesole الميدانية فى جنوب فلورنسا فى آب ٤٠٦ وخاص روما . ولم تتمكن الأقوام البربرية من الاستقرار فى أوربا الوسطى لمطاردات Uldiz وبدءوا بالنزوح إلى أوربا الغربية وسكنوها . عبروا الراين وانسحبوا من أمام الهون (واندال ، آلان ، كلت ، سواب ، سرمات الخ) . وقد وحد أولدز خاقان كلاً من آسيا وأوربا تحت حكمه اعتبارا من قوزاقستان إلى الراين ، وجاء روا Rua (٤٢٢ - ٤٣٤) فطوّر هذا الوضع . لكن الذى أقام أوربا واقعدها حقا ، هو ابن حفيد اولدز آتيلا Attila (٤٣٤ - ٤٥٣) ، ذلك أنه عندما اعتلى آتيلا (الذى حصل فى شبابه على ثقافة كلاسيكية فى سراى روما وهو ضيف الامبراطور) العرش ، سيطر على معظم أوربا اعتبارا من قوزاقستان ، قفقاسيا والأورال ووصل إلى حدود بحار المانش والبلطيق والادرياتيكى ، كما فتح كامل ألمانيا ، معظم البلقان ، شمال إيطاليا ، شرق فرنسا وجنوب السويد ، وفرض الجزية السنوية على امبراطوريتى الرومان شرقا وغربا ، ووصل إلى منطقة قريبة من استانبول . وكانت مدينة عرشه فى المجر الحالية . مات آتيلا فجأة وعمره ٥٣ سنة فى عام ٤٥٣ ، قبل فتح البيزنطية (استانبول) بـ ١٠٠٠ عام اثناء إعداده حملة على الامبراطورية الإيرانية الساسانية ، ثم تبعثرت امبراطوريته بعد مدة ، إذ أن الهون الذين جلبهم من آسيا كانوا من القلة بحيث لايمكنهم السيطرة على اقطار واسعة إلى هذا الحد .

(٩) الآفاريون Avar (٥٦٥ - ٨٣٥) :

وفى هذه المرة ، طرد الكوكترك السلالة الآفارية من عرش الخاقانية - الكبرى في شمال آسيا ، تقدمت السيدة كغان من أميرات آفار ومن خلفها بعض القبائل الآفارية إلى أوربا وبدأت بالفتوحات (٥٦٥ - ٦٠٢) بدعوى احياء امبراطورية آتيلا . لكنها لم تتمكن من التوصل إلى حدود خانية الهون الأوربية وبقيت على مسافة بعيدة منها . سيطرت على أوكرانيا ، رومانيا ، بلغاريا والمجر الحالية ، غير أنه تعذر الحفاظ حتى على تلك الحدود بعد وفاة السيدة ، ورغم محاصرة الآفاريين كل من سلانيك واستانبول مرتين ، فإنهم لم يتمكنوا من اسقاط هاتين المدينتين البيزنطيتين ، وإن كانوا قد تسببوا فى سلافية شبه جزيرة البلقان على نطاق واسع نتيجة جلبهم السلاف إلى البلقان .

(١٠) خاقانية الخزر HAZAR (٦٢٠ - ٩٦٢)

تقدم Bulan اخو فاتح ايران كغان كوكترك الغربيه تونغ - يابَغو نحو عام ٦٢٠ على رأس بعض القبائل التركيه وفتح شمال البحر الاسود . كن حكام هذه الدولة يحملون لقب « كغان » كحكام أوربا الآفاريين . لم يتمكن الآفاريون من الحفاظ على ديانة كوكترك مدة طويلة ، فقد أصبح قسم منهم موسويا ، وقسم مسيحيا أرثوذكسيا والقسم الآخر مسلماً . ويعتقد ان يهود اوكرانيا الحاليين ، هم أحفاد أتراك الخزر الذين اعتنقوا الديانة الموسوية . اتفق الخزريون مع البيزنطيين ، وأرادوا وقف العرب المسلمين ، إلا أن الخليفة الأموى مروان بن محمد طارد الخزريين حتى دلتا نهر الفولتا بجيش إسلامى مكون من ١٥٠,٠٠٠ شخص فى ٧٣٧ . وفى نفس الوقت حاول القائد الخزرى المسمى آست تارخان الرد عليه بجيش مؤلف من ١٠٠,٠٠٠ شخص حتى شمال الأناضول عام ٧٦٥ . كانت قرم فى ذلك الوقت تابعة للامبراطورية الخزرية . لكن قاعدتها كانت على الفولغا ، وفى النهاية ، قضى النورمان الذين جاءوا من الشمال على الدولة الخزرية .

(١١) البلغـار Bulgar (٥٨٤ - ١٠١)

ترأس كبرات (Kurt)(Kubrat) خان ، وهو ابن حفيد آتيلا - قبيلتى Uturgur و Kuturgur التركيتين التابعتين للخزريين بعد توحيدهما فى عام ٥٨٤ . سميت

القبيلتان ، بعد توحيدهما ، باسم « بلغار » وهى كلمة تركية . كانوا يعيشون فى شمال شرق القفقاس . ساق كبرات ، قبيلة بلغار على امتدار شمال البحر الاسود (اوكرانيا الحالية) ، ومن هناك إلى سهل المجر . حيث تفرقوا إلى ثلاثة أطراف رئيسية : أهمها أولئك الذين ذهبوا إلى سواحل الفولغا بقيادة كوتراغ Kotrag خان اوسط ابناء كبرات الخمسة حيث نزلوا إلى الطونة مع مؤسسى خانية بلغار فى فولغا فى تاتارستان (قازان) الحالية ، تحت إدارة Asparuh اصغر ابناء كبرات واستوطنوا بلغاريا الحالية . وقد تطورت هذه الأخيرة خلال مدة قصيرة واصبحت خاقانية (امبراطورية) . وبينما أرادت الأمبراطورية البيزنطية قلع وازاحة البلغار الذين جاءوا إلى دلتا الطونة بضغط الخزريين قبل ٦٥٩ ، إلا أنها انهزمت فى ٦٥٩ .

وفى ٦٨١ ، انفصلت المنطقة الواقعة بين نهر الدونه وجبال البلقان عن البيزنط وانتقلت إلى الاتراك البلغار . واستمر النزاع بعد هذا التاريخ ، بين هذه الدولة والبيزنط لقرون طويلة حول السيطرة على البلقان .

كانت الحدود القصوى للدولة هى بلغاريا الحالية ، دوبروجه ، افلاق (اولاهيا / رومانيا الجنوبية) ، مكدونيا الشمالية ، صربيا .

اباد كورم Kurum خان مع الامبراطور Nikehoros الجيش البيزنطى فى الحرب الميدانية Vribiski (٨١١/٧/٢٢) . وهذه هى الحادثة الأولى التى فقد فيها امبراطور بيزنطى حياته . حاصر Kurum استانبول ، لكنه مات خلال الحصار وفك الحصار . كانت قاعدة الدولة Pliska قرب شومنو ، نقلت فى ٨٠٩ إلى صوفيا .

ترك بوغورس Bogoris (بالتركية الحالية : Pars وتعنى نمر ارقط ، وقد حورت بالسلافية على شكل "Boris") ديانة كوكتنرى التى هى ديانة اجداده وغلبته الدعاية الثقافية لألد اعدائه البيزنط ، وصار مسيحيا أرثوذكسيا ، وأسفر ذلك عن زوال اتراك بلغار ، وخلال عصر واحد انصهر اتراك بلغار وهم أقلية اساسا رغم انهم زمرة حاكمة وأصبحوا سلافيين وأخذوا يتكلمون بدلا من التركية ، لهجة سلافيه هى اساس اللغة البلغارية الحالية ، واهملت كذلك ابجدية كوكترك واستخدمت الابجدية السلافية (Kiril) . ترك Simeon خان ، لقب « خان » التركى واتخذ لنفسه لقب « جار » Car (امبراطور) السلافى بصورة رسمية . اعتبارا من هذا الوقت خرج التاريخ البلغارى عن كونه قطعة من التاريخ التركى ،

على الرغم من ان الحكام البلغار ، كانوا حتى ١٣٩٣ ، شخصيات تطبعت على السلافية من السلالة التركية . لم يجلس على العرش البلغارى أى شخص من السلالة السلافية .

(١٢) المجريــون

كانت قبيلة مجر التى تتكون من ٦ عشائر تركية وواحدة فينية Fin تعيش تابعة لكوكترك فى شمال (اوفا Ufa) التابعة لباشكردستان الحاليه ، على السفوح الغربية من جبال الأورال . اصبحت القبيلة تابعة لخاقانية الخزر فى القرن ٩ ، وفى عام ٨٣٠ ، نزلت إلى شمال بحر آزوف (آزاك) إلى المنطقة المسماة ليفاديا Levadya الواقعة بين نهرى الدون الدنيبر . وتحت الضغط الذى مارسته قبيلة بجنك Peçenek التركية فى عام ٨٨٩ ، خرجت قبيلة مجر منها واستوطنوا فى ٨٩٦ فى وطنهم الحالى الكائن فى السهل المجرى فى حوض نهر الطونه .

رئيسهم المسمى Arpad (بالتركية : آرباجك) خان ، من احفاد آتيلا . امدت سلالته المجر بالملوك حتى ١٣٠١ . وقد حققوا خلال القرن ١٠ حملات كبيرة عبارة عن : ٢٠ حملة على المانيا ، ٧ على إيطاليا ، وحملة على هولندا ، ٤ على فرنسا ، ٩ على البيزنط وحمله واحدة على أسبانيا . وفى عام ١٠٠٠ ، تركوا ديانة كوكتنرى وأصبحوا مسيحيين كاثوليك . نسوا التركية وبدءوا يتكلمون المجرية الحالية التى هى إحدى اللغات الفينية . واستخدموا الابجدية اللاتينية مكان ابجدية كوكترك .

(١٣) البجنك Peçenek (٨٨٩ - ١٠٩١)

البجنك ، هى إحدى القبائل الـ ١٢ التى تشكل فرع أوج اوق (وتعنى الأسهم الثلاثة) الاوغزى . كانت البجنك عبارة عن قبيلة تبلغ تعدادها حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة تابعة لخاقانية كوكترك فى بداية القرن ٨ ، تزايد عددهم بدرجة كبيرة فيما بعد وكونوا مع القبائل التركية الأخرى احلافاً بلغ تعدادها عدة ملايين . لكنهم لعدم وجود من يترأسهم من نسل سلالة مته كانوا ينتخبون اقدر رؤساء القبائل ، الا أن هؤلاء الرؤساء لوصولهم إلى هذا المنصب بالانتخاب ولعدم تمتعهم بماركة كوكتنرى فانهم كانوا يعانون صعوبة فى تأمين الوحدة . اخرجتهم من ديارهم قبيلة

قارلق Karluk عام ٧٥١ ، بينما كانوا يسكنون فى اطراف بحيرة بالقاش . جاءوا اولا ، إلى شمال غربى بحيرة آرال ، ثم إلى شمال شرق بحر الخزر ، ولم يتمكنوا من الاستقرار هنا ، كذلك بسبب ضغوط قبائل اوغز الاخرى . عبروا نهر اورال (بالتركية : Idil) . وفى ٨٨٩ تقدموا نحو الجنوب - الغربى ووصلوا سواحل نهر الدون (بالتركية : Ten) وساقوا المجريين الموجودين فيها إلى بلاد المجر (مجرستان) وساعدوهم فى استيطانها وتكوين وطن لهم فيها . واعقبهم الغوز Guz الذين استمروا فى دفع البجنك نحو الغرب ، والكومان Kuman الذين دفعوا بهؤلاء من خلفهم ، والقيبجاق Kipçak الذين ساقوا هؤلاء من اقصى الشرق ، وفى النهاية خلف الكيم Kim هؤلاء ايضا . كانت هذه القبائل التركية ، تدفع إحداها الأخرى وتسوقها نحو أوربا .

تبع البجنك خاقانية الخزر حتى ٩٥٠ ، وفى ٩٧٢ ، أبادوا الجيش الروسى مع أميرهم الكبير Svyatoslav فى سواحل دنيبر . وظفروا بغرب البحر الاسود وبدءوا بتهديد البلقان والبيزنط . وفى ١٠٢٠ ، اجتازوا الطونة نحو الجنوب للمرة الأولى . وفى ١٠٥٠ ، وصلوا إلى سواحل بحر مرمره ، وفى ١٠٦٤ وصلوا إلى سلانيك ومورا . كثير منهم سجلوا أنفسهم فى الجيش البيزنطى . وعند بدء حرب ملازغرت Malazgirt الميدانية فى ١٠٧١ ، انضمت وحدة بجنك الموجودة فى الجيش البيزنطى إلى صفوف الجيش السلجوق الذى يقوده ألب ارسلان لتكلمهم اللغة ذاتها ، رغم أن هذه الوحدة كانت تدين بدين كوك تنرى بينما الجيش السلجوق مسلم . انمحى اسمهم فى القرن ١٢ ، وانصهر الكومان - قيبجاق ، فى المجريين والسلاف . وتركوا أسماء أماكن جغرافية كثيرة فى أوكرانيا ، المجر ، رومانيا ، البلقان والأناضول بقيت مستعملة حتى الآن كذكرى لهم .

(١٤) الكومـــان Kuman (١٠٥٠ - ١١٠٣)

اسم هذه القبيلة التركية ، هو نفس كلمة « كومرال » التى تعنى باللغة التركية « اشقر غامق » . ويعتقد انهم من القبائل التركية التى كانت تعيش فى اقصى الشرق ، فى شمال منشوريا على سواحل آمور خلال القرن ٥ - ٨ . وبعد عام ٨٤٠ ، انتقلوا إلى آسيا الوسطى . وبعد الضغط الذى مارسه القره هيتاى المغل فى ١٠١٧ ، تركوا

تلك المنطقة وعبروا نهرى أورال (بالتركية : Idil) وفولغا (بالتركية : Yayik) وجاءوا إلى اوروبا . وامتدوا لغاية الطونة . وفى ١٠٩١ ، ملئوا الأماكن التى فرغت من البجنك . حاربوا الروس حروبا عدة أشهرها التى أسر فيها كونجك Konçek خان ، امير Novgorod ايكور Igor فى شباط عام ١١٨٥ ، وتشكل هذه الحرب موضوع الملحمة الوطنية الروسية Prens Igor Destani (بالروسية : Slavoo Polku Igoreve) وهى من روائع الأدب الروسى . وأصبحت موضوعا لاوبريت الاميرايغور التى لحنها الملحن Borodin . ولقد دخلت رقصات بولوفج Poloveç (كومان) بين روائع الموسيقى الغربية .

(١٥) القبجاق Kipçak (١١٠٣ - ١٢٢٣)

قبجاق ، هو وطن القبائل التركية ، كان وقتئذ حوض نهر ارتش فى سهل سيبيريا . نزلوا إلى الجنوب الغربى بضغط من قبيلة Kimek التركية نحو ١٠٣٠ ثم ساقوا قبائل اوغز التى كانت امامهم ودخلوا أوربا . وأخذوا مكان الكومان وانصاع لامرهم الكومان والبجنك الذين تطبعوا على السلافية . وكان ضعف هؤلاء الاكبر يتمثل فى أنه ليس لديهم رئيس من سلالة مته . وقد ابادهم باطوخان جفيد جنكيزخان مع تابعيهم الأمراء الروس فى ٣١ ايار ١٢٢٣ فى حوض نهر حلقه Halka ، واصبحوا تابعين لخاقانية الطون اوردى . اكتسبوا الدم المغلى ، لكنهم جعلوا المغل فى النهاية « يستتركون » ويتكلمون اللغة التركية . أطلق الكتاب العرب المسلمين ، اعتبارا من عهد القيبجاق ، على أوكرانيا الحالية دشت قيبجاق / سهل قيبجاق .

من المعلوم أن معظم سلاطين السلطنة المملوكية التى تأسست فى مصر - سورية عام ١٢٥٠ اتراك قبجاق وقسم منهم اوغز وكومان . صنف كثير من المؤلفين العرب فى تلك الآونة كتبا لتعليم اللهجة القبجاقية التركية للعرب لاستعمالها فى مصر خاطئة . ومنها ، كتاب الادراك للسان الأتراك ، وكتاب ترجمان تركى وعربى ، وكتاب القوانين الكلية فى ضبط اللغة التركية ، وكتاب المشتاق فى لغة الترك والقبجاق .

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن أشراف الرومان الذين يطلق عليهم اسم « بويار » ،

وكثير من اشراف الأوكران والمجر وعائلاتهم المشهورة ، من أصل أتراك كومان أو قبجاق وشجرة عائلاتهم معلومة بشكل لايقبل الشك . وأساسا فإن أسماء عائلاتهم أسماء تركية ويبلغ عدد هذه العائلات من الشرفاء الأتراك المئات .

وقد عثر علماء الآثار الروس فى الحفريات ، خاصة تلك التى جرت فى أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٩ ، على آثار ثقافية وجماجم للكومان والقبجاق ، واثبتت الفحوصات الانتروبولوجية لهذه الجماجم – التى تمثل هيئة الشخص التركيى قبل اختلاطه بالمغل وتشكيله نوعية أتراك الشمال الحالية – بأنها خالية بصورة قطعية من أى أثر من آثار الهيئة المغلية كمشق العين وبروز الوجنة وشكل الأنف . وتثبت الأدلة التاريخية أن بشرتهم ناصعة البياض ولون شعرهم اشقر فاتح ، كما عثر العلماء المجريون فى عام ١٩١٣ على آخر شخص كومانى مسيحى (كاثوليكى) لم ينس التركية ، وقد أصبح هذا الشخص موضوعا لفحوصات طويلة الأمد للعلماء المجريين . كان الكومان – قبجاق ، مع كونهم مسيحيين ، لايزالون ينطقون بالتركية بصورة عامة فى القرن ١٦ الذى فتح فيه العثمانيون المجر .

(١٦) الأدب التركى قبل الإسلام

يقال إن بعض الاشارات الموجودة على قبر « الرجل ذو اللباس الذهبى » (القرن ٥ ق .م) هى الشكل البدائى لأبجدية كوك ترك . ويرجع الهيكل العظمى الذى سماه علماء الآثار « الرجل ذو اللباس الذهبى » إلى أمير تركى أخرجه الروس مؤخرا من قبر يقع على بعد ٥٠ كم عن قبر آلما آتا الموجود فى كازخستان . وهو هيكل عظمى مكسو بزينة ذهبية لرجل شاب ، والحروف التى يدعى أنها تركية ، منقوشة على الصحن الفضى الموجود بجانبه .

يطلق على أول كتابات تركية جدية اسم « كتابات ينسى » Yenisey Kitabeleri وقد عثر عليها بكثرة فى شمال جبال الطاى وكلها تقريبا كتابات حجرية قصيرة ، يعود أقدمها إلى القرن الميلادى ٥ ، وقد كتبت بلهجة كوك ترك وبأبجدية كوك ترك .

ومع ان أبجدية كوكترك قاصرة من ناحية الأحرف الصوتية بالنسبة للتركية (لها ٤ أحرف صوتية بينما التركية تحتوى على ٨ أحرف صوتية ، وإن كان المستعمل

فى التركية التى تكتب بالأحرف العربية ٣ أحرف صوتية فقط) إلا أنها أبجدية غنية تحتوى على ٣٨ حرفا . يقول عالم اللغة التركية المجرى Rasonyi عن هذه الأبجدية مايلى : « إن نظام كتابة كوكترك ذات أهمية كبرى من الناحية الصوتية (اللفظية) Phonetic ولايمكن أن يضع هذا النظام إلا أشخاص يفكرون بعقلية علمية . وفى هذا دليل واضح على أن للأتراك القدامى ثقافة راقية » .

يبرز أمامنا النتاج الأول فى الأدب التركى الذى يمكن أن يقال عنه إنه أدبى بما تعنيه هذه الكلمة من معنى كنتاج مبدع فريد . وهو لايزال حتى الآن من أبدع الآثار الكتابية المحررة فى اللغة التركية فى جميع الأزمنة . كتب هذا النتاج على ٣ قطع حجرية يبلغ ارتفاع كل منها ٣/٧٥ متر - تسمى كتابات كوكترك أو كتابات أورهن .

لم يتمكن أحد خلال سنوات طويلة من قراءة هذه الكتابات ، وفى النهاية تمكن رئيس أكاديمية العلوم الدنماركية العالم فى اللغة التركية Wilhelm Ludvig Pefer Thomsen (١٨٤٢ - ١٩٢٧) من حل أبجدية كوكترك عام ١٨٩٣ فقرئت وترجمت ثم نشرت . ثبتّ ثومسن أولا كلمات « تنكرى » (Tonri إله) ، « ترك » و« كل تكين » Kul Tegin التى تتكرر بكثره ، ثم تمكن من حل جميع الأبجدية ، وتعد قراءة نصب كوكترك مرحلة جديدة فى تاريخ علم الآداب التركية . يسرد فى هذا النصب خدمات خاقانات كوكترك بلغة نثرية متينة جدا مؤثرة جدا ومحكمة وبتعبير ملحمى قصصى وبنظرة وطنية لاتكاد تصدق بالنسبة لذلك العصر . أما القطع الشعرية للفترة غير الإسلامية التى توفرت فقد جمعها رشيد رحمتى آرات فى مجلد كبير باسم Eski Türk Siiri أى الشعر التركى القديم (انقرة ١٩٦٥) .

أما القطع الأدبية التركية التى عثر عليها فى تركستان الشرقية (تركستان الصين) والتى تعود للعهد الأويغرى ، فتبلغ المئات ، ولم تغد تقتصر على الكتابات الحجرية ، فهى مكتوبة على الورق أو مطبوعة ، حيث أن أتراك أويغر ، هم مكتشفو أو مطورو الورق والطباعة .

استعملوا كذلك فى طباعتهم الأحرف المتحركة والتى تبين أنهم تقدموا فى طريقة الطباعة بالكلائش الخشبية التى استعملها الصينيون . وقد انتشر الورق الذى صنعه الأويغريون فى العالم الإسلامى عن طريق سمرقند واحتل مكان الجلود الحيوانية .

ترك الأويغريون ، الذين هم فى ذات الوقت أساتذة كبار فى فن نحت التماثيل والرسم ، ابجدية كوكترك ، واستعملوا الابجدية التركية الاخرى التى تسمى الأبجدية الأويغرية . وهى الأبجدية الثانية التى استعملها الأتراك قبل استعمالهم الأحرف العربية .

(١٧) الأتراك فى الهند

أسس الأتراك قبل الإسلام امبرطوريتين فى الهند . دولة كشان Kusan (٣ - ١٧٦ ب.م) ودولة آقهون Akhun (٤٩٦ - ٥٦٧ ب.م) كانت الدولة الثانية أكثر اتساعا وتسيطر ، بالإضافة إلى شمال شرقى الهند ووادى الكنج ، على تركستان كذلك . وهم أقوام شمال آسيا الذين نزلوا إلى الجنوب بقيادة قسم من امراء الهون عند فقدان الآقهون والهون عرش الخاقانية التركية الكبرى فى شمال آسيا . قائدهم الشهير هو توراماان Toraman .

(١٨) الأتراك فى الصين

الصينيون ، هم الجار الكبير للأتراك قبل الإسلام . ويمكننا أن نقول ببعض المبالغة ، إن التاريخ العسكرى - السياسى التركى قبل الإسلام ، عبارة عن صدام تركى - صينى ؛ فالأتراك الرّحل المنظمون جدا من الناحية العسكرية والمجهزون بأسلحة معدنية وخيالة متفوقة ، أزعجوا الصين من الشمال عصورا طويلة ، واستمر تدفق ملايين من الأتراك إلى الصين منذ قبل أربعة آلاف سنة ولمدة ثلاثة آلاف سنة ، فسكنوا فيه ، وبعد عدة أجيال نسوا لغتهم وأصبحوا صينيين . لكنهم تركوا فى الصين تأثيرات كبيرة .

إن الدم التركى الشمالى ، هو الصفة المميزة التى يتميز بها طابع الصينى الشمالى عن طابع الصينى الجنوبى . ولقد اقتبست الصين من الأتراك التشكيلات العسكرية ، الفروسية ، الأسلحة وعناصر ثقافية كثيرة أخرى تقبلها الصينيون وهضموها بمهارة فائقة ، ومن المعلوم أن قسما من السلالات الامبراطورية الصينية الحاكمة ذات أصل تركى وأشهرها سلالات جو Cu (١١١١ ق . م - ٢٥٦) ، جى çi (٤٧٩ - ٥٧٧) ، توبا Toba (Wei) بالتركية تابغاج Tabgaç) (٣٨٦ - ٥٥٦) ، شا -

Hsia (١٠٣٨ - ١٢٢٧) .

(١٩) الأتراك فى الوقت الحاضر

قد نجد بعض الفائدة إذا مااستعرضنا فى عدة جمل مختصرة وضع الأتراك الذين قدمنا خلاصة لتاريخهم لما قبل الإسلام تحت العناوين السالف ايرادها - فى عالم اليوم (١٩٨٥) .

عندما نقول اليوم « تركى » ، نفهم من ذلك أنه الشخص الذى ينطق باللغة التركية (أية لهجة من لهجاتها) ، ولاندخل فى مفهوم كلمة « تركى » ، من لايتكلم التركية كلغة أم أساسية له . ومن الطبيعى أن دم ملايين من الاتراك موجود فى الصين ، الهند ، روسيا والعالم العربى ، لكن هؤلاء صهروا فى بنية أقوام تلك الأقطار ونسوا لغاتهم وثقافاتهم .

إن اللغة التركية اليوم (١٩٨٥) ، فى المرتبة ١٠ بين لغات العالم التى تتكلم كلغة أم أساسية (وحسب التسلسل : الصينية ، الهندية ، الانكليزية ، الأسبانية ، العربية ، البنغالية ، الروسية ، البرتغالية ، اليابانية ، التركية ، ثم الألمانية ، الايطالية ، التلوغوية ، الفرنسية ، التاميلية ، الكورية ، البنجابية ، الفيتنامية ، السيامية . هذه هى اللغات التى ينطق بها أكثر من ٥٠٠ مليون شخص كلغة أم أساسية) . إن اللغة الأم لما يقرب من ١٢٥ مليون نسمة هى التركية (إحصاء بداية عام ٩٨١ ، ١١٣٢٨٨٠٠٠ نسمة ، توزيعهم بالنسبة للقارات كما يلى : ٩٣٠٤٠٠٠٠ آسيا ، ١٩٠٠١٠٠٠ أوربا ، ٧٨٥٠٠٠ أمريكا الجنوبية ، ٢٠٢٠٠٠ أمريكا الشمالية ، ١٣٠ ٠٠٠ أوقيانيا ، ١٠٠ ٠٠٠ أفريقيا) . وهى حاليا لغة أم لـ ٢١ مليون شخص فى أوربا ، وهى العاشرة بين اللغات التى تتكلم فى أوربا (وبالتسلسل بعد الألمانية ، الروسية ، الايطالية ، الانكليزية ، الفرنسية ، الاوكراينية ، البولونية ، الاسبانية ، والرومانية) .

إن ٤ / ٥١ مليون نسمة من الأتراك تقريبا ، هم فى تركيا اليوم (١٩٨٥) . يتكلم هؤلاء ، اللهجات التى تسمى « التركية العثمانية ، تركية الاناضول ، تركية تركيا » . إن تركيا التى استعملت الأحرف العربية حتى نهاية ١٩٢٨ ، وافقت على

استعمال الأحرف اللاتينية فى هذا التاريخ . يعمل عدة ملايين من رعايا الجمهورية التركية خارج تركيا ، وعلى رأس هؤلاء ٢/٢ مليون تركى يقيمون فى ألمانيا الغربية ، وفى هولندا مايزيد على الـ ٢٠٠ الف ، وفى النمسا مايزيد على الـ ١٠٠ ألف ، وفى فرنسا مايزيد على الـ ١٣٠ ألف شخص ، كما يوجد عدد غير قليل من العمال الأتراك فى ليبيا والعربية السعودية واستراليا وكندا والولايات الامريكية المتحدة .

أما فى البلقان فقد قل فيها كثيرا عدد الأتراك ، ويبلغ حاليا تعداد الأتراك الذين يحملون الجنسية التركية والذين تركتهم العثمانية فى تلك الدول كالآتى : فى بلغاريا نحو نصف مليون ، وفى رومانيا ٤, من المليون ، وفى يوغسلافيا ٤, من المليون ، وفى اليونان ٢, من المليون ، وفى البانيا ١, من المليون . ويضاف إلى هؤلاء ٢, مليون تركى فى شمال قبرص . كل هؤلاء تقريبا يتكلمون اللهجة التركية ، ولهجة الـ ٢/١ مليون تركى الموجودين فى العراق كذلك قريبة جدا من اللهجة التركية .

أما القطر الذى يلى تركيا فى من حيث تواجد الاتراك ، فهو الاتحاد السوفييتى ، ففيه مايقرب من ٤/ ٤٩ مليون نسمة تنطق بالتركية . اللهجة الرئيسية هى لهجة الاوزبكيين (١٥ مليونا) ثم القوزاق (٨/٤ مليون) التاتار (٧/٣ مليون) ، الآذريين (٦/٦ مليون) ، القرغز (٣/٣ مليون) ، التركمان (٢/٦ مليون) ، الجاووش (٢/١ مليون) ، الباشقرط (١/٧ مليون) والآخرون ، وبعد ان جربوا الأبجدية اللاتينية لعدة سنوات ، استعملوا حاليا الأبجدية السلافية (الروسية / الكيريلية) وذلك بعد أن كانوا يستعملون الأبجدية العربية . إن أقرب اللهجات إلى لهجة تركية تركيا من بين هذه اللهجات ، هى اللهجة التى يتكلمها الآذريون (الاذربيجانيون) . يسكن أتراك الاتحاد السوفييتى فى تركستان الغربية ، والجماعة التى نسميها أتراك الشمال (التاتار ، الباشقرط ، الجاووش اخ) فى سواحل نهر الفولغا وأورال وفى قفقاسيا الجنوبية . ويوجد أتراك متفرقون فى عدد غير قليل فى المناطق كقفقاسيا الشمالية وسيبيريا .

يسكن الأتراك فى الصين فى تركستان ، عدا صارى أويغرلر (الأويغر الصفر) الموجودين فى قانصو . يوجد ١١/٩ مليون تركى (٩/ – مليون قوزاق ، ١/– مليون صارى اويغر ، ١/ – مليون قرغز ، البقية اويغر) .

وتأتى إيران بعد تركيا والسوفييت فى وفرة عدد السكان الاتراك (١٦/٦ مليون تقريبا) . لهجتهم قريبة جدا للهجة تركيا .

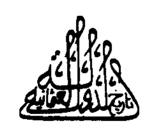
على الأقل فإن خمس الـ ٤/٥ مليون تركى الساكنين فى منطقة تركستان الجنوبية من الأفغان (تركستان الأفغان) ، لاجىء فى باكستان . وهم أوزبك وتركمان ومنهم قرغز . ولم يبق فى الأقطار الأخرى أتراك من الذين حافظوا على لغتهم الا القليل (فى سورية ١٣٢٠٠٠ ، فى العربية السعودية أكثر من ١٠٠ ألف تركستانى واكثر من ١٠٠ الف عامل تركى ، فى الاردن ٥٥٠٠٠ ، فى لبنان ٩٠٠٠ ، فى مغلستان ١١٠٠٠٠ قوزاق .. الخ .) .

إن الأتراك مسلمون سنيون – حنفيون وجميع الأتراك تقبلوا المذهب الماتريدى . ولأن الخلفاء العباسيين حنفيون ، فقد تقبل الاتراك كذلك هذا المذهب . وأصبح المذهب الحنفى علما للأتراك فى العالم الإسلامى . إن السكان التابعين للمذهب الحنفى والذين لم تبق لهم اليوم علاقة بالأتراك ، الموجودين فى أقطار عديدة ، إما أنهم ينحدرون من عائلات تركية الأصل ، أو إنهم يشكلون شاهدا على ان الدين الإسلامى دخل إلى ذلك القطر على يد الاتراك . ويندر من بين الاتراك اتباع المذهب الشافعى ، وإن عثر عليهم ، فإن تدقيقا بسيطا فى أنسابهم يدلنا على أنهم ينحدرون من أصل عربى وكردى .

يشاهد الشيعة لدى أتراك الغرب ، ولا يشاهدون لدى أتراك الشرق (تركستان والشمال) . إن معظم أتراك إيران شيعة جعفريون . ويوجد فى الأناضول أتراك علويون .

قل كثيراً اليوم ، عدد المجتمعات التركية التى لم تعتنق الدين الاسلامى بعد ، والتى ظلت بعيدة عن العالمين الإسلامى والتركى وهى : ثلاثة اربا‌ع أتراك جواش çuvas (نحو ١/٥ مليون) مسيحيين ارثوذكس . ونحو نصف مليون من اتراك ياقوت ، شامانى أو مسيحى أرثوذكسى . ونحو ٢٠٠٠٠٠ من أتراك غيغاووز Gaygavuz وهم مسيحيون أرثوذكس ، وقد كان الذى يقدم منهم إلى تركية ، يهتدى إلى الإسلام . وعدا هؤلاء نجد أن الأقوام التركية فى سيبيريا (تورا Tura ، الطايلى Altayli ، تلوت Teleut ، شور Sor) ، شامانيون (نحو ٣٣٥٠٠٠)

ونحو ٧٠٠٠ تركى قرمى الذين يطلق عليهم اسم قرائم Karaim ، موسويين . الاويغريون الصفر بوذيون (نحو ١٠٦٠٠٠) . وهناك كذلك نحو ألف أو ألفين من الأتراك الكاثوليك فى بولونيا ولتوانيا . ويمكننا أن نقول إن مجموع الأتراك غير المسلمين من بين الـ ١٢٥ مليون تركى ، يبلغ ٢,٦٥٠,٠٠٠ شخص .



الباب الثاني

فترة بعد الإسلام

(٢٠) اعتناق الأتراك للإسلام

اجتاز الأمير الأموى قتيبة بن مسلم ، نهر عمودريا (بالعربية : جيحون) ودخل تركستان وفتح بخارى فى سنة ٧٠٩ ، وسمرقند (التى دافع عنها اتراك كوكترك بشدة) فى ٧١١. صار الأتراك وجها لوجه أمام قوم جدد ، أمام العرب ، لكن الأهم من ذلك أمام دين جديد ذاع صيته وطغى على العالم أجمع .. أمام الإسلام . كانت المواجهة شديدة فى البداية ، ثم سلست بعد ذلك ، إذ ليس لدى الأتراك تعصب مسبق تجاه الأديان الجديدة . وعندما أصبح الأمير العباسى زياد بن سالح — الذى ابتعد عن قاعدته مسافة كبيرة — فى وضع عصيب أمام الجيش الصينى فى تالاس Talas عام ٧٥١ ، لم يتردد الجيش التركى الذى أدركه ، فى أن يأخذ مكانه ضد عدوه التقليدى الصين والانضمام إلى صفوف الجيش الإسلامى . وقد خلص انتصار Talas تركستان من الاستيلاء الصينى وفتحها للدين الإسلامى وأمّن التقارب العربى — التركى الذى سبب انتشار الدين الإسلامى فى تلك الامصار .

لفتت قيمة الاتراك كجنود انظار العرب . وعند اضمحلال الحكم الأموى فى خراسان ، انحاز الأتراك كالإيرانيين إلى الجانب العباسى . إذ أنهم كانوا قد نفروا من سياسة الأمويين العنصرية . أما العباسيون ، فقد عاملوا المسلمين كافة بالتساوى و لم يفرقوا بين عربى وغير عربى . جاء إلى بغداد أتراك كثيرون . وانضموا إلى جيش

الخليفة الخاص كجنود اجراء ، وارتقى بعضهم إلى مرتبة أمير الأمراء وقيادة الجيش فى دولة الخلافة الإسلامية وقدم خدمات مهمة . وقد اعتمد بعضهم على قوته العسكرية ، وحاول التحكم فى الخلفاء العباسيين اعتبارا من القرن ٩ . اسلم الاتراك الذين جاءوا إلى اقطار الخلافة والذين عاشوا فيها ، وبهذا يكون قد انضم إلى الاسلام بشكل أو بآخر قوم جدد ذوو مقدرة عسكرية متفوقة ، ولكن الكتلة التركية الأصلية الكبرى التى كانت تقيم فى الدولة التركية ، بقيت محافظة على ديانتها القديمة .

اشترك الأتراك ، فى الانجازات العلمية والفنية للدين الاسلامى ، وأخذوا مكانهم فى الحضارة والثقافة العربية الإسلامية فى القرون الوسطى . ونستطيع أن نشير إلى بعض هؤلاء الاعلام ممن ينحدرون من أصل تركى ، كالفيلسوف الفارابى ، اللغوى جوهرى ، الشاعر صولى والشاعر بشار . يقول المؤرخ الالمانى فون قره باجاق مايلى : « إن إعتناق الأتراك الدين الإسلامى وظهورهم على مسرح التاريخ كعنصر إسلامى بدأ كظاهرة محدودة الأهمية فى البداية ، ثم احدثت هذه الظاهرة ذلك التأثير العظيم ، الذى لامثيل له تقريبا فى التاريخ العالمى » .

أعلن الخاقان – الأكبر قره خانلى ساتك بغرا خان ، الذى سمى نفسه « عبد الكريم » واعتلى العرش فى ٩٢٤ – أن الدين الإسلامى (السنى – الحنفى والمذهب الماتريدى) هو الدين الرسمى والوحيد للخاقانية والسلالة التركية . وكان هذا الحادث هو إحدى نقاط التحول لا فى التاريخ التركى الإسلامى فحسب بل فى التاريخ العالمى من جهة التطورات والآثار المستقبلية .

ويذكر التاريخ ظهور سلالات تركية حاكمة فى أقطار كمصر واذربيجان تعترف بتبعيتها للخليفة العباسى . لكن قبول الدولة التركية الأصلية والكتلة التركية الكبرى للدين الإسلامى بصورة قطعية ، كانت مسألة تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فقد انتشر الإسلام بين أتراك آسيا الوسطى بسرعة فائقة وفجأة إلى درجة ، لم يبق معها فى ربع القرن الذى يلى عام ٩٢٤ إلا عدد قليل من الاتراك ينتسب إلى أديان كوكتنرى ، البوذية ، المسيحية ، المانوية والشامانية ، وهؤلاء ، هم الكتل التى بقيت بعيدة عن العالمين التركى والإسلامى ، أما أتراك أوربا الشرقية فقد بقوا مصرين على ديانة كوكتنرى لعدة قرون أخرى . وهذا مما سبب انصهارهم على نطاق واسع ضمن الأقوام المسيحية .

(٢١) القرة خانيون (٨٤٠ - ١٠٤٠)

تسلمت سلالة قرة خانلى وهى فرع آخر من سلالة مته ، عرش الخاقانية – الأكبر مكان سلالة اويغر (دوقوز – اوغز – اون – اويغر) . وإذا كانت هذه السلالة لم تتمكن من تأسيس امبراطورية تحتوى على كامل آسيا الشمالية ، على غرار الهون وكوكترك . إلا أنها أثرت على التاريخ التركى والعالمى من ناحيتين : الأولى اعتناق الدين الإسلامى كدين رسمى وحيد للأتراك ، كما أسلفنا وبذلك ، حصل الإسلام على قوم جدد ورقعة جغرافية كبيرة . والثانية ، تحويل مركز ثقل الدولة التركية إلى تركستان الحالية ، وعلى الأصح إلى تركستان الشرقية . وبذلك ، فإن الاتراك بينما كانوا حتى عام ٨٤٠ ، من ناحية مركز الثقل ، ينتمون إلى أقوام الشرق الأقصى ، اصبحوا بعد هذا التاريخ من أقوام آسيا الوسطى بصورة تامة . ولم تكن تركستان الحالية حتى ذلك القرن ، بلادا تركية صرفة كما هى الآن ، فقد كان الأتراك يعيشون فيها بصورة مختلطة مع الأقوام الإيرانية ، ومع انهم عناصر حاكمة فى عدة مناطق ، لكنهم كانوا أقلية من حيث العدد . وعندما بدأ اتراك مغلستان الحالية بالهجرة إلى تركستان بادئين من الشرق ، بدأت تتكون فى هذا القطر الكبير ، أكثرية تركية . إن قبر عبد الكريم ساتك بغراخان الذى اعتنق الدين الإسلامى موجود فى كاشغر (٩٠١ - ٩٥٥ ، جلوسه ٩٢٤) .

احتل أرسلان ايليغ خان ، (وفاته ١٠١٣) من السلالة ذاتها الذى يحمل اسم « نصر » الإسلامى ، بخارى فى ٩٩٩/١٠/٢٣ وانهى الحكم الإيرانى فى تركستان بصورة حاسمة . وأزال الدولة السامانية من الوجود ، وسيطر الأتراك على مدنهم الكبيرة كسمرقند وبخارى وعلى ماوراء النهر ووقفوا عند حدود خراسان .

وفى عهد القرة خانيون ، شارك فى الأدب الإسلامى بلهجة الخاقانية ، الأتراك الذين يملكون أدبا غير إسلامى غنى بلهجات كوكترك واويغر .

(٢٢) بداية الأدب التركى الإسلامى

ترك القرة خانيون الابجدية الاويغرية ، وبدءوا بكتابة التركية بالأحرف العربية ، وبذلك بدأت دورة دامت ألف عام فى كتابة اللغة التركية بالأحرف العربية ،

ودخلت إلى اللغة التركية آلاف الكلمات الفارسية وخاصة العربية ، وأهملت آلاف الكلمات التركية واستعملت مكانها كلمات من هاتين اللغتين ، وهكذا تكونت التركية الحالية .

إن وزن العروض العربي فى الشعر ، اقتبس عن الإيرانيين ، واتخذ الشعر الإيرانى نموذجا فى الشعر . وقد استعملت اللغة العربية فى المؤلفات العلمية والدينية ، وأصبحت هى لغة التدريس فى المدارس (الدينية) التركية . وهكذا دخل الاتراك فى الحضارة الإسلامية – تلك الحضارة التى تميزت برقيها فى القرون الوسطى – بكل مايملكون من طاقة واخلاص .

إن أول شاعر تركى كبير معروف ، هو يوسف خاص حاجب ، اكمل ملحمته الشعرية الفلسفية المكونة من ٧٠٠٠ بيت ، المسماة **Kutadgu Bilig** فى سراى كاشغر عام ١٠٧٠ . وضح فيها حكمة وفلسفة الدولة التركية . أما محمود كاشغرى (أحد أمراء قرة خانلى) فقد توخى فى مولفه باللغة العربية المسمى « ديوان لغات الترك » تعريف العرب بصورة موسوعية باللغة التركية وبالثقافة التركية . وقد تم تأليف هذا الكتاب الذى يعتبر من الروائع الكبيرة المعدودة فى الثقافة التركية ، فى الفترة من عام ١٠٧٢ – ٧٧ ، وقدم إلى الخليفة المقتدى فى بغداد .

إن هذا النتاج الذى ظهر نحو عام ١١١٠ ، يشكل المرحلة الكبيرة الثانية بعد « كتابات أورهن » فى تكوين وتطوير علم اللغة التركية .

ودخل الأتراك كذلك فى التصوف الإسلامى وتعمقوا فيه ، وكونوا عدة طرق صوفية . وممن يذكرون فى هذا المجال الخواجة أحمد يسوى الذى نشأ فى جنوب قازاخستان الحاليه (وفاته ١١٦٦) ، فقد استطاع أن ينشر بوساطة اشعاره التصوفية ذات اللغة التركية الواضحة – الدين الإسلامى بقد رة فائقة بين الأتراك الرحل . وأصبح المؤسس الحقيقى للطريقة اليسوية والتصوف التركى .

ترك القرة خانيون عرش الخاقانية الأكبر إلى السلجوقيين فى ١٠٤٠ وتبعوا السلاجقة . وفى ١٢١٢ ، لم يكن لديهم سوى وادى فرغانة فقط . ثم ازيحوا منه خلال مدة قصيرة . وانتهى دورهم التاريخى .

(٢٣) ولاة وحكام الأتراك فى مصر (٨٤٥ - ٩٦٩)

كان فى مصر قبل الطولونيين (٨٤٥ - ٨٦٨) ، ٦ ولاة عباسيون من أصل تركى ، جاء هؤلاء فى البداية إلى مصر مع الوحدات التركية ودخلوا فى خدمة الولاة العرب ثم طلبوا مقام الولاية من الخليفة بقدراتهم العسكرية وحصلوا عليه ، ٣ منهم اخوة وأبناء ، وبذلك تظهر أول محاولة لتأسيس سلالة حاكمة . أولهم عتاق (تركى) ، يليه فتح بن خاقان بن أرتق (تركى) . ثم اقتدى بهما احمد بن طولون ، الذى حاز اعجاب الخليفة كعسكرى بعد أن تلقى ثقافته فى سراى بغداد على النمط العربى بصورة جيدة ، وأصبح والياً على مصر . سيطر على فلسطين وسوريا مع لبنان . وقد فتح أحمد بن طولون لنفسه ولجياه عهدا لامعا استمر حتى ٩٠٥ تابعا للعباسيين بالاسم ، ثم استعاد العباسيون مصر من بنى طولون عام ٩٠٥ .

وفى ٩٣٤ ، نجد تركيا آخر هو محمد بن اخشيد الذى صار واليا عباسيا على مصر وأسس سلالة حاكمة جديدة قضى عليها الفاطميون العرب الشيعة - الاسماعيلون القادمون من شمال افريقيا (المغرب) فى ٩٦٩ . حيث انفصلت مصر عن العالم السنى العربى - الإسلامى وعن خلفاء بغداد وظلت تحت إدارة شيعية إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبى .

وخلال ٨٩٢ - ٩٣٠ ، أسس الساجيون (بالعربية : بنى ساج) الأتراك الأصل فى أذربيجان وأرمنية سلالة حاكمة صغيرة تحت سيادة العباسيين .

(٢٤) الغزنويون Gazneliler (٩٦٢ - ١١٨٧)

فى سنة ٩٦٢ احتل تركى اسمه آلب تكين قلعة غزنه التى بقيت حاليا لدى افغانستان ثم أصبح أحد خلفائه المدعو سفوك تكين (سلطنتة ٩٧٧ - ٩٩٧) المؤسس الحقيقى للدولة وأخذ الافغان الحالية واجتاز ممر خيبر واخذ يهدد أبواب الهند .

يرجع تاريخ دخول الدين الإسلامى إلى الهند إلى عام ٧١١ عندما فتح محمد بن القاسم اقليم السند ، إلا أن محمد بن القاسم لم يتمكن من اجتياز نهر السند (Indus) إلى مسافات بعيدة . وقد اهتدى إلى الإسلام بعض الاهالى المحليين من

شعب بلوجستان والسند الحاليه . لكن الذى ادخل الدين الاسلامى إلى القارة الهندية باقتدار ، هو سفوك تكين وابنه سلطان محمود غزنوى .

حاول السلطان محمود (٩٩٨ - ١٠٣٠) بسط سيادة الخليفة العباسى ونشر المذهب الحنفى - السنى فى تلك المناطق بشكل تام ، وأبدى فى نفس الوقت تشددا مع الإيرانيين الشيعة ، والسلطان محمود كالعثمانيين من بكّات قبيلة قابى الاغوزية ، وقد تأثر تأثرا كبيرا بالثقافة الايرانية ، ولم يكن على الثقافة التركية الخالصة كالقرة خانيين . كان هو الذى طلب من الفردوسى كتابة « الشهنامة » . ولم يلق عنده الفردوس قبولا حسنا ، لأنه أشاد فى مؤلفه بانتصار الشهنشاهات الايرانيين على خاقانات الاتراك . حمى السلطان محمود ، الشعراء والمؤلفين الكبار الآخرين الذين يكتبون بالفارسية والذين ينتمى بعضهم إلى الأصل التركى . وقد استعمل السلطان محمود اللغة الفارسية فى الأدب والعربية فى المكاتبات الرسمية والعلوم . وكانت التركية لغة السراى والجيش .

احتل محمود الغزنوى مدينة بشاور سنة ١٠٠٠ . وفى السنة التالية ، فتح بنجاب بعد إبادة الجيش الهندوسى المكون من ٤٢٠٠٠ جندى و٣٠٠ فيل ، وحاز على لقب « غازى » . وفى حملته الهندية العاشرة . فتح وادى الكانج (البلاد التى سماها المسلمون « هندوستان ») ودلهى وأطرافها . وفى حملته ١٣ افنى جيشا هندوسيا مكونا من ١٥٠,٠٠٠ شخص واستولى على أكثر من ١٠٠٠ فيل حربى . وفى حملته ١٦ (١٠٢٥ - ٢٦) فتح كجرات ، وسيطر على نحو ٥ ملايين كم٢ من الأراضى (ايران ، افغانستان ، ماوراء النهر ، باكستان الحالية ، ايالات الهند الشمالية - الغربية) . ثم تراجع الغزنويون أمام السلاجقة وحاولوا ابقاء ملكهم فى بنجاب ولاهور تحت سيادة السلاجقة ، لكن الدين الإسلامى كان قد دخل القارة الهندية فى عز قوته وبالمذهب الحنفى السنى ووضع الاساس الحقيقى لباكستان الحالية .

(٢٥) الدولة السلجوقية الكبرى

بنى سلجوق ، هم بكات قبيلة قنق Kinik المنحدرة من أوغز . كان قسم من الأوغز قد أسسوا دولة بين الخزر وآرال التى تسمى الوطن العلوى . ورث بنو سلجوق هذه الدولة وأصبحوا قادة كبارا (سوباشى) فى نهاية القرن ٨ ، وحوالى

عام ٩٩٠ أصبحوا ملوكا لها (Yabgu) . ولقد صد السلطان محمود الغزنوى هؤلاء السلاجقة الذين أسلموا حديثا والذين حاولوا النزول إلى العالم الاسلامى فى الجنوب ، واستمرت مقاومة طغرل بك حفيد سلجوق بك واخيه جاغرى بك للغزنيين الذين قطعوا طريقهم . تمكن طغرل بك وأخوه من الوصول إلى الاناضول وجاهدا بغزواتهم ضد البيزنط وتمكنا اخيرا من دحر الجيش الغزنوى المتفوق جدا فى معركة دندانكان (١٠٤٠/٥/٢٣) الميدانية واستوليا على خراسان بصورة حاسمة . واتخذا نيشابور عاصمة ، وبعد ان اجبرا كلا من الغزنويين والقره خانيين على الاعتراف بدولتهم كأكبر وأقدر دولة تركية ، حاربا الدول الإيرانية واستوليا على إيران وأصبح للدولة منفذ إلى البحر الابيض .

وبعد أن كسر الخاقان - الأكبر محمد طغرل بك (١٠٤٠ - ١٠٦٣) ، الدولة الشيعية البويهية فى إيران وثبّت أركان المذهب السنى ، انتقل إلى العالم العربى . كان الخليفة يسكن منذ مدة طويلة جدا فى بغداد تحت سيطرة الشيعة البويهيين ، ولما علم الخليفة « القائم » أن البويهيين يستعدون لاعلان خليفة البويهيين الفاطمى الشيعى فى العراق ، خليفة فى (القاهرة) ، أمر بتلاوة اسم السلطان طغرل بك بعد اسمه فى الخطبة فى بغداد (الجمعة ١٥ ك ١٠٥٥/١) .

قضى طغرل بك الذى قدم إلى بغداد بعد ١٠ أيام ، على السلطة الشيعية ، وأعلن الحرب على الإمام الفاطمى وأمر بتلاوة الخطبة باسم الخليفه العباسى واسمه هو فى كل مكان ، وعين فى بغداد واليا عسكريا تركيا . وأعلن أن الخليفة هو الرئيس الروحى لجميع العالم الإسلامى ، أما الحكم الدنيوى فيعود إلى إدارة بنى سلجوق . انتقل العالم العربى الشرق (المشرق) إلى الحكم التركى . وبذلك يكون قد انفتح دور الإدارة التركية فى المشرق ، وسوف يستمر ذلك الدور تسعة قرون .

خلف السلطان طغرل بك ، ألب ارسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) ، وابن اخيه الكبير جغرى بك ، وابن هذا سلطان مليكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) ، ثم أبناء هذا وعددهم ثلاثة هم : سلطان ركن الدين بركياروك (١٠٩٣ - ١١٠٤) سلطان محمد طابار (١١٠٤ - ١١١٨) ، سلطان معز الدين سنجار (١١١٨ - ١١٥٧) .

ويمكن تلخيص سياسة الدولة السلجوقية العالمية ، على الوجه التالى ؛ دفع الشيعة إلى افريقيا ، وتوحيد العالم الإسلامى الآسيوى تحت النفوذ المعنوى للخليفة العباسى السنى ونفوذهم الإدارى وإزاحة البيزنط من آسيا إلى أوربا والتواجد المستقر على البحر الأبيض . لم يتحقق امل السلجوقيين فى اقتلاع الفاطميين الشيعة من مصر بسبب بدء الحروب الصليبية ، لكنهم أزاحوهم من سورية .

إن الامبراطورية السلجوقية التى تمتد غربا إلى استانبول وبوغاز جناقلعه إلى بحرى مرمره وايجه ، والجنوب – الغربى إلى برزخ السويس وإلى البحر الاحمر ، وجنوبا إلى المحيط الهندى وبحر عمان ، وشرقا إلى الهند الوسطى ، إلى حدود الصين ، وشمالا إلى سيبيريا والشمال – الغربى إلى جبال القفقاس ، استطاعت أن تؤسس بعد الامويين والعباسيين نظاما امبراطوريا متينا ، لكنها لم تتمكن من الانتقال إلى قارتى افريقيا واوربا . كان جيش الامبراطورية السلجوقية يبلغ مليون جندى يقوم على حماية سكان الامبراطورية البالغ عددهم ١٠٠ مليون نسمة يقيمون فى اراض تبلغ مساحتها ١٥ مليون كم٢ ، من مآثر الامبراطورية السلجوقية انها نقلت تدريس العلوم الإسلامية العالية من المساجد إلى الجامعات التى أسسها السلاجقه وسموها « مدرسة » . وعلى الرغم من أن هذا النظام القويم سرعان ماتبدد ، فإن الكيان الأساسى لنظام الدولة السلجوقية استمر على يد الأيوبيين والعثمانيين ودول غيرها .

(٢٦) الخوارزم شاهيون Harezm - Sahlar (١١٥٧ – ١٢٣١)

خلفت الدولة السلجوقية الكبرى ، سلالة تركية أخرى هى الخوارزم – شاه . كانت حدودهم متواضعة جدا (ايران ، افغانستان ، ماوراء النهر) . واعتبارا من ١٠٩٧ ، وبعد انتهاء السلجوقية الكبرى بوفاة سلطان سنجر ، وكذلك بعد قضائهم على سلاجقة العراق ، أصبحوا خاقانات تركستان ، بينما كانوا ولاة سلجوقيين لخرزم (خوارزم) . كانت قاعدتهم سمرقند . أرادوا اخضاع الخليفة العباسى لسلطتهم السياسية باتباعهم سياسة محمود الغزنوى والسلجوقية الكبرى وسلاجقة العراق . فصرفوا جهدهم فى نشر قوة الخليفة المعنوية والروحية لدى كافة المسلمين . ثم قضى عليهم المغول .

(٢٧ سلاجقه العراق ، سوريه وكرمان

أراد أبناء اخوة سلطان سنجر بعد وفاته ، إبقاء الدولة السلجوقية بصورة مستقلة باسم سلاجقة العراق (١١٥٧ - ١١٩٤) . قضى خوارزم شاه على سلاطين هذه الدولة التى تأسست فى ١١١٧ .

سلاجقة سوريه (١٠٩٤ - ١١١٧) هم سلاطين بنى سلجوق الذين أسسوا حكمهم تحت سيادة السلجوقية الكبرى فى سوريه ، لبنان ، فلسطين والاردن واتخذوا من الشام وحلب قاعدة لهم ، واستطاع فرع آخر من فروع السلالة السلجوقية ذاتها ابقاء سلطنتهم فى كرمان فى جنوب شرق ايران مدة قرن ونصف (١٠٤١ - ١١٨٧) .

(٢٨ الاتابكــه Atabeyler

يطلق اسم « ملك » على الأمراء الأباطرة من سلالة السلجوقيين ، وقد كانوا يعطون كل ملك فى طفولته لأمير تركي لتربيته عسكريا . وفى الحقيقة فإن بعض هؤلاء الأمراء ، أصبحوا على مر الزمن وباسم السلاجقة ، أصحاب دولة مستقلة . اشهرهم ايلدنيزليون Ildenizliler الذين يطلق عليهم اسم اتابكة آذربيجان (١١٤٦ - ١٢٢٥) ، بنو بورى الذين يطلق عليهم اسم اتابكة الشام (١١٠٩ - ١١٥٤) ، بنو بكتكين Beyteginliler الذين يطلق عليهم اسم اتابكة اربيل (١١٤٤ - ١٢٣٣) ، بنو سلغر Salgurlular الذين يطلق عليهم اسم اتابكة فارس (١١٤٧ - ١٢٨٧) ، بنو قطلغ - خان Kutlug - Hanlar (١٢٢٢ - ١٣٠٣) .

(٢٩ الزنكيون Zengiler (١١٢٧ - ١٢٦٢)

لاشك أن اشهر سلالات الأتابكة هم اتابكة الموصل الذين يسمون الزنكيون ، ومؤسس السلالة هو عماد الدين زنكى ابن آقسنغر بك من أمراء السلاجقة من قبيلة آفشار الاوغزية . ولى حكم حلب والموصل فى عهد السلاجقة فى ١١٢٧ ، وحارب الصليبيين ونال شهرة واسعة . وابنه اتابك نور الدين محمود زنكى ، الذى

فاق شهرة ابيه بجهاده ضد الصليبيين . اتخذ من الشام قاعدة له وأدام سلطنته (١١٤٦ - ١١٧٤) . كان صلاح الدين الأيوبى أحد ضباط الحرس الخاص لنور الدين زنكى .

أرسل نور الدين ، صلاح الدين إلى مصر مع جيش استطاع أن يسيطر به على مصر بدون قتال وانهى الحكم الشيعى الذى دام قرنين وأمر بقراءة الخطبة باسم الخليفة العباسى . وبذلك انتهى العهد الفاطمى فى مصر .

مات نور الدين فى هذه الأثناء ، فأعلن صلاح الدين نفسه سلطانا على مصر مكان سيده . وبعد هذه الفترة تبع الزنكيون الايوبيين ، وتسلم صلاح الدين الايوبى سيف الجهاد بيده ، وابقى التشكيلات العسكرية والادارية السلجوقية والزنكية ، وأسس دولة إسلامية مقتدرة . عادت الثقافة العربية والأدب العربى للازدهار مرة أخرى فى العهد الايوبى .

(٣٠) المغـــول

ظهر جنكيزخان فى بداية العصر ١٣ . وهو ينحدر من سلالة أحد أمراء كوكترك الذين تمغلوا ، كان فقيراً ، لكنه كان من أشراف المغول . سيطر على مغولستان وآسيا الوسطى . استولى على بكين وفتح امبراطورية الصين الشمالية . وبعد أن زحف على الشرق الأقصى بجيش مدهش من الخياله مكون من المغول والاتراك الذين لم يدخلوا الإسلام بعد ، وصل فى سنة ١٢٢٠ إلى حدود خاقانية تركستان (التابعة للخوارزم شاهيين) ثم إلى الحدود الشرقية للدولة الإسلامية . جرى قتال عنيف ، انكسر فيه الأتراك ، وانهزم جلال الدين خرزم - شاه إلى حدود الاناضول ، وانتقلت تركستان وإيران لحوزة المغول المشركين .

استمرت السلالة من نسل أولاد جنكيز الأربعة وأبنائهم .

سيطر المغول تقريبا على كامل قارة آسيا عدا اليابان والهند وتقريبا على كامل أوربا الشرقية . كان المغول فى عام ١٢٩٤ ، يحكمون دولة تتسع حدودها اتساعا لم يحدث لاية دولة أخرى فى التاريخ . ولما كانت مساحة الاقطار المكتشفة فى العالم حينذاك تبلغ ٦٤ مليون كم^٢ ، فقد كان المغول يملكون ٤٤ مليون كم^٢ منها . وكان يقدر سكان هذه الأراضى بـ ٣٠٠ مليون نسمة (كان تعداد فرنسا فى السنوات ذاتها

١٠ ، انكلترا ٢ مليون) . ومع ذلك لم يكن للدولة المغولية دور بنفس درجة الدول التاريخية العالمية (العظمى) كامبراطوريات روما أو الخلافة العربية العثمانية أو بريطانيا العظمى ، ذلك أن المغول الذين اعترفوا لغاية ١٢٩٤ (ولو نظريا) بكثان – كبير Buyuk - Kaan (امبراطور كبير) ، تفرقوا بعد هذا التاريخ إلى دول منفصلة ، فقد تصين الفرع الصينى (اصبح صينيا) ، بعد أن أصبح بوذيا وانسحب منهم قسم آخر إلى مغولستان وتمكن من الحفاظ على مغوليته ، أما أقوام تركستان التى تسمى جغتاى ، وأوربا الشرقية التى تسمى جوجى أولوصو والطون اوردى وفرع ايران الذى يسمى ايلخانلى ، فقد انصهرت جميعا ضمن الكتل التركية الكبرى الموجودة فى هذا القطر ، ونسيت اللغة المغولية وأصبحت تنطق بالتركية وصارت مسلمة سنية – حنفية كالأتراك . جاءت كتل تركية كبيرة إلى تركستان على عهد المغول وبسبب استتراك المغول ، أصبحت البلاد قطرا تركيا تاما ، ذلك بالاضافة إلى أن المغول ساقوا ملايين الأتراك أمامهم إلى إيران والأناضول ولعبوا دورا هاما فى تتريك هذين القطرين .

وفى ١٢٥٨ ، احتل هولاكو حفيد جنكيز وأول حكام السلالة المغوليه الايرانية التى تسمى ايلخانية ، بغداد وقضى على الخلافة العباسية .

لجأت الخلافة العباسية إلى القاهرة .

ولاينسى التاريخ الاسلامى والتركى والعثمانى لهؤلاء المغول المشركين هدمهم المدن الإسلامية الكبرى وماقاموا به من مذابح ومأأجروه من تخريب للمراكز الثقافية سواء التركية أو العربية ولئن كان إسراعهم فى اعتناق الدين الاسلامى واستتراكهم ، قد جعلهم يشاركون كعنصر جديد فى الحضارة والثقافة الإسلامية ، ألا أن ماقاموا به من تخريب لم ينسه التاريخ حتى الآن .

(٣١) الايلخانيون Ilhanlilar (١٢٥٦ – ١٣٤٤)

اعتنقت سلالة هولاكو التى تسمى ايلخانلى ، الدين الإسلامى بشكل قطعى فى ١٢٩٥ . ويقال عنهم مغول إيران كذلك .

أخذت هذه السلالة سلاجقة تركيا (الاناضول) تحت سيادتها ، ودخلت فى صراع جغرافى – سياسى واسع النطاق ، سواء مع مماليك مصر أو مع التون اوردى

الذى دخل الإسلام قبلها . وفى ١٣٤٤ ، تركوا سلطنتهم إلى الجلايريين Celayirliler وهى سلالة مغولية مستركه مثلهم ، وانتقل كامل العراق مع ايران من الايلخانيين إلى الجلائريين .

(٣٢) التون اوردى ALtinordu (١٢٢٣ - ١٥٠٦)

تسمى الدولة التى أسستها سلالة جوجى خان ابن جنكيز الاكبر فى أوربا الشرقية باسم التون اوردى وتعنى الجيش الذهبى .

دخل بركة خان ابن جوجى الإسلام منذ ١٢٥٧ وسبق هذا الفرع ، الفروع الأخرى فى الهداية واسترك . وحكم كامل روسيا الأوربية الحالية والبلقان وقسما من أوربا الوسطى . وفى الربع الأخير للعصر ١٤ ، دخل فى صراع كبير مع تيمور ، فخسر وتقلصت دولتهم واندثرت .

تكّونت على أراضيهم عدة امارات (خانلق) تركية واستفادت امارة موسكو - الكبرى من هذا الوضع وبدأت فى التوسع .

(٣٣) جغتـــاى çagatay (١٢٢٧ - ١٨٧٠)

حكمت سلالة جغتاى خان ثانى أبناء جنكيز ، تركستان وسيطرت عليها حتى ظهور تيمور فى ١٣٧٠ . ثم انسحبت إلى تركستان الشرقية وبقيت هناك عصورا طويلة كدولة متواضعة . استرك هذا الفرع وبدأ يتكلم التركية بسرعة وأخذ المذهب السنى - الحنفى عن الاتراك ودخل بكامله إلى الهداية الاسلامية .

(٣٤) بنى تيمور Timurogullari (١٣٧٠ - ١٥١٢)

ظهر تيمور (١٣٣٦ - ١٤٠٥) أحد بكات (أمراء) تركستان الغربية ، على مسرح التاريخ فى ١٣٧٠ . وبسط سيادته على التون اوردى (أوربا الشرقية) والهند الشماليه والخاقانيات التركية (تركيا) العثمانية ، ووصل الأمر إلى حد أن السلطان المملوكى المصرى بعد أن فقد سوريا دخل تحت سيادة تيمور أتقاء لشره . سيطر تيمور الذى كان يستند إلى قوة عسكرية مدهشة على أقطار تبلغ مجموع مساحاتها ١٤ مليون كم٢ . كانت التركية لغته الأم ومذهبه السنى - الحنفى . إلا أن تأثيرات الثقافة الايرانية كانت كبيرة على امبراطوريته كما أنه قلد جنكيز فى اسلوب فتوحاته .

مات عندما كان يستعد لفتح الصين لتحقيق خير أعماله كفاتح مسلم وقد حاول أصغر أبنائه الأربعة شاهرخ ، صيانة الامبراطورية التيمورية لغاية ١٤٤٧ .

وبالاضافة إلى أن الامبراطورية التيمورية فقدت بعد ذلك أقطارا عديدة ، فقد انقسمت إلى امبراطوريتين : ماوراء النهر (سمرقند) ، وخراسان (هرات) .

وفى ١٥١٢ ، طرد أتراك اوزبك الرحل القادمين من الشمال ، التيموريين من تركستان ودفعوا بهم إلى الهند .

ازدهرت لهجة جغتاى (تركستان) والأدب والشعر التركى على أيام التيموريين ، وفى عهدهم نشأ على شيرنوائى من أكبر الشعراء الأتراك فى سراى سلطان حسين بايقره (١٤٦٩ – ١٥٠٦) بن تيمور فى هرات .

٣٥) السلالات التركية فى الهند لغاية بنى تيمور :

اعقبت الغزنويين فى الامبراطورية الإسلامية التركية فى الهند الشمالية ، سلالات الغور (١١٨٧ – ١٢٠٦) ، مماليك الهند (١٠٢٦ – ١٢٩٠) ، بنو هلاج (١٢٩٠ – ١٣٢٠) ، بنو طغلق (١٣٢٠ – ١٤١٣) ؛ بن سيد (١٤١٣ – ١٤٥١) ، اللوديين (١٤٥١ – ١٥٢٦) ، الصوريين (١٥٤٠ – ١٥٥٥) .

بذل كل من السلطان معز الدين محمد (١١٨٧ – ١٢٠٦) ، السلطان آيبك (١٢٠٦ – ١٢١٠) ؛ السلطان التوتمش (١٢١٠ – ١٢٣٦) ، السلطان بالابان (١٢٦٦ – ١٢٨٦) ، السلطان علاء الدين محمد (١٢٩٦ – ١٣١٦) ؛ السلطان فيروز – شاه طغلق (١٣٥١ – ١٣٨٨) جهودا كبيرة لنشر الدين الإسلامى فى الهند وتوسيع حدود الدولة باستمرار نحو الشرق والجنوب . ولأول مرة فى التاريخ وحد علاء الدين محمد ، كامل الهند (بما فى ذلك باكستان الحالية وبنغلاديش) تحت حكم دولة واحدة .

جرت حروب شديدة مع المغول وأصبحت الهند من الدول الآسيوية الإسلامية النادرة التى لم يتمكن المغل من السيطرة عليها .

يلاحظ سيطرة الثقافة العباسية ، حيث كانت هى لغة الفن بينما التركية لغة الجيش والسراى ، وقد شيدت فى هذه الفترة آثار عمرانية هائلة ، وتأسست مدن

جديدة وكانت دلهى مدينة العرش . ثم تقلصت الحدود ، وخلال ١٣٩٨ - ١٤٢١ تبعت سلطنة دلهى تيمور وخلفاءه .

كانت السلالات الأخيرة هى اللوديون والصوريون .

(٣٦) بنو تيمور الهند (١٥٢٦ - ١٨٥٧)

عندما طرد الأزبك بابرشاه (١٤٨٣ - ١٥٣٠) حفيد تيمور فى البطن ٥ (حفيد جنكيز فى البطن ١٣ من جهة أمه) من عرش خاقانية تركستان ، استوطن فى كابل واحتل الأفغان الحالية .

وفى ١٥٢٦ ، قوض سلطنة لودى وفتح سلطنة دلهى . كانت القوة التى مكنته وسلالته من الهند لمدة ٣ قرون وجعلته ينتصر على الجيش اللودى المكون من ١٠٠,٠٠٠ جندى و ١٠٠٠ فيل خلال ٧ ساعات ، عبارة ١٣٥٠٠ جندى تركى تضم سرية مدفعية يقودها ضابط مدفعى عثمانى (معركة بانيبات Panipat الميدانية ٢١ / ٥ / ١٥٢٦) ، وقد استطاع فى السنة التالية (١٦ / ٣ / ١٥٢٧) أن يفنى الجيش الهندوسى المكون من ١٠٠,٠٠٠ جندى وأكثر من ١٠٠٠ فيل مصفح عن بكرة أبيه ، ونال لقب « غازى » .

يعتبر بابر من أكبر الشعراء الأتراك وقد اشتهر فى التاريخ بمذكراته المسماة « بابرنامه » التى حررها باللغة التركية والتى تعتبر أحد روائع النثر التركى التى تعد على الأصابع .

عقب بابر (الأب والابن) ، همايون شاه (١٥٣٠ - ١٥٤٠ - ١٥٥٥ - ١٥٥٦) ، أكبر شاه (١٥٥٦ - ١٦٠٥) جهانكيرشاه (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ، شاهجهيان الذى شيد تاج محل (١٦٢٧ - ١٦٥٨) ، افرنكزيب عالمكير شاه (١٦٥٨ - ١٧٠٧) .

تكونت حضارة غنية جدا تحت تأثير الثقافة الفارسية . وقد وحد عالمكير للمرة الثانية فى التاريخ ، كامل الهند تحت حكم سياسى موحد ، وبدأ بعدها الانقسام .

احتل الإنجليز البنغال فى نهاية القرن ١٨ . اضرمت قوات الخيالة « السباهى » التركية بمساندة بنى تيمور ، نار ثورة كبيرة لطرد الانجليز ، لكنها اخمدت . خلع

الانجليز بابرشاه الثانى (١٨٣٧ - ١٨٥٨) اخر حكام بنى تيمور من عرشه ونفوه إلى برمانيا (٤ / ١٢ / ١٨٥٨) (وفاته : رانغون ، ٧ / ١١ / ١٨٦٢) .

استمر اسم « المغول » الذى أطلقه الإنجليز على بنى تيمور الهند فى المؤلفات التاريخية على الرغم من أنه ليست هناك للدولة علاقة بالمغل .

٣٧) امبراطورية الهند الجنوبية :

أسس البهمنيون (١٣٤٧ - ١٥٢٥) فى الهند الجنوبية امبراطورية مركزها دكن Dekken منفصلة عن سلطنة دلهى .

انقسمت هذه الامبراطورية إلى ٥ دول ، أهمها دولة عادل - شاه الذين يعتبرون ورثة للبهمنيين (١٤٩٠ - ١٦٨٦)

كان أول حاكم لهم هو الأمير التركى المسمى يوسف عادل - شاه ، وهو ثائر ظفر بالعرش مدعيا أنه الأخ الأصغر للسلطان فاتح العثمانى . أما القطب شاهيون (١٥١٢ - ١٦٨٧) فهم أمراء (بكات) قرة قويونلو التركمان .

جميع هذه الدول ؛ سواء هاتين الدولتين ، أو الثلاث الآخريات اللواتى تقاسمن الهند الوسطى والجنوبية كانت من قبل بنى تيمور .

٣٨) الدول التركية الأخرى فى الهند :

أهم الدول التركية الأخرى التى تأسست فى الهند هى : المابريون (١٣٣٤ - ١٣٨٨) فى جنوب الهند وقاعدتهم مادورا ، وديان بنغال (١٢٠٢ - ١٢٩١) ، وملوك بنغال (١٣٣٨ - ١٥٧٦) وغورور مالوا (١٣٩٢ - ١٥٣١) ، فى الهند الوسطى فى برار ، وسلاطين هانبور شرقى (١٣٩٩ - ١٤٩٩) ، وأمراء خاندش فاروقى فى الهند الوسطى (١٣٩٩ - ١٦٠١) ، والشاهيون فى كشمير (١٣٣٤ - ١٥٦١) ، والأركون فى بلوجستان (١٤٧٥ - ١٥٥٤) ، والطرخانيون فى السند (١٥٥٤ - ١٥٩٩) . وكل هؤلاء تقريبا قضى تيمور عليهم .

(٣٩) السلطنة التركية فى مصر (١٢٥٠ - ١٥١٧) :

تسلم الحكم فى مصر فى ١٢٥٠ جيش الحرس التركى الخاص بالسلطان الأيوبى (خاصة اوردوسى) وتأسست أقوى سلطنة مملوكية فى القرون الوسطى سميت « الدولة التركية » بصورة رسمية (مصر ، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، الأردن ، الأناضول الجنوبية ، الحجاز ، اليمن ، السودان ، ولفترة ليبيا وحتى تونس) .

وقد اعتمد الحكام المقتدرون مثل آيبك (١٢٥٠ - ١٢٥٧) ، قطز (١٢٥٧ - ١٢٥٩) ، بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) ، قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) ، ناصر الدين محمد (١٢٩٣ - ١٣٤١) ؛ على جيش قوى وحضارة تزينها آثار معمارية فريدة تستمد أصالتها من ثقافة عربية غنية .

انتصر السلطان قطز فى واقعة عين جالوت وصد المغول المشركين واوقفهم عند باب مصر وافريقيا ، ثم استرجع المماليك آخر قاعدة للصليبيين فى شرقى البحر الأبيض .

يلى عهد المماليك الأتراك أو البحريين (١٢٥٠ - ١٣٨٢) الذين حافظوا على الخليفة وبلدانه المسلمة المقدسة (مكة ، المدينة ، والقدس) - عهد المماليك الشراكسة أو البرجيين (١٣٨٢ - ١٥١٧) . وقد اعتلى العرش فى هذه الفترة سلاطين الشراكسة المستركين وعانت الدولة المملوكية من عدم تملكها من تشكيل قوة بحرية وضعفها فى هذا المجال مما اسفر عنه انضمامها إلى الدولة العثمانية .

٤٠) الامبراطورية التركية فى إيران :

انتقل حكم إيران - العراق بعد الايلخانيين إلى الجلائريين (١٣٣٦ - ١٤١١) ، فالتيموريون ثم إلى حكم سلالتين تركمانيتين هما أصحاب الخرفان السود (قرة قويونلولر) (١٤٣٧ - ١٤٦٧) وأصحاب الخرفان البيض (آقويونولو) (١٤٦٧ - ١٥٠٢) .

كانت هذه السلالات سنية - حنفية وكانت مسيطرة على الاناضول الشرقية كذلك وكانت قاعدتهم تبريز .

٤١) الصفويون (١٥٠٢ - ١٧٣٦) :

ظهر بعد ذلك شاه إسماعيل . ثامن شيوخ الصفويين الارديبل ذوى النفوذ القوى جدا منذ ١٣٠١ والذين بدءوا سنيين ثم اصبحوا شيعيين . كان من ناحية الأم حفيدا للسطان آقويونلو أوزون حسن بك (١٤٥٣ - ١٤٧٨) . جمع حوله مئات الألوف من الاناضوليين التركمان تحت الشعار الشيعى وانتقل إلى إيران .

أجبر إيران أهل السنة على التشيع على مذهب الأثنى عشرية بالدم والنار . .

وحد بساط المشيخة مع تاج الشاهية ، وأسس فى إيران دولة قوية جدا . وقد كانت هذه الدولة التى أخذت بمرور الزمن تتقبل الثقافة الإيرانية ، تستند على جيش تركمانى خيال . لكن لم يكن لديها قوة بحرية .

كون الشاه إسماعيل الذى يمتاز بأنه من أكبر شعراء اللغة التركية ، امبراطورية كبرى ، بين دياربكر وطاشقند . وازداد نفوذ هذه الدولة كثيرا على أيام ابنه شاه طهمسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) وحفيده شاه عباس (١٥٨٧ - ١٦٢٨) .

شطرت هذه الدولة العالم الإسلامى والتركى إلى شطرين ثم ضعفت بعد ذلك واضمحلت السلالة .

٤٢) الأوشار Avsarlar

جلس نادر شاه اوشار (١٧٣٦ - ١٧٤٧) على عرش شاهات الصفويين ، بينما كان أحد أمراء (بكات) التركمان ، هو آخر فاتح عالمى فى التاريخ التركى . قام بحملات واسعة للسيطرة على قفقاسيا وتركستان والهند .

كان سنيا حنفيا فى باطنه . غير أنه لم يتمكن من اعلان المذهب السنى فى إيران الشديدة التشيع . حاول أن يحمل الخليفة فى استانبول على الاعتراف بالمذهب الشيعى الجعفرى المعتدل ، لكنه لم يوفق .

٤٣) القاجاريون Kacarlar (١٧٧٩ - ١٩٢٥) :

القاجار ، هى آخر سلالة تركمانية جلست على العرش الإيرانى . خرجت إيران من عداد الدول العظمى وانسحبت من قفقاسيا عندما غلبتها روسيا فى ١٨١٣ و١٨٢٨ .

خلع الشاه رضا ، الشاه القاجارى السابع أحمد شاه قاجار عن عرشه وأسس السلالة البهلوية وأنهى عهد الحكام الأتراك الذى دام ٩ قرون (كانت امه كذلك تركية) .

٤٤) الامارات التركستانية :

بعد أن طرد الشيبانيون ، وهم إحد فروع سلالات جنكيز فى ماوراء النهر (١٥٠٠ - ١٥٩٩) ، التيميوريين من تركستان وقذفوا بباهورشاه إلى الأفغان ، وزحفوا على الهند لفتحها ، كونوا دولة ذات قدرة كبيرة (قاعدتهم سمرقند وعلى الأغلب بخارى) .

مؤسس السلالة محمد شيباك (شيبانى) خان (١٥٠٠ - ١٥١٠) ، من الشعراء المتميزين فى اللغة التركية .

غلبه الشاه إسماعيل وقتله . كان عبد الله خان (١٥٨٣ - ١٥٩٨) من أقدر حكام السلالة ، وقد خرجت تركستان أى خاقانية الترك الشرقية بعده من عداد الدول العظمى ثم تمزقت تركستان بين خاقانيات الترك الصغرى وفقدت مكانتها فى التاريخ العالمى .

بسط الجانيون (١٥٩٩ - ١٧٨٥) الذين اعقبوا الشيبانيين وكانوا من سلالة جنكيز مثلهم ، نفوذهم على قسم كبير من ماوراء النهر . كانت قاعدتهم بخارى .

وقع المانغت (١٧٨٥ - ١٩١٩) الذين احتلوا مكانهم تحت سيطرة الروس فى ١٨٧٣ وتركوا للروس حتى طاشقند وسمرقند . استمر حكمهم فى بخارى وجوارها حتى ١٩١٩ ، وفى الثورة الشيوعية ، تأسست فى البداية جمهورية بخارى ، ثم جمهورية اوزبكستان التابعة للاتحاد السوفييتى . وهكذا انتهى عمليا ١٩١٩ الوجود السياسى التركى فى تركستان .

دامت سلطنة خانات خرزم (١٥١٢ - ١٨٠٤) ، ثم سلالة كونغرات (١٨٠٤ - ١٩١٩) وكليهما من سلالة جنكيز فى البلاد التاريخية المسماة خرزم (خوارزم) فى جنوب بحيرة آرال فى قره قالباقستان الحالية ، واتخذوا حيوه عاصمة لهم . سقط هؤلاء كذلك تحت النفوذ الروسى فى ١٨٧٣ وبقى حكمهم الذاتى وسلالتهم حتى قدوم الشيوعيين فى ١٩١٩ .

الحقت إمارة (خانية) خوقند فى فرغانة (١٧١٠ - ١٨٧٦) بروسيا . تقلصت إمارة قازاق (١٤٥٠ - ١٨٧٣) التى يترأسها خانات من سلالة جنكيز فى قازاخستان الحالية وانفصلت إلى أقسام .

جاهدت فى استمرار كيانها تحت الاحتلال الروسى حتى ١٨٧٣ . فتح قينسارى قاسم خان (وفاته ١٨٤٧) أحد خانات القوزاق ، استمر جهادهم ضد الروس لمدة ٣٠ سنة .

استطاع يعقوب (١٨٧٠ - ٧٧) وبك قولو (١٨٧٧ - ٨٢) فى كاشغر فى تركستان الشرقية أن يحافظا على استقلالهما فى مواجهة الصين مع استمرار تبعيتهما للعثمانية ، لكنهما لم يتمكنا فى النهاية من صد الاجتياح الصينى ، وجدير بالذكر أن الحركات الاستقلالية فى تركستان الشرقية قد استمرت حتى عصرنا الحاضر ولقد تم لعدة مرات اعلان تأسيس دول تركية ، ولكن استولى عليها الصينيون .

انكسر الفريق الأول عبد النياز بك مع جيشه التركى البالغ ٨٠,٠٠٠ جندي ، أمام الجيش الروسى - الصينى الاتحادى واستشهد (١٥/ ٨ / ١٩٣٧) .

٤٥) أتراك الشمال :

تعتبر إمارة قرم (١٤٢٧ - ١٧٨٣) من أهم الدول التى تكونت على أنقاض خاقانية الطون أوردى كما هى الحال فى دول أتراك الشمال الأخرى فى أوربا الشرقية . وهذه الامارة يجب النظر اليها ضمن إطار التاريخ العثمانى .

أما إمارة (خانلق) قزان (١٤٣٧ - ١٥٥٦) التى تنحدر من فرع جوجى اولوصو لسلالة جنكيز فهى مثل إمارة قرم ، ظلت حتى عام ١٤٦٧ ، تحت سيادة

إمارة موسكو الكبرى . وحتى يتسنى لها الاستمرار فقد تبعت العثمانية لفترة من الزمن . لكنها تعرضت للاستيلاء الروسى . أما إمارة قاسم (قسيم) الصغيرة (١٤٤٥ - ١٦٨١) والتى كان حكامها من بنى جنكيز فقد تمكنت من الاستمرار بخضوعها إلى سيادة موسكو فى ١٥٠٦ رغم أن مدينة عرشها تقع على مسافة ٢٣٠ كم جنوب شرقى موسكو .

لم تتمكن إمارة آسترخان (١٤٦٦ - ١٥٥٧) - من بنى جنكيز كذلك ، رغم انها تبعت العثمانية لفترة - من صيانة ستقلالها تجاه الروس . وبذلك لم يكن الروس فى ١٥٥٦ - ٥٧ قد امتدوا بسهولة على ضفاف الفولغا فحسب بل كانوا قد تمركزوا فى دلتا الفولغا وتوصلوا إلى شمال بحر الخزر ، وان كانوا لايزالون بعيدين جدا عن البحر الأسود بسبب المانع العثمانى ، وعن البلطق بسبب المانع السويدى .

احتل خانات تمن Tumen (١٥٦٣ - ١٦٥٦) من بنى جنكيز سيبيريا الغربية ، مكان خانات قرغز (١٢٠٠ - ١٥٦٣) الذين سبقوهم وتعرضوا لاستيلاء الروس .

وقبل عدة سنوات من حلول عام ١٦٠٠ دخل الروس سيبيريا أو بالأحرى آسيا وامتدوا إلى المحيط ، وخلال قرن واحد ، أصبحوا جيران الصين فى الشمال .



الباب الثالث

تركية قبل العثمانية

٤٦) فتح الأتراك للأناضول :

كانت بعض الأقوام التركية قد غزت الأناضول قبل الإسلام ، فقد جاب الجنود الأتراك الذين دخلوا فى خدمة الخليفة العباسى بعد الإسلام بخيولهم سفوح جبال طوروس وسواحل الفرات عصورا طويلة لحساب بغداد . وفى هذه الفترة كانت الاناضول من جملة الأراضى البيزنطية (روما الشرقية) .

تمكن العرب من فتح جنوب شرقى الأناضول فقط ودعوة سكانها إلى الدين الإسلامى ، ومن الواضح انه لم يتسن القضاء على البيزنط .

أخذت السلالات العربية الحاكمة الصغيرة تتولى مهمة الغزو والجهاد ضد البيزنط والدفاع عن الحدود الإسلامية فى الأناضول ، بعد أن ضعفت الدولة العربية العالمية (العظمى) وفقد الخليفة سلطانه فى بغداد . وقد أهمل الهدف الذى كان قائما فى صدر الإسلام وهو جعل الأناضول أراضى إسلامية والانتصار على البيزنط ، والحقيقة ان ازدياد القوة العسكرية البيزنطية على أيام السلالة المكدونية ، وحملات الجيش البيزنطى المؤثرة على أعماق سوريا ، جعلا تحقيق هذا الهدف غير ممكن . ولكن الحقائق التاريخية تؤكد أن أول من فكر فى فتح الاناضول هم السلاجقة .

وفى ١٠١٥ ، أجرى سلجوق أوغلو جغرى بك أول حملة أناضولية تعرف فيها على مقاومة البيزنط فى الأناضول الشرقيةُ ، وفى هذه الحملة هزم سلجوق أوغلو قتالمش بك الجيشَ البيزنطى فى حرب باسينلر Pasinler الميدانية قرب أرضروم ، وأسر القائد العام Liparit مع ١٠٠٠٠٠ بيزنطى (١٨ / ٩ / ١٠٤٩) ، وأرسل الامبراطور البيزنطى فدية إلى الخاقان الأكبر أرطغرل بك (وهو أخو جغرى بك وعم قتالمش بك) لاعادة Liparit . إلا أن أرطغرل بك أعاد الفدية ووعد باطلاق سراح لباريد مقابل إعادة فتح الجامع الذى أغلق فى استانبول لعبادة المسلمين المقيمين فيها ، وقد تم بالفعل فتح الجامع وتلى فيه اسم أرطغرل بك بعد اسم الخليفة العباسى .

جاء أرطغرل بك بنفسه إلى الأناضول فى ١٠٥٤ ، وأخذ قلعة بايبرت Bayburt ووقف أمام قلعة ملازغرت Malazgirt لكنه لم يوفق فى إسقاطها ، فعاد بعد تجواله حول محيط بحيرة وان .

قام ملوك السلاجقة وأمراء الأتراك بترتيب غزوات على الأناضول فى كل سنة تقريبا وأخذوا يتقدمون فى غزواتهم نحو الغرب .

كان هذا الوضع عند وفاة أرطغرل بك فى ١٠٦٣ ومجىء خلفه ابن أخيه سلطان ألب - أرسلان بن جاغرى بك .

أخذ أفشين بك أحد أمراء (بك) السلجوقيين ، قيصرى بعد أن هزم الجيوش البيزنطية فى ١٠٦٦ فى حصن منصور (آدى يامان) وفى السنة التالية قرب ملاطية . دخل أفشين بك التابع لأمر سليمان - شاه بن قتالمش بك الموجود فى آذربيجان ، إلى قونية فى ١٠٦٩ ، وبعد أن هزم فى السنة التالية قرب نهر قيزل ايرمق الأمير Manuel Komnenos تقدم إلى دنيزلى ، وأدخل وحداته الطليعية حتى بحر إيجه ومرمرة .

وبعد هذه الغزوات التى كسرت قدرة البيزنط الدفاعية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية ، أرسل افشين بك تقريره حول مواتاة الفرصة لفتح الأناضول إلى قائده سلجوق أوغلو سليمان - شاه والى الخاقان الأكبر السلطان ألب - أرسلان .

دخل ألب – أرسلان فى صيف ١٠٧٠ إلى الأناضول وأخذ مدينة ملازغرت ، وانتقل منها إلى عامد (دياربكر Diyarbakir) وبقى مدة فى هذه المدينة التى يحبها كثيرا . ورغم جهوده التى دامت مدة ٥٠ يوما ، لم يتمكن من إسقاط قلعة أورفه البيزنطية ، فجاء إلى حلب واستراح فيها وغادر الأناضول عن طريق عامد – بتلس – أخلاط ، مصمما على أن يعاود الكرة فى السنة القادمة .

٤٧) وقعة ملازغرت الميدانية (٢٦ آب ١٠٧١)

تقابل السلطان ألب – أرسلان ، وجيشه البالغ ٥٠٠٠٠ جندى مع جيش أمبراطور البيزنط Romanos Diogenes البالغ عدده ٢٠٠٠٠٠ جندى أمام سفوح قلعة ملازغرت صباح يوم الجمعة الموافق ٢٦ آب . أباد السلطان ألب – أرسلان الجيش البيزنطى وأسر الامبراطور .

من بين أسباب الانتصار التركى ، تشكيل الجيش البيزنطى من عناصر متعددة لايعرف أحدها لغة الآخر ، وانتقال الوحدات الأجيرة الناطقة بالتركية كالبجنك Peçenek والأوز Uz التى لم تدخل الإسلام بعد – إلى صفوف السلاجقة قبل الحرب بمدة وجيزة ، كما أن مشاة البيزنط لم تدرك قصد مناورات الخيالة التركية والوحدات التركية التى استهدفت غش العدو . أمر السلطان ألب – أرسلان ابن أخيه قتالمش أوغلو سليمان – شاه بفتح الأناضول بعد واقعة ملازغرت .

تعد واقعة ملازغرت إحدى الحوادث الأم فى التاريخ ، التى أسفر عنها تحول الأناضول إلى أراض إسلامية ووطن ثان ، كما تعد هذه الواقعة كذلك إحدى الحوادث السياسية فى تأسيس الدولة التركية وتكوين الحملات الصليبية ، وعلى العموم يمكن النظر اليها على أنها كانت الحادثة التى هيأت الأسباب لولادة الدولة العالمية العظمى ، العثمانية .

(٤٨) تأسيس الدولة التركية (١٠٧٤) :

فتح الغازى سليمان – شاه الأناضول بسرعة . جاء إلى اسكدار وإلى الضفة الأناضولية من البوغاز واستشرف قبه اياصوفيا . أرسل السلطان ملكشاه بن ألب

أرسلان – الذى اعتلى العرش حديثا فى نهاية العام ١٠٧٤ – إلى سليمان – شاه منشور سلطنة الأناضول .

تأسست الدولة التركية وكانت مدينة العرش إزنك Iznik القريبة جدا إلى بحر مرمرة .

أخذ السلطان سليمان – شاه الأول مخرج البيزنط إلى أوربا تقريبا ، فاتح الأناضول ، بانى الدولة التركية وسلطانها الأول ، أنطاكيةَ من البيزنط (١٣ / ١٢ / ١٠٨٤) . جاء مئات الآلاف من الأتراك ، من الشرق واستوطنوا الأناضول مبتدئين بالمدن أولا ، مات سليمان – شاه (٥ / ٦ / ١٠٨٦) فى حرب مع ابن أخيه (سلطان قطلش بن ألب – أرسلان) قرب حلب . خلفه ابنه الطفل قيليج – أرسلان الأول .

كان سليمان – شاه قد ولى على أزمير التى فتحها .

يعتبر الأميرال جقا بك فى ١٠٨١ ، هو المؤسس لأول أسطول تركى فى التاريخ . ذلك أن الأتراك حتى ذلك التاريخ كان يشتهرون بقوة جيوشهم ، ولم يكونوا يهتمون بالبحر .

تعتبر تركيه هى الدولة الوحيدة التى اهتمت بالبحر. أمر جقاً بك بصنع ٤٠ سفينة حربية فى أزمير ، فتح جزر ايجه (ساقز ، مديللى ، رودس ، سيسام .. الخ) .

٤٩) الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ – ١٠٩٩) وسلطان قيليج – أرسلان الأول (١٠٨٦ – ١١٠٧) :

تشير جميع الشواهد ومن بينها وصول الأتراك إلى المضائق : مرمرة وإيجه فى حملة واحدة ، إلى أنهم سوف يفتحون البيزنط وأن البيزنطيين سوف لا يتمكنون من صدهم ، قد ولد هذا الهياج فى أوربا . فالمرابطون فى أسبانيا والأتراك فى الأناضول قبضا على خناق أوربا من جانبيها وكانا يخنقان العالم المسيحى الذى كان متدهورا من الناحية الاقتصادية ، وقد ولد هذا الهياج فى أوربا ولذا تشكلت الحملة الصليبية الأولى .

جاءت القوة المسيحية التى تجمعت من هنا وهناك ، والتى تقدر بـ ١٥٠٠٠٠ شخص ، إلى منطقة قريبة من إيزنك مدينة عرش تركيا ، فأفناها السلطان قيليج - أرسلان . اتحدت الموجة الثانية من الحملة الصليبية الأولى ، التى تبلغ نحوا من ٦٠٠٠٠٠ مسيحى ، مع الجيش البيزنطى وعبرت إلى الأناضول . كانت الدولة التركية فتية جدا . لم يكن عمرها قد بلغ ربع القرن . ولم يكن من الصعب على قوة صليبية كهذه ان تقلع الأتراك من الأناضول وتخرجهم وتطاردهم حتى إيران . استسلمت إيزنك ونقلت العاصمة التركية إلى قونية . جابه السلطان قيليج - أرسلان ، الجيش الصليبى فى اسكيشهر (٣٠ / ٦ / ١٠٩٧) ، حيث جرى قتال دموى شديد ، لم يتمكن جيش السلطان من إفناء جيش العدو . استخدم البادشاه السلجوقى مع العدو حرب العصابات وكبدهم خسائر جسيمة .

خسر الصليبيون أثناء خروجهم من الأناضول نصف مليون شخص ، وتركوا الأناضول متوجهين لاحتلال أنطاكيا ، والقدس مع ١٠٠٠٠٠ شخص فقط . استرجع البيزنط الذين استفادوا من هذا الوضع من الأتراك كامل إيجه ومرمرة وسواحل البحرين الأبيض والأسود .

اضطرت الدولة التركية ــ التى أزيحت عن البحار ــ إلى الدخول فى صراع طويل الأمد لاستعادة منافذها على البحار .

تمكن قيليج - أرسلان الأول من الحفاظ على كيان واستقلال الدولة التركية .

أخذ الموصل ، ولكنه غرق أثناء عودته مع حصانه فى النهر ودفن فى ميافارقين (Silvan) . خلفه ابناه : السلطان ملك شاه (١١٠٧ - ١١١٦) ، وعلى أثر وفاته فى سن الـ ٢٠ خلفه مسعود الأول .

٥٠) السلطان مسعود الأول (١١١٦ - ١١١٥) والحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ٤٩)

جلس السلطان مسعود حفيد سليمان شاه الأول (الذى مات وعمره ٤١ سنة) ، وابن قيليج أرسلان الأول (الذى مات وعمره ٣٤ سنة) على العرش وهو فى الـ ١٨ من عمره ، فى الوقت الذى كانت لاتزال التأثيرات السيئة للحملة الصليبية الأولى مستمرة ، وكانت تركيا قد حرمت من النفاذ إلى البحار ، وكانت

الدولة اللاتينية (الكاثوليكية) التى تكونت فى الأناضول ، سوريا ، وفلسطين ، قد أصبحت بلاء مسلطا على العالم الإسلامى ، فقد اكتسب البيزنط قوة وباتوا ينتظرون الفرصة المناسبة .

قَدِمْ عشرات الألوف من الأتراك سنويا من الشرق وسكنوا فى الأراضى الأناضولية ، وكان الإقطاعيون الأتراك فى الأناضول الذين يعترفون بتبعيتهم للدولة السلجوقية الأناضولية ، أى للسلطنة التركية ، قد أصبحوا وكأنهم حكام مستقلون . وخلال هذه الأزمة ، تكونت الحملة الصليبية الثانية .

تقدم امبراطور ألمانيا Konrat الثالث مع جيشه البالغ ٧٥٠٠٠ شخص إلى حدود سهل قونيه . أفنى مسعود الأول الصليبيين الذين اصطدم معهم فى الحرب الثانية الميدانية اسكيشهر (٢٥ / ١٠ / ١١٤٧) . لجأ الامبراطور مع ٥٠٠٠ من جنده إلى إيزنك . دخل الأناضول بعده ملك فرنسا لويس ٧ مع ١٥٠٠٠٠ جندى ، ولما لم يكن جيش السلطان مسعود بالعدد الذى يمكنه من التغلب على هذه القوة فى معركة ميدانية ، فقد فضل الانسحاب علي احتمال التفريط فى مستقبل دولة تركيه الفتية ، ومارس حرب العصابات مع الصليبيين أثناء اجتيازهم جبال طوروس وكبدهم خسائر فادحة .

انسحب ملك فرنسا من الأناضول . توفى مسعود الأول بعد سلطنة دامت ٣٩ سنة وعمره ٥٧ سنة ، فخلفه ابنه قيليج - أرسلان وعمره ٣٩ عاما وهو خامس حكام تركيا .

٥١) قيليج أرسلان الثانى (١١٥٥ - ١١٩٢) ، مريوكفالون (١١٧٦) والحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢)

أخضع السلطان قيليج أرسلان الثانى الأمراء الاقطاعيين فى الأناضول تحت سيطرته وألغى وصفى بعض الاقطاعيات واستخدم سياسة إعمارية واسعة فى الأناضول .

تمكن بسياسته الحكيمة من إسكان ملايين الأتراك الذين قدموا إلى ذلك التاريخ ، فعمّر المدن الصغيرة الفقيرة وحولها إلى مدن كبيرة .

بدأ البيزنط الذين شاهدوا تزايد قوة تركيا الفتية واستيطانها فى الأناضول ، بصورة تامة ، باتخاذ التدابير .

دخل الامبراطور Manuel Komnenos الأراضى التركية . واجه قيليج أرسلان الجيش البيزنطى فى موقع مريو كفالون Miryokefaion على مقربة من شمال بحيرة اغريدر Egridir وهزمه شر هزيمة (١٧ / ٩ / ١١٧٦) .

أمر الخليفة فى بغداد بإقامة احتفالات كبيرة والدعاء لأرواح الشهداء الأتراك فى خطبة الجمعة .

أصبح من الثابت عدم إمكان هدم الدولة التركية وعدم إمكان إزاحة الأتراك من الأناضول ، ولم يحاول أحد بعد ذلك التاريخ أن يقوم بشيء من هذا القبيل .

لكن موجات الحملة الصليبية الثالثة . اصطدمت بالأناضول مرة أخرى ، وذلك عندما دخل امبراطور ألمانيا فريدريك بارباروسا Friedrich Barbarossa الأناضول مع ٢٠٠٠٠٠ جندى ومعهم ٤٠٠٠٠٠ من شذّاذ الآفاق ، وجاء إلى قونية . وبعد أن تكبد خسائر جسيمة ، تقدم فى سواحل البحر الأبيض ومات غرقا فى النهر ، وبقى فى الأراضى الأناضولية ، وبينما انشغل السلطان التركى ى دفن الامبراطور الألمانى ، كان صلاح الدين الأيوبى يقاتل ملوك إنجلترا وفرنسا فى فلسطين .

٥٢) أبناء قيليج أرسلان الثانى (١١٩٢ - ١٢١١)

توفى قيليج أرسلان الثانى وهو فى سن ٧٦ ، فخلفه أصغر أبنائه كيخسرو الأول (١١٩٢ - ١١٩٦) ، ثم كبير أبنائه سليمان شاه الثانى (١١٩٦ - ١٢٠٤) ، وعلى أثر وفاته ــ وهو فى سن ٥٤ ــ اعتلى العرش كيسخرو الأول مرة أخرى (١٢٠٥ - ١٢١١) ، حيث استشهد وهو يجابه البيزنط وعمره ٤٢ سنة . ولقد اقتفى هذان الحاكمان المهمان أثر أبيهما فى إزاحة بيزنط من الأناضول على قدر الإمكان ، كما نفذا إلى سواحل البحر الأسود مرة أخرى ، وعلى رأس المنافذ التى حازاها مدينة صمصون .

٥٣) كيكاووس الأول (١٢١١ - ١٢١٩) وعلاء الدين كيكباد (١٢١٩ - ١٢٣٧) :

جلس على العرش التركى بعد غياث الدين كيخسرو الأول ، السلطانان التاسع والعاشر فى التاريخ التركى ، وهما أكبر أبنائه عزالدين كيكاووس الأول وعلى أثر وفاته فى سن ٣٥ أعتلى العرش أخوه علاء الدين كيكباد .

استولى كيكاووس على سينوب وأسس فيها معملا للسفن وأسطولا للبحر الأسود . أصبحت امبراطورية طرابزون البيزنطية تحت السيادة التركية . يطلق على أخيه السلطان كيكباد لقب « علاء الدين الكبير ، علاء الدين المعلى » وهو فى تركيا السلجوقية ، بمثابة السلطان سليمان القانونى فى تركيا العثمانية . امتاز عهده بالرفاهية وزيادة العمران وتطور التجارة وتنمية الصناعة وتقدم الزراعة استطاع أن يجعل من تركيا أغنى بلد فى العالم . وقد كان ذلك بسبب سياسته العسكرية الراجحة ودبلوماسيته المتفوقة .

أرسل أسطولا إلى قرم وأخضعها للسيادة التركية ، وارتبطت الملكية الأرمنية فى كليكيا ، بقونية بروابط اكثر متانة ، كما قوى السلطان علاء الدين علاقته بالعالم الإسلامى بمصاهرته السلطان الأيوبى الملك العادل .

ألغيت الامارات الاقطاعية التركمانية فى الأناضول واستعيض عنها بإدارات من الولاة يتم تعيينهم مركزيا .

أخذت من البيزنط جميع سواحل البحر الأسود المنحصرة بين أركلى وأونيه (كانت السواحل البيزنطية تبدأ اعتبارا من غرب قره دنيز اركليسى وسواحل امبراطورية الروم فى طرابزون شرقى اونيه)تم اخضاع امبراطورية طرابزون للسيادة التركية ، وارتبطت بها بروابط متينة .

خلال هذه الأيام ، وكمغامرة دخل خاقان أتراك الشرق (تركستان) جلال الدين خوارزم شاه إلى الأناضول ، فخرج إليه خاقان أتراك الغرب (تركية) وقابله قرب ارزنجان وأخرجه من الأناضول (الحرب الميدانية ياصى جمن ١٠ / ٨ / ١٢٣٠) . وفى هذه الحرب ، كان بك أخلاط أرطغرل بك موجودا فى جيش علاء الدين كيكباد أى فى الجيش التركى . ارطغرل بك هو أبوعثمان غازى الذى

يعتبر مؤسس الدولة العثمانية . وقد وضع السلطان السلجوقى حجر أساس الدولة العثمانية بمنحه ارطغرل أراضى على الحدود البيزنطية ، مكافأة لخدماته فى هذه المعركة .

وصل السلطان علاءالدين إلى أرضروم . أعلن ملكا حلب والشام الأيوبيان ، إنهاء تبعيتهما للسلطان الأيوبى فى مصر وأعلنا خضوعهما للسلطان علاء الدين كيكباد .

استولى علاء الدين الذى اتخذ لقب « سلطان الأعظم » وأعلن أنه الخلف الشرعى للسلطانين الأيوبى والسلجوقى على سواحل البحر الأبيض اعتبارا من خليج فينيقيا Finike نحو الشرق . وأسس فى علائية (آلانيا) مصنعا للسفن وأسطولا للبحر الأبيض . أخضع المناطق المحيطة ببحيرة وان ، وقبل تابعية آتابك الموصل وأربيل . كان ملوك الأيوبيين فى ميافارقين (Silvan) وحصن كيفاء (Hasankeyf) وملوك أرتقلو فى ماردين تابعين لقونية .

اضطرب السلطان الأيوبى - الأكبر فى مصر ، استصحب معه ١٦ ملكا أيوبيا وحاول دخول الأناضول مع ١٠٠٠٠٠ شخص ولكنه خسر وانسحب ، صادق الخليفة العباسى فى بغداد بصورة رسمية على لقب السلطان الأعظم « أعظم سلطان إسلامى »، الذى أطلق على علاء الدين . فى نفس الوقت شعر البادشاه العثمانى باقتراب الخطر المغولى فرفع ميزانية الدفاع السنوية إلى ١٠٠ مليون دينار ذهبى ، وكانت هذه أكبر ميزانية عسكرية فى العالم . مات مسموما وعمره ٤٥ سنة . ولم يفلح السلاجقة بعد ذلك ، وبدأ الانحطاط فى فترة غير متوقعة أبداً ، مع مجىء ابنه الذى خلفه غياث الدين كيخسرو (١٢٣٧ - ١٢٤٦) .

٥٤) بنو سلجوق الأخيرون (١٢٣٧ - ١٣٠٨) :

آخر خاقانات تركية من بنى سلجوق هم كيكاووس الثانى (١٢٤٦ - ١٢٥٦) (١٢٥٧ - ١٢٦١ وفاته ١٢٧٨) بن كيخسرو الثانى ، ثم ابنه قيليج أرسلان الثالث (١٢٥٦ - ١٢٥٧) (١٢٦١ - ١٢٦٦) ، ثم ابنه كيخسرو الثالث (١٢٦٦ - ١٢٨١ - وفاته ١٢٨٣) ، وكيكباد الثالث (١٢٩٧ - ١٣٠٢) وغياث الدين مسعود الثانى . توفى مسعود الثانى (١٢٨١ - ١٢٩٧) (١٣٠٢ - ١٣٠٨) بن كيكاووس الثانى وعمره ٥٠ سنة فى سراى قيصرى .

كان من أهم أسباب تهيئة الجو لاضمحلال الدولة التركية الاستيلاء المغولى ، بالاضافة إلى عدم كفاءة السلاطين ، وقلة الوزراء الحريصين ، وقلة المخلصين منهم .

وكذلك الحكام الذين ارتقوا العرش وهم فى سن الطفولة .

فر الجيش السلجوقى أمام الجيش المغولى فى كوسه داغ شرقى سيواس (٣ / ٧ / ١٢٤٣) ، ولكنه لم يدخل تحت سيطرة المغول حتى ١٢٧٦ . حيث سقط تحت سيطرة المغول (الايلخانيين) التامة اعتبارا من ١٢٧٦ واستولى المغول على الأناضول .

٥٥) الدولة التركية فى الأناضول فى عهد السلاجقة :

عاشت بعض الدول التركية التابعة لخاقانية تركية التى سلف وصفها فى الأراضى الاناضولية تحت سيطرة السلالات التركمانية : بنى دانشمند (١٠٩٥ - ١١٧٥) . [الذين اتخذوا مدن نكسار ، ملاطية ، قيصرى ، سيواس كعواصم] ، وبنى سلتوق Saltukogullari (١٠٨٠ - ١٢٠١) فى أرضروم ، وبنى منكجك Mengucekogullari (١٠٧١ - ١٢٥٢) [الذين اتخذوا مدن ارزنجان ، كماه ، ديوريكى عواصم] ، وبنى سكمن Sokmenogullari (١٠٩٨ - ١٢٣١) بنى ارتق Arlukogullari (ينتسب إلى هذه السلالة بلك Belek بك المشهور الذى سقط شهيدا فى جهاده ضد الصليبيين) وايلغاز (١١٠٤ - ١٤٠٧) فرع بنى ارتق فى ماردين ، بنى سكمن (١١٨٥ - ١٢٣٣) فرع بنى ارتق فى خربوتة ، وملوك الأيوبيين (١٢٠٠ - ١٢٥٩) فى ميافارقين (حاليا سلفان) ، وأتابكات آخلاط (١١٠٠ - ١٢٠٧) الذين يطلق عليهم اسم أرمن - شاهيّون ، واتابكات دياربكر (١٠٩٥ - ١١٨٣) الذين يطلق عليهم اسم بنى اينان ، والسوتاى (١٣١٢ - ١٣٥٠) الذين اعقبوهم فى عامد (اسمها الحالى دياربكر) . واكثرية هؤلاء قضى عليهم السلاجقة .

٥٦) الإمارات الأناضولية :

تزايد الأمراء التركمان الذين يطلق عليهم اسم أوج بك (أمراء الايالات الحدودية) بعد خضوع الامبراطورية التركية لسيادة الايلخانيين واسس كل منهم

سلالة حاكمة أدت دورا فى صيانة الحدود التركية - الإسلامية تجاه البيزنط والمسيحيين فى الأناضول الغربية ، وقد كان هؤلاء حتى عام ١٣٠٨ أمراء تابعين لسلطة البادشاه المقيم فى قونية (وأحيانا فى قيصرى) .

لم يتوج الايلخانيون بعد وفاة مسعود الثانى فى ١٣٠٨ ، ملكا سلجوقيا على العرش التركى ، وإنما كان آمراء (بكّات) التركمان هؤلاء يتبعون ايلخان المقيم فى تبريز مباشرة ، وتحت رقابة والى الأناضول العام الايلخانى المقيم فى أناضول الوسطى أو الشرقية .

دام هذا الوضع حتى عام ١٣٣٥ ، وعندما بدأت الدولة الايلخانية فى الانهيار (انهارت تماما فى ١٣٤٤) ، صارت الامارات الأناضولية مستقلة تماما . انقسمت الأناضول إلى دول متعددة وأصبحت مشابهة لألمانيا القرون الوسطى .

وهكذا انفصم الاتحاد التركى ، واستمر الوضع على هذا المنوال حتى مجىء العثمانية واخضاع هذه الامارات والقضاء عليها الواحدة تلو الأخرى .

من ناحية أخرى كانت هنالك فى الأناضول ، أراضٍ لدول أخرى أيضا ، مثل مناطق : انطاكية ، عنتب ، مراش ، ملاطية ، حصن منصور (حاليا آدى يامان) ، كانت تابعة لمماليك مصر - سوريا ، واقصى الأناضول كان تابعا للجلائريين الذين خلفوا الايلخانيين ، ولاصحاب الخرفان السود ، ولاصحاب الخرفان البيض وإلى ملوك الارتوقيين والأيوبيين الذين يبقون على كيانهم ، وكانت الامبراطورية الرومية قائمة فى مناطق طرابزون ، ريزه ، أرتفين ، والموانىء كاماسرا ، صمصون ، بيغا كانت فى حوزة الجنويين . أما البيزنط فقد بقيت لهم أراض قليلة فى الأناضول ، إذ إن السلالات التركمانيةفى الأناضول الغربية ، فتحت الأناضول الغربية واخرجت البيزنط منها كما اخرجتهم من البحر الأبيض وايجه . ان إمارات بنى بروانه Pervaneogullari (١٢٧٧ - ١٣٢٢) ، بني جوبان çobanogullari الأمير الكبير لقطاع شمال الأناضول الغربية المتاخم لحدود البيزنط فى قسطمونى (١٢٠٤ - ١٣٢٠) ، ارتنا أوغللرى Eretnaogullari فى سيواس وقيصرى (١٣٢٧ - ١٣٨٠) وقاضى برهان الدين الذى احتل مكانهم وأسس دولة قوية فى القطاع الشرقى من أناضول الوسطى (١٣٨٠ - ١٣٩٨) - لاتعتبر من الامارات التركمانية الأصلية للأناضول الغربية .

أهم السلالات التركمانية الأصلية التي سميت الامارات الأناضولية باسمها هي :
بنو قرة مان (١٢٥٠ - ١٤٨٧) الذين اتخذوا بين فترة وأخرى مدن أركلى ، أرمنك ، لارندة (حاليا قرة مان) وقونية .. عواصم لهم . اشتهر قره مان أوغلو محمد بك الأول باعلانه في ١٣ آيار ١٢٧٧ في مدينة قره مان ، اللغة التركية ، اللغة الرسمية الوحيدة المعتبرة . حيث قد أكثر بنو سلجوق من استعمال الفارسية في الشعر والعربية في المعاملات الرسمية ، ولم يكن للشعب معرفة بهاتين اللغتين .

بلغ الحد الأقصى الذى توصل إليه توسع بنى قره مان (نحو ١٣٦٠) ١٠٠٠٠٠ كم[٢] تقريبا . وقد عاشوا مدعين انهم الورثة الشرعيون للسلاجقة وإن كانوا لم ينجحوا فى جعل هذا الإدعاء مقبولا .

بنوجرميان Germiyanogullari (١٢٦٠ - ١٤٢٩) ، وهؤلاء كانوا أمراء حدود كبارا للقطاع الجنوبى من الأناضول الغربية المتاخم للبيزنط . قاعدتهم كوتاهية ، حدهم الأقصى فى التوسع هو ٤٤٠٠٠ كم[٢]

بنو قراسى Karasiogullari (١٣٠٣ - ١٣٤٥) ، أقصى ماحكموا من الأراضى ٢٤٠٠٠ كم[٢] . مركزهم بالكسير . قواعد بنى آيدن Aydinogullari (١٣٠٠ - ١٤٥٥) هى آيدن (قديما كوزل حصار) ، برغى ، أيا سلوغ وزامير ، أقصى مساحة توصلوا إليها ٢٠٠٠٠ كم[٢] . وقد أسس آيدن أوغلو غازى عمر بك أسطولا كبيرا وسيطر على بحر إيجه . وحقق هجمات بحرية كثيرة على الجزر واليونان ، وثراقيا وأنزل فيها جيوشه ، واستشهد فى أزمير أمام الصليبيين فى ١٣٤٨ .

بنو صاروخان Saruhanaogullari (١٣٠٠ - ١٤١٠) ، بلغت مساحة مملكتهم ١٤٠٠٠ كم[٢] ، قاعدتهم مانسيا .

بنو منتشه (١٢٨٠ - ١٤٢٦) أقصى مساحة توصلوا اليها فى حكمهم ٢٣٠٠٠ كم[٢] فى بجين وبالاط ، استمر حكمهم فى ولاية مغلا الحالية .

بنو أشرف Esrefogullari (١٢٨٠ - ١٣٩١) ١٦٠٠٠ كم[٢] ، قواعدهم أولوبورلو ، أغريدر ، حامد آباد (حاليا اسبارطه) وأحد فروعهم بنو تكه Tlekeogullari (١٣٠٠ - ١٤٢٣) ١٤٠٠٠ كم[٢] فى أنطالية وقور قودايلى .

بنو اينانج Inançogullari (١٢٧٦ - ١٣٦٨) ، فى لادك (حاليا دنيزلى) ٨٠٠٠ كم[٢] وهم فروع من بنى كرميان .

ومن الإمارات التى تستحق الذكر الإمارة التى سميت فى البداية جاندار أوغللرى ثم اسفنديار أوغللرى (١٢٩١ - ١٤٦١) وسعتها العظمى ٥٠٠٠٠ كم[٢] قواعدها افلانى ، قسطمونى وسينوب .
تاج الدين أوغللرى (١٣٠٨ - ١٤١٥) بلغت سعتها العظمى ١٢٠٠٠ كم[٢] قاعدتها نكسار .
قوتلوشاهلر (١٣٤٠ - ١٣٩٣) ، سعتها العظمى ٥٠٠٠ كم[٢] فى آماسيا .
راحت أوغللرى ، فى سيواس خلال القرن ١٣ - ١٤ .
جمهورية آخيلر فى أنقرة (١٢٩٠ - ١٣٥٤) .

بنو دلقادر Dulkadirogullari (١٣٧٧ - ١٥٢٢) حدها الأعظم فى الاتساع ٧٠٠٠٠ كم[٢] فى البستان وقد تبعت المماليك حتى ١٣٩٩ ، وبعدها تبعت العثمانية ، دام حكمهم على شكل إمارة حاجزة بين الدولتين الكبيرتين . تصاهر دلقادر أوغللرى مع العثمانيين بعدد كبير كبنى جاندار وبنى قرة مان . وعلى سبيل المثال فإن عائشة خاتون والدة السلطان سليم الذى أدمج السلطنة المملوكية فى الدولة العثمانية ، أميرة دلقادرية .

بنو رمضان Ramazanogullari (١٣٥٢ - ١٦٠٨) ، إمارة أخرى حاجزة بين المماليك والعثمانية . حدها الأعظم فى الاتساع ٣٣٠٠٠ كم[٢] ، حكمت فى البستان وبعد ١٣٨٣ فى أدنة . سيطرت على جقوراوفا . خضعوا للمماليك حتى عام ١٥١٦ . استمروا بعد ذلك كولاة للعثمانية .

استمرت هذه الإمارات بدخول معظمها فى خدمة العثمانية ، ولايزال بعضها الآخر مستمرا حتي يومنا هذا .

٥٧) الحياة الثقافية فى تركيه السلجوقية :

عاش كل من مولانا جلال الدين الرومى (١٢٠٧ - ١٢٧٣) ، وحاجى بكتاش ولى (١٢٠٩ - ١٢٧١) ، ويونس أمره (١٢٤٠ - ١٣٢٠) فى تركيا

السلجوقية . تأسست فى الأناضول فى هذا العصر طريقتان كبيرتان كالمولويه والبكتاشية تخاطب إحداهما المثقفين وتخاطب الأخرى الشعب .

جادت قريحة يونس امره بأجمل نماذج الشعر الصوفى ، ومن الناحية الأخرى نشأ وتطور الشعر الكلاسيكى التركى ، ويعتبر دهانى أكبر شاعر كلاسيكى تركى فى القرن ١٣ ، وقد جاء من خراسان ، وسكن فى قونية .

أما المؤسس الحقيقى للطريقة المولوية فهو سلطان ولد (١٢٢٦ - ١٣١٢) ابن مولانا ، ويعتبر عاشق باشا (وفاته ١٣٣٧) من بين الشخصيات الممتازة التى كتبت الشعر الصوفى التركى .

نصر الدين خوجا (خواجا نصر الدين) (١٢٠٨ - ١٢٨٤) الذى يعتبر داهية المزاح التركى ، من رجال العصر ذاته .

أحمدى (١٣٣٤ - ١٤٣٣) من الذين نهضوا بالشعر الكلاسيكى وخاصة فى أغراض الغزل والمثنوى .

وأخيرا ، نسيمى الذى أعدم فى السنوات الأولى للقرن ١٥ لكونه حروريا . من أصحاب الشعر الصوفى الوجدانى الذين ظلت اشعارهم تتلى فى العالم التركى لعصور طويلة .

وكتاب ده ده قورقود الجامع والذى يحتوى على ١٣ حكاية ملحمية يعتبر من روائع الأدب التركى الكبرى ، وقد حرر باللغة الكتابية فى أواخر القرن ١٥ ، غير أنه مشبع بعناصر التراث .

كان الأتراك الذين استوطنوا فى الأناضول وأسسوا الدولة التركية ، ينطقون بلهجة أوغز (أو الغرب) التركية . انقسمت هذه اللهجة فى أواخر القرن ١٥ إلى ٣ لهجات : اللهجة العثمانية أو الأناضولية أو التركية ، اللهجة الآذرية ، واللهجة التركمانية . أما لهجة أتراك الشرق الأدبية ، فكانت لهجة جغتارى ، واستعملت حتى نهاية القرن ١٩ .

وقد كونت اللهجات المحلية كذلك ، أدبا جديدا فى القرن ١٩ . وحتى العصر ١٥ ، سميت اللغة المستعملة فى الأدب التركى فى تركيا (لغة) أناضول القديمة ثم التركية (اللغة) العثمانية .

لقد حاولنا فيما تقدم أن نرصد ونوضح الخطوط الرئيسية للتاريخ التركى غير العثمانى ، ولاشك فى أن ذلك يمثل فائدة ، بل مدخلا ضروريا هاما قبل البدء فى تناول التاريخ العثمانى . وتزداد هذه الفائدة والضرورة وضوحا بالنسبة للقراء الأجانب والمثقفين .

مصادر الكتب . إن مصادر الكتب بالنسبة للذول التركية الإسلامية ، متنوعة جدا وغنية جدا ، ولعدم تعلقها بموضوعنا فقد تحاشينا كتابتها . ومعظم المصادر لفترة قبل العثمانية من تاريخ تركية مدون باللغة العربية الفارسية واليونانية ، أما البحوث فمعظمها باللغة التركية ، وهى عبارة عن الكتب التى نشرت فى السنوات الأخيرة . وسوف تأتى مصادر الكتب لفترة تركية قبل العثمانية فى نهاية كتابنا ضمن مصادر العثمانية وضمن بحث بداية العثمانيين .





المبحث الثاني

ظهور الدولة العثمانية وتطورها (١٢٣١ - ١٤٥٣)



ظهور العثمانية وتطورها (١٣٣١ - ١٤٥٣)

١) منشأ بنى عثمان :

أرطغرل بك هو الشخصية الأولى – التى لدينا معلومات تاريخية عنها – من الأسرة التى سميت فيما بعد « عثمان أوغلو » (بنوعثمان) .

أرطغرل بك هو : أرطغرل بن كندز ألب بن قايا ألب بن كوك ألب بن صارقوق ألب بن قايى ألب . وهذه هى شجرة أرطغرل بك الافتراضية ، ومن المعلومات المؤكدة انه ينحدر من القبيلة الأولى من قبائل أوغز البالغة ٢٤ ومن عائلة بكات إحدى عشائر قايى التى تعتبر سلالة خاقانية ، ومن المعلومات المؤكدة أيضا أن أباه وأجداده هم بكات (أمراء) هذه العشيرة . ومذهب الأسرة هو المذهب السنى الحنفى .

يقال أن القصة التى شاعت أخيرا حول أن أول من اعتنق الإسلام من الأسرة هو أرطغرل بك وابنه عثمان بك ، قصة قد لفقت لاعلاء شأن العائلة .

من المحتمل أن قبيلة قايى ، التى تحتل الدرجة الأولى بين أجداد بنى عثمان ، هى من الأوغز Oguz الذين استوطنوا فى الأناضول الشرقية بعد انتصار ملازغرت مباشرة فى ١٠٧١ . إن الفرضية التى تقول بأن الاستيطان حدث نحو ١٢٢٠ على أثر زحزحة جنكيز الأوغزيين المقيمين فى الوطن الأعلى (تركمنستان الحالية وشمالها) من أماكنهم وإجباره إياهم على الفرار إلى الأناضول عن طريق إيران ، هى فرضية غير صحيحة ، حيث إن أجداد بنى عثمان سكنوا مدة طويلة فى أخلاط .

والمعروف أن بنى سلجوق عندما انتقلوا من ماوراء النهر إلى خراسان نحو عام ١٠٤٠ ، جاءت قبيلة قابى خان كذلك إلى ماهان جوار مرو . ويفترض أن هذه القبيلة قد انتقلت بعد ١٠٧١ إلى الأناضول الشرقية ، ومن المحتمل أن قابى آلب جد أرطغرل غازى كان على رأس قبيلة قابى عند القدوم إلى الأناضول (إذا كانت ولادة أرطغرل غازى فى ١١٩١ ، فإن الأمر يقتضى أن تكون ولادة قابى ألب فى ١٠٢٤) .

ومن حيث شجرة الأنساب العثمانية الرسمية ، فإن عثمان غازى بن أرطغرل غازى ، هو حفيد مته الذى يطلق عليه الأتراك اسم « أوغز خان » فى البطن الـ ٤٦ ، وبذلك يكون قابى ألب حفيده فى البطن الـ ٤٠ ، وإذا كان فرق السنين بين ولادة مته وعثمان غازى نحو ١٥٠٠ عام ، وإذا قسمت هذه المدة على ٤٦ يكون الناتج ٣٢,٥ سنة (١٥٠٠ ÷ ٤٦) فإن ٣٢,٥ سنة تعتبر مدة مثالية لنسل (بطن) واحد . (وفاة مته ، ١٧٤ ق . م) .

والمعروف أن عشيرة قابى قد سكنت فى المراعى المجاورة لاخلاط وأن هناك أحجارا وقبورا كثيرة لأجداد بنى عثمان الذين هم أمراء (بكات) عشائر قابى .

أخلاط قصبة تركية وبلدة مهمة من بلدان القرون الوسطى تقع على الساحل الشمالى – الغربى من بحيرة وان الكبرى فى شرق الأناضول (حاليا مركز قضاء فى ولاية بتلس) .

إن اسم والد أرطغرل بك هو كندز ألب ، ويبدو أن الروايات التى تقول بأن هذا الاسم هو سليمان شاه ، ضعيفة . والأرجح أن سليمان شاه هو ذكرى باقية من اسم فاتح الأناضول ومؤسس الدولة التركية ومن اسم أول سلطان لها ، وأن التفكير فى هذا الاسم قد نشأ ليكون اسما يربط بنى سلجوق ، ببنى عثمان ، خاصة أن بنى عثمان قد ظهروا على مسرح التاريخ مدعين أنهم الخلفاء الشرعيون لبنى سلجوق .

ومن المحتمل كذلك أن كندز ألب كان أميرا من الدرجة الثانية فى خدمة الملك المنصور ناصر الدين ارتق أرسلان ، الملك السادس لبنى ارتق ماردين . ومن المعلوم أن بنى ارتق أيضا ينحدرون كبنى عثمان من قبيلة قابى . ويحتمل أن قابى

بك جاء إلى الأناضول كأحد أمراء اكسيك أوغلو ارتق بك أحد فاتحى الأناضول .

وتدل المعلومات على أن عشيرة قايى قد تحركت من أخلاط نحو عام ١٢٢٩ ، ثم تركت أخلاط إلى جهة أخرى ، ومع أننا لانعرف سبب ذلك ، فإنه يحتمل أن لذلك علاقة بالاضطراب الذى أحدثه الاجتياح المغولى الذى وصل حتى أبواب الأناضول . ياترى هل دعيت العشيرة تحت قيادة كندز ألب بأمر من ارتق أرسلان الأمير الارتقى فى ماردين للانضمام إلى الجيش الارتقى للدفاع عن ماردين دون المغول أو جلال الدين خرزم شاه أو أيوبيى حلب ؟ ان احتمالا كهذا وارد كذلك . (المسافة بين أخلاط وماردين ، عبارة عن ٢٠٠ كم) .

ونحن لانعلم كذلك سبب هبوط كندز ألب من حوض بحيرة وان إلى حوض نهر دجلة ، ومجيئه من ماردين إلى مسافة ٢٥٠ كم (مسافة مستقيمة) إلى جوار قلعة جابر نحو الجنوب - الغربى من سواحل الفرات . يحتمل أن ذلك كان بناء على أمر من الملك الأرتقى ، خاصة أن من المؤكد أنه كانت هناك علاقة بين جابر وبنى عثمان .

أما بالنسبة للرواية الكلاسيكية التى تقول بغرق سليمان شاه أبى أرطغرل بك بحصانه أثناء عبوره الفرات قرب جابر ، فإنه لايمكن القطع بها ؛ فمنطقة جابر هذه تقع بين رقه ومسكنه ، وهذا المكان ليس بعيدا عن المكان الذى سقط فيه قتيلا فاتح الأناضول سلجوق أوغلو سليمان شاه (٥ حزيران سنة ١٠٨٦) ، كما أن قيليج أرسلان الأول بن سليمان شاه ثانى سلاطين تركيا ، قد غرق كذلك مع حصانه فى خابور رافد دجلة فى شرق تلك المنطقة أثناء عودته من الموصل (تموز ١١٠٧) ، ومن الأمور المحتملة كذلك أن يكون مبعوث كندز ألب قد هاجم الأيوبيين فى حلب وغرق فى النهر أثناء ذهابه إلى تلك المنطقة .

على كل حال فإنه من المعلوم أن الفرنسيين قد وافقوا على ترك الموقع المسمى تورك مزارى أى « القبر التركى » - قرب جابر ، للأتراك فى معاهدة لوزان ١٩٢١ ، ١٩٢٣ على الرغم من أنه يقع داخل الأراضى السورية ، كما سمح الفرنسيون للأتراك بحق رفع العلم التركى على هذا الموقع وحراسته بجنود أتراك .

إن قصة جابر مازالت قصة لايمكن القطع بصحتها ومن المحتمل أن تكون

القصة برمتها قصة ملفقة ، وعندئذ تكون عشيرة قايى قد جاءت من أخلاط رأسا إلى الشمال الشرقى إلى ارزنجان التى تبعد عنها ٢٧٠ كم .

وعموما فإن تمحيص الموضوع يمكن أن يوصلنا إلى نتيجة تبدو أكثر صحة وأقرب إلى المنطق ، فضلا عن أنه يمكن استنباطها من جميع الروايات التاريخية . تلك هى أن اسم أبى أرطغرل غازى على الأرجح هو كوندز ألب وان هذا الشخص توفى فى ١٢٣٠ أو نحو ذلك وترأس العشيرة بعده أرطغرل بك .

يقال إن أرطغرل غازى من مواليد ١١٩١ . وبذلك يكون عمره فى عام ١٢٣٠ ، ٣٩ وهى سن نضج . نجد أرطغرل فى الشمال على مقربة من ارزنجان التى تقع على مسافة ٤٣٠ كم من جابر . أكثر مما نجده فى ضفاف الفرات وسوريا .

يلاحظ أنه فى ١٠ آب ١٢٣٠ كانت ارزنجان ميدانا لإحدى أكبر الحروب فى القرون الوسطى ، حيث تقابل الجيشان الأخوان التركيان ، السنيان - الحنفيان : عندها اجتاز السلطان جلال الدين خاقان الترك الشرقيين وآخر سلطان خرزم - شاهى الذى طرده المغول من أراضى أجداده فى تركستان - حدودَ سلطنة تركية ودخل الأناضول وأخذ يتقدم فيها غير مبال بنصيحة السلطان علاء الدين كيكباد ، والتقى بجيش علاء الدين الكبير قرب ارزنجان حيث انكسر وترك أراضى الدولة التركية وابتعد عنها .

وقد يجدر أن نضيف إلى ما تقدم أن علاء الدين الكبير عندما دعا محاربين كثيرين للانضمام إلى الجيش الأناضولى ، كان من بين من سارع بتلبية هذه الدعوة أرطغرل وعشيرة قايى ، حيث شاركوا فى حرب ياصى جمن Yassicemen ، وهى حرب مهمة فى التاريخ التركى .

وتعتبر هذه من الحقائق التاريخية المستنبطة من الحكاية الموضوعة لاكساب السلالة العثمانية شرف الانضمام إلى الجانب السلجوقى وتأمين انتصار علاء الدين الكبير .

ومن الأمور المؤكدة أن أرطغرل غازى وعشيرة قايى قد اكتسبوا تقدير البادشاه التركى ، وكوفئوا على ذلك بتمكينهم من الحصول على أراض فى الغرب على

الحدود البيزنطية . ومما لاشك فيه أن أرطغرل بك لم يعامل كأحد الأمراء الكبار المرتبطين بالحاكم التركى وبقونيه . حيث يبدو أن عدد عشيرته لم يكن كبيرا جدا ، ولكن البادشاه السلجوقى منح أرطغرل غازى بك قطاعا حدوديا صغيرا جدا ليتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها واعطى أرطغرل غازى لأمر أمير بنى جوبان ، الأمير الأكبر القطاع الشمالى من الحدود البيزنطية .

وهكذا أستوطن أرطغرل بك وعشيرة قايى فى القسم الشمالى - الغربى من الأناضول . وقد كان ذلك فى عام ١٢٣١ على أرجح الأقوال .

٢) أرطغرل بك (١٢٣١ - ١٢٨١) :

قطع أرطغرل بك من ارزنجان نحو الغرب ٩٠٠ كم (مسافة مستقيمة) وجاء اقطاعيته (بالتركية : ديرلك) . تقع الأراضى التى أعطيت له ولعائلته لادارتها والتى تسمى بالتركية « يورد » عند حدود اسكيشهر - بيله جك - كوتاهية من الجمهورية التركية الحالية . وتقدر مساحة هذه الاقطاعية بما بين ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ كم٢ . وهكذا وضع حجر أساس الدولة العثمانية فى ١٢٣١ .

اكتسب طغرل بك لقب « غازى » نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنط.استطاع توسيع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير (وال) على مقاطعة حدودية (بالتركية أوج بك Marquis) ، إلى ٤٨٠٠ كم٢ تقريبا . توفى فى ١٢٨١ وعمره ٩٠ سنة ودفن فى قصبة سوغت التى استولى عليها من البيزنط واتخذها قاعدة له . تضم الدولة التى خلفها أرطغرل بك ، بالنسبة للتقسيمات الإدارية الحالية ، بصورة تقريبية : سوغت وبوزيوك التابعة لولاية بيله جك ، اقضيه دومانج لولاية كوتاهية وناحية يارمجه الواقعة بين نهرى بورسك وسقاريا لولاية اسكيشهر ، والقسم الشمالى من أسكيشهر إذا ماتركنا مدينة أسكيشهر فى الخارج .

هذه هى معالم الإمارة التى دامت نصف قرن (٥٠ سنة) لغاية ١٢٨١ . ونستعرض فيمايلى الصفات المميزة لهذه الإمارة .

٣) الصفات المميزة للمقاطعة (الولاية) الحدودية العثمانية (اوج بكلك) :

كتب الشاعر نامق كمال بك الأبيات التالية :

نحن ذلك النسل الكريم من العشيرة العثمانية
أصولنا امتزجت بدم الشهادة من الرأس إلى القدم
نحن أصحاب همم عالية ، نحن اصحاب جد واجتهاد
استطعنا بذلك أن نكون دولة عالمية كبرى من عشيرة واحدة

تعكس أبيات نامق كمال بك عددا من الحقائق ، فقد كانت عشيرة قايى التى ينتسب اليها أرطغرل بك عبارة عن ٤٠٠ خيمة ، لايحتمل أن يزيد عددها على ٤٠٠٠ شخص بمن فيهم النساء والأطفال . وهؤلاء الذين كونوا نواة الدولة ، وانضم إلى هؤلاء فيما بعد ودخلوا تحت سيادة أرطغرل بك التركمانُ الذين قدموا بعد ذلك عندما اتسعت رقعة أرطغرل بك بالأراضى التى استولى عليها من البيزنط خلال نصف قرن ، كما اصبح من بين رعايا إمارته مسيحيون (روم) نتيجة الفتوحات .

يشكل التركمان الرحل القادمون ، القلبَ النابض فى المقاطعات الحدودية العثمانية وأمثالها ، وقد كان هؤلاء أكثر فعالية من الأتراك ذوى الثقافة الفارسية والعربية المستوطنين فى المدن الكبيرة فى الأناضول ، لقد كان هؤلاء التركمان محاربين جيدين ، يتلهفون إلى الجهاد والغزو ، ينتسب كل منهم إلى أحد شيوخ الطرق وإلى إحدى التكايا ، حيث تعلموا معنى وجاذبية وسمو « إعلاء كلمة الله » .

كان الشيوخ والدراويش (يسمون أحيانا الغزاة الدراويش) المتحمسون لترويج طرق « أولياء خراسان » يقومون بتربية التركمان الذين ليست لديهم روابط وثيقة بالدين الإسلامى تربية إسلامية ويشبعونهم بالقيم التى تتمثل فى تعظيم فتح الأقطار لاكتساب أراضٍ جديدة لتوسيع رقعة دار الإسلام . ويتم توطين هؤلاء فى الأراضى التى فتحت حديثا ويتم تحريك الكتل الأكثر حيوية وحماسة وشبابا إلى أقصى الغرب إلى نهاية الحدود . وتحور القصبات إلى مدن تركية إسلامية ، مركزها المسجد الذى تقام حوله مؤسسات اجتماعية مثل التكية والمكتب (مدرسة

ابتدائية) ، والمدرسة (مؤسسة التحصيل المتوسط) ، والحمام ، والجشمة (حنفية ماء للوضوء والشرب مشيدة بشكل خاص) ، وكان أمراء (ولاة) المقاطعات الحدودية يسددون ضرائب طفيفة جدا إلى البادشاه السلجوقى فى قونية ومن ثم إلى إيلخان فى تبريز ويتلون الخطبة باسميهما ويستعملون مسكوكاتهما التى يسكانها .

كان أرطغرل غازى يتقاضى حتى من تكفور قلعة بيله جك الرومى خراجا سنويا . إذ لم يكن لديهم بعد السلاح الكافى لفتح قلعة . ومن المعلوم أن قواتهم كانت تعتمد فى ذلك الوقت على الخيالة .

٤) عثمان بك (١٢٨١ - ١٣٢٤) :

احتل عثمان بك - وهو فى سن الرابعة والعشرين على الأرجح - مكان أبيه أرطغرل الطاعن فى السن ، كان عثمان بك أيضا من ولاة المقاطعات الحدودية (أوج بك ، بالفرنسية : Marquis) وكان الوالى الحدودى الكبير (بالفرنسية : Duc) فى القطاع الشمالى من الحدود البيزنطية فى الأناضول الغربية : تابعا جوبان : ألب - يورك بك ، ثم مظفر الدين يلك أرسلان بك (١٢٨٤ - من جوبان : ألب - يورك بك ، ثم مظفر الدين يلك أرسلان بك (١٢٨٤ - ١٢٩٢) ، وآخرهم ناصر الدين محمود بك (١٢٩٢ - ١٣٠٠) ، ثم احتل بنو جاندار مكان بنى جوبان ولعل هذا يفسر استكبار بنى جاندار على العثمانيين بعد ذلك (ان بنى جاندار كبنى جوبان أما بنى عثمان من قبيلة قايى الأوغزية فقد استوطنوا فى أراضيهم كأمراء عشيرة قايى) . .

أما القطاع الجنوبى للحدود البيزنطية ، فكان يتولاه فى البداية بنو دانشمند كأمراء مقاطعات كبار ، ثم تولاه بنو جرميان الذين احتلوا مكانهم . أما أمراء الحدود الصغار كبنى آيدن وبنى ساروخان ، فهم أمراء (بكات) بنى جرميان من قبيلة آوشار الأوغزية . أما كاراسى أوغللرى الذين ينحدرون من بنى دانشمند ، فقد كانوا مستوطنين فى غرب بنى عثمان على ضفاف آسيا من بوغاز جناقلعة . وقد تبع عثمان بك بنى جرميان لفترة من الزمن بدلا من بنى جوبان الذين فقدوا

أهميتهم . وقد كان مما زاد فى أهمية واعتبار بنى جرميان قيام أمرائهم (أمير آيدن ، وأمير ساروخان ، وأمير منتشه) بالاستيلاء على كافة ضفاف ايجه من يد البيزنط .

والسؤال الآن : كيف برزت العثمانية بين هذا العدد من أمراء المقاطعات الحدودية ؟ لقد كانوا فى البداية إحدى أكثر الإمارات الحدودية تواضعا ، حتى انه لم تكن بأيديهم بلدة يمكن أن تكون بمثابة مدينة . فأية معجزة تلك التى أبرزت بني عثمان وألمعتهم كالشمس بينما لم يبق لسلالات الامارات الحدودية العديدة الأخرى من اسم ولاجسم ؟ .

ان لذلك سببين رئيسيين :

السبب الأول جغرافى – سياسى ، وهو يدخل فى إطار ضربات الحظ الاستثنائية التى لاتتكرر ، فقد أتاحت الظروف لأرطغرل بك وطنا فى جنوب شرقى بحر مرمرة وكأنه على مدخل البيزنط ، وبذلك فقد كان أرطغرل بك أقرب أمير من حدود البيزنط ، ولم يكن سواه من الأمراء الحدوديين فى مثل هذا الوضع الخطير . وقد أوجب هذا الوضع على العثمانية أن تتخذ الحذر الدائم ، وأن تكون على أهبة الاستعداد للقتال والجهاد والغزو فى كل لحظة ، وهو موقف يبرره أن اكتساح الروم لمثل هذه الإمارة بوضعها الجغرافى كان من الناحية الجغرافية يسهل من اكتساح غيرها من الإمارات .

والسبب الثانى : هو الخصائص الجسمية والنفسية لارطغرل بك ونسله الذى جاء من أخلاط إلى دومانيج . ونحن لانكاد نجد لدى الإمارات التركمانية فى الأناضول الغربية عسكريا وإداريا داهية بالمعنى التام عدا آيدن أوغلو أومور بك ، أما الآخرون فلا يزيدون على كونهم قادة يقومون بأداء واجباتهم على الوجه الأكمل . وعلى خلاف ذلك كان الوضع بالنسبة للسلالة العثمانية ، فقد أنجبت دهاة متعاقبين ، وكل حاكم اعتلى العرش تفوق على من كان قبله بامكاناته وخصائصه ، كما تميزوا بالقدرة على التخطيط والحركات العسكرية المحسوبة التى كانت تستهدف كل منها هدفا معينا ، وأيضا قاموا بتنظيم أنفسهم فى تشكيلات جيدة جدا ، ولقنوا رعاياهم الاعتماد الكبير على أنفسهم .

كان عثمان غازى الذى خلف أباه فى اعتلاء إمارة المقاطعة الحدودية تابعا فى البداية لجوبان أوغلو (قسطمونى) ، ثم للسلطان السلجوقى من خلال جرميان أوغلو (كوتاهية) ، الذى كان تابعا بدوره لايلخان . واننا لنجد فى الحقيقة أن البادشاه السلجوقى قد فقد فى هذه الفترة القدرة الفعلية على تسيير الأمور ، وكان إيلخان يسير اعماله بواسطة الولاة العاملين الذين هم فى الوقت ذاته قادة عامون يعينهم فى الأناضول ، وكان على الأمراء الحدوديين - ومن بينهم عثمان بك - أن يرسلوا الجند فى حالة طلب والى إيلخان ذلك .

ازدادت أهمية عثمان بك قبل مضى ١٠ سنوات . فتح قره جه حصار قرب اسكيشهر فى ١٢٨٨ أو ١٢٩١ ، وجعلها قاعدة له وأمر بتلاوة الخطبة باسمه . وبطبيعة الحال ، فإنه كان يذكر أولا اسم الخليفة العباسى فى مصر ، ثم ايلخان المقيم فى تبريز ثم البادشاه السجلوقى فى قونيه ثم اسم عثمان بك . وفى كانون الثانى ١٣٠٠ ، أرسل السلطان السجلوقى علاء الدين كيكباد الثالث إلى عثمان غازى علامات السلطنة كالطبل ، والعلم (الراية) وشارة الرأس (طوغ) . وبذلك أصبح عثمان بك - بصورة رسمية - أمير مقاطعة حدودية كبيرا (بيوك اوج بك) . (الفرنسية : Duc) ، لايفوقه فى وضعه هذا أى أمير حدودى آخر . وفى هذه الفترة كان عثمان بك تابعا لسلجوق أوغلو بصورة مباشرة ، ثم تابعا لايلخان فى تبريز بصورة مباشرة بعد وفاة البادشاه السلجوقى الأخير مسعود الثانى بعد ١٣٠٨ وحتى ١٣٣٥ حقق عثمان بك فى هذه الفترة انجازات ضخمة ، فقد هزم تكفور (والى) بورصة البيزنطى الذى سار اليه بـ ٥٠٠٠ جندى فى الحرب الميدانية قويونحصار (٢٧ / ٧ / ١٣٠٢) وأصبح اسمه مشهورا لدى البيزنط .
على الرغم من أن عثمان بك كان يستهدف بورصة فإنه أسس فى عام ١٣٠١ قصبة ينيشهر على طريق ابزنك - بيله جك ، واتخذها قاعدة مؤقتة له لفترة من الزمن .

وبكل المقاييس فإن عثمان بك يعتبر مؤسسا للسلالة ، ولايقدح فى ذلك أنه لم يسم خانا أو سلطانا إلا بعد وفاته ، حيث إنه لم يلقب حال حياته بغير بك (أمير) وان كان من المعروف أنه لقب بألقاب أخرى مثل فخر الدين ومحيى الدين .

ومن الأمور التى ينبغى أن تذكر أن العثمانية قد قدمت عددا كبيرا من أمرائها شهداء فى حروبهم مع البيزنط ، ومن بين هؤلاء الشهداء كوندز ألب بك (المسمى باسم جده) أخو عثمان بك الذى استشهد فى عام ١٣٠٦ ، والأخ الآخر لعثمان بك والمسمى غازى صار ياطى صاوجى بك الذى استشهد فى عام ١٢٨٨ ، وابنه بكخوجة بك الذى استشهد فى عام ١٢٨٧ .

بلغت مساحة الإمارة التى تركها عثمان غازى فى ١٣٢٤ ، ١٦٠٠٠ كم^2 فقط . وإذا ماوضعنا فى الاعتبار أن أبا عثمان بك ترك له ٤٨٠٠ كم^2 من الأراضى فإن ١٦٠٠٠ كم^2 التى تركها عثمان بك تعادل تقريبا ٥ / ٣ أضعاف مساحة الإمارة التى تركها أبوه .

ومن الأمور التى تلفت النظر أن فتوحات عثمان بك كانت ذات أهداف ومغزى ، شمالا وصل إلى الضفة الشرقية من نهر سقاريا واقترب كثيرا إلى مدخل النهر والبحر الأسود . وفى الغرب نفذ إلى البحر حيث استولى من البيزنط على الضفاف الجنوبية لبحيرة ايزنك وكذلك أخذ الضفاف الشرقية لبحيرة اولوباد(Apolont) ونفذ إلى بحر مرمرة بعد أن ظفر على الضفاف الجنوبية لخليج كملك ورصيف مودانيا الذين يقعان بينهما فى منطقة متوسطة . (تعتبر إيزنك أهم مدينة للبيزنط فى الأناضول تقع على الحدود العثمانية) .

ولقد كان عثمان بك استراتيجيا بعيد النظر حيث وجه فتوحاته إلى البيزنط باعتبار أن كل فتح يناله منهم سيزيد من قوته . كما أنه فى نفس الوقت تحاشى بكل جهده التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول المحيطين به كإمارة جيرمان أوغلو القوية التى كانت تغطى كامل جنوب امارته ، وكأمارة جمهوية آخى شرقا فى أنقرة التى كانت تحت نفوذ وحماية إمارة قره مان المقتدرة ، وكأمارة جاندار أوغللرى التى تقع الى الشمال الشرقى من إمارته ، وأراضى كاراسى أوغللرى الواقعة غربا . وعلى الرغم من أن كل هذه المنطقة كانت تشكل مجالا ملائما للانتشار العثمانى من حيث الخروج إلى البحار المفتوحة فإن عثمان بك ، لم يمسها .

من فتوحات عثمان بك اسكيشهر فى ١٢٨٨ ، بيله جك فى ١٢٩٩ (أو ١٣٠٤) ، وفى العام نفسه اينه كول ، ومودانيه فى ١٣٢١ ، حاصر عثمان بك

بورصة سنوات عديدة . ولم يكن فى ذلك الوقت يملك الأسلحة الكافية لاسقاط هذه القلعة بالقوة ، ومات قبل استسلامها ، ولو تم له فتحها لكان بذلك قد حصل على مدينة وقاعدة حقيقية وبالنسبة للتقسيمات الإرادية الحالية فإن الدولة التى تركها عثمان بك عبارة عن : ولاية بيله جك ، وقضاء اسكيشهر المركزى ، واقضيه كيفه ، وآقيازى ، وخندق التابعة سقاريا ، وقضاء دومانج فى كوتاهية ، واقضيه مودانيه ، وينيشهر ، وانيه كول فى ولاية بورصة .

٥) السلطان أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢) :

اشتهر أورخان بك فى عهد أبيه كعسكرى ممتاز ، تولى الإمارة وعمره ٤٣ سنة كأمير كبير لمقاطعة حدودية (بيوك أوج بل) . كلف اخيه علاء الدين على بك بانجاز الأعمال المدنية ، فقام بانجاز ما كلف به حتى استشهد أمام البيزنطيين فى بيغا عام ١٣٣٣ (استمر نسله لغاية ١٥٣٠) .

استولى أورخان غازى على بورصة فى ٦ نسيان ١٣٢٦ واتخذها قاعدة له . وأصبح بعد هذا الفتح سلطانا وملكا حقيقيا . لم يرفض تبعيته لايلخان حتى ١٣٣٥ ، وفى هذا التاريخ اصبح مستقلا تمام الاستقلال ، وبصفته أقدر أمراء ورثة السلاجقة التركمان ، فقد أعلن بصورة رسمية أنه الخلف الشرعى للعرش السلجوقى الذى خلا .

اختلفت مواقف الإمارات الأخرى إزاء هذا الإدعاء ، فبينما عارضته صراحة إمارة قرة مان أوغلو الذى كانت بيده قونية مدينة عرش السلاجقة ، تأرجحت مواقف الإمارات الأخرى بين التعاون مع إمارة قرة مان أوغلو والموافقة على موقفهم المعارض أحيانا وبين مساندتهم لبنى عثمان كسبا لودهم وخشية من قوتهم العسكرية المتنامية أحيانا أخرى .

بعد فتح بورصة فتح أورخان غازى إيزنك التى تمتاز بأنها أكبر بورصة (فى ذلك العهد) فى أيار ١٣٢٩ وبصورة قطعية فى ٧ / ٣ / ١٣٣١ ، ولم تفلح حملة الامبراطور البيزنطى Andronikos Poleologos الثالث على العثمانية لتخليص ايزنك عندما قابل أورخان غازى الامبراطور فى موقع Pelekanon بالقرب

من كنره داريجاسى فى شمال خليج ايزمت مع جيشه البالغ ٨٠٠٠ شخص . تمكن اوزخان غازى من هزيمة العدو بسهولة ، وجرح الامبراطور ، وفقد أورخان فى هذه الواقعة ٢٧٥ شهيدا فقط ، وغنمت العثمانية السرادق الامبراطورى والرايات الامبراطورية وطلب الامبراطور بحث طرق المصالحة .

طبقت شهرة السلطان أورخان بك العثمانى العالم بأسره . وحصل نحو عام ١٣٣٥ على ألقاب « سلطان » و« سلطان الغزاة » و« غازى ابن الغازى » و« شجاع الدين ، اختيار الدين ، سيف الدين » .

إن هزيمة الحاكم البيزنطى الذى يعد (امبراطور روما) والحاكم الأول من جهة الألقاب والتشريفات الأوربية فى حرب صحراوية مفتوحة ، زادت فى نفوذ السلطان أورخان فى تركية ونفوذه على الإمارات الأناضولية ، كما أنه غدا ينظر إليه فى البلقان كعنصر موازنة .

بدأ السلطان أورخان فى اتباع سياسة دقيقة مع البيزنط تساندها القوة العسكرية ولاتميل إلى البدء بالاعتداء . صرحت العثمانية منذ ذلك بسياستها التى تتلخص فى النفاذ إلى البحار المفتوحة والوصول إلى المضايق .

ألحقت بالعثمانيين فى ١٣٤٥ أول إمارة تركية ، كاراسى . وهكذا ضبط العثمانيون ضفاف آسيا من بوغاز جناقلعة ، والضفة المقابلة كانت أوربا .

إن العثمانيين الذين وصلوا فى الجنوب إلى خليج جاندارلى أخذوا من البيزنط آخر الأراضى المتبقية فى جنوب بحر مرمرة (كيرماستى وقره جه بك ١٣٤٢ ، شبه جزيرة قابودا فى ١٣٤٥ ، جزر مرمرة ١٣٥٢) ، وقد دخلت شبه جزيرة قوجا إيلى حوزة العثمانية . وهكذا فُتح الجانب الآسيوى من ضفاف بوغاز استانبول كذلك ، عدا بعض القرى . انتقلت اسكدار إلى حوزة العثمانية . بولو ، فى ١٣٢٦ وبصورة قطعية فى ١٣٥٤ ، انتقلت الإمارة الصغيرة التى كانت تحت نفوذ جاندار اوغللرى الذين يطلق عليهم أومور بك أوغللرى إلى العثمانية . انتقلت كافة سواحل البحر الأسود من رصيف آقجه قوجا إلى البوغاز ، وجميع ضفاف مرمرة الجنوبية والشرقية ، إلى العثمانية ، وأخيرا فى ١٣٥٤ ، أخذوا انقره وانتهت جمهورية آخى . كان هذا التطور يكسب العثمانية وفرة فى العدد وفى القوة

الاقتصادية اللازمة . ولم تعد بها حاجة إلى التصادم مع جاراتها أورخان أوغلو الجنوبية – الغربية ، كرميان أوغلو الجنوبية ، قرة مان اوغلو الجنوبية الشرقية ، ارتنا أوغللرى الشرقية ، جاندار أوغلو جارتها الشمالية – الشرقية .

(٦) الغازى سليمان باشا والعبور إلى روملى (١٣٥٣ – ١٣٥٧)

يعتبر العبور إلى روملى ودخول الأتراك العثمانيين إلى البلقان والقارة الأوربية ، أحد أهم الوقائع التاريخية ؛ إذ إنه عدا تأمينه تأسيس الامبراطورية العثمانية ، فانه غير مجرى التاريخ الأوربى ومصير الدول الاوربية كذلك .

كان رئيس البيزنط حاكم شبه جزيرة البلقان السابق ، على خلاف مع الاقوام والدول البلقانية ، ولم يكن قادرا على إدارتهم . وعندما تقابل أورخان بك بالامبراطور فى ١٣٤٧ فى اسكدار تناولا بالحديث التدابير المشتركة .. تجاه الخطر السلافى فى البلقان .

وفى ٣ شباط ١٣٤٧ ، دخل – كحلفاء وبدعوة من الامبراطور – ٦٠٠٠ – جندى عثمانى ليلا إلى مدينة (استانبول) البيزنطية ، وكان الامبراطور قد دعا السلطان اورخان كذلك إلى المدينة ، لكن البادشاه لم يقبل الدعوة . منذ ذلك الحين اخذت الوحدات العثمانية – وعلى الاغلب بقيادة ولى عهد .. شهزاده سليمان باشا الابن الاكبر للسلطان أورخان ، فى العبور إلى روملى ، يحاربون السلاف الذين أصبحوا بلاء على البيزنطيين ، ويعودون .

جاء طليعة الغازى سليمان باشا ، وهو آيدن أوغلو غازى أوموربك مع جيشه وأسطوله عدة مرات لمساعدة الامبراطور البيزنطي ودخل روملى ثم عاد . وفى المرة الأخيرة وعندما طلب الامبراطور المساعدة من أوموربك ، اجابه آيدن أوغلو بأنه مشغول بالحرب مع الكاثوليك اللاتين – اعداء البيزنط – فى أزمير ، ومن ثم فانه سوف يتعذر عليه المجيء ، وأوصاه بطلب المعونة من أورخان بك بن عثمان . وقد نفذ الامبراطور ذلك .

وفى ١٣٤٧ ، أراد سليمان غزو جزيرة امروز ، لكنه هزم . ثم اجتاز سليمان باشا إلى روملى مع ١٠٠٠٠ جندى فى البداية ، وفى ١٣٤٩ مع ٢٠٠٠٠ جندى وأوقف أعداء الأمبراطور عند حدهم .

وصل سليمان باشا فى حملته الاخيرة هذه إلى سلانيك وخلص المدينة من الحصار ، وقد كانت على وشك السقوط فى يد الصرب ، وسلمها إلى الامير Mattheos Kantakuzinos . اشتركت فى هذه الحملة ٢٢ قطعة من سفن العثمانية .

وفى عام ١٣٥٢ عبر ولى عهد – شهزاده غازى سليمان باشا إلى روملى ، وشتت بسهوله جيش الاتفاق الصربى – البلغارى الذى كان ينوى الحملة على استانبول فى الحرب الميدانية Dimetoka .

اعترافا بفضل سليمان باشا ، أهدى الامبراطور إليه فى ١٣٥٣ قلعة جمبة Gimpa الصغيرة الواقعة على الضفة الاوربية من بوغاز جناقلعة ، لتسهل عبوره إلى أوربا .

وهكذا حازت العثمانية وللمرة الأولى أرضا فى القارة الأوربية بصورة رسمية وشرعية . وذلك بعد ٩٠ عاما من الاجتياز الأول للامارات التركمانية الذى كان فى عام ١٢٦٣ (يعتبر اجتياز عام ١٣٥٣ هو الاجتياز الـ ١٧) . وعلى ذلك فان فتح روملى يكون نتيجة جهود مرحلة تحضيرية طويلة .

وعند إلحاق العثمانية دولة قراسى أصبحت تمتلك أسطولا صغيرا أيضا . وبالحاق دولة قراسى بالعثمانية أصبح للعثمانية أسطول صغير ، فقد كان لبنى قراسى (قراسى اوغوللرى) أسطول حربى وجنود بحرية وأميرالات مجربون .

طور سليمان باشا هذا الاسطول وجهز رصيف أدنجك (آيدنجك) المواجه لباندرمه ، فى الرأس الشرقى لخليج اردك ليكون قاعدة بحرية لهذا الأسطول . وبهذا الأسطول عبر سليمان باشا بوغاز جناقلعه وفتح فى ٢ آذار ١٣٥٤ قلعة غاليبولى ذات الأهمية البحرية – كقاعدة – فى جهة بحر مرمرة من شبه جزيرة غاليبولى على الساحل الأوربى ، ولذلك فان هذا الفتح يشكل إحدى وقائع التاريخ التركى المهمة .

وحتى ايلول ١٣٥٧ ، وزلل أرجل حصان سليمان باشا وكبوته ووفاته باصطدام رأسه على الحجر وعمره ٤١ سنة ، (اى خلال مدة ٣/٥ سنة) – استطاع سليمان باشا الاستيلاء على كامل شبه جزيرة غاليبولى ، وفتح المناطق فى الشمال حتى لوله برغاز ، ووصل فى الغرب إلى حدود نهر مريچ ، وفتحت جورلو مع لوله برغاز فى العام ذاته (١٣٥٧) ، وبذلك أصبح البيزنط محاصرين من الغرب كذلك .

تراس حركات روملى بدلا من سليمان باشا ، أخوه ولى العهد الشهزاده (الامير) مراد بك واستمر فيها .

توفى السلطان أورخان فى آذار ١٣٦٢ بعد سلطنة دامت ٣٨ سنة ، وعمره ٨١ سنة . بلغت مساحة الأراضى العثمانية فى هذا التاريخ ٩٥٠٠٠ كم٢ ، وهى تمثل ٦ أضعاف الاراضى التى كانت عند جلوس السلطان أورخان : تشمل هذه المساحة كامل ولايات بيله جك الحالية ، بورصه ، بالكسير – مع جزر مرمرة – ، سقاريا ، قوجا ايلى ، وبالاضافة إلى ولاية جناقلعه : اقضية بيغا ، امروز (كوكجه آدا) ، بوزجا آدا ؛ ولاية أسكيشهر عدا جفته لروسيد غازى ، قسم آسيا من استانبول عدا عدة قرى فى الجزر والبوغاز ، اقضية كشان وايبسالا لولاية ادرنه ، وقضاء لوله برغاز لولاية قرقلر ايلى ، ولاية تكرداغ عدا قضاء سراى ، اقضية سوما وقرق آغاج لولاية مانيسا ودومانج لولاية كوتاهية وبرغامة وديكيلى وقينق لولاية أزمير ، أقضية المركز ، نالليخان ، بك بازارى ، عياش ، قيزاجه حمام ، حيمانا ، بولاتلى لولاية أنقره .

وهكذا ترك السلطان أورخان قطرا لايستهان به ، خاصة اذا عرفنا أن تعداد هذه الاراضى فى ذلك العصر كان يفوق بكثير تعداد ملكية إنكلترا (الدولة العثمانية نحو ١٣٦٢ ، أكثر بقليل من ٣ ملايين تقريبا ، أما إنكلترا فكانت مليونين اثنين) . الأمر الآخر الذى ينبغى الإشارة إليه أنه منذ ١٣٣٢ ، كان للسلطان أورخان ٩٠٠٠٠ جندى (٤٠٠٠٠ منهم خيالة و ٥٠٠٠٠ مشاة) ، وعند فتح إمارة قراسى فى ١٣٤٥ ، انضم جنود هذه الامارة البالغ عددهم ٢٥٠٠٠ إلى العثمانية ، ولم يكن على هذه الايام لاى امير اناضولى بصورة قطعية ١١٥٠٠٠ جندى . وعلى سبيل المثال فان من بين أقدر الجيوش ، كان جيش قره مان اوغلو ، وهو عبارة عن ٥٠٠٠٠ جندى منهم ٢٥٠٠٠ خيال و ٢٥٠٠٠ مشاه . وتبين هذه الارقام مقدار أرجحية كفة الميزان لصالح العثمانية . ولقد ولد توفير الغازى سليمان باشا الفرصة لنفسه من أعماله فى روملى وقدومه إلى انقرة ، وقبول انقرة الانضمام إلى العثمانية دون اية مقاومة مثل دولة قراسى – قلقا جديا فى قره مان ، وأخذت تتراءى فى الافق حرب عثمانية – قرة مانية اكيدة .

(٧) مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩) يفتح البلقان

عقدت ولاية العهد لمراد الأول قبل أربع سنوات ونصف من وفاة السلطان أروخان وذلك بدلاً من شقيقه سليمان باشا الذى يكبره بعشر سنوات . وعند وفاة السلطان أورخان جلس على العرش السلطان مراد وعمره أنذاك ٣٦ سنة .

جلس فى آذار ١٣٦٢ وفى تموز من العام ذاته أخذ أدرنة .

اصبحت أدرنة مركزا لروملى ومدينة العرش الثانية ، وتحولت من مدينة بيزنطية متواضعة كبورصة إلى بلدة إسلامية تركية كبيرة .

كان السلطان مراد امبراطورا حقيقيا (سلطانا معظما) ، نال بصورة رسمية ألقاب : « سلطان الغزاة والمجاهدين ، ملك المشايخ ، غياث الدنيا والدين ، شهاب الدين غازى هنكار خداوندكار ، ليث الاسلام ، او الفتح ، غياث المسلمين ، السلطان العادل » وقد صادق على هذه الالقاب الخليفة العباسى فى القاهرة .

فى السنة التالية لجلوس السلطان مراد ، أى فى عام ١٣٦٣ ، اجتاز نهر مريج نحو الغرب ، وفتح فيليبه واجتاز مريج نحو الشمال وفتح اسكى زغرا ووصل جبال البلقان .

دعا البابا اوربانوس الخامس ، المسيحيين إلى حملة صليبية ضد « الاتراك الكفرة » .

اتحد ملوك المجر : صربيا وبوسنة مع أمير رومانيا (افلاق) ، واقتربوا إلى مسافة عدة كيلو مترات من أدرنة . لم ير حاجى الـ بك ضرورة لانتظار البادشاه ، وجابه العدو فى الموقع الذى سيدعى صرب صنديغى وأباده فى ١٣٦٤ . وبذلك يكون العثمانيون قد قطعوا فى البلقان مسافة لايستهان بها .

نجا ملك المجر لايوش الاول من الموت صدفة . وعند عودته إلى بلاده شيد كنيسة لمرضاة السيدة مريم ، إظهارا لشكره . هذه هى الحملة الاولى التى جهزت ضد العثمانية .

فتحت وأخذت الاراضى حتى تساليا ومكدونيا ، والمراكز كده ده آغاج (١٣٦٢) ، كمولجينه (١٣٦٣) ، ساماكوف (١٣٦٧) قاوالا (١٣٧١) ،

دراما (١٣٧١) . اعترف ملك بلغاريا الذى اتخذ ترنوفا مركزا له فى ١٣٧٠ بتبعيته للعثمانية .

تحالفت بلغاريا ورومانيا عسكريا وأرادتا دفع الاتراك إلى الخلف . وفى الحرب الميدانية جيرمن Girmen (١٣٧١/٩/٢٦) هزم جيش بلغاريا ورومانيا ، وقتل كل من ابنى ستيفان دوشان ، أحدهما ملك صربيا فوكاشين (١٣٥٥ - ١٣٧١) وأخوه ولى العهد - أمير اوكليشا Uglesa . وصل الغزاة الاتراك ، إلى سواحل الادرياتيكى .

وفى عام ١٣٦٥ اعترفت جمهورية دبروفنك (بالايطالية Ragusa) الواقعة على الادرياتيكى بسيادة العثمانية . وانتقلت المراكز مثل كارافيرا (١٣٧٢) ، كوسنتدل (١٣٧٢) ، نيش (١٣٧٥) ، صوفيا (١٣٨٢) ، مناسطر ، كوريجه ، اوهرى ، دبره (جميعها فى ١٣٨٥) ، ترنوفا ، لوفجه ، بلونه ، زشتوفى ، رسجك ، تتراكان ، سليستره (جميعها فى ١٣٨٨) إلى الاتراك . اعترفت ملكية الصرب بالسيادة العثمانية عليها ، وحذا أمير دوبروجه حذوها فى ١٣٨٨ . اخذ الأتراك تساليا ووصلوا شمالا إلى الطونة وجنوبا إلى آتيكا وغربا إلى البانيا وفى الشمال - الغربى إلى بوسنه .

اضطر حميد أوغلو إلى ترك أكثر من نصف أراضى الإمارة بسعر رمزى قدره ٨٠٠٠٠ قطعة ذهبية . وانتقلت الاماكن مثل آقشهر ، بكشهرى ، سيدیشهرى ، يالواج ، شرقى قره آغاج - إلى حوزة العثمانية .

فصلت الدولة العثمانية إمارتى جرميان وقره مان ودخلت بينهما وأصبحت تحاصر قره مان من الشمال ومن الغرب .

وفى ١٣٨٢ ، اعترفت إمارة حميد بالسيادة العثمانية ، وفى السنة التالية اعترفت أيضا إمارة جاندار بالسيادة العثمانية ، وأعقب هؤلاء أمير آماسيا فى ١٣٨٥ . ورغم أن بنى جاندار وبنى قرة مان تزاوجوا مع العثمانية وارتبطوا بروابط قرابة متينة ، لكنهم كانوا بعيدين عن فكرة الموافقة على إحداث وحدة أناضولية لصالح العثمانية . وفى جوكهذا ، أضرمت نار أول حرب عثمانية - قره مانية فى ١٣٨٦ - ١٣٨٧ .

كانت قره مان تعتمد على ملكية قبرص اللاتينية وعلى سلطنة مصر المملوكية التى

تدعى (أى قره مان) أنها تحت سيادتها . وعندما عقدت معاهدة صداقة بين السلطانين العثمانى والمملوكى فى ١٣٨٦ ، خرمت قره مان من المساندة المملوكية . ورغم ذلك تجاسرت على احتلال بك شهرى التى أخذتها من إمارة حميد العثمانية .

سار السلطان مراد إلى قرة مان بـ ٧٠٠٠٠ جندى ، وبمناورة عسكرية آنية اجراها ولى عهد - شهزاده بايزيد التى أكسبته لقب « يلدرم » (برق) وأسفرت المناورة عن انهزام القرة مانيين بسرعة البرق ، شتت الجيش القرة مانى .

ذهبت نفيسة ملك سلطان خاتون زوجة قره مان أوغلو علاء الدين بك ، إلى أبيها السلطان مراد وانكبت على قدميه طالبة العفو عن زوجها . وجاء قره مان أوغلو وقبل يد أبى زوجته البادشاه ، فعفا عنه .

كان للسلطان مراد شأن فى البلقان ، ولم يكن يرغب فى زج نفسه فى قضايا الأناضول الوسطى ، وكان يعلم ان كل انتصار يحرزه فى البلقان سيكون السبب فى انضمام إمارة جديدة فى الاناضول إلى العثمانية دون قتال .

دخل قولا شاهين باشا إلى بوسنة مع ٢٠٠٠٠ جندى فى عام ١٣٨٨ . هزم فى بلوشنيك قرب نيش وخسر ١٥٠٠٠ جندى بين شهيد وأسير وجريح . أما الوزير الاعظم جاندارلى - زاده على باشا ، فقد خرج مع ٣٠٠٠٠ جندى على ضفاف الطونة ، واستولى على آخر ماتبقى لدى ملكية بلغاريا من الاماكن .

قام الصرب - البوسنويين الذين أثبتوا إمكان الانتصار على الأتراك بواسطة ٣٠٠٠٠ جندى ، بمحاولة تنظيم حملة صليبية جديدة . تجمع جيش مسيحى جديد . بقيادة حاكم صربيا لازار ومساعده ملك بوسنه Tvrtko . شارك فى هذه الحملة كل من أمراء المجر ، بولونيا ، رومانيا (أفلاق) ، مولدفيا (بغدان) وبلغاريا بوحداتهم .

التقى السلطان مراد وابناه الاثنان مع العدو فى صحراء كوسوفا فى ٢٠ حزيران ١٣٨٩ . دامت الحرب الميدانية الكبرى مدة ٨ ساعات ، أبيد العدو عن بكرة أبيه ومعه قائده العام . استشهد السلطان مراد وعمره ٦٣,٥ سنة بعد سلطنة دامت ٢٧ سنة و٣ أشهر أثناء تفقده ساحة الحرب بعد الانتصار على يد أمير صربى جريح أقترب منه بدعوى أن لديه مايعرضه . دفنت أحشاؤه فى صحراء كوسوفا فى القبر الذى

سمى مشهد خذازندكار والذى بقى حتى يومنا هذا مقاما مقدسا بالنسبة لمسلمى البلقان . نقل جثمانه إلى بورصة .

ادخل انتصار كوسوفا الساحق البلقان تحت الحكم التركى الاسلامى لمدة ٥٠٠ سنة . ترك السلطان مراد إحدى أقوى الامبراطوريات العالمية وخاصة من الناحية العسكرية . بلغت مساحة الامبراطورية عند وفاة السلطان مراد ٥٠٠٠٠٠ كم٢ تقريبا . (مساحة الاراضى الاوروبية فى البلقان ٢٩١٠٠٠ كم٢ ، والاراضى العثمانية فى الأناضول فى آسيا تتجاوز ٢٠٨٠٠٠ كم٢) .

وتفصيلا على الوجه التالى :

فى الأناضول (بالنسبة إلى التقسيمات الإدارية الحالية) : ولايات بورصة ، بالكسير ، بيله جك ، قوجايلى ، سقاريا ، أسكيشهر ، بولو ، كوتاهيه ، أفيون ؛ ولاية جناقلعة عدا مروز وبوزجه آدا ؛ ولاية أنقرة عدا كسكين ، قيريقلعه شرفلى قوجحصار ؛ ولاية استانبول عدا الجزر ؛ اقضية آقشهر التابعة لقونيا ، أقضية بك شهرى ، سيدى شهرى ، يالواج التابعة لاسبارطه ، شرق قره آغاج ، سوما التابعة لمانيسا ، قرق آغاج ، برغامة التابعة لازمير قينق ، ديكيلى ؛ وكمناطق حماية : امارة جاندار (ولايات قسطمونى ، سينوب ، صمصون ، زنغلداق ، جانقرى وقسما جورم) ، إمارة اماسيا ، إمارة حامد (ولايتى بوردر واسبارطة) .

وفى البلقان : شبه جزيرة غاليبولى Gelibolu ولايات ادرنه ، قرقلارايلى ، تكرداغ ، قضاء جتالجه ، كامل بلغاريا الحالية ، تراقيا الغربية عدا جزيرة سمندرك ، مدينة سلانيك بشبه جزيرة هالكيدكيا ، مكدونيا الجنوبيه عدا جزيرة تاشوز ، تساليا ، مكدونيا الشمالية (مكدونيا اليوغسلافية) ، كوسوفا ، نيش (صربيا الجنوبية) ؛ شرق ألبانيا ، شرق قره داغ وكمناطق حماية : جمهورية دبروفنك إمارة دوبروجه ، إمارة صربيا .

وهكذا تكون مساحة الامبراطورية التى خلفها السلطان أورخان قد تضاعفت أكثر من ٥ أضعاف خلال ٢٧ سنة .

ونورد فيما يلى آراء بعض المؤرخين المسيحيين بشأن السلطان مراد :

كتب أحدهم : « خاض السلطان مراد بنفسه ٣٧ حربا ، انتصر فيها جميعا ، أصبحت له شهرة القائد الذى لايقهر ، تميزت كل تحركاته بأنها كانت تستند إلى خطة ، وحتى فى شيخوخته لم يفقد شيئا من قدرته ودهائه » (المؤرخ البيزنطى المعاصر له Phrantzes ، طبعة بون ، ص ٨١) .

وكتب آخر :

« قاد ٣٧ حربا فى روملى والأناضول وانتصر فى جميعها . كان جسورا ، رابط الجأش ، فعالا ، شديدا ونشيطا فى شيخوخته كما فى شبابه ؛ منظما ، لايهمل أى تدبير ، ولا يشرع فى عمل ما لم يخططه بكامل وجوهه . يعامل الدول والأشخاص الذين يطيعونه ويقومون بخدمته بالحسنى واللين والكرم مهما كانت أديانهم . كان قاسيا على من يظهر له العداء . لم ينج أحد من قبضته . يصدق فى قوله حتى ولو انقلبت الأمور إلى ضده بعد ذلك ، حصل على ثقه الجميع سواء من الأعداء أو الأصحاب » (المؤرخ البيزنطى المعاصر له Khalkokondylas طبعة باريس ، ص ٢٩) .

وكتب ثالث :

« كان متفوقا على جميع معاصريه من الحكام ورجال الدولة فى العالم . فاق الحدود التى تخيلها والده . أمن مصالح الدولة العثمانية التى هى أحد التطورات المذهلة جدا فى التاريخ كله ، نال ثقة الروم وربما محبتهم . عامل الأرثوذكس معاملة أفضل بأضعاف من معاملة الكاثوليك للأرثوذكس » (المؤرخ الانكليزى Gibbons ، اوكسفورد ١٩١٦ ص ٥٢) .

وكتب رابع :

« لايمكن أن يعثر على حاكم على مستوى السلطان مراد ، بين معاصريه من الحكام الأوربيين . لم يكن داهية عسكريا وأستاذا استراتيجيا فحسب ، بل كان فى ذات الوقت دبلوماسيا مرهفا . كان حاكما بالفطرة . جعل من العثمانيين ، أمة موحدة . عرفهم بالمثل وزودهم بها . كان عند وفاته قد أمن مستقبل هذه الدولة لـ ٥ قرون » (المؤرخ الفرنسى Fernard Grenard ، باريس ١٩٣٨ ص ٥٢) .

(٨) يلدرم بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٢)
يحقق وحدة الأناضول

بايزيد هو الأبن الأكبر للسلطان مراد وولى عهده ، أطلق عليه لقب « يلدرم » (برق) منذ حملة قره مان ١٣٨٧ .

اعتلى العرش وعمره ٢٩ سنة ، فى عام ١٣٧٨ صاهر جرميان أوغلو الذى تنازل له عن مدينة عرشه كوتاهية وجوارها كجهاز لابنته . جلس بايزيد على عرش جرميان فى كوتاهية ، وفى ١٣٨٦ ، أصبح إضافة لذلك أول لواء (وال ، سنجق بك) لحميد (اسبارطة) كما أصبح لفترة من الزمن ، أول لواء (وال) على آماسيه .

اشترك فى حملات أبيه بجنود هذه الألوية وكان يقود على الأغلب الجناح الأيمن للجيش العثمانى.نودى به سلطانا فى ساحة الحرب على إثر استشهاد أبيه فى صحراء كوسوفا .

ثارت قرة مان واحتلت كوتاهية بينما كانت العثمانية فى معركة البقاء أو الفناء فى كوسوفا ، وأغرى ذلك بعض الإمارات الخاضعة للنفوذ العثمانى كصاروخان ، آيدن ، تكه ، جرميان وحتى إمارة حميد التابعة لحكم العثمانية المباشر - بالثورة . أعلنت تلك الإمارات أنها لن تسمح بحدوث أى تغيير فى الموازين الحالية بين الإمارات الأناضولية ، ولن تسمح بتحقيق الوحدة التركية . من الواضح أن قره مان كانت ترى أنها مادامت لم تتمكن من تأسيس الوحدة فى تركية السلجوقية ، فانها لن تسمح للعثمانيين بإنجاح ذلك .

أنهى يلدرم بايزيد أعماله فى روملى ، وجاء مسرعا إلى بورصة . وفى الأيام الأولى من عام ١٣٩٠ تحرك نحو الجنوب . ودخل خلال أشهر شباط وآذار بالتسلسل إلى إمارات جرميان ، آيدن ، منتشه ، صاروخان ، عرض الأمراء طاعتهم للبادشاه وتخلوا عن إماراتهم لصالح العثمانية دون أية مقاومة . أعطى بايزيد لكل منهم مقاطعة (ديرلك) . الحقت بالعثمانية ولايات صاروخان (مانيسا) ، ازمير ، آيدن ، منتشه (موغلا) ، اوشاق ودنيزلى . وبذلك حاز العثمانيون أعظم الموانىء فى ايجه ، آيدن ، منتشه ، كما حازوا أسطول صاروخان ونفذوا من سواحل منتشه إلى البحر الأبيض . كما حازوا قلعة آلاشهر وهى القلعة الأناضولية الوحيدة التى بقيت لدى البيزنط .

جاء السلطان بايزيد إلى أنقرة ، وهى أكبر مركز لايالة أناضولى ، وقضى شتاء عام ١٣٩٠ - ٩١ فيها .

أقلق قضاء الجيش العثمانى فصل الشتاء فى الشمال وفى موقع مركزى ، عدو العثمانية قاضى برهان الدين المتمركز فى القسم الشرقى من الأناضول الوسطى ، كما أقلق قرة مان المتمركز فى القسم الغربى منها . وفى خريف عام ١٣٩١ ، تحرك البادشاه من أنقرة إلى أسبارطة مرة أخرى ومنها دخل إلى مدينة قونية ، كان قره مان اوغلو داماد علاء الدين بك زوج أخت السلطان بايزيد قد هرب من قونية إلى طاش إيلى ، دعاه السلطان بايزيد وأخبره بأنه سيترك الإمارة له ، شرط الاخلاص له وعدم الخروج على تبعيته ، ثم ترك قونية . رافق الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى ، يلدرم بايزيد فى حملته الأناضولية الثانية . وقد كان بايزيد ينظر إلى الامبراطور على أنه تابع له بينما كان الامبراطور يعتبر نفسه حليفاً على قدم المساواة مع السلطان بايزيد ، ظل الامبراطور مانويل الثانى ضيفا فى سراى بورصة مدة طويلة وكان شخصا عالما ويحسن التكلم بالتركية ، وقد التزم باتجاهات السياسة العثمانية الخارجية إزاء البيزنط .

دكت ٦٠ قطعة من قطع الأسطول العثمانى جزر ساقز ، كيكلاد ، آغيبوز التى يحتلها اللاتين الكاثوليك وبذلك يكون السلطان بايزيد قد أخطر جمهوريات البنادقه ، الجنويين والايطاليين ، إنه كان يستعد لمحاصرة البيزنط .

وفى ١٣٩١ اصطف ٦٠٠٠ جندى تركى على امتداد السور وراقبوا الدخول والخروج لمدة ٧ أشهر ، ويفهم من هذا الإجراء إنه لم يكن حصارا بالمعنى المفهوم للحصار وإنما كان مجرد حجز ، وقد كان السلطان يأمل أن يخضع له الامبراطور دون حرب كما فعل أمراء الأناضول .

وفى صيف ١٣٩١ ، ولأول مرة اجتاز بايزيد الطونة نحو الشمال ودخل رومانيا ، وشتتِ الجيش الرومانى فى الحرب الميدانية Argeso . وأسر الأمير Mircea .

ودخلت رومانيا المسماة افلاق (رومانيا الجنوبية) تحت الحماية العثمانية ، وسيظل هذا الوضع ٤٨٧ سنة حتى ١٨٧٨ .

وفى ١٣٩٢ ، فتح البادشاه سلانيك وأخذ شبه جزيرة هالكيدكيا من البيزنط

وقطع ارتباط البيزنط بمكدونيا ، ثم جاء إلى كارافيريا وبنى شهر (باليونانية . Larissa) ، وألحق تساليا .

وفى ١٧ تموز ١٣٩٣ ، دخل الجيش التركى إلى ترنوفا وخلع ملكها الأخير شيشمان من العرش ، أما أخوه الأمير ستراتسمير فقد تمكن من البقاء حتى ت ١٣٩٦/١ .

(كانت ترنوفا وفيدين يحكمهما أميران بلغاريان يتبعان الإدارة العثمانية) .

وفى الوقت الذى كان فيه البادشاه فى روملى ، شكل فى الأناضول كل من قره مان - وجاندار وقاضى برهان الدين حلفا ضد العثمانية .

جاء السلطان بايزيد من بورصة إلى قسطمونى . أراد جاندار اوغلو سليمان باشا الثانى ، صهر فاتح روملى ولى عهد - شهزاده غازى سليمان باشا ، صده ، ولكنه هزم وسقط قتيلا (ت ٢/ ١٣٩٢) . انتقلت ولايات قسطمونى ، زونغلداق ، جانقيرى ، جورم إلى العثمانية . أما اسفنديار بك أخو سليمان باشا الثانى الموجود فى سينوب - من بنى عثمان من جهة الأم - فقد عرض طاعته .

أما الحرب مع قاضى برهان الدين فقد كانت أشد ، كان الجيش العثمانى قد دخل فى البداية إلى سيواس ، ثم قيصرى (إيلول ١٣٩١) . هزم القاضى برهان الدين ، الجيش العثمانى الذى يقوده ابن يلدرم الثانى شهزاده أرطغرل فى حرب قرق ديليم الميدانية قرب جورم وقتل الشهزاده (تموز ١٣٩٢) . جاء شهزاده محمد إلى آماسيا مع ٣٠٠٠٠ جندى (ك ١٣٩٣/٢) .

استمرت الفتوحات فى مكدونيا الشمالية وفى البانيا . فتحت اسكب التى استعادها الصربيون لفترة ، بصورة نهائيه (١٣٩٢/١/٦) .

وفى ١٣٩٧ ، جاء السلطان يلدرم بايزيد إلى اليونان . دخل أثينا . انتقل إلى مورا . أرغم أمراء البيزنط الموجودين فى مورا على قبول خضوعهم لسيادته . وقعت هذه الحملة بعد انتصار نيغبولو .

عاود قره مان التمرد عندما كان الجيش العثمانى فى نيغبولو ، فسار إليه يلدرم بعد عودته من حملة اليونان ألغى البادشاه الذى دخل قونيا فى ١٣٩٧ إمارة قره مان

وألحقها كايالة ثالثة بعد ايالتى اناضولى وروملى .

جاء يلدرم إلى مدينة لارنده (قره مان) . أمر باعدام زوج أخته قره مان أوغلو علاء الدين بك وانتقلت قونية ، نيغده ، اقسراى وديوه لى حصار - إلى العثمانية . سمح يلدرم لفرع من بنى قرة مان بأن يستمر تحت سيادة العثمانية فى الجنوب فى سواحل البحر الأبيض ، فى موت ، سلفكه وآنامور (ايجل وطاش ايلى) .

وفى ربيع عام ١٣٩٨ ، جاء يلدرم إلى صمصون . ألحقت العثمانية سواحل البحر الأسود إلى الحكم العثمانى حتى نهر هارشيت . كانت أراضى امبراطورية طرابزون الرومية (البيزنطية) تبدأ من شرق نهر هارشيت . قتل قاضى برهان الدين فى هذه الأيام (تموز ١٣٩٨) . دخل ولى عهد - شهزاده سليمان مع ٢٤٠٠٠ جندى سيواس وضم جميع أراضى قاضى برهان الدين إلى العثمانية .

وفى ربيع عام ١٣٩٩ ، جاء يلدرم كذلك إلى سيواس وشاهد الوضع . أصبح شهزاده محمد جلبى واليا على سيواس . أخذ البادشاه ملاطية من المماليك فى صيف عام ١٣٩٩ ، وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك فى الوقت الذى كان فيه خطر تيمور ماثلا على أبواب الأناضول (ايلول ١٣٩٩) .

احتل يلدرم كذلك المدن المملوكية كحصن منصور (آدى يمان) ، كاهته ، بسنى دارنده ، ديوريغى ، البستان ووصل الفرات بسيطرة تامة . اعترف بنو دلقادر بعد ذلك بالسيادة العثمانية عليهم (١٣٩٩/٩/٢) ، وخضعت خربوت وارزنجان . وهكذا تكونت الوحدة الأناضولية وأعيد إحياء تركية علاء الدين كيكباد .

(٩) نيغبولو (٢٥ ايلول ١٣٩٦)

كان من نتائج عبور العثمانية من شمال ألطونه ودخولها الأراضى الرومانية والمجرية ، وتهديدها البيزنط بصورة خطيرة ، توحيد جميع أوربا ضد تركية . كما أن محاصرة أو حجز العثمانيين للبيزنط للمرة الثانية طيلة أشهر صيف عام ١٣٩٥ ، وماترتب على ذلك من عدم إمكان الدخول إلى الأسوار البيزنطية أو الخروج منها دون موافقة العثمانية ، بالإضافة إلى قيام السلطان بايزيد بتشييد القلعة المسماة كوزلجه حصار (اناضولى حصارى) على الضفة الآسيوية من البوغاز ، ومحاولة العثمانيين إخراج

اللاتين الكاثوليك من بحر الخرز (ايجه) .. كل ذلك حرض أوربا على تشكيل حملة صليبية جديدة .

حشدت أوربا ۱۳۰۰۰۰ جندى مسيحى مجهزين بصورة جيدة ومن خيرة وحدات كل قطر .

أرسلت ملكية المجر ، وملكية فرنسا ، وملكية إنكلترا ، وإمبراطورية ألمانيا ، وملكية بولونيا ، وجمهورية البندقية ، وملكية كستيليا (اسبانيا) ، وملكية آراغون ، والبابوية ، وفرسان رودس ، وملكية النرويج ، وملكية اسكتلندا ، وفرسان توتون Toton ، وجمهورية جنوة ، ودول أوربية صغيرة أخرى - وحداتها الممتازة جدا للانضمام إلى هذا الجيش . ووضعت البندقية أسطولها تحت أمر الحملة . استغرقت الاستعدادات وقتا طويلا ، وكان البابا هو صاحب الدعوة . صرفت الدراهم بمبالغ لم يسبق أن شوهدت فى أوربا القرون الوسطى .

كان كل ذلك يشير إلى أن أوربا قد قررت بصورة نهائية إخراج الأتراك من البلقان وسوقهم إلى الأناضول ، ثم يأتى بعد ذلك الجيش الصليبى إلى القدس ليخلصها من المماليك ! كانت هذه هى الخطة فيما يبدو .

اجتمع المجلس العسكرى الأعلى فى بودابست وانتخب ملك المجر سيغوسمند الأول للقيادة العامة . أعلنت تركيا التى كانت على علم بكل هذه الترتيبات الحرب على المجر فى شباط عام ١٣٩٦ . اجتاز الجيش الصليبى الحدود المجرية - التركية ودخل الأراضى العثمانية . وجاء أمام قلعة نيغبولو على الضفة الجنوبية من ألطونة . لم يستسلم قائد القلعة دوغان بك ، وجاء يلدرم بايزيد أثناء ذلك مع ۷۰۰۰۰ جندى إلى ترنوفا ، وأتم استعداداته النهائيه وسار إلى الصليبيين الذين جاءته الأنباء بتوقفهم منذ ١٥ يوما أمام قلعة نيغبولو . وكان يلدرم بايزيد أرسل من ناحية أخرى ۲۰۰۰۰ جندى إلى ممر شبقا لم يشتركوا فى الحرب .

كان الجيش الصليبى مؤلفا من ۱۳۰۰۰۰ جندى ، ٦٠٠٠٠ منه عبارة عن جيش ملكة المجر المكون من أقوامها المختلفة . والوحدة الكبيرة التى تليه هى ١٠٠٠٠ فرنسى بقيادة الأمير الفرنسى قورقوسز (الجسور) Jean . لم يكن هؤلاء قد شاهدوا حربا بهذا الحجم ولاطالعوها فى الكتب . كانوا جنودا جيدين ،

لكنهم كانوا قد اعتادوا على مقاتلة خمسة أو عشرة آلاف شخص وجها لوجه على أكثر تقدير . كل منهم لايجيد لغة الآخر ، وكانوا يجهلون تكتيك الحرب التركى . اضطربوا عندما ضيق يلدرم بايزيد عليهم الخناق ، وأرادوا النجاة عن طريق ألطونة ، لكنهم شاهدوا أن النهر من أوله إلى آخره مرصوف بالسباهية الأتراك . كان الأتراك يقتلون بالسيف من لم يستسلم منهم . سقطت الراية الفرنسية الكبرى على الأرض ورفعت ست مرات لسقوط ستة رجال مختلفين من حملة الراية ، قتلى . أخذ الأتراك الراية عند سقوطها للمرة الأخيرة من يد قائد القوات البحرية الفرنسية الأميرال Jean de Vienne الميت . لم تنجح هذه المقاومة العنيدة فى تلافى وقوع الهزيمة .

مات أو غرق فى نهر ألطونة حوالى ١٠٠ ٠٠٠ جندى مسيحى ، كما وقع حوالى ١٠ ٠٠٠ جندى أسرى فى يد الأتراك وتمكن حوالى ٢٠ ٠٠٠ من الهرب بشكل منفرد . (خسائر الأتراك غير معلومة ؛ تذكر المصادر الأوربية أن حجم الخسائر قد بلغ ٣٠ ٠٠٠ جندى تركى بين قتيل وجريح) من بين القتلى الأمير فيليب دى لابار والاميرال Devienne .

ومن بين الذين تمكنوا من الهروب ، ملك المجر سيغسموند ، هنرى الرابع ملك انكلترا القادم ، الاميرال الكبير البندق Mocenigo (الذى أصبح بعدها رئيسا للجمهورية) ، Friedrich Von Hohenzollern قائد فرسان تولون Tolon . اما اهم الذين وقعوا فى الأسر ، فهم كونت بوركونديا Jean Sons Peur (قورقوسز جين اى جين الجسور « الذى لايهاب » وهو أحد الشخصيات المهمة فى التاريخ الفرنسى) ، الأمير Philippe de Capet - Artois - Eu القائد العام للملكية فرنسا ، الأمير Jacques de Copet - Bourbon - de la Marche ، الأمير هنرى دى لورين Hrnri delorraine ، المارشال Bouci cault ومجموعة من ٢٧ شخصا من أكبر أشراف فرنسا ، وأمثال ذلك من الأمم الأخرى .

جرى حصار استانبول الثالث فى ١٣٩٧ بعد نيغبولو ، وجرى الحصار الرابع خلال ١٣٩٩ - ١٤٠١ على إثر ذهاب الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى لانكلترا وزيارته المراكز الأوربية مدة ١٣ شهرا لطلب المساعدة . وكان الحصار الرابع ويحتمل الأخير مستمرا عند دخول تيمور إلى الأناضول . تحقق للقوة البحرية التركية التفوق

البحرى فى بحر ايجه ، بعد نيغبولو وسبقت البندقية فى هذا المجال وقامت بتحركات مهمة .

(١٠) واقعة أنقرة (٢٨ تموز ١٤٠٢)

وخلال هذه السنين أسس تيمور بك الكبير خاقان أتراك الشرق (تركستان) ، امبراطورية عظمى تمتلك أقدر جيش ودولة فى العالم تمتد من الصين إلى مصر . وكان يلدرم بايزيد قد أثبت خاصة بعد انتصاره فى نيغبولو - لأوربا المتحالفة ، انه يملك دولة كبرى وجيشا عظيما ، وانه المقتدر الثانى فى العالم بعد تيمور .

لايمكن لدولتى العالم الأولى والثانية الكبيرتين أن تقيما علاقات حسنة من الناحية الجغرافية السياسية ، حتى ولو كانتا تتكلمان اللغة ذاتها وتدينان بالدين والمذهب ذاته . وهذا ماحدث . تمكن يلدرم من النجاة من بلية تيمور باتباعه دبلوماسية دقيقة . كانت مواهب يلدرم العسكرية أكثر تفوقا من مواهبه الدبلوماسية .

اقترب تيمور إلى تركيا وهو متردد . حمت العثمانية أعداء تيمور بشكل سافر . كان تيمور قد أصبح كبير السن ولم يكن كثير الرغبة فى الحملة على يلدرم بايزيد بنى عثمان الذى يعتبر أكبر الغزاة فى العالم الإسلامى وإثارة مشاعر العالم الإسلامى التى لم تكن أساساً فى صالحه . لكنه كان عازما على فتح الصين وادخال هذه البلاد إلى الإسلام ، وكان يعلم أن العثمانية لاتبالى بأية حدود ، وكان يخشى من استيلائها على أقطار الشرق الأوسط وأقطار الحكام الذين لجأ بعضهم إلى بورصة التى فتحها تيمور حديثا . من المعلوم أن يلدرم كان شابا جسوراً مغروراً وحريصا .

قام تيمور بحملته الأولى على الأناضول فى عام ١٤٠٠ . جاء إلى سيواس . أقام مالقوج أوغلو مصطفى بك دفاعه الطويل والمخيف بـ ٤٠٠٠ من جنده تجاه مالا يقل عن مائتى ألف من جيش تيمور . دخل تيمور المدينة وخربها . قتل كافة الأسرى العثمانيين وعددا غير قليل من الشعب . لكنه لم يكن قد شاهد خلال حياته الطويلة صمود قلعة إلى هذه الدرجة من الشدة . وأدرك عدم إمكان اسقاط القلاع الأناضولية الواحدة تلو الأخرى على هذا المنوال . كان عليه ان يظفر بالجيش العثمانى السيار ، ويبيده . انسحب تيمور من الاناضول إلى قفقاسيا بعد أن أخذ من العثمانية ملاطية (١٤٠٠/٩/١٥) ، وخلال ذلك كان السلطان بايزيد قد حضر مع جيشه

إلى قيصرى . رفض تيمور الحرب ، كان يأمل أن يقر يلدرم بتبعيته له مثل سلاطين ألطون اوردى ، المماليك والهند . لم يتحقق أمله هذا ، وردّ يلدرم طلب تيمور بصيغة فيها تحقير . حاول تيمور خلال قضائه الشتاء فى قفقاسيا ، اقناع امرائه بشن حرب نهائية مع العثمانية . كان رأى أمراء تيمور وحتى أولاده وأحفاده ، أنه لايليق بهم الحملة على الدولة العثمانية السنية – الحنفية مثلهم والتى تنطق بالتركية والتى تعتبر حاملة لراية جهاد الدين الإسلامى . أقنع تيمور قواده الذين خالفوه فى رأيه باحتمال ضرب يلدرم الجيش التيمورى من الخلف أثناء حملته على الصين . وساعده على إقناعهم بهذا سياسة يلدرم .

دخل تيمور الأناضول مجددا فى ١٤٠٢ ، وفى شهر تموز وصل أنقرة . تجول مدة طويلة فى الأناضول وأتعب يلدرم الذى كان يتعقبه . كان لديه ٣٠٠ . ٠٠٠ جندى وجميعهم منظمون جدا .وفى مقدمة الجيش ٣٢ فيلا مدرعا تدهش الناظرين . كان أبناء تيمور واحفاد كثيرون له قواد فرق فى الجيش . جاء يلدرم مع ١٢٠ . ٠٠٠ جندى . بدأ الصدام فى صباح يوم ٢٨ تموز واستمر حتى غروب الشمس . لجأ جميع الأمراء التركمان الذين حرمهم يلدرم من عروشهم إلى تيمور وانضموا بوحدات اماراتهم إلى جيشه . كان ذلك أحد الأسباب الكبرى فى هزيمة العثمانية . ذلك بالاضافة إلى أن فارق العدد كان كبيرا ، ونحو العصر ، قطع ولى عهد – شهزاده سليمان مع الوزير الأعظم جاندارلى – زاده على باشا الأمل فى النصر ، فتركا ساحة الحرب مع فيلق مؤلف من ٣٠ . ٠٠٠ شخص .

كان البادشاه فى القلب وقد ظل يحارب إلى أن أسر ليلا فى جتالتبه .

كانت خسائر تيمور ٤٠ . ٠٠٠ ، وهى خسارة لم يسبق له أن تكبدها ، فقد كان أقصى ماتكبده من خسائر فى معارك سابقة لايزيد على ٦٠٠٠ . كان طريق سمرقند – انقره ، الذى يبلغ طوله الحقيقى حوالى ٦٠٠٠ كم بعيدا جدا عن قاعدته . وقد أخطأ يلدرم خطأ كبيرا بقبوله الحرب الميدانية بدلا من حرب العصابات .

كانت معركة أنقرة أكبر حرب ميدانية حدثت على وجه الأرض خلال القرون الوسطى (٤٧٦ – ١٤٥٣) . وفى هذه الحرب التحم اثنان من أكبر الحكام العسكريين فى التاريخ ، وفيها تبارى لاحراز النصر خاقانان تركيان مسلمان كانا يقتسمان الاقطار بين الصين والادرياتيك ومعهما أبناؤهما .

ولذلك فإن معركة أنقرة تعد فى التاريخ التركى إحدى أكبر الكوارث التى أخرت نمو العثمانية وفتوحاتها نصف قرن ، كما أطالت عمر البيزنط والقرون الوسطى ٥٠ سنة ، بالاضافة إلى أنها أخرت وحدة الأناضول ٧٠ سنة . ولم يتمكن السلطان ياوز سليم من ضم بعض الأراضى التى كانت على عهد يلدرم أراضى عثمانية إلى الأراضى التركية مجددا إلا بعد ١١٥ عاما من معركة أنقرة .

عاش السلطان بايزيد الذى أسره تيمور فى الأسر مدة ٧ أشهر و١٢ يوما . توفى فى آقشهر قرب قونيه فى ٣ آذار ١٤٠٣ . ارسل جثمانه إلى بورصه . وعلى اثر وفاته ، اطلق تيمور سراح موسى جلبى أحد ابنى بايزيد الذين أسرا معه . وأحضر مصطفى جلبى ابنه الآخر الذى يكبره إلى سمرقند .

دامت سلطنة يلدرم بايزيد مدة ١٣ سنة ، وشهراً ، و٨ أيام وكان عند وفاته فى سن ٤٣ .

نال بصورة رسمية وكذلك بتصديق من الخليفة العباسى فى القاهرة لقب « سلطان إقليم روم » وأعلن نفسه امبراطورا على روما وأضاف هذا اللقب إلى سلطنته حيث إنه كان متبوعا لامبراطور روما الشرقية .

بلغت مساحة دولة تركية قبيل معركة انقرة ٩٤٢٠٠٠ كم^2 ، بما يعنى أنها توسعت خلال ١٣ سنة نحواً من ٤٤٣٠٠٠ كم^{2}منها ٤٤١٠٠٠ كم^2 منها فى أوربا فى البلقان ، ونحو ٥٠٠ ٠٠٠ كم^2 فى آسيا فى الأناضول .

أما الدول المستقلة ذاتيا فى هذه الأراضى فهى : إمارة افلاق (رومانيا) وإمارة الصرب وإمارة مورا البيزنطية ودوقية أثينا اللاتينية وإمارة دلقادر . وبقية الإمارات كان يديرها الولاة العثمانيون بصورة مباشرة .

من أشهر القواد الذين ساعدوا يلدرم بايزيد والسلاطين الذين سبقوه فى هذه الفتوحات : حاجى ايلبكى (وفاته ١٣٦٤) والوزير لالاشاهين باشا (وفاته ١٣٨٦) والوزير الأعظم جاندارلى خير الدين باشا (وفاته ١٤٠٦) والوزير قره تيمور طاش باشا (وفاته ١٤٠٤) وغازى افرنوس بك (وفاته ١٤١٧) وغازى اسحق بك (وفاته ١٤١٥) .

(١١) دور الفترة : سليمان الأول (١٤٠٢ - ١٤١٠) و موسى جلبى (١٤١٠ - ١٤١٣)

خلف يلدرم بايزيد أبناء كثيرون وهم حسب تسلسل أعمارهم : سليمان الاول (١٣٧٥ - ١٤١٠) (ولى عهد فى ١٣٨٩ - ١٤٠٢) ، شهزاده ارطغرل (١٣٧٦ - ١٣٩٦) عيسى جلبى (١٣٧٨ - ١٤٠٥) ، مصطفى جلبى (١٣٨٠ - ١٤٢٢) ، محمد الأول (١٣٨٢ - ١٤٢١) ، موسى جلبى (١٣٨٨ - ١٤١٣) ، شهزاده قاسم (١٣٩٧ - ١٤١٧) ، شهزاده يوسف ، شهزاده إبراهيم الذى توفى وأبوه على قيد الحياة ، شهزاده حسن (وفاته ١٤٠٣) ، وابن آخر شهزاده بيوك موسى جلبى مات وهو طفل نحو ١٣٨٨ .

ترك أولو شهزاده سليمان ومعه اخوانه ، ساحة حرب أنقرة وجاء إلى بورصة ، وخرج من مدينة العرش على وجه السرعة بحيث ترك فيها الخزينة وارشيف الدولة ، فقد كان يطارده ٣٠٠٠٠ خيال تركستانى واثنان من أحفاد تيمور سلطان محمد وأبو بكر ميرزا . نهب التيموريون خزينة بنى عثمان التى كانت حصيلة ٤ بطون وحرقوا أرشيف الدولة ، لذلك فإن الوثائق الرسمية الموجودة فى حوزتنا التى ترجع للقرن ١٤ من التاريخ العثمانى غير وافية . جاء أبو بكر ميرزا بعد ذلك إلى ايزنك ونهبها كذلك .

اجتاز شهزاده سليمان البوغاز وذهب ناجيا بنفسه إلى ادرنه . أعلن نفسه سلطانا باسم سليمان الأول . وخلال ذلك أعاد تيمور إلى أمراء الأناضول السابقين دولهم التى أخذها منهم يلدرم بايزيد قبل عدة سنوات .

لم يحاول العبور إلى روملى ، فقد كان يخشى الكوماندو الخيالة فى روملى الذين يسمون (روملى آقينجيلرى) الذين سمع بشهرتهم وشجاعتهم فى القتال ، وكان يريد فى الوقت ذاته الإسراع فى الذهاب إلى الصين . أعيد احياء امارات (بكلك) قرة مان ، آيدن ، صاروخان ، منتشه ، جرميان ، جاندار ، تكه .

أعطى تيمور إلى اثنين من أولاد يلدرم هما عيسى ومحمد جلبى المناطق الأخرى من الأناضول ، أما سليمان الأول الذى يحكم الأراضى الأوربية ، فقد قبل أن يكون تابعا لتيمور .

جاء تيمور أمام أزمير ، وكانت المدينة مقسمة بين الأتراك وفرسان رودس (Saint - Jean) ، قسم من القلعة كان بيد الفرسان وكان يسميها الأتراك « كاوور أزمير » بمعنى « أزمير الكافرة أو غير المسلمة » ، وكان آيدن أوغلو غازى أومور بك قد سقط شهيدا أمام أسوار هذه القلعة عندما أراد استرجاعها .

احتل تيمور القلعة بعد حصار دام ١٥ يوما وسلمها إلى آيدن أوغلو ، ويعتبر هذا هو العمل المجدى الوحيد الذى حققه فى الأناضول .

انهى تيمور حملة الأناضول المشئومة وقد أصبح الأناضول تابعاً لـ ٦ امبراطوريات ؛ ألطون أوردى (أوربا الشرقية التركية) ، والمملوكية المصرية – السورية ، والهندية ، والتركية (العثمانية) ، والبيزنطية وامبراطورية طرابزون الرومية ، ولعشرات الملوك ومئات الأمراء . ذهب نحو تركستان لحملة الصين ، ولو شاء تمكن من فتح البيزنط خلال عدة أسابيع ولو فعل ذلك لحصل على شرف كبير ، لكن سحر الصين كان قد غلب عليه .

يطلق فى التاريخ العثمانى على الفترة الزمنية المنحصرة بين حرب أنقرة وتوحيد تركية تحت إدارة واحدة على يد محمد الأول « دور الفترة » (فترت دورى) ، وهى فترة الخصام على العرش بين أبناء يلدرم بايزيد ، ومدتها ١٠ سنوات ، و١١ شهرا ، و٨ أيام . كان تيمور فى الأناضول فى الثمانية أشهر الأولى منها (غادر تركية فى آذار ١٤٠٣) .

لاشك فى أن البادشاه كان هو سليمان الأول الموجود فى أدرنة ، وكان أخوه محمد جلبى المقيم فى آماسيا يمتلك أراضى كبيرة . أما عيسى جلبى ، فانه سيطر لفترة من الزمن على بورصة لكن أخاه الصغير محمد جلبى نحاه وقتله .

وكان أصغر الأخوة هو موسى جلبى . وكل الأخوة كانوا يعترفون بلا شك بسلطنة سليمان الأول ، لكنهم كانوا يسعون لحصره فى حدود ضيقة ، أو اسقاطه إذا أمكن .

أنهت إقامة السلطان سليمان فى أدرنه دور مدينة بورصه كقاعدة ومدينة عرش دامت ٧٦ سنة ، و٤ أشهر (١٣٢٦ – ١٤٠٢) وبدأ دور مدينة أدرنه التى ستظل

مدينة العرش لمدة ٥١ سنة (حتى عام ١٤٥٣) . ظل دور بورصه مستمرا كمدينة عرش للأراضى الأناضولية .

حاول السلطان سليمان ، حيازة الأراضى الأناضولية . أخذ بورصة ، أنقرة ، أزمير . بقى لدى محمد جلبى منطقة أماسيه - توقات - سيواس فقط .

دخلت آيدن وجرميان تحت سيادة محمد جلبى واعتبراه سيدا لهما .

أخذ السلطان سليمان الذى جاء إلى أزمير آيدن من حوزة ايدن اوغلو جنيد بك وانهى إمارته مرة أخرى .

كان قرة مان ضد السلطان سليمان ويزعم انه حليف لمحمد جلبى . اعلن موسى جلبى طاعته لاخيه الكبير محمد جلبى واجتاز إلى روملى بغية اسقاط السلطان سليمان لحساب محمد جلبى وباسمه .

اعترف أمير رومانيا (افلاق) بتبعيته لموسى جلبى ، أما أمير صربستان فقد اعترف بسيادة السلطان سليمان .

وقع الصدام الأول قرب جتالجه ، وفر موسى جلبى أمام أخيه الكبير . لكن بعض القواد لم يكونوا مرتاحين للسلطان سليمان ، فدعوا موسى جلبى الذى هرب إلى رومانيا . بوغت السلطان سليمان بالهجوم على مسكنه ، فترك ادرنه ، وقتل فى الطريق (١٤١٠/٥/١٨) وعمره ٣٥ سنة . دامت سلطنته ٧ سنوات ، و٩ أشهر ، و٢١ يوما .

اعتلى السلطان موسى العرش . بينما كان قد وعد بأخذ روملى من أكبر اخوته السلطان سليمان باسم محمد جلبى الذى سانده على هذا الأساس . كان عسكريا شديدا ، من جهة الأم من بنى كرميان ومن جهة أم أمة من أحفاد مولانا جلال الدين الرومى . أعلن نفسه سلطاناً وبقى أخوه محمد جلبى فى الأناضول .

كان محمد جلبى دبلوماسيا حاذقا . أخذ الأمبراطور الذى تخلص من الحصار بصعوبة ، بمساندة محمد جلبى بكل إمكاناته .

أراد موسى استعادة سلانيك من البيزنط ولكنه لم يوفق ، واستعاد جتالجه وهزم قرب جتالجه أخاه محمد جلبى الذى ثار عليه . جرح محمد جلبى وذهب إلى البيزنط

ونجا بنفسه ، وبقى مدة فى استانبول كضيف على الامبراطور الذى رحب به وعمل على معالجته .

كرر موسى خطأ أخيه سليمان وأغضب أمراء صاعقة روملى المغاوير ، بدأت كفة الميزان تميل فى غير صالح موسى ، وأعلن أمير الصرب تبعيته لمحمد جلبى ، وجه أمراء صاعقة روملى الدعوة لمحمد جلبى ، عبر محمد جلبى إلى روملى للمرة الثالثة ومعه ٣٠٠٠٠ جندى وانضم إليه مغاوير روملى كما أرسل أمير صربيا وحدات عسكرية إليه ، هزم جيش موسى جلبى قرب ويزه .

تعقب محمد جلبى أثر أخيه الصغير موسى وهزمه وقتله فى الحرب الميدانية جامورلو دربند التى وقعت قرب ساماكوف فى جنوب شرق صوفيا . أرسل نعشه إلى بورصة كما أرسل نعش سليمان الأول . كان عمره ٢٥ سنة . دامت سلطنته ٣ سنوات ، وشهرا ، و٢٣ يوما . لم يعقب ولدا ، أما سليمان الأول فقد خلف الشهزاده أورخان (١٣٩٥ - ١٤٤٩) ، الشهزاده محمد - شاه (١٤٠٨ - ١٤٢١) و ٣ اطفال باسم باشا - ملك - خاتون ، وأحفاد كثيرون من هؤلاء .

أرسل أصغر أبناء تيمور الرابع الخاقان الأكبر سلطان شاه رخ ، كتابا إلى محمد جلبى الذى كان تابعا له ، يكدره فيه لقتله أخيه موسى . أجابه محمد جلبى برسالة يعتذر فيها ، وحصل بهذه الرسالة على مصادقته على سلطنته . وهكذا انتهى دور الفترة .

قضى محمد جلبى على امارة صاروخان فى دور الفترة منذ ١٤١٠ ، واعترفت أكثرية الامارات الاناضولية التى أحياها تيمور عدا قره مان ، بسيادة بنى عثمان عليها منذ عهد الفترة ، ورغم ذلك فإن الأراضى التى تحت حماية أو حكم العثمانية فى ١٤١٣ ، تسجل نقصا قدره ٢٤٧٠٠٠ كم٢ عما كانت عليه فى عهد يلدرم فى ١٤٠٢ ، وهذه خسارة لايستهان بها . كان محمد جلبى فى ١٤١٣ يسيطر على أراض تبلغ مساحتها ٦٩٤٠٠٠ كم٢ منها ٣٦٨٠٠٠ كم٢ فى أناضولى و٣٧٦٠٠٠ كم٢ فى روملى . مناطق تكه ، آيدن ، دلقادر ، افلاق ، صربستان ، (محميات دبروفنك ضمن هذا العدد) . أما إمارات جرميان ، جاندار ، منتشه ، وقره مان ، فقد كانت تدعى الاستقلال تماما أو الاعتراف بسيادة بنى تيمور .

(١٢) السلطان محمد جلبى (الأول) (١٤١٣ - ١٤٢١)

أصبح الآن على عاتق السلطان محمد جلبى العمل على توحيد الوضع الدبلوماسى المبعثر إلى درجة كبيرة فى الأناضول ، والوصول بالدولة - قدر الإمكان - إلى مرحلة من القوة التى كانت عليها أيام والده ، وبالنظر إلى التوفيق الكبير الذى صادف السلطان محمد جلبى فى تحقيق ذلك ، فإن بعض المؤرخين العثمانيين يعتبرونه المؤسس الثانى للدولة .

وبينما كان السلطان محمد منشغلا فى روملى ، لم يضيع الفرصة ابن عمته قرة مان اوغلو محمد بك الثانى الذى زاد فى غضبه ، إعلان جرميان اوغلو يعقوب بك خضوعه لمحمد جلبى ، وسار إلى بورصة ولكنه رغم محاصرته حاجى عوض باشا الذى دافع عن القلعة مدة ٣١ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . وعلى اثر ذلك أخرج من قبر يلدرم بايزيد الموجود خارج القلعة عظام البادشاه الذى توفى قبل ١٠ سنوات ، وقام بعمل شنيع لايتقبله العقل فأحرق عظام خاله يلدرم بايزيد ، الذى يعتبره مسلمو العالم أجمع سلطان الغزاة وأكبر بطل إسلامى ، واثناء ذلك كانت وحدة عثمانية صغيرة تجلب نعش موسى جلبى إلى بورصة ، فظن قرة مان اوغلو ان هذه الوحدة طليعة للجيش العثمانى ، وأعطى أمر الانسحاب . لم يتمالك أحد القره مانيين من ضباط الخاصة الملقب « هارمان داناسى » الذى تأثر لهذا الأمر ، إلا أنه قال : « سيدى السلطان ، تهرب من ميت بنى عثمان بهذا الشكل ، فماذا يكون حالك لو جاءك حيه ؟ » اعدم هذا الضابط شنقا فى الحال لجرأته على هذا القول .

وهكذا بدأ السلطان محمد جلبى سلطنته فى مثل هذا الجو الفوضوى . كان لدى محمد جلبى تجربة حكم لمدة ١١ سنة فى دور الفترة . جاء إلى أزمير . ألغى إمارة آيدن . قبل خضوع جاندار اوغلو . استصحب معه وحدات تابعية جاندار وجرميان وسار على قرة مان . أسر ابن عمته قره مان اوغلو محمد بك الثانى ، لكنه بعد أن سمح له بتقبيل يده وأخذ منه عهد الاخلاص - الذى لن يوفى به أبدا - أطلق سراحه . قلص حدود قره مان بصورة كبيرة وذلك بالحاقه سيورى حصار ، بك بازار ، يالواج ، شرق قره آغاج ، قيرشهرى ، آقشهر ، بكشهرى ، سيد يشهرى التى اعطاها تيمور لقره مان ، إلى العثمانية . مثل فى حضرة السلطان - خلال حملته الأناضولية هذه - كل من أمراء جرميان ، منتشه ، تكه ، استاذ اعظم رودس وامراء

جنوه وقبلوا بهده . أرسل الأسطول بقيادة جالى بك إلى جزر آغريبوز وكيكلاد التابعة للبندقية . وفى أيار عام ١٤١٦ ، جاء الأسطول البندق إلى مدخل بوغاز جناقلعة للانتقام . جرح الاميرال Loredano ، واستشهد جالى بك الذى كان قائدا لـ ٤٢ سفينة .

استمر ملوك المجر وبوسنه فى البلقان على موقفهم المعادى للعثمانية . انتخب ملك المجر سيكسموند Sigismund فى ذات الوقت امبراطورا على ألمانيا . ومن ثم فقد تحتم على العثمانية اتخاذ التدابير حيال تفاقم الخطر فى شمال الطونة . اقترب الامبراطور – الملك سيكسموند إلى الحدود التركية ، فالتقى غازى اسحق بك بجيش العدو فى DoboJ فى خرواتيا فبعثره . أدى انتصار قائد تركى برتبة لواء (سنجق بك) فى معركة ميدانية على امبراطور إلى إخافة أعداء الأتراك فى البلقان . أعلن دوق هرسك طاعته للبادشاه . فتحت بعض الأماكن فى بوسنه . تقدم اسحق بك حتى وصل سلوفينيا . سقطت القصبة الصغيرة المسماة (سراى بوسنه) SaraJevo التى يسميها الاتراك « بوسنه سراى » على يد العثمانية بعد حرب DoboJ عام ١٤١٥ ، وقد جعل الاتراك من هذه القصبة الصغيرة بلدة كبيرة وشرعوا فى تجهيزها لتكون مركزا لبوسنه .

وفى ١٤١٦ استصحب السلطان محمد الوحدات التى أرسلها إليه تابعيه قره مان وجاندار ، واجتاز الطونة نحو الشمال ودخل رومانيا . شيد قلعتى تورنو ويركوى داخل رومانيا فى شمال الطونه . ربط افلاق بتركيا بروابط أمتن . عقابا للمجر رتب السلطان محمد هجمات على ترانسلفانيا (بالتركية : اردل) فى السنوات ١٤١٦ ، ١٤٢٠ و ١٤٢١ على التوالى . (الحملة الأولى على جرت فى ١٣٩١) .

دخل اسحق بك إلى ستيريا . أراد الجيش الألمانى – المجرى الدفاع عن شبه الجزيرة (شبه الجزيرة التى يقع عليها ميناء تريستة) . خسر ١٢٠٠٠ قتيل من المشاة ، ٧٤٠٠ من الخيالة ، ٣ جنرالات . أغرى هذا النصر اسحق بك فسار إلى ترانسلفانيا ؛ لكنه استشهد فيها .

ارتبطت دوبروجا بالنظام العثمانى بروابط متينة .

دخل الجيش العثمانى بيسارابيا وحاصر قلعة Cetatea Alba (بالتركية : اكيرمان) لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها .

جاء السلطان محمد فى السنة التالية إلى سينوب وصامصون وألحق بامبراطوريته بعض أراضى جاندار بصورة مباشرة .

فى غضون ذلك كله ، بدأ عصيان الشيخ بدر الدين .

من هو الشيخ بدر الدين ومأفكاره ؟

كان الشيخ بدر الدين عالما إسلاميا كبيرا ، ألف فى العلوم الدينية باللغة العربية ، تولى وظيفة « القاضى عسكر » لجلبى ، شارك فى مناظرات دينية عديدة فى حضرة تيمور فى تبريز ، وعندما ذهب إلى القاهرة ، أصبح استاذا للسلطان المملوكى فرج .

بدأ الشيخ بدر الدين فى نشر عقيدة غريبة وجمع حوله حشودا،مستثمرا الآثار الناشئة عن اضطرابات وآلام دور الفترة ، الأمر الذى أحدث تأثيرا فى النظام .

تتلخص آراء الشيخ بدر الدين فى:–إنكار الوجود المادى للجنة والجهنم موئلا ماورد فيهما من آيات على محمل الأثر النفسى الذى يجده المؤمن من عمل الحسنة أو اقتراف السيئة ، ويرتبط بذلك انكاره للقيامة والبعث بعد الموت

– تساوى الموسويين والمسلمين فى الناحية الإيمانية
– أن الرسول ﷺ ليس أفضل من غيره من الرسل ، وأن رسالته لاتختلف عنهم
– إنكار حق التملك ، والقول بشيوعية المال والملك .

كثر اتباع الشيخ بدر الدين ، وأخذوا فى نشر مذهبهم بالقوة والتعرض للناس والأموال ، فقتلوا الآلاف واجترءوا على أمير لواء أزمير اسكندر بك وقتلوه .

قبض على الشيخ بدر الدين فى دلى لورمان جنوب دوبروجه فى روملى ، وحاكمه السلطان محمد فى Serez واعدمه فى ١٤٢٠ .

ظهر مصطفى جلبى الأخ الأكبر للسلطان محمد فى مثل هذا الجو .

كان تيمور قد أرسل مصطفى جلبى إلى سمرقند ، وبعد سنوات طويلة اطلق سراحه وعاد إلى تركيا .

لاتوجد معلومات عن حياته وأعماله خلال هذه الأعوام الـ ١٦ .

وعلى الرغم من أنه من الثابت أنه الابن الحقيقى للسلطان يلدرم بايزيد ، فإن جلبى محمد أعلن أنه شخص محتال وأنه « ددزمه مصطفى » أى مصطفى المزيف .

مكث مصطفى عند قدومه إلى تركيا فى نيغده قره مان أولا ، ثم ذهب هناك إلى افلاق ، وحصل على تأييد أميرها وتأييد آيدن اوغلو جنيد بك الذى عين واليا (سنجق بك) على نيغبولو فى جنوب افلاق ، ثم نزل إلى الجنوب مع بعض الوحدات التى انضمت إليه . هزمه أخوه السلطان محمد قرب سلانيك . تمكن من الهرب مع جنيد بك إلى سلانيك ولجأ إلى البيزنط . نفاهما الامبراطور إلى جزيرة ليمنى ، واقسم الامبراطور على عدم إطلاق سراحيهما مادام مصطفى جلبى حيا مقابل ٣٠٠ ٠٠٠ آقجه يتسلمها كل عام .

جاء السلطان محمد إلى إستانبول ، وزار الامبراطور مانويل الثانى بصورة رسمية للمرة الثانية . كان مجىء السلطان محمد بواسطة البحر ، ونزل إلى البر فى دولمه بقجه . وعند عودته عبر معه الامبراطور إلى اسكدار ، أى حتى حدود الأراضى العثمانية .

وفى ١٤٢١/٥/٤ توفى غياث الدين غازى جلبى سلطام محمد خان ، فى سن ٣٩ فى ادرنه ، ونقل إلى بورصه ودفن فى قبرها المشهور بيشيل تربه (أى القبر الأخضر) ، لم يذع خبر وفاته مدة ٤١ يوما ، وأغلقت كل الحدود لحين حضور ابنه الذى كان واليا فى آماسيا ، إذ كان يخشى من قدوم السلطان مصطفى من ليمنى التى هى أقرب إلى ادرنه وجلوسه على العرش .

دامت سلطنته منفردا ٧ سنوات ، ٩ أشهر ، ٢٦ يوما . وإذا أدخلنا دور الفترة تصبح المدة ١٨ سنة و٩ أشهر و٧ أيام..كانت مساحة الامبراطورية عام ١٤٠٢ (٩٤٢٠٠٠ كم^{٢}) ، وعند وفاة السلطان محمد عام ١٤٢١ كانت مساحة الامبراطورية ٨٧٠٠٠٠ كم^{٢} ، ولاينبغى النظر إلى الفارق (وقدره ٧٢٠٠٠ كم^{٢}) على أنه نقص ، بل إن الدولة تعتبر قد قطعت مرحلة كبيرة . أما هذا النقص فقد نشأ أساساً عن ظروف دور الفترة وماا كتنفها من كثرة مناطق الحماية (كانت مناطق الحماية : جمهورية دبروفنك ، إمارة افلاق ، إمارة صربيا ، إمارة قره مان ، دلقادر ، جاندار ، تكه ، منتشه وجرميان) .

١٣) مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١) :
فترة سلطنته الاولى

ولد فى آماسيا فى ١٤٠٤ ، أمه دلقادر أوغلوا أمينة خاتون ، تولى العرش وهو فى سن الـ ١٧ فى جو متأزم ؛ فقد أعلن السلطان مصطفى الذى خرج إلى ميناء غاليبولى ، سلطنته للمرة الثانية ، بعد أن أطلق الأمبراطور البيزنطى سراحه ، ومعه جنيد وعشرة من رجاله عند وصول مراد الثانى إلى ادرنه بعد وفاة والده بـ ٤١ يوما كما أشرنا من قبل .

اعترف الجيش فى روملى بسلطنه السلطان مصطفى على أساس انه مادام العم موجودا فلا مبرر لجلوس ابن الأخ على العرش ، جاء مصطفى جلبى إلى أدرنه وجلس على العرش (١٤٢١/٨/٣٠) .

لم يبق أمام مصطفى جلبى إلا أن يحتل الأناضول وينحى ابن أخيه . اجتاز بوغاز جناقلعه من غاليبولى وصعد إلى البر من لابسكى (١٤٢٢/١/٢٠) . وسار نحو بورصة حيث السلطان مراد مع ١٢٠٠٠ خيال و ٥٠٠٠ من جنود المشاة . تقابل الجيشان فى ساحل نهر اولوباد .

لم تكن لدى الطرفين رغبة فى القتال ، وأخذ الطرفان ينظر أحدهما إلى الآخر دون أن يشهر أحد منهم السلاح . وبعد حوار ونقاش ، رجحت كفة الطرف الذى يساند السلطان مراد .

هرب السلطان مصطفى مع معية قليلة إلى غاليبولى ، ومنها إلى ادرنه ، طارده ابن أخيه ، وقبض عليه فى شمال ادرنه وأعدمه بدعوى أنه منتحل للشخصية الحقيقية لمصطفى .

دامت سلطنته الثانية هذه فى أوربا ٩ أشهر (آذار ١٤٢٢) . كان عمره عند إعدامه ٤٢ سنة .

وفى ١٤٢٥ قبض على ابنه الشهزاده وعلى ايدن اوغلو جنيد بك واعدما فى ايسالا .

حاصر مراد الثانى البيزنط لإطلاقهم سراح عمه وهو الأمر الذى تسبب فى حرب داخلية .

استمر هذا الحصار – وقد كان من أشد المرات التى ضرب فيها الحصار – مدة ٦٤ يوما بأسطول وجيش قوامه ٣٠٠٠٠ جندى ، لكن المدافع التركية لم تحدث أضرارا جدية فى الأسوار ، ومع ذلك فقد كان احتمال سقوط المدينة كبيرا .

رفع مراد الثانى الحصار على اثر ادعاء أخيه الصغير أمير ايسالا (حميد) كوجوك (الصغير) مصطفى البالغ عمره ١٣ سنة – بتحريض من البيزنط – السلطنة فى ايزنك . (كان الشهزاده مصطفى قد قدم إلى استانبول وقابل الامبراطور) . قبض عليه واعدم .

عقد صلح مع البيزنط شرط دفعهم ٣٠٠٠٠٠ آقجه ضريبة سنوية (١٤٢٤/٢/٢٢) .

كان السلطان مراد قد حاصر سلانيك عام ١٤٢٣ ، لكنه لم يتمكن من أخذها . وافقت البيزنط على دفع ١٠٠٠٠٠ آقجه فى السنة كخراج عن سلانيك .

وجه السلطان مراد حملته بعد ذلك إلى الأناضول على الإمارات التى تمردت أثناء انشغاله مع البيزنط .

جاء إلى إمارة جاندار وقلص حدودها ، لكنه ترك جاندار اوغلوا سفنديار بك فى منصبه لأعتبارات خاصة ، فقد كان اسفنديار بك من بنى عثمان من جهة الأم ، وزوّج ابنته من مراد الثانى ، كما تزوج ابنا اسفنديار أوغلو باختى البادشاه .

نزل السلطان مراد بعد ذلك إلى البحر الأبيض فى ١٤٢٥ . وقضى بصورة نهائية على إمارتى منتشه (موغلا) وآيدن . ومنيت إمارة تكه بالعاقبة نفسها .

حاول قرة مان اوغلو محمد بك الثانى الاستيلاء على المرفأ العثمانى انطاليه ، ولكنه مات بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة . ومع أنه حفيد مراد الأول من جهة الأم ، كان ألد أعداء العثمانية زوج السلطان مراد أخواته الثلاث بأبناء محمد بك الثلاثة وأرسلهم إلى روملى كأمراء ألويه .

توفى جرميان اوغلو يعقوب بك وهو طاعن فى السن (ك ١٤٢٨/٢) ، وأوصى عند وفاته باعطاء إمارة جرميان (كوتاهيه) إلى قريبه مراد الثانى ونفذت وصيته .

وهكذا أمحت فى السنوات الأولى من جلوس السلطان مراد ، كل من امارات آيدن تكه ، منتشه ، جرميان وأصبحت فى ذمة التاريخ .

بدأت الحرب التى سوف تستمر ٥ سنوات مع جمهورية البندقية فى ١٤٢٥ ، وفى هذه الحرب انضمت ألمانيا والمجر إلى البندقية .

هزم مراد الثانى الذى اجتاز الطونه من فيدين ، الجيش المجرى (١٤٢٦) . دخل الجيش المجرى صربيا بقيادة الأمبراطور – الملك سيكسموند ، هزمه أمير لواء فيدين سنان بك (١٤٢٨) فى الحرب الميدانيه كورجينلك Guvereinlik .

طلبت المجر الهدنة لمدة ٣ سنوات بعد هذه الحرب التى خسر فيها امبراطور امام أمير لواء (Tumgeneral) وبقيت البندقية بمفردها أمام تركيا . سار البادشاه نحو سلانيك ، كان هذا الميناء المهم البالغ تعداد أهله ٤٠٠٠٠ نسمه يديره البنادقه باسم البيزنط قد بقى ٨ سنوات و٤ أشهر تحت الإدارة التركية على عهد يلدرم ثم استعاده البيزنط الذين استفادوا من هزيمة أنقرة .

فتح مراد سلانيك بشكل نهائى (١٤٣٠/٣/١٣).بعد حصار استمر لمدة ٣ أسابيع واستعمل الاتراك فيه المدافع .

فتحت يانيا (١٤٣١/١٠/٩) واستعيدت اتير التى خرجت من حوزة العثمانية بعد هزيمة أنقرة .

طلبت البندقية الصلح واعترفت الجمهورية التى وقعت على معاهدة غاليبولى Gelibolu بالفتوحات التركية (١٤٣١) .

وعلى إثر تدخل المجر فى صربيا وبوسنة ، نشبت الحرب مجددا مع هذه الدولة . كانت المجر والبندقية قوتين كبيرتين فى العالم المسيحى ؛ فقد كانت المجر أقدر دولة برية ، وكانت البندقية أقدر دولة بحرية فى ذلك العصر .

انضمت ألمانيا إلى المجر . دخل الوزير صاريجه باشا إلى سمندره مركز إمارة صربستان . وعقد صلحا وتزوج مراد الرابع بابنة أمير صربيا مارا .

فى عام ١٤٢٦ قام افرنوس اوغلو على بك بحملة رابعة على ترانسلفانيا (اردل) ،

وفى ١٤٣٢ ، قام بحملة خامسة قوامها ٧٠٠٠٠ من خيالة الصاعقة ، وفى ١٤٣٧ قام بحملة سادسة .

جاء مراد الثانى فى العام ذاته إلى ترانسلفانيا وقضى فيها ٤٥ يوما ، ثم أخذ سمندره بالقرب من جنوب بلغراد بعد حصار دام ٣ أشهر (١٤٣٩/٨/١٨) . وخلال ذلك ، قام البادشاه بحملة على قرقمان لإخماد عصيان إبراهيم بك الثانى .

وفى ١٤٣٩ ، حاصر افرنوس اوغلو على بك القلعة المجرية المستحكمة بلغراد لمدة ٦ أشهر ، ولم يتمكن من إسقاطها . وفى غضون عدة سنوات ألغيت إمارة صربيا وأديرت باسم لواء سمندره . اعترفت ملكية بوسنه فى المعاهدة التى عقدت معها (ت ١/ ١٤٣٢) بسيادة البادشاه . وقبلت تسديد ضريبة سنوية . وقد أغار جنود الصاعقة مرات عديدة على خرواتيا .

جاء السلطان شاه رخ بن تيمور المتبوع السامى لجميع الدول الموجودة فى تركية ومنها العثمانية والخاقان التركستانى ، إلى شرق الأناضول مرتين فى ١٤٢٩ وفى ١٤٣٥ .

قلقت تركيا والسلطنة المملوكية لذلك ، وإن كان مراد الثانى قد أرسل اليه تعظيماته بواسطة السفراء .

تجدد عصيان قره مان اوغلو ١٤٣٧ ، ولكنه خنع عندما ثار عليه أخو زوجته مراد الثانى ، وعلى الرغم من عدم ارتياح المماليك لنفوذ العثمانية على إمارتى قره مان ودلقادر فإن وضع العثمانيين كأكبر غزاه يجاهدون المسيحية فى هذا الوقت ، حال دون أن يترجم المماليك عدم ارتياحهم إلى صورة عملية .

كان الأمبراطور Ioannes الثامن (١٤٢٥ - ١٤٤٨) ، يراقب ازدياد قوة الدولة العثمانية بقلق ، رغم سياسة مراد الثانى التى تبدى جانب الصداقة .

تجول فى أوربا لطلب قروض ومساعدات عسكرية لمواجهة الأتراك .

أعلن البابا اوجينيوس الرابع فى ١٤٣٩ الحملة الصليبية ضد الأتراك ، وفى ١٤٣٩ عندما أصبح ملك بولونيا لاديسلاس ملكا على المجر وبوهيميا فى نفس الوقت ، تشكلت فى شمال الطونه كتلة كاثوليكية مقتدرة معادية للاتراك ، وكانت هذه الدولة

تمتد – بواسطة امارة مولدافيا – (بغدان) التى تحت سيادتها – من البلطق إلى البحر الأسود ؛ وظهر كذلك فى هذه الآونة Hunyadi Janos اكبر عسكرى مسيحى فى عصره .

كان Hunyadi Janos ابنا غير شرعى لملك المجر السابق وأصبح قائدا للمجر ، وكان كاثوليكيا متعصبا هدفه الوحيد فى الحياة إخراج الأتراك من البلقان ومن أوربا . درس تكتيك الحرب العثمانى بصورة جيدة ، وتمكن بهذا من الانتصار على بضعة جيوش عثمانية سارت إليه . اضطر السلطان مراد أن يحمل بنفسه على العدو وسط الشتاء ، وعلى اثر انهزام طليعة السلطان مراد فى الممر المسمى Izladi Derbendi فى شرق صوفيا (١٤٤٣/١٢/٢٤) ، انسحب إلى ادرنه لمعاودة الحملة فى الربيع . وصل هينادى إلى فيليبه يرافقه الملك الشاب لاديسلاس ، وبينما كان الوضع متأزما إلى درجة لم يسبق لها نظير فى روملى ، بدأت فى الأناضول تحركات مضادة للعثمانية .

فى هذه الظروف عاود الأمل قرة مان اوغلو إبراهيم بك الثانى فأرسل إلى ملك المجر – بولونيا رسالة كان من بين فقراتها « لتسر أنت من الأمام وأنا من الخلف ؛ لتكن روملى لك وأناضولى لى ؛ ولنزيل العثمانية من الوجود » ، ثم اجتاز حدوده ودخل الأراضى العثمانية ، لكنه انسحب إلى قونيه على اثر حملة ولى عهد – شهزاده ٣ غلاء الدين على عليه .

أثناء هذه الأيام توفى عهد – شهزاده فى أماسيا (آذار ١٤٤٣) وعمره ١٨ سنة ، كانت وفاته كارثة كبيرة بالنسبة للسلطان مراد . نقل جثمان ولى العهد إلى بورصه ودفن فيها ، وأصبح شهزاده محمد بن البادشاه الثانى الذى يبلغ عمره ١١ عاما ، وليا للعهد .

وافق البادشاه فى ظل هذه الظروف على إجراء مفاوضات للصلح مع المجر (١٤٤٤/٥/٢٢) ، فابرمت معاهدة Segedin (١٤٤٤/٧/١٢) ، وتم تبادل نسخ المعاهدة بين أدرنه وبودابست .

اقسم الملك « بالانجيل » و « البادشاه » « بالقرآن » على عدم مخالفتهما شروط هذه المعاهدة ماداما على قيد الحياة .

أسست إمارة صربيا مجددا على أن تكون تابعة للعثمانية ، وهكذا أنشئت منطقة عازلة بين تركيا والمجر .

عقد السلطان مراد فى الشهر ذاته معاهدة صلح مع قره مان .

أفتى مؤرخ الدولة المملوكية - الكبير والفقيه الشافعى ابن حجر العسقلانى (وفاته : ١٤٤٨) وسعد الدين ديرى من قضاة المذهب الحنفى بالقاهرة (وفاته ١٤٦٢) ، بوجوب قتل إبراهيم بك إن لم يتب ويستغفر بسبب ضربه العثمانية من الخلف أثناء جهادهم للكفار .

اضطر قرة مان اوغلو تحت وطأة الضغط المعنوى إلى الاقتراب من الصلح ، ونفذ قسمة مدة ٧ سنوات حتى وفاة مراد الثانى فى (١٤٥١) ، ثم ثار على محمد الثانى بعد وفاة مراد الثانى بحجة أن قسمه كان لشخص البادشاه .

نظرا لاحساس السلطان مراد الثانى بالتعب ، فقد تخلى وعمره ٤٠ سنة عن العرش لصالح ابنه وانسحب إلى سراى مانيسا (آب ١٤٤٤) .

جاء محمد الثانى إلى ادرنه وجلس على العرش وعمره ١٢ سنة ونصف .

(١٤) فترة السلطنة الثانية لمراد الثانى (١٤٤٤ - ١٤٥١) انتصارى فارنا (١٤٤٤) وكوسوفا الثانية (١٤٤٨)

بطبيعة الحال فإن تخلى سلطان كمراد الثاني ـــ بخبرته المشهودة ـــ على العرش ، وتنازله عن السلطة إلى طفل ، أنعش الأمل فى صدور الأوربيين وعلى رأسهم المجر والبيزنط . وبالفعل فقد أبلغ الكاردينال جسارينى ، ملك المجر ـــ بولونيا الملك لاديسلاس ، بأنه فى حل من القسم الذى تعهد به لأنه قسم جرى مع « المسلمين الكفرة » ، ومن ثم فإن البابا يبطل هذا القسم .

اتحدت المجر ، بولونيا ، ألمانيا ، فرنسا ، البندقية ، البيزنط ، البابوية وبرغونديا ، وتشكلت الحملة الصليبية الخامسة ضد العثمانية .

دخل الجيش الصليبى الذى يقوده ظاهرا الملك لاديسلاس ، ويقوده فعلا هنيادى ، إلى تركيا ونزل إلى ساحل البحر الأسود واقترب من فارنا ، حاولوا فى

طريقهم أخذ قلعتى فيدين ونيغبولو ، ولكنهم لم يوفقوا ، نهبوا كل المدن والقصبات والكنائس الأرثوذكسية التى صادفتهم فى طريقهم ، وكان ملك بولونيا – المجر الشاب لاديسلاس قد خطط للذهاب إلى استانبول ليكون صهرا للامبراطور ولم يخطر بباله أن البادشاه سوف يجرؤ على العبور من الأناضول إلى روملى .

بينما تجرى هذه التحركات اجتمع مجلس شورى السلطنة فى أدرنة ، واتخذ قراراً أبلغه الوزير الأعظم جاندارلى زاده خليل باشا إلى محمد الثانى الطفل ، هذا نصه :

« لايمكننا الرد على مقاومة العدو ، اللهم إلا إذا أعتلى والدك السلطان مكانك . أرسلوا والدكم ليجابه العدو وتمتعوا براحتكم . تعود السلطنة إليكم بعد إتمام هذه المهمة » .

أرسل محمد الثانى فى دعوة والده مراد الثانى الموجود فى مغيسيا ، غير أن مرادا الثانى – تحاشيا لكسر سلطان ابنه-أبلغه أن الدفاع عن دولته من واجبات ذاته السلطانية ، فكتب محمد الثانى إلى والده العبارات التالية :

« إن كنا نحن البادشاه فإننا نأمرك : تعالوا على رأس جيشكم ، وإن كنتم أنتم فتعالوا ودافعوا عن دولتكم » . جاء مراد الثانى إلى أدرنه واختار من الجيش أحسن ٤٠٠٠٠ جندى وجاء إلى فارنا Varna دون أن يخلع ابنه .

كان قد مضى على واقعة نيغبولو ٤٨ سنة وشهران عندما واجه حفيد غالب نيغبولو ، الصليبيين (١٤٤٤/١١/١٠) .

بدأت الحرب بهجوم هنيادى على ميمنة الجيش التركى وجناحه الأيسر، ترك السلطان مراد العدو يتوغل إلى عمق صفوف الأتراك ، ثم أعطى أمر الهجوم . لم يدرك الملك لاديسلاس أن الاتراك قد طوقوه . اقترب الأتراك بعد قتلهم ٥٠ فارسا من الحرس الملكى نحو لاديسلاس الذى كان يقاتل بنفسه . رمى أحد جنود المشاة البلطة (نوع من الفئوس) على ساق حصان الملك فسقط الملك . قطع نقيب المشاة ، المسمى قوجا قره جه خضر آغا ، رأس الملك بالسيف وقتل الكاردينال Cesarini كذلك .

وضع رأسا الملك والكاردينال جسارينى على مزراقين ومعاهدة سكدين على

مزراق آخر وشهرت على الكتائب التركية المظفرة . لم تستغرق الحرب وقتا طويلاً فقد بدأت مساء في الظلام في الساعة التاسعة .

وفق عدد قليل من العدو من بينهم هنيادى فى الهروب . بلغ عدد أسرى العدو مابين ٨٠ و٩٠ ألف جندى وأبيد البقية . استشهد من الأتراك نحو ١٥٠ ، لكن عدد الجرحى كان كبيرا. من بين شهداء الأتراك جنرالان هما : داماد قرة جه باشا (زوج أخت البادشاه وكانت رتبته بكلربك = فريق أول ، واستشهد فور بدء الحرب) ، وعثمان بك حفيد تيمورطاش وابن اومور باشا (وكانت رتبته سنجق بك = لواء) .

يعتبر موت لاديسلاس الثالث ملك بولونيا ، المجر ، بوهيميا ، دوق كبير ليتوانيا الذى يحكم المنطقة المنحصرة بين البلطق - الادرياتيك - البحر الأسود ، التى تبدأ من الحدود الشرقية من غرب موسكو ، وعمره ٢٠ سنة بدون وارث من أهم وقائع التاريخ الأوربى ، فقد انفصلت إثر ذلك بولونيا والمجر عن بعضهما مرة ثانية بل وحرصتا على عدم الظهور أمام تركيا كدولة واحدة .

خطت واقعة فارنا مصير البيزنط الذى سنراه بعد ٩ سنوات ، وتأكد عدم إمكان قلع حكم الأتراك الموجود فى البلقان .

لم يقتصر الاحتفال بهذا النصر على تركيا وحدها بل امتد إلى العالم الإسلامى أجمع ، وفى الجمعة الأولى من وصول الخبر إلى القاهرة (١٤٤٥/٤/١) ، أمر السلطان جقمق بتلاوة اسم السلطان مراد - مجاملة - بعد اسم الخليفة العباسى والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين فى الأقطار المملوكية ، وأقيمت الاحتفالات بهذا النصر فى مصر .

طلب الجيش وأدرنه ، بعد واقعة فارنا ، اعتلاء مراد الثانى العرش مجددا . اعتلى مراد الثانى العرش مرة ثانية فى (ك ١٤٤٥/٢) ، ولكنه تخلى مرة أخرى عن العرش بعد ١١ شهراً (١٤٤٥/١٢/١٢) ، ثم قبل مضى ٥ أشهر وبإصرار من رجال الدولة ، اعتلى العرش للمرة الثالثة فى (١٤٤٦/٥/٥) . وفى غضون هذه المدة اعتلى ابنه محمد العرش وتخلى عنه مرتين .

كان مراد الثانى قد قام بحملته الأولى على مورا فى (١٤٣٩ ــ ١٤٤٠) ، وفى (١٤٤٦ ــ ١٤٤٧) ، قام بحملة ثانية على مورا . حاصر (١٤٤٦/١١/٢٧) قلعة كورينثوس Korinthos واستولى عليها (١٠ /١٢) ودخل شبه الجزيرة واحتل باتراس . مات فى هذه الأيام من البيزنط Ioannes الثامن وعمره ٥٧ سنة (١٤٤٩/١٠/٣١) فجاء أخوه الأمير كونستانتين من مورا إلى استانبول واعتلى العرش (هو كونستانتينوس الحادى عشر آخر امبراطور بيزنطى) .

وفى ربيع عام ١٤٤٧ ، استصحب البادشاه ابنه محمدا الثانى البالغ عمره ١٥ سنة وخرج فى حملة إلى ألبانيا (عرنووطللك) .

كان السبب فى قيام هذه الحملة عصيان اسكندر بك فى ألبانيا بمساندة الدول الأوربية وخاصة ملكية نابولى ، (اسكندر بك هو أحد أمراء ألالبان ارتد عن الدين الإسلامى وتنصر) . كانت الحملة الأولى لمراد الثانى على البانيا فى عام ١٤٢٣ .

بعد فارنا بأربع سنوات ، أراد Yunyadi Janos (Yanos) تجربة حظه ، فجهز الحملة الصليبية الـ ٦ ضد العثمانية . اتحدت فى هذه الحملة المجر ، ألمانيا ، بولونيا ، صقلية ، نابولى ، البابوية ومولدافيا .

دخل فى هذه المرة جيش صليبى مؤلف من ١٠٠٠٠٠ شخص إلى تركيا من الغرب . وتقدم حتى صحراء كوسوفا . (تعتبر هذه صدفة مشئومة بالنسبة للصليبيين ؛ فقد لقى الصليبيون فى هذا الموقع ضربة قاسية جدا قبل ٥٩ سنة ، شمال شرق ألبانيا) .

جاء السلطان مراد مع ابنه محمد الثانى البالغ من العمر ١٦/٥ سنة آنذاك .

استمرت الحرب ٣ أيام و٣ ليال (١٧ ، ١٨ و ١٩ ت ١/ ١٤٤٨) ، وكان الطرفان يملكان المدافع .

كان الصليبيون منقسمين إلى ٣٨ كتيبة ، معظمها لاتعرف إحداها لغة الأخرى ، قاتلت الكتائب وخاصة المجرية بشجاعة . وفى اليوم الثالث فقط حاصر السلطان مراد الثانى العدو المنهوك القوى ، بعد أن كلف تورخان بك (باشا) باغلاق طريق العودة ، وعند دخول المساء ، كانت الوحدات الكبيرة للعدو قد أبيدت .

قاوم هنيادى حتى حلول الليل ، وعندما حل الظلام تمكن من الهرب . خسر المسيحيون ١٧٠٠٠ قتيل ، وأسر الباق ، وبلغ عدد شهداء الاتراك ٤٠٠٠ شهيد وفق ماتذكره المصادر الأوربية .

وقد تجدر الإشارة إلى أن حجم الآمال التى كان يعلقها الصليبيون على فارنا أكبر بكثير من حجم الآمال التى كانوا يعلقونها على كوسوفا ، ولكنهم فى كل الأحوال كانوا يقومون بالمحاولة السادسة والأخيرة التى يؤملون منها إخراج الأتراك من البلقان ، وذلك أنهم تحولوا بعدها إلى موقف المدافع وليس المهاجم ، وقد توقفت أوربا بعد واقعة كوسوفا لعصور طويلة عن التفكير فى إخراج الأتراك من جنوب الطونة .

كان بطل انتصار كوسوفا الثانى هو مراد الثانى ، وبطل انتصار كوسوفا الأول هو ابن حفيد مراد الأول .

وفى صيف عام ١٤٤٩ ، استصحب السلطان مراد ابنه محمدا الثانى الذى تجاوز عمره الـ ١٧ سنة وسار مرة أخرى فى حملة على ألبانيا ، لكنه لم يتمكن من العثور على اسكندر بك .

زوج مراد الثانى ابنه محمدا الثانى بابنة دلقادر اوغلو مكرمه خاتون فى أدرنة (١٤٤٩/١٢/١٥) ووضع ابنه على عرش صاروخان (مانيسا) التى يتقلد ولايتها (سنجق بك) ، وكان هذا لقاءه الأخير مع ابنه الذى أحبه كثيرا .

فى ٣ شباط ١٤٥١ ، توفى فى سراى أدرنة سلطان المجاهدين ، أبو الخيرات غازى السلطان مراد خان الثانى بعد مرض دام ٤ أيام . كان عمره يتجاوز الـ ٤٦ بـ ٨ أشهر . مجموع سلطناته الثلاث ٢٩ سنة ، وإجمالى المدة من جلوسه لحين وفاته ٢٩ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٦ يوما . نقل جثمانه إلى بورصه ودفن فى قبره المفتوح .

كان مراد الثانى عالما ، شاعرا ، موسيقيا . حمى الفن والعلم بكل مافى الكلمة من معنى ، وأصبح المبشر بالنهضة العثمانية .

لم يفكر قط فى حرب تيمور أوغلو سلطان شاه رخ ، وعلى الرغم من أنه حاكم ثانى الدولتين المقتدرتين فى العالم ، فإنه لم يرفض سيادة شاه رخ - حتى وفاته فى ١٤٤٧/٣/١٢) ، ولو كان ذلك اسميا . وفى ١٤٤٧ ، أصبح سلطانا للدولة العظمى الأولى فى العالم .

كان تحصيله العلمي ممتازا . كان ابن عرب - شاه (١٣٨٩ - ١٤٥٠) أحد أساتذته . كان من أكابر المهتمين بالاعمار ، فالجوامع والكليات الموجودة فى بورصة وفى أدرنة من انجازاته وكذلك دار الحديث (١٤٣٥) ، والجامع ذو الثلاث شرفات (١٤٤٧) وكلياته ، واوزون كوبرى على نهر أركنه الذى استغرق تشييده ١٦ سنة وافتتح فى ١٤٤٣ ، وكان طوله ٣٩٢ مترا،من بين انجازاته المهمة التى شيدها بأموال الغنائم . ولقد كان من بين الأسباب التى عمقت محبته فى القلوب لعصور طويلة ، أنه كان يخوض معاركه من أجل الدفاع عن الوطن ، وانه كان الشخصية الوحيدة فى التاريخ العثمانى والتركى التى تخلت عن العرش ورئاسة الدولة بمحض إرادته دون أن يتعرض لأى ضغط مادى أو معنوى .

كانت شخصيته مشابهة لأبيه جلبى محمد الأول ، ومخالفة لشخصية جده يلدرم بايزيد وابنه الفاتح محمد الثانى .

قد أجمل المؤرخ البيزنطى Chalcondylas الذى اجتمع معه شخصيا وصف شخصيته فى عبارته : « كان رجلا مستقيما وعادلا » .

ويقول عنه المؤرخ البيزنطى المعاصر Prens Dukas (١٤٠٠ - ١٤٧٠ ، ٣٣ ، ١٣٩) ، « كان يفيض حبا للشعب ، وكرما على المعوزين ، ولايفرق فى هذا بين مسلم أو مسيحى من رعيته فكلاهما يلقى منه نفس المعاملة ، كان يفى بعهوده مع أعدائه ، ومن كان منهم ينقض عهده معه كان يتعرض لعقاب الله ، كان ينفر من الحرب ويفضل الانشغال بالعلوم والفنون والاعمار فى ظل السلام . لم يحارب إلا مضطرا ، وعندما كان ينتصر على أعدائه لم يكن يثخن فيهم إلى حد الإفناء بل كان يفتح الباب للجنوح إلى السلم ».

ويقول المؤرخ الالمانى فون هامر Van Hammer (٢ ، ٣٥٢ - ٣) : « حكم السلطان مراد فى امبراطوريته بعدالة وشرف طيلة ٣٠ سنة . كان عادلا سليم النية مع رعيته دون التفريق بين الأديان . كان وفيا بوعده فى الحرب كما هو فى السلم . يفضل الصلح ، لكنه لم يكن يتردد فى الحرب إن دعت الضرورة لذلك . كان انتقامه شديدا من الذين لايوفون بعهودهم ، فلا بأس عنده فى هذه الحالة من إبادتهم . لم يفقد دهاءه إلى نهاية سلطنته » .

ويقول المؤرخ الفرنسى Crenard (ص ٦٨) : « إن كان مراد الأول معمار الامبراطورية العثمانية ، فإن مرادا الثانى هو بانيها الثانى » .

(١٥) فتح استانبول (٢٩ آيار ١٤٥٣)

ولد محمد الثانى أمير لواء (سنجق بك) صاروخان (مانيسا) ، فى سراى أدرنة الهمايونى ، فى الساعة الـ ٣/٠٨ من صباح يوم ٣٠ آذار ١٤٣٢ . توفيت أمه هما خاتون فى بورصة فى أيلول ١٤٤٩ قبل اعتلائه العرش ، لكنها شهدت سلطنة ابنها فى طفولته (فى آب ١٤٤٣) . صار محمد الثانى وليا للعهد فى حزيران عام ١٤٤٣ وعمره ١١ سنة اثر وفاة أخيه الكبير علاء الدين على الذى كان يكبره بـ ٧ سنين .

بعد وفاة السلطان مراد فى شباط ١٤٥١ ، جاء الخاقان الجديد البالغ عمره ١٩ سنة إلى أدرنة وجلس على العرش . قام بعد مدة قليلة (صيف عام ١٤٥١) بحملته الهمايونية الأولى على قرمان الذى عصى وأخذ منه بعض الأماكن وعاد .

كان الهم الأكبر للسلطان محمد هو البيزنط ، ولاسقاط البيزنط ، كان يجب السيطرة على بوغاز استانبول وإحكام الرقابة التركية على جميع السفن المارة من البوغاز . ومن أجل هذا شيد محمد الفاتح روملى حصار المسمى « بوغاز كسن حصارى » أى القلعة قاطعة البوغاز (آذار – تموز ١٤٥٢) .

تم بناء هذه القلعة فى زمن قياسى خاصة إذا علمنا أن ارتفاع القلعة عن سطح البحر يبلغ ٨٢ مترا ، وأنها تشتمل على ٣ أبراج إرتفاع كل منها ٢٦/٧٠ م ، وأن مساحة الأرض التى تشغلها ٣٠ ٢٥٠ م^2 . تعلو أمامها على الضفة المقابلة أناضولى حصارى التى شيدها أبو جده يلدرم بايزيد . لم يكن ممكناً لأية سفينة أن تمر من البحر الأسود إلى البحر الابيض أو بالعكس تحت النيران المتقاطعة للمدافع المثبتة على الطرفين ، دون إذن من الاتراك ، ولم يحدث ذلك حتى يومنا هذا . لذا فان مؤسس نظام المضايق ، هو السلطان محمد . من المعلوم أن الموقع الذى شيد فيه القلعتين المتقابلتين هو أضيق نقطة فى مضيق استانبول حيث ينخفض العرض فى هذه النقطة إلى ٦٦٠ م .

بهذا يعتبر السلطان محمد هو مؤسس نظام المضايق ، وبعد أن انهى الخاقان إنشاء القلعة والتحكيمات اللازمة عاد إلى أدرنة فى أول أيلول ١٤٥٢ .

وبينما انشغل الامبراطور الذى أدرك نية السلطان محمد بدعوة أوربا إلى المساعده ، قضى البادشاه شتاء عام ٥٢ - ١٤٥٣ فى أدرنة فى استعدادات مدهشة . أمر بسبك المدافع بأقطار لم يسبق أن شوهدت من قبل ، ومدافع الهاون التى استعملت لأول مرة فى التاريخ ، وقد خطط لهذه المدافع بنفسه كما اختبرها بنفسه . كانت نتيجة تجربة المدفع الكبير حسنة ، فقد سمع صوت انفجار البارود عند اشعاله بالنار ، من مسافة ١٠٠ ستاد (٥/٢ ميل) ، وسقطت القذيفة على مسافة ميل واحد وحفرت عند سقوطها حفرة بعمق ١ قولاج (مسافة مابين اليدين إذا فتحتا بشكل مستو) . وارتكزت فى التراب اللين وبقيت فيه (Dukas ، ٣٥ ، ١٥٢) .

انقسم البيزنط إلى قسمين . كانت أوربا تطلب من البيزنط ، لكى تساعدها ، تركَ مذهبها الارثوذكسى واعتناق المذهب الكاثوليكى . اما الامبراطور البيزنطى ، فقد كان حاميا للمذهب الارثوذكسى وحاميا للبطريك العالمى الارثوذكسى ،ومن ثم فانه من غير الممكن أن يتبع البابا من الناحية الدينية . وعلى الرغم من عمق جذور العداوة التاريخية بين الكاثوليك والأرثوذكس ، فقد جرت مراسم دينية على الأصول الكاثوليكية فى أياصوفيا أكبر كنيسة فى العالم فى ١٢ ك ١٤٥٢/٢ ، وتولى إدارة المراسم الكاردينال Isidore الذى أرسله البابا . اشمئز الشعب البيزنطى كله وقال رئيس وزراء البيزنط الدوق - الأكبر Noraras جملته التاريخية معبرا عن شعور البيزنطية : إننى أفضل أن أشاهد فى ديار البيزنط عمامة الأتراك ، على أن أشاهد القبعة اللاتينية (Dukas ، ٣٧ ، ١٦١) .

قضى البيزنط شتاء مريرا تحت ظل أسوار قلعة (حصار) بوغاز كسن التى تمتد على طول ٢٠٠٠م . لكنه كان يعتمد على أسواره - التى لم يتمكن من فتحها أشد الغزاة قساوة - وعلى تركيب نارهم (بالفرنسية : Feu grégoris) التى لايعلم سرها سوى البيزنط والتى تزداد لهيبا كلما صب عليها الماء ، وعلى السيدة مريم .

كانت مناعة أسوار استانبول تأتى فى المرتبة الأولى فى العالم ، فقد كان ارتفاع الشرفات ١٧ م ومابين الشرفات ١٥ متراً ، ويبلغ السمك فى الذروة ٤ م وفى

القاعدة أكثر بكثير ، وكان عرض الخندق الموجود أمام الأسوار $\frac{1}{2}$ ١٨ متر وعمقه ٩ أمتار وكان مليئا بالماء ، وكان للأسوار المكونة من طوابق عديده ٣٠ برجا مكسيا بالرصاص . وكان المعروف أن المدينة لايمكن إسقاطها إلا بحصار محكم يتمكن من إجاعتها لمدة ست سنوات ، ومن البدهي أن الدول الأوربية سوف تأتى خلال هذه المدة ، ومن ثم فإنه سوف يتعذر عمليا استمرار الحصار .

ولذلك كان تخطيط محمد الثانى يقوم أساساً على أن تتكفل مدافعه بإنهاء العملية قبل أن تصل أية نجدة أوربية .

وقد جرت الأمور على الوجه التالى :

– بدأت العملية بتسوية طريق أدرنة – استانبول بمعرفة ٢٠٠ عامل يشرف عليهم ٥٠ عاملاً ماهراً ، وتم إخراج المدفع الكبير من أدرنة إلى الطريق فى شباط ١٤٥٣ يجره ٦٠ ثورا ، ٤٠٠ جندى على جانبى الثيران (٢٠٠ جندى فى كل جهة لتأمين عدم التزحلق والميلان) . وصل المدفع على بعد ٥ أميال من أسوار استانبول فى آذار (Dukas ٣٧ ، ١٥٨) وكان على رأس قيادته قره جه باشا الذى استولى ومعه ١٠٠٠٠ جندى على القصبات البيزنطية المجاورة . حصل البيزنط خلال أشهر الشتاء على إمدادات من الجنود والسفن والمهمات من أوربا .

– تحرك البادشاه من أدرنة فى ٢٣ آذار ١٤٥٣ ووصل أمام استانبول بعد ١٣ يوما فى ٥ نيسان .

– بدأ الحصار فى ٦ نيسان ، ويمكن تلخيص موقف الجانبين على الوجه التالى : قام الأميرال بلطة أوغلو سليمان بك فى ١٨ نيسان باحتلال جزر استانبول وقرية طرابيا فى البوغاز ، قوام الجيش التركى حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص ، نظم الاتراك مدافعهم على شكل ١٤ فصيلة ، كان لدى الأتراك منجنيق هائل بحجم لم يسبق له مثيل ، صنعه محمد الثانى ، ذلك بالاضافة إلى أربعة أبراج متحركة ، وقذائف طيارة تتساقط كالشهب ، المدافع التى لدى الاتراك من النوع الثقيل الذى يحتاج إلى ٢٠٠٠ جندى لسحبه ، ويستطيع المدفع الواحد إطلاق سبع طلقات فى اليوم زنة كل منها طنان ، واطلاقه واحدة بالليل ، حيث يستغرق ملء المدفع وتبريده ساعتين .

بدأت أربعة مدافع من النوع الكبير باطلاق النيران وتلتها فصائل المدفعية الأصغر ، وأطلق أول مدفع هاون فى التاريخ يوم ٢١ نيسان على أسطول العدو فى الخليج .

على الجانب الآخر وفى مقابلة هذه القوة،التى تعتبر أكبر قوة حربية فى العالم ، كان للبيزنط أسوار مستحكمة بطوابق متعددة ، ١٥٠٠٠ جندى غير المتطوعين ، بالاضافة إلى أسطول بيزنطى - جنوى - بندق - بابوى رابض فى الخليج ينتظر فى كل لحظة وصول الأسطول البندق من البوغاز وقدوم الجيوش التى سوف تدخل تركيا عن طريق الطونة .

فى ١٨ نيسان جاء سفراء من المجر ، وأعلنوا باسم العالم المسيحى كله أن جيوش أوربا المتحدة سوف تستولى على تركيا فى حالة عدم رفع الحصار .

- تمكنت ٤ سفن جنوية وواحدة من مورا من دخول الخليج
- بلغ من شدة غضب محمد الثانى لهذا الحادث أن قام بعزل بلطه اوغلو سليمان بك ـــ قائد القوة البحرية ـــ الذى لم يتمكن بسبب اتجاه الريح من وقف هذه السفن ، وعين بدلاً منه المشير البحرى (قبودان دريا) احمد بك بن جالى بك أحد قواد البحر السابقين .

- كان خليج استانبول مغلقا بسلسلة غليظة جدا (السلسلة موجودة بالمتحف العسكرى حاليا) ومن ثم فانه كان يستحيل على السفن التركية اجتياز البوغاز .

- أفاد الوزير الأعظم جاندارلى - مزاده خليل باشا أنه قد يكون من الممكن اسقاط البيزنط إلا أن هذا سوف يجر تركيه إلى حرب مع أوربا بأسرها (وقد تحقق هذا فعلاً) ، واقترح على البادشاه قبول ٧٠٠٠٠ ليرة ذهبية كضريبة سنوية وابرام الصلح مع الامبراطور .

- رابط الوزير الداماد رغانوس محمد باشا فى انجاد قاسم باشا ومعه ١٥٠٠٠ جندى ، وطفق فى قصف الاسطول البيزنطى المحصور فى الخليج بمدافع الهاون ، فاصيبت عدة سفن بيزنطية .

- تمت فى ليلة ٢٣ نيسان عملية مذهلة تمثلت فى تسيير ٦٧ قطعة صغيرة من الاسطول التركى على البر (لتفادى السلسلة الغليظة التى تغلق خليج استانبول) -

ومن بين مظاهر الاعجاز فى هذه العملية أنها تمت فى ليلة واحدة ودون أن يشعر بها العدو .

– أحدثت هذه العملية انهياراً فى معنويات البيزنط ، فقد أصبحوا يوم ٢٣ نيسان على منظر الخليج ، وهو يموج بقطع الاسطول التركى .

يعبر بعض الشيء عن هذا التأثير ، ماكتبه المؤرخ البيزنطى والدبلوماسي الأمير دوكاس والذى التقى بمحمد الثانى شخصيا ، كتب دوكاس : « مارأينا ولاسمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق ؛ محمد الثانى يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثانى بهذا العمل الاسكندر الأكبر » . فتح محمد الثانى استانبول ، وقضى على البيزنط ، وملك كافة المدن التى تزين العالم » (٣٨ ، ١٦٦) .

– خلال ليلة واحدة ، وهى الليلة التالية على ليلة ٢٣ نيسان ، نصب الاتراك جسراً على الخليج يسمح عرضه بمرور ٥ جنود جنبا إلى جنب .

– أمر امبراطور البيزنط ليلة ٢٨ نيسان بابادة الاسطول التركى الذى نزل إلى الخليج ، وتدمير الجسر الذى تم نصبه ، مهما كلف الأمر .

ولم تنجح هذه المحاولة ؛ فلم يدمر الجسر ، ولم تغرق سفينة تركية واحدة ، وفقد ١٥٠ بحارا بيزنطيا حياتهم فى هذه المحاولة .

– أعدم الأمبراطور الغاضب الاسرى الاتراك الذين تحت يده وعددهم ٢٦٠ أسيرا ، وقطع رءوسهم وألقاها من الأبراج امام الاتراك .

– اغرق الاتراك سفينة الامبرالية لاسطول العدو التى لجأت إلى سواحل وأسوار الخليج ، وغرقت سفينتان تركيتان بالنيران التى انهمرت من الأبراج .

كان لدى البيزنط مدافع ، ولكنها كانت بدائية واضعف من أن تقوم بالدور الذى تلعبه المدافع التركية ، وكان اعتماد البيزنط اساساً على النار المسماة « روم آتشى » (نار الروم) أو « نار غريغوار » التى كانوا يحتفظون بتركيبها لعصور طويلة كسر وطنى .

– فى ٥ مايس حرك الاتراك بعض فصائل المدفعية حيث ركزوها على مرتفعات بك اوغلو .

– فى ٦ مايس أمر الخاقان بالهجوم العام الأول من المنطقة المقابلة لطوبقابوسى .

– فى ١٢ مايس أمر الخاقان بالهجوم العام الثانى من المنطقة المقابلة لادرنة قابوسى .

– كان يواكب كل ذلك محاولة ملء أجزاء من الخندق العميق المملوء بالماء الموجود أمام الأسوار – بقطع الحجارة ، وأيضا أحدث الأتراك ثغرات كبيرة فى الأسوار ، كان يتعذر على الشعب البيزنطى اصلاحها ، على الرغم من أنهم كانوا جميعا يعملون ٢٤ ساعة متصلة .

– فى ٢٣ مايس أوفد محمد الثانى ، اسفنديار اوغلو داماد قاسم بك إلى البيزنط كسفير ليبلغ الامبراطور أن المدينة معرضة للسقوط فى أول هجوم عام ، وانه إذا أعلن الإمبراطور استسلام المدينة ، فانه وفقا لقواعد الإسلام لن يصاب أحد من أهلها بسوء وسيأمن الجميع على أموالهم وأنفسهم ، أما إذا اسقطت بالقوة فان السلطان محمدا الثانى لن يكون مسئولاً عما يحدث وعن الدماء التى ستهدر .

– افاد الامبراطور بأن مايراد تسليمه ليست قلعة بل هو أكبر تاج امبراطورى مسيحى يرجع تاريخه إلى ألف وخمسمائة عام ، وأنه مستعد مقدماً لقبول أية شروط من البادشاه عدا تسليم المدينة ، وأنه فى نفس الوقت سوف يقاتل حتى الموت .

– بدأ الأتراك فى ١٦ آيار فى حرب انفاق دموية .

– فى ٢٦ آيار حضر من المجر إلى محمد الثانى وفد كبير باسم المسيحية وهدد بأن أسطول البندقية (الذى كان الأسطول الأول فى العالم فى ذلك التاريخ) معزز بأساطيل أوربا المختلفة ، على وشك اجتياز بوغاز جناقلعة ، وأن جيشا مسيحيا كبيرا اكمل استعداداته الأخيرة لاجتياز ألطونة نحو الجنوب .

كان قرة مان أوغلو إبراهيم بك قد اتفق كذلك مع البنادقة على ضرب العثمانية من الاناضول حالما يتعرض الجيش المسيحى من الشمال .

كرر الوزير الأعظم خليل باشا نصيحته للامبراطور بأنه يرى فرض شروطه ورفع الحصار .

– عارض مرشد الخاقان الشيخ آق شمس الدين ذلك بشدة معلنا أنه تلقى بشارة

فتح استانبول وتلا الحديث الخاص بالفتح : « لتفتحن القسطنطنية ، ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

– زيدت كثافة القصف التركى إلى أقصاها .

– فى ٢٧ ايار (مايس) استشهد مراد باشا أثناء محاولته الدخول إلى المدينة من إحدى الثغرات .

– فى ليلة ٢٨ آيار ، جمع الامبراطور البيزنطيين فى اياصوفيا ، وأجرى لهم مراسم دينية واخبرهم باقتراب وقت قدوم السيدة مريم .

– جمع محمد الثانى المجلس العسكرى ، وأعلن انه سوف يمنح الذين يسبقون غيرهم فى الصعود إلى الأسوار ، رتبة اضافية .

– بعد أن أدى البادشاه صلاة الصبح يوم ٢٩ آيار ، امتطى جواده وتقدم إلى الصف الأمامى مع جميع أركانه ، وبدأت المدفعية فى اطلاق نيرانها مع أشعة الشمس الأولى ، وبدأ الجند تحت ستار هذه النيران فى الضغط على الأسوار ، ومحاولة تسلقها من جميع الجهات ، وفرق المهتر (الموسيقى العسكرية) تدوى نغماتها بشكل تئن له السماء والارض ، ورجال الدين والطرق يتجولون بين الصفوف يشجعون المقاتلين ويتلون الأدعية وينشدون الأشعار والمنظومات الدينية ، ويرددون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحث على الجهاد والقتال فى سبيل الله .

– لم ينم الشعب البيزنطى ليلة ٢٨ – ٢٩ آيار . استراح قسطنطين الحادى عشر الذى خرج من الاحتفال الدينى ، عدة ساعات فى سراى **Vlarhena** (بالتركية ، تكفور ، سرايى) ثم جاء إلى باب **Ayios Romanos** (بالتركية ، طوبقابوسى) . أما محمد الثانى ، فكان فى الجهة الثانية من هذا الباب ، حيث ستتحدد فى هذه الجهة النتيجة النهائية لهذه المعركة .

كان مشاة البحرية يتسابقون إلى إلقاء أنفسهم فى البحر فى سواحل مرمرة ، مجازفين بحياتهم فى سبيل تسلق الأسوار التى تشرف على بحر مرمرة ، وكانت المعركة الدائرة أمام أسوار طوبقابو دموية وشديدة يقاتل فيا كلا الطرفين بتضحية وبسالة مستميتين فى القتال .

كانت موجات الجنود الأتراك الذين يصعدون على الأسوار بالسلالم ، تنال الاستشهاد فى الحال بأسلحة البيزنطيين ، وفى نفس الوقت كان الشعب البيزنطى يخلى البيوت والشوارع ملتجئا إلى الكنائس وهو فى أشد حالات الاضطراب والفزع لمشاهدته الجنود الاتراك ، أما الجزء الذى لم يهرب منهم فكان يدافع مع الجيش البيزنطى ، أما الكنائس التى لم تكف أجراسها عن الصليل فقد كانت فى الحقيقة توحى بقرب حلول اللحظات الأخيرة .

استمر ضغط الأتراك وتعزيز وحداتهم بصورة مستمرة ، ولم تستطع الأحجار الكبيرة التى تلقى على الجنود أو نار الروم المعروفة أن تثنى الموجات المتتالية من الجنود الاتراك عن محاولات تسلق الاسوار من جهة طوبقابوسى .

وفى الوقت الذى كان فيه الامبراطور يقوم بسوق ماتبقى من احتياطاته الاخيرة التى يقودها الامير Nicolas Paleologos والامير Demetrios Kantakuzinos إلى طوبقابوسى ، جرح الجنرال Givstiniani وترك ساحة الشرف بغير شرف قائلا : « سأسلك الطريق التى فتحها الله للأتراك » .

كانت أصداء تكبيرات الغزاة الدراويش فى صفوف الجيش التركى التى يتجول بينها أستاذا الخاقان آق شمس الدين وملا كورانى ، والدعاء الذى رددوه عقب صلاة الصبح ، والخطاب القصير المؤثر الذى ألقاه البادشاه فسرى كالكهرباء فى أعصاب الجيش التركى – كان ذلك كله يؤتى ثمرته فيتجسد أمواجا متعاقبة على الأسوار البيزنطية ، تلتطم بها لتجتاز أكبر قلاع القرون الوسطى المستحكمة ، وتنتشر كولولة تزينة داخل البلدة الكبرى جوهرة الدنيا وامبراطورة المدن . أما قسطنطين الحادى عشر ، الخلف الشرعى لـ Avgustus فقد استمر فى الدفاع مبديا الشجاعة دون أن يترك مكانه ، لكنه كان ينظر بعيون غارقة بالدموع وبحزن شديد إلى تصدع وانهدام وانفتاح الأسوار البيزنطية .. تحت وطأة الهجمات التركية المتعاقبة التى لاتفتر .

اقتربت الساعة من السابعة ، كانت أواخر أيام الخريف ، حيث أخذت الحرارة اللطيفة الفاترة الخاصة باستانبول تنتشر فى هذا الموسم .

لم يغب عن فطنه محمد الثانى الذى يراقب الوضع بكل كيانه ، التوقف الآنى الذى نشأ عن ترك Giustiniani وجنوده الايطاليين الدفاع ؛ فأصدر امره للصف

الرابع من الجيش التركى بتسلق أسوار طوبقابوسى ، وقد كان هذا يعنى ان البادشاه يعتقد أن ذلك هو الهجوم النهائى .

سبق ضابط شاب صغير الرتبة حديث السن اسمه اولوبادلى حسن مع ٣٠ جنديا من معيته مفارزَ الهجوم الاخرى وركز راية الخاقان فوق اسوار طوبقابوسى ، واستشهد فى نفس اللحظة بنار وسهام وحجارة البيزنطيين التى وجهت اليه من مئات المواضع . واستشهد معه ١٨ من معيته ، لكن بقية الـ ١٢ حافظوا على الراية فلم تسقط من أيديهم ، ولم تسقط بعد ذلك أبدا .

ترجل محمد الثانى عندما شاهد العلم التركى يرفرف فوق طوبقابوسى عن حصانه وخر على الارض ساجدا سجدة الرحمن ، حامدا المولى على تحقيق نبوءة الرسول ﷺ على يديه . ومنذ تلك اللحظة نال محمد الثانى لقب « الفاتح » .

كان القطاع بين طوبقابوسى واكريقابو (باب Caligaria / Charsias) مليئا بالاجساد البشرية من كلا الطرفين ، بحيث لايمكن اجتيازه . انتقلت باب Kerkoporta (بالتركية : جنبازخانه) لحوزة الاتراك بعد دقائق من تركيز العلم التركى ، ودخل إلى المدينة من هذا الموقع ، اول جندى تركى . تم اجتياز السور الثانى كذلك .

أوقف ضابط الوحدة الاولى التى دخلت وحدته خلف الوحدة البيزنطية ، ولم يتقدم نحو المدينة . هجم البيزنطيون الذين شاهدوا ذلك جنودا ومدنيين ، على هذه الوحدة بغرض ابادتها . تم تعزيز الوحدة بالامدادات فلم يستطع البيزنطيون ابادتها ، ولما لم تتزحزح من مكانها ، فقد قطعت طريق الرجعة على جيش البيزنطى ، وحالت دون هروبه نحو المدينة .

اصيب الشعب البيزنطى سواء الذى شاهد الجيش التركى فى المدينة او الذى علم بقدومه بالفزع وأخذوا يتجمعون فى طريق أياصوفيا .

قاوم الجيش البيزنطى الذى قطعت عليه سبل العودة بشده ، واحتشد عدد كبير من الجند فى ساحة ضيقة وتداخل مع بعضه بحيث سحق الامبراطور الذى جرح وسقط على الارض تحت الاقدام . أنزل أحد جنود البحرية الضربة الاخيرة على الحاكم . (كان عمره يتجاوز الـ ٤٩ بـ ٣ شهر ، ١٩ يوما) فتح الجيش التركى

الذى دخل المدينة أبواب القلاع الواحد تلو الآخر ويسر دخول كافة الوحدات التركية .

أخذ الجيش الهمايونى الذى قضى على أوكار المقاومة الأخيرة بالسير فى تشكيل نظامى نحو ميدان أياصوفيا الذى شاهد تجمع الشعب فيه .

أخذ البيزنطيون الذين لم يدخلوا اياصوفيا منذ اتحاد الكنيستين يملئون المعبد الكبير فى انتظار انشقاق الجدار وظهور ملَكَ (بفتح الحرف الثانى) بيده سيف ليخلصهم من الأتراك . ولكن هذه الاسطورة التى كانوا يعتقدون فيها منذ عصور لم تتحقق . كتب الامير دوكاس يقول : إنه لو ظهر فى تلك اللحظة ملك وسأل البيزنطيين ، عما اذا كانوا يفضلون أن يصبحوا كاثوليك وينجوا من الاتراك ، أم أن يظلوا ارثوذكس ويعيشوا تحت إدارة الاتراك ، لفضل كل بيزنطى الشق الثانى (٣٩) .

وهكذا انتهى الحصار الـ ٢٩ والأخير لمدينة استانبول . وقف الجيش الذى تجمع فى اقسراى بنظام الصفوف أمام أياصوفيا فى انتظار البادشاه ، ولم يكن وقت صلاة الظهر قد حان بعد . وفى غضون هذه اللحظات كانت مقاومة بحارة كريت فقط مازات مستمرة فى باغجه قابو . أعجب البادشاه بهذه البطولة فأمر بعدم أسرهم والسماح لهم بالذهاب إلى سفنهم مع اسلحتهم وعودتهم إلى جزيرتهم (لقد كان مثل هذا التصرف معارضا لعقلية القرون الوسطى . لكن محمدا الثانى ، كان رجل العصر الحديث . كما ستؤكد ذلك فيما بعد تحركاته القادمة) .

لم يعتد الجيش على أحد من عشرات الألوف من البشر المتجمعين فى اياصوفيا ولم يمسهم بأدنى سوء وأخذ فى انتظار الخاقان وماسيأمره بشأن هذا الشعب .

دخل السلطان محمد خان إلى المدينة من طوبقابوسى وقت الظهر . جاء إلى اياصوفيا بصفة « فاتح » و« امبراطور روما » بين تصفيق الشعب البيزنطى وأصوات تكبيرات وأذان الجيش التركى .

سجد كافة الشعب وعلى رأسهم الرهبان الكبار على الأرض . قال السلطان محمد « انهضوا .. لاتخشوا بعد هذه اللحظة على حياتكم ولا على حريتكم » ، ثم ساعد بطريك الارثوذكس العالمى الذى كان راكعا على النهوض وكرر عليه الكلام نفسه . أفرغ أياصوفيا وتفقدها . أمر برفع الأذان ، وأدى صلاة العصر بداخلها فورا . امر

بالبحث عن جثة الامبراطور واحضرها وسلمها إلى الرهبان وأمر بدفنه باقامة المراسم ذاتها التى أقيمت على الامبراطور السابق .

عزل فى اليوم التالى ، البطريك الارثوذكسى العالمى ، وأمر المجلس الروحانى بانتخاب بطريك جديد بدلا منه ، وذلك بسبب تأييده البابا فى الاتحاد الارثوذكسى – الكاثوليكى واقامته المراسم الكاثوليكية فى اياصوفيا . اما Cennadinos الذى انتخب بدلا منه ، فكان مخالفا لهذا الاتحاد .

كان ذلك يوم جمعة ١ حزيران . أقيمت صلاة الجمعة فى ايا صوفيا ، حيث تلا الخطبة آق شمس الدين باسم الفاتح .

اخذ فاتح محلة غلطه من حوزة جمهورية جنوه ، وأنهى تجارة جنوة الحرة فى البحر الأسود ، وهكذا خرجت جنوه من عداد الدول العظمى .

وفى ١٩ تموز ، عزل جاندارلى خليل باشا وأعدم . وقد اختلفت الاقوال فى سبب إعدامه ، فقد قيل إنه بسبب معارضته فتح استانبول بدعوى ان ذلك سيسبب اثارة العالم المسيحى بأجمعه ضد الدولة العثمانية (وقد حدث ذلك بالفعل) ، وقيل انه بسبب بقاء مقام الصدارة منذ ٩٠ عاما لدى اسرة جاندارلى ، وعدم رغبة الفاتح فى تأسيس سلالة خاصة بالصدارة بموازاة سلالة السلطنة لتوقعه محاذير من ذلك .

أعلن الفاتح ، مدينة استانبول ، مركزا للدولة ومدينة العرش . غادر استانبول فى ٢١ حزيران متوجا إلى أدرنة ، وبذلك فانه يبدو أنه بقى فيها ٢٣ يوما .

لم يكن يسكن فى ذلك التاريخ داخل أسوار استانبول ، أكثر من ٥٠٠٠٠ بيزنطى (عدا قرى البوغاز والضواحى) . فقدت استانبول سكانها البالغ عددهم اكثر من مليون نسمه فى الاجتياح اللاتينى فى ١٢٠٤ ، وأخذت بعد ذلك فى التقلص . قبل أن يمضى شهر ايلول جلبت إليها ٥٠٠٠ عائلة من أناضولى ومن روملى واسكنت فيها .

بدأ العمل لاعمار المدينة على قدم وساق ، واشتغل فى هذا الاعمار البيزنط الذين نجوا من الموت واسروا ، وقد اطلق سراحهم عند انتهاء العمل بأمر الفاتح على أساس انهم سددوا فديتهم بعملهم .

عومل الروم والكنيسة الارثوذكسية بلين لايتصوره العقل ، ولعل أحد الاسباب لذلك ، ضمان عدم اقترابهم من العالم الكاثوليكى ، وتفادى وقوعهم فى أحضان البابا الذى يشكل روح الاتفاق الأوربى ضد العثمانية .

كان سرور العالم الإسلامى بالفتح كبيرا . أنيرت القاهرة أياما طويلة وأقيمت فيها احتفالات كبيرة (ابن اياس) ٢ ، ٤٤) . أرسل السلطان المملوكى ، وسلطان الهند الجنوبية البهمنى وحكام مسلمون عديدون سفراء خاصين لتهنئة السلطان محمد الفاتح .

يعتبر فتح استانبول أكبر حدث فى التاريخ التركى ، فقد بشر ذلك الفتح بصورة قطعية بأن تركيا سائرة فى طريق الدولة العظمى . والمعروف أن الفتح هو نهاية القرون الوسطى وبداية القرون الحديثة . بجل الاتراك الفتح باطلاقهم عليه اسم « فتح مبين » ، وبلغ التبجيل حد القول بانهم اكتشفوا ان تعبير « بلدة طيبة » الموجود فى « القرآن » يشير بحساب الابجدية إلى التاريخ الهجرى للفتح المبين .

يعتبر الفتح ، من أهم الوقائع فى التاريخ الأوربى كذلك . كتب البابا ، على أثر وصول خبر سقوط البيزنط ، خطابا إلى جميع الحكام الأوربيين طالبا منهم تشكيل اتفاق صليبى جديد .

وفيما يلى رأى بعض المؤرخين الأوربيين القدامى والجدد حول الفتح والفاتح :

« انحنت Labarum (راية الامبراطورية البيزنطية المشغول عليها علامة عيسى عليه السلام) أمام الراية (السنجق) الشريفة . ارتجف الغرب مدة قرنين أمام اباطرة المسلمين الذين سيطروا منذ ذلك اليوم على بوغاز إيجى (مارشال فون مولتكه ، ص ١٥١) .

« كافح البيزنطيون كفاحا شديدا طوال مدة أكثر من قرنين ، لحماية الأناضول من العرب . ولقد كانت هذه حادثة فى الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لمستقبل الحضارة الأوربية . ولو خسر البيزنط وتحقق الفتح الإسلامى فى ٦٧٣ أو ٧١٧ وليس فى ١٤٥٣ ، فماذا كان سيحدث عندئذ لوضع أوربا التى لم تثبت رشدها حتى الآن ؟ لما أمكن حدوث أية حركة إصلاحية أو نهضة علمية .. تفكك البيزنط فى القرن ١١ نتيجة لاستيلاء إسلامى ثان أكثر شمولا من الاستيلاء العربى . كان ذلك

بسبب فتوحات الاتراك السلجوقيين . انقذ العرب سورية ، وادى الرافدين ومصر فقط من اليونانية ، ثم أصبحوا ساميين مجددا . أما الاناضول فخلال مدة ٢٠ سنة ، أصبحت تركستان جديدة . وانسحبت حدود أوربا من أرمنستان إلى بوغاز إيجى . كان الاتراك فى ايزنك . ان فتح ١٤٥٣ كاد يتحقق فى غضون ١٠٨١ ، لولا التدخل الغربى الذى غير القدر . تحرك الغرب لتقوية البيزنط بغرض دفع آسيا إلى خلف الاماكن التى حازتها من أوربا . لايمكن اعتبار الحروب الصليبية تجمعات ايديولوجية صرفة ولاحروب فتوحات . إنها تظهر رد الفعل الأوربى الدفاعى تجاه التهديد الآسيوى . بدأت الجولة الإسلامية الثالثة ، مع العثمانيين . كان العثمانيون فى القرن ١٤ فى بورصة ، وفى القرن الـ ١٧ وصلوا إلى فيينا ، وبانسحابهم فى ١٩١٢ إلى أدرنة ، انتهت هذه الجولة ... وفى النهاية وفق العثمانيون فى انجاز فتح الامبراطورية الرومانية ؛ لوجودهم على ضفاف مرمرة ، ولانه تيسر لهم حكاما عظاما جدا تلا احدهم الآخر . ان هؤلاء الحكام كانوا على درجة من الدهاء العسكرى ، لايمكن مقارنته بدهاء أعدائهم . كانوا على علم بما يريدون ، ولم تكن لهم أية غاية عدا الفتوحات . وفق بنو عثمان ، السلالة الاستثنائية ، فى إحياء الغاية المقدسة للحملات النبوية بعد عصور طويلة (Réne Grousset ، الاكاديمية الفرنسية ، L'Empice du Levant ، ص ٨ – ١١ ، ٦٠٩ – ٦١٠) .

« إن اسباب توفيق الاتراك الذين انهوا القرون الوسطى ، هى وضعهم تكتيكا جديدا للحرب وتأسيسهم جيشا منظماً » (Histoire du Monde , R. Sedillot ، ص ١٨٤) .

« كان تكتيك الحرب لدى الاتراك الذين أنهوا القرون الوسطى ممتازا إلى درجة انهم استعملوا قذائف اللهب الطيارة التى تعتبر الاصل فى اكتشاف سلاح V - 1 ، لأول مرة فى فتح البيزنط . اهتم المهندسون الأوربيون فى القرن ٢٠ بنظام عمل هذه القذائف بعد أن نسى لعصور طويلة » (Benoit - Méchin ، ص ٥٤ – ٥٥) .

« فتح استانبول هو أحد أكبر وقائع التاريخ العالمى . كان تأثيره كبيرا جدا على مستقبل أوربا . بدل سير التاريخ بأكمله . أغلق القرون الوسطى وفتح القرون الحديثة » (Gustave Schlumberger Introduction) .

« إن قبول أوربا جميعها بعد فتح استانبول لسلاح المدفع ووضعه على السفن ، واخذ الاسطرلاب عن العرب ، أجبر أوربا التى اختنقت بالفتوحات التركية ، وقطع الطريق عليها ، ان ترمى بنفسها بكل قوة نحو البحار المفتوحة ، وان تبحث عن ايجاد طرق جديدة وتعويض احتياطى ذهبها الذى نفد » (Pirenne ، Histoire Universelle ، ٢ ، ٣٠٠) .

« من أهم لحظات التاريخ ، ويحتمل أن تكون أهمها جميعا : فتح الاتراك لاستانبول » (Mehmed der Eroberer , Franz Bobinger ، الترجمة الفرنسية ، ص ٧) .

لايشك أحد فى كون السلطان محمد امبراطور روما . أن الذى يستولى على مدينة عرش الامبراطورية هو إمبراطور من الناحية الشرعية ، ومدينة عرش الامبراطورية الرومانية ، هى استانبول (الأسطر التي حررها المؤرخ البيزنطى Yorgios Trapezutios فى ١٤٦٦) .

« السلطان محمد ، هو أحد فلاسفة عصرنا الذين يملكون ذكاءً يمتاز بالحدة الشديدة » (المؤرخ البيزنطى Kitovulos ، ص ١٧٧) .

« السلطان محمد ، يندر أن يضحك . ذكاؤه يعمل بصورة مستمرة . كريم جدا ، عنود وجسور وجرىء فى تصميمه ، ذكاؤه متقد . هو كإسكندر الكبير لايشبع من الشهرة والرفعة . يتحمل البرد والحر والجوع والعطش . كلامه قطعى . لايخشى أحداً . بعيد عن اللهووالمجون . يتكلم التركية واليونانية والصربيه بصورة جيده ويجيد قراءة وفهم اللغات الأخرى . يعكف على المطالعة كل يوم مدة من الزمن . ومن الكتب التاريخية التى يطالعها ، التاريخ الرومانى ، كتب التاريخ الاخرى Laerce ، هيرودوت ، Quinte - Curse , Tite - Live تاريخ البابوات ، أباطرة ألمانيا وملوك فرنسا ولمبارديا . له علم بجغرافية إيطاليا بصورة دقيقة وبكامل فروعها . على علم كذلك بجميع الحكومات الموجودة فى أوربا . لايستغنى عن خارطة كبيرة لاوربا . يتتبع العلوم العسكرية والجغرافية برغبة شديدة . ماهر فى تكييف نفسه على عادات وتقاليد الأقطار المختلفة الموجودة فى دولته » (معاصره الايطالى Zorzo Dolfin ، ص ٢٤) .

« السلطان محمد ، هو أعظم حاكم فى يومنا ، أعظم من كيروس ، من إسكندر الكبير ، من سيزار وبكلمة واحدة أعظم من جميع الحكام السابقين » (Babinger ، نقلا عن البيزنطى Yorgios Trapezuntios ، ٢٩٨) .

« فاتح ، ليس متخصص لغات من الدرجة الأولى ، ومؤرخا وفيلسوفا فحسب ، بل هو إلى جانب ذلك إدارى عظيم ، خيال وخبير فى استعمال الاسلحة بشكل خارق للعادة (The Harem , N . M . Panzer ، لندن ١٩٣٦ ، ص ٢٣٧) .

« يبدأ عصر النهضة العلمية ، مع فتح البيزنط فى عام ١٤٥٣ على يد الفاتح . فاتح ، أحد أكبر حماة الاصلاح والنهضة العلمية الحديثة (Renaissanee) . إن عصر النهضة العلمية مدين بالكثير لتسامح فاتح وخلفيه الاثنين . يسر فاتح انتشار اللغة اليونانية القديمة فى أوربا . دعا كل من بايزيد وياوز ، فى ١٥٠٦ و١٥١٩ ، انجيلو وليوناردو دافينشى إلى استانبول بصورة رسمية . بينما لم يسمح لهما البابا بذلك » (La Renaissanee, P. Faure ، ٧ ، ٤٦ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤) .

« لكى ندرك التاريخ العثمانى ، لابد أن نعطى بنى عثمان حقهم كبانى مؤسسين لامبراطورية روما الشرقية ، يقر المؤرخون البيزنطيون المعاصرون لفاتح مثل Kritovulos Chalcondylas , Dukas Trapezuntios بأن بنى عثمان قد احتلوا مكان أباطرة روما ، وأنهم أصبحوا خلفاءهم الشرعيين ، وأنهم يحملون هذه الصفة » (Grenard ، ١٠١ - ١٠٢) .

« ان فتح استانبول ، هو انجاز شخصى لمحمد الثانى . ولايمكن قبوله كنتيجة للتطور الطبيعى للدولة العثمانية » (Voyageurs Francais dans l'orient , N . Lorge ص ٢١) .

إن إجادة فاتح اللغات اليونانية والصربية والإيطالية وفهمه عدة لغات أخرى ، هذا عدا اكتشافاته فى البلستك (مايخص القذائل الحربية) ودهاؤه فى الرياضيات ومعرفته العلوم الدينية بصورة فائقة وإجادته العربية والفارسية تجبرنا على الاعتراف بأن السلطان محمد الفاتح هو أعظم حاكم وأكبر عسكرى وأكبر رجل دولة سياسية ورئيس « الدولة العالم » الممتاز فى التاريخ العثمانى . وبالنسبة إلى كثير من المؤرخين فإن محمد الفاتح هو أكبر شخصية انجبها الأتراك طوال التاريخ .

وقد تجدر الإشارة إلى تعداد العالم عام ١٤٥٣ أثناء الانتقال إلى القرون الحديثة يقدر بـ ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ؛ ٢٧٥ مليون نسمة تسكن فى آسيا ، و٧٠ مليونا فى أوربا ، و٤٠ مليونا فى أفريقيا ، و١٥ مليونا فى أمريكا .



المبحث الثالث

نحو الدولة العالمية (١٤٥٣ - ١٥٢٠)



نحو الدولة العالمية
(١٤٥٣ - ١٥٢٠)

(١) فاتح والبلقـــان (١٤٥٣ - ١٤٦١)

يطلق على الحملات العسكرية التى يكون البادشاه قائدها العام فى علم الاصطلاحات الفنية العثمانى ، « سفر همايون » أى الحملة الهمايونية ، وكان فاتح قد اشترك فى الحملات الـ ٣ الأخيرة لأبيه مراد الثانى (الحملات الهمايونيه مورا الثانية فى ١٤٤٨ ، ألبانيا الثانية فى ١٤٤٨ وألبانيا الثالثة فى ١٤٥٠) .

أما الحملة الهمايونية الأولى لفاتح فهى حملة قرةمان ، والثانية استانبول ، والثالثة إنز Enez :

فى الحملة الثالثة أستولى الفاتح على إنز (ك/١٤٥٣) ، وهو مرفأ جنوى يقع على مصب نهر مريج وكان تابعا للعثمانية منذ ١٣٨٣ ، وبعد أن استولى على المرفأ أرسل اسطولا مؤلفا من ٥٥ قطعة إلى كفه مستعمرة جنوة فى قرم (تموز ١٤٥٤ .

قاد فاتح حملة صربيا الأولى وهى الحملة الهمايونية ٤ له (١٤٥٤) ، وبعد أن عاد إلى استانبول ، قام القبودان دريا (مشير البحر) حمزة بك بحملة على جزر إيجه الشمالية ، بعد حملة كفه والحقها بالعثمانية ، وبذلك تكون الجزر التى الحقت رأسا فى بحر ايجه هى بوزجه آدا (حزيران ١٤٥٣) وطاشوز (صيف عام ١٤٥٥) ، وفى حملة حمزة بك للسنة التالية (فى ربيع عام ١٤٥٦) جزر ليمنى ، امروز ، سمنديرك .

وهكذا أصبح مدخل بوغاز جناقلعة مغلقا بصورة تامة .

وفى ١٤٥٥ ، هاجمت ٨٠ قطعة من الأسطول الهمايونى جزيرة رودس التابعة لفرسان سانت - جين ، لكنها لم تتمكن من أخذ الجزيرة .

خرج فاتح فى ١٤٥٥ فى حملته الهمايونية الخامسة (حملة صربيا ٢) . وفى عودته مر على صحراء كوسوفا وزار مشهد خداوندكار . وفى ١٤٥٥ ، قبلت الامارة الرومانية (الارثوذكسية) مولدافيا (بالتركية : بغدان) تبعيتها للعثمانية ، وهكذا انضمت الامارة الرومانية الثانية إلى تركيه بعد ٦٠ سنة من انضمام افلاق . وانتقل ساحل البحر الأسود إلى العثمانية ، وحرمت ملكيتا المجر وبولونيا الكاثوليكيتان اللتان كانتا تدعيان السيادة على بغدان ، من البحر الأسود .

الحملة الهمايونية الـ ٦ لفاتح ، هى حملة بلاد الصرب (١٤٥٦) ، وفيها اجتاح بلاد الصرب بجيش يتألف من ١٥٠٠٠٠ مقاتل ، و٣٠٠ مدفع ! ، ٢٠٠ قطعة من الأسطول الرفيع (الأسطول النهرى الذى يتكون من قطع رفيعة وطويلة) ووصل امام قلعة بلغراد المجرية القويه فى الحدود الشمالية لبلاد الصرب حيث حاصرها مدة ٣٩ يوما (١٣ حزيران - ٢٢ تموز) ، ولم يتمكن من فتحها ، وفى هذه الحملة جرح فاتح ومات هنيادى يانوش متأثرا بجراحه أثناء دفاعه عن القلعة .

الحملة الهمايونية الـ ٧ ، هى حملة مورا الأولى (١٤٥٨) وفيها دخل اثينا التى يطلق عليها الاتراك « مدينة الحكماء » . سمح فاتح للدوق اللاتينى الأخير Franco Acciajuoli بأن يأخذ كامل ثروته ويذهب إلى إيطاليا .

دخل إلى مورا من برزخ كورينثوس وجاء إلى باتراس وأسس فيها لواءً تركيا على الأراضى التى تشمل ثلث مورا ، وسمح لاميرين من سلالةPaleologos بادارة الثلثين الباقيين ، تحت حماية العثمانية .

هدم فاتح بنيران مدفعيته ٢٩٢ قلعة من مجموع الـ ٣٠٠ قلعة الموجودة فى مورا وترك ٨ قلاع فقط ، وهكذا انهى القرون الوسطى فى مورا .

الحملة الهمايونية الـ ٨ (١٤٥٩) ، هى حملة الصرب ٤ التى سقطت فيها سمندره (١٤٥٩/١١/٨) وانهيت فيها إمارة صربيا وتأسس لواء سمندره الذى يبدأ من السفوح الجنوبية لقلعة بلغراد التى تشكل حدودها الشمالية .

كانت إمارة الصرب قد الحقت بتركيا لمدة ٥ سنوات (١٤٣٩ - ٤٤) ، ثم تأسست مجددا تحت حماية العثمانية لتكون دولة عازلة بينها وبين المجر الكاثوليكية .

الحملة الهمايونية الـ ٩ (١٤٦٠) ، هى حملة مورا ٢ . وفيها ضم فاتح الأراضى التي كانت تحت الادارة المباشرة للاخوينَ الاميرين البيزنطيين ، وأخرجهما من مورا . الأميران هما الأمير ديميتريوس والامير توماس اخوا الامبراطور قسطنطين الاول ، وقد توفى ديميتريوس فى أدرنة عام ١٤٧١ بعد أن عاش حياة مرفهة كاحد رعايا الاتراك . أما توماس ، فقد هرب ولجأ إلى البابا ، وتوفى فى روما سنة ١٤٦٥ .

(٢) فاتح وجنوب البحر الاسود (١٤٦١ - ١٤٦٣)

فتح امبراطورية طرابزون

الحملة الهمايونية الـ ١٠ لفاتح (بداية ١٤٦١) تم فيها فتح ميناء وقلعة آماسرا التابعة لجنوة على البحر الأسود .

وفى الحملة الهمايونية الـ ١١ (ربيع ١٤٦١) ، وهى حملة اسفنديار ، تم القضاء على تابع العثمانية امارة جاندار (واسمها الاخير اسفنديار) .

كان أميرها الاخير داماد إسماعيل بك رجلا من الأشراف . كان لداماد اسماعيل بك فى قلعة سينوب ١٠٠٠٠ جندى ، و٢٠٠٠ مدفعى و٤٠٠ مدفع . خرج دون أية مقاومة وقبل يد فاتح . منحه فاتح إقطاعية فيليبة . مات فيها فى ١٤٧٩ وعمره ٦١ سنة . كان متزوجا بأخت فاتح . له كتاب مهم فى الفقه. استمرت سلالة بنو اسفنديار إلى يومنا هذا من نسل اخيه سلطان - زاده (سليل العائلة السلطانية) داماد (الصهر) قيزيل احمد باشا .

وبذلك تكون قد بقيت فى الأناضول ٣ إمارات فقط من الأسر التركمانية ، وهى : امارتا قرة مان ودلقادر التابعتان للعثمانية وإمارة رمضان التابعة لمماليك مصر .

الحملة الهمايونية الـ ١٢ (صيف عام ١٤٦١) ، هى حملة طرابزون . سار فاتح من سينوب إلى شبين قره حصار بجيش لم يسبق أن شوهد حجمه على هذه الاراضى على مدى التاريخ ، ووصل أمام قلعة طرابزون بعد ان اجتاز - بالتسلسل - وسلسلة جبال كموشخانه ، قولات ، طرابزون بعناء كبير لكثافة الغابات .

دخل الأمير كاظم بك مع الاسطول إلى ميناء طرابزون . استسلم الامبراطور David Komnenos دون ان يشهر السلاح .

وهكذا انتقلت إلى الحكم الاسلامى والتركى ٣ ولايات (طرابزون ، ريزه ، آرتفين) اللواتى لم يسبق ان دخلن إلى الحكم الإسلامى فى الاناضول ، وكذلك دخلت كافة السواحل الجنوبية للبحر الاسود دون استثناء ، تحت الحكم العثمانى المباشر فى حملة ١٤٦١ ، وانتهت سلطنة أسرة Komnenos التى دامت فى طرابزون ٢٥٧ سنة .

جرت الحملة الهمايونية الـ ١٣ على رومانيا (بالتركية : افلاق) .

كان Wald Tapes الثالث (١٤٥٦ - ١٤٦٢) الذى يسميه الاتراك « قازقلى فويفودا » (اى الامير ذو الاوتاد) المانياك (اى المجنون) - قد تمرد ورفض السيادة العثمانية ، هرب Wald Tapes من امام فاتح ولجأ إلى المجر . قبضت عليه المجر وسجنته مدة ١٥ سنة بسبب اشتهاره بالظلم .

الحملة الهمايونية الـ ١٤ (١٤٦٢) ، هى حملة بوسنة الأولى .

دخل فاتح أسكب بعد أن قضى على ملك بوسنة الكاثوليكى المتعصب الذى سحق البوشناق (البوسنويين) الذين يدينون بمذهب بوغوميل الذى اقتبس بعض أحكام الاسلام ، وفتح قلعة يايجه Yayçe واخضع بوسنه كذلك .

الحملة الهمايونية الـ ١٥ كانت على الامارة اللاتينية ، وتعتبر هذه الحملة الهمايونية حمله استثنائية لكونها عبر البحار ، إذ إن خروج السلاطين فى حملات عبر البحار كان محظورا فى العرف العثمانى .

قام فاتح بعملية إنزال على الجزيرة من آيوالق Ayvalik بواسطة اسطول مكون من ٦٧ قطعة بحرية . وخلال ذلك أمر فاتح بانشاء قلعتين متقابلتين فى بوغاز جناقلعة للسيطرة عليه بالنار المتقابلة ، على غرار بوغاز استانبول ، فشيد استحكامات ومتاريس قلعة سلطانية (القلعة السلطانية) فى جناقلعة (جهة اسيا) وقلعة كليد البحر (قفل البحر) فى جهة غاليبولى (أوربا) .

الحملة الهمايونية الـ ١٦ (١٤٦٣) ، هى حملة بوسنة الثانية ، وفيها وصل فاتح إلى صوفيا ثم قفل عائدا .

(الحرب الكبرى تجاه ٢٥ دولة (١٤٦٣ - ١٤٧٣)

الحملة الهمايونية الـ ١٧ (١٤٦٤) ، هي حملة بوسنة الثالثة . اضمحلت ملكية بوسنه وألحقت بالعثمانية وكان قد اهتدى إلى الإسلام الخروات الذين يدينون بمذهب بوغوميل ، كما جاء كثير من الاتراك إلى بوسنة وهرسك واستوطنوا فيهما . شوهد اعتناق جماعات كبيرة فى قطرين بلغاريين كالبانيا وبوسنة للدين الاسلامى ، وصار الألبانيون والبوشناق مسلمين صميمين مع انهم حافظوا على لغاتهم حتى يومنا هذا ، ودخلوا فى نطاق الثقافة التركية ، ولايزالون مسلمين حتى الآن .

حاول ملك المجر أخذ بوسنة ٣ مرات فى ١٤٦٥ ، ١٤٧١ وفى ١٤٧٩ . وقد باءت محاولاته فى المرات الثلاث بالفشل .

الحملة الهمايونية الـ ١٨ (١٤٦٦) ، هى حملة قرةمان الثانية (بعد ١٥ سنة من الأولى) ، وفى هذه الحملة ألغى فاتح الذى دخل قونية ، ثم احتل لارنده (قره مان) ، الامارة وأجلس ابنه الأوسط شهزاده (الامير) مصطفى (امه كلشاه خاتون وهى ابنة قرةمان أوغلو إبراهيم بك) على عرش قرة مان فى قونيه ، وتقبل شعب قونية هذا الوضع بارتياح ، حيث انه كان قد سئم من اتفاق امرائه مع المسيحيين ضد العثمانيين ، ذلك بالاضافة إلى أنهم شعروا بالفخر لتولى الامارة أمير هو ابن فاتح استانبول ، وفى نفس الوقت حفيد قرة مان أوغلو إبراهيم بك الحاكم الذى توفى (١٤٦٤/٨/١٦) قبل سنتين بعد سلطنة دامت ٤٠ سنة . وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك أهمية لنسب الأم فى ذلك العهد ، فإن ذلك كان من عوامل كسب ود القونويين .

ظل قسم من بنى قرة مان ممتلكا سواحل البحر الأبيض : ايجل ، وطاش ، يالى .. لفترة اخرى .

الحملتان الهمايونيتان ١٩ و ٢٠ ، هما حملة ألبانيا الأولى (١٤٦٦) والثانية (١٤٦٦ - ١٤٦٧) ، وكلتاهما موجهتان إلى تمرد اسكندر بك .

أسس فاتح فى الحملة الاولى (١٩) قلعة ومدينة الباسان **Elbasan** . ولم يتمكن فى الحملة الثانية (٢٠) من القبض على إسكندر بك .

وافت اسكندر بك المرتد منيته فى ١٤٦٨/١/١٧ فى Alessio (بالتركية : لش) ، وهكذا انتهى عصيان البانيا الكبير .

انتهت علاقة ملكية نابولى مع ألبانيا ، ولكن علاقة جمهورية البنادقة فى الشمال استمرت مع ألبانيا فترة أخرى .

قامت بين تركيا والبندقية فى ١٤٦٣ ، حرب شديدة وطويلة جدا تسمى الحرب الكبرى .

اتفقت على مر الزمن ضد تركيا نحو ٣٠ دولة . اضطرت تركية للاستمرار فى هذه الحرب بدون حليف .

وقد كان ذلك هو ماقاله منذ عشر سنوات جاندارلى - زاده الذى أعدمه فاتح السبب الظاهرى للحرب الكبرى هو الحاق ملكية بوسنة بتركيا ، ولكن السبب الحقيقى هو فتح العثمانية البيزنط ، وغلقها المضايق ، ومنعها مرور السفن إلى البحر الاسود ، وحيازتها على قوة عسكرية واقتصادية لاتسمح لاية دولة أن تنازلها منفردة .

كانت الاستعدادات الاولى لتشكيل ائتلاف ضد الاتراك قد جرت بقيادة البابا فى الاجتماع الذى عقد فى Regensburg ، منذ نيسان ١٤٥٤ .

كانت الاستراتيجية الأوربية فى هذه المرة تستند على اساس فكر معين مؤداه : إن هزيمة الاتراك عسكريا واستقطاع اقطار منهم أمر مشكوك فيه أو هو أمر صعب ، ولكنه ليس بالأمر المستحيل إذا مااتحدت أوربا بأكملها ، ولذلك يجب ضرب البادشاه الذى يطلقون عليه لقب « التركى الكبير » من الشرق ، ومن الاناضول بصورة مؤكدة .

لاتوجد فى تلك المناطق دولة مسيحية عدا كرجستان .

كانت قرمان قد أخذت هذا الأمر على عاتقها فى السابق ولمرات عديدة ، لكنها لم تتمكن من مقاومة العثمانية . لذلك فمن الضرورى تحريض المماليك ضد العثمانية ، ولكن ، القاهرة لاتقدم أبدا على اتفاق مع المسيحيين ضد الدول الإسلامية ؛ لكونها أولا مسلمة ؛ ولأنها تضررت كثيرا من الصليبيين سابقا . كما .. أن خلافات القاهرة مع العثمانية ليست مهمة بالدرجة التى تجعلها تقدم على دخول حرب واسعة .

لاشك فى أن القاهرة لم تكن مستريحة لاطماع العثمانية تجاه قرة مان (قونية) ودلقادر (ماراش) ، لكنها على هذه الحال منذ مدة تقارب القرن ، ولم يؤد عدم ارتياحها لهذا الوضع خلال تلك المدة إلى حرب عثمانية - مملوكية ، ومن الطبيعى أن نتوقع أن تغييرا سوف يطرأ على موقف القاهرة من العثمانية لو أن الاخيرة ركزت نظرها على بلاد رمضان وجوقور أوفا .

على كل الاحوال فانه لم تظهر على سياسة « التركى الكبير » ، أى فاتح ، أية بوادر تشير إلى رغبته فى اجتياز الفرات وجبال طوروس وانما كان كل امله فى أوربا .

وفى ضوء ذلك كله ، نجد أن الدولة الوحيدة ذات المقدرة العسكرية التى يمكنها أن تضرب التركى الكبير من الشرق ، هى اقويونلو (اصحاب الخرفان البيض) الامارة التركمانية المتضخمة .

كان أوزون حسن بك الذى أظهر فى السنوات الاخيرة تقدما كبيرا جدا ، وأثبت قدرة عسكرية هائلة ؛ حتى اطلقوا عليه فى اوربا « كوجوك ترك » (التركى الصغير) - مستعداً للقيام بهذه المهمة ، فهو يسيطر على الاناضول الشرقية ويتميز غيظاً من فاتح الذى قوض امبراطورية طرابزون (التى يرتبط بها بروابط القرابة) ، والذى قضى على قرةمان وأخل بالتوازن . ولو أمكن إعطاء الدور الذى لعبه تيمور إلى أوزون حسن ، لكسبت أوربا الحرب من الناحية الاستراتيجية ، وحتى ان لم يتيسر لها دحر القدرة العثمانية ، فانه سيكون فى إمكانها حصرها فى حدود المعقول .

استغرق تجهيز الاتفاق ضد العثمانية وقتا طويلا ، وتم تدبيره بأناة ، وتم التفاهم فى النهاية على خطة التقسيم التى تحصل المجر بموجبها على حصة الاسد لتخصيصها أكبر قوة عسكرية ، فلها بلاد الصرب ، بلغاريا ، بوسنة ورومانيا (افلاق) ، ويحصل البنادقة كذلك على حصة كبيرة ، اذ إنهم وافقوا على تحمل القسم الاكبر من النفقات المالية علاوة على تخصيصهم لاسطول البندقية القوى . وتحصل « الجمهورية المهيبة » على مورا ، آتيكا ، تيساليا ، ابير . ويعاد إحياء الامبراطورية البيزنطية ، على ان تنحصر حدودها فى تراقيا ، ولاتعطى حدودا واسعة لكونها ارثوذكسية وتكون بمثابة .. الدولة العازلة .. وبذلك يتم إخراج الاتراك من أوربا بشكل كامل .

أما ماهى الأراضى التى ستبقى لدى العثمانية فى الأناضول ، فإن ذلك شىء يعود إلى آقويونلو « كوجوك ترك » أوزون حسن الحليف الكبير للاتفاق ، ولاشأن للدول الأوربيـة بذلك . ومن المؤكد ان أوزون حسن سيعيد تأسيس دولة قرمان وطرابزون تحت حمايته وسيضم اراضى العثمانية فى الاناضول الوسطى كذلك . وستبقى العثمانية منحصرة بين البحر الاسود - مرمرة - إيجه - البحر الابيض كما كانت فى السابق ، ولن يسمح باقترابها من الاناضول الوسطى خصوصا ، ويمكنها أن تعيش فى غرب الاناضول ، شرط تحسين علاقاتها مع آقويونلو !

كان العنصر الأساسى فى تطبيق خطة خيالية كهذه ، هو إجبار العثمانية على دخول الحرب بدون حليف (وهذا ماحدث .. لم تتمكن من اتخاذ اى حليف) . ومن حيث المنطق لو ان مايقرب من ٣٠ دولة قامت بتطبيق هذه الخطة بتصميم ، فإن النجاح سوف يكون مضمونا ، وسوف تتعرض العثمانية للعنت ولمصاعب كثيرة وستتردى اقتصاديا وعسكريا كلما طالت الحرب وستكون مرغمة فى النهاية على وقف الحرب (وبالفعل فإن فاتحا لما طالت الحرب ، وضع اليد باسم الجيش على إيرادات الأوقاف غير مبال بعدم الارتياح ولا بالانتقادات الكبيرة التى تعرض لها) .

ولكى يتحقق الانتصار فى حرب كهذه ، فإنه لايكفى استحواز الجيش على الأولوية فى العالم ولايكفى الأسطول الذى اصبح على يد فاتح متفوقا على الأسطول البندقى وجهزه بمدافع ممتازة وجعله الأسطول الأول فى العالم ، ولكن الأمر يحتاج إلى سياسة خارجية مكيافيلية وجهنمية دقيقة جدا ، ولقد رضى فاتح بالحرب ، لأنه كان مقتنعا بأنه سوف يتمكن من السيطرة على هذا العنصر كذلك ، وقد كان بإمكانه الحيلولة دون وقوع الحرب لو أنه اعطى بوسنه إلى المجر واعاد استقلال دولتى قرمان وطرابزون وجعلهما دولا عازلة بينه وبين آقويونلو وفتح البحر الأسود للبنادقة ، لكنه لو كان فعل ذلك ، فهل تقف الترضيات عند هذا الحد ؟ وهل يمكن لدولة تقدم مثل هذه الترضيات إن تثبت دعواها فى كونها الدولة الأولى فى العالم ؟

تعرضت الدولة الصغيرة دلقادر لضغوط شديدة فى حرب العمالقة هذه ، ولم يخضع التركمان المرعشيين لهذا الضغط ، ولم يتركوا أبدا تبعيتهم للعثمانية ورفضوا كافة الضغوط التى مارستها الدولتان ذوات القدرات العظيمة كمصر

(المماليك) وإيران (آقويونلو ، أى اصحاب الخرفان البيض) بشأن انفصالهم عن العثمانية .

من ناحية أخرى ، فإن القاهرة ماكانت لترضى بالتحرك ضد بنى عثمان ، صحيح أن القاهرة كانت ترى فى أجلاس بنى عثمان ابنهم المتوسط على عرش قرةمان ، وفى صاحب عرش مراش التابع المخلص للعثمانية ، خطرا يهددهم فى سوريا ، لكن كل ذلك ماكان ليجعلهم يتحركون ضد بنى عثمان الغزاة العظام ، وبخاصة عندما تكون هذه الحركة بالاتفاق مع أوربا ، لقد كانوا يرون أن ذلك لايليق بهم .

إن « مصر - سوريا » كانت تسر لانتصارات العثمانية فى أوربا .

وفى ١٤٥٦ ، احتفلت مصر وسوريا ٣ أيام بلياليها عند التأكد من عدم صحة خبر موت فاتح بمرض الطاعون .

لم تكن « مصر - سوريا » مستعدة للاقدام على الحرب مع الدولة العثمانية بسبب مسألة قرةمان ودلقادر .

أما آراء فاتح بالنسبة للدولة المملوكية وسلاطينها ، فلم تكن طيبة على أى حال من الأحوال رغم إخفائها بدقة ومهارة ، كان السلاطين المماليك بالنسبة لفاتح « عبيدا شركسيين » لاينحدرون مثله من أوغزخان ، واضافة إلى ذلك فإن هذه الدولة تحتفظ بالخلافة ، وتسيطر على ٣ مدن إسلامية مقدسة مكة ، مدينة ، والقدس . وبفضل هذه العناصر المعنوية . كانت تدعى بأنها دولة الإسلام العظمى . من الجائز أنها كانت كذلك في وقت ما .. لكن تركيا كانت قد وصلت إلى أوربا الوسطى بعد أن قدمت ٤ ملايين من الشهداء خلال ٤ قرون مبتدئة من ملازغرت ١٠٧١ . كان فاتح هو الخلف الشرعى لبنى سلجوق (هذا هو الرأى الرسمى للدولة العثمانية منذ بدايتها وحتى اضمحلالها) . وبنى سلجوق هم أسياد أسياد (الاتابكة الزنكيين) الايوبيين الذين هم أسياد المماليك .

كان العثمانيون قد تقلدوا سيف الإسلام ، أما المماليك فكانوا يتمتعون بفضل الإسلام .

بطبيعة الحال لم تكن القاهرة على علم بمثل هذه الأفكار الخطيرة التى لدى العثمانيين عنهم ، واستمرت القاهرة فى محبتها للعثمانية حتى النهاية .

علم فاتح وقد كان يملك أقوى شبكة للاستخبارات ، فى العالم وله عيون وأرصاد فى كل منطقة من أوربا ، إجراءات الاتفاق الذى رتب ضده ، خطوة بخطوة ، فسبقهم فى التحرك .

بدأ فى الحرب فعلا يوم ٣ نيسان ١٤٦٣ ، وبناء على ذلك أعلنت البندقية الحرب على تركية فى ٢٨ تموز والمجر* فى ٣٠ تموز .

سحق الوزير الأعظم محمود باشا ، المجر فى الحرب الميدانية Zvornik . تمكن ملك المجر Mathias ابن Hunyadi Janos من النجاة من الموت بصعوبة . غادر البابا بيوس الثانى روما (١٨ / ٦ / ١٤٦٤) لقيادة الجيش الصليبى بنفسه ، لكنه مات فى الطريق ، وتحرك كذلك دوج (رئيس جمهورية) البندقية من البندقية بالسفينة (٢ / ٨ / ١٤٦٤) تجاه تركيا ، ولكنه رجع إلى البندقية عند سماعه خبر وفاة البابا . منح فاتح ، دولة فلورنسا (توسكانا) امتيازات تجارية كبيرة ، وحسن أحوالها المالية بشكل واسع وذلك بغرض إضعاف القدرة المالية والاقتصادية للبندقية .

وبينما كانت تتتابع الدول الأوربية ، والدول الآسيوية كايران (أصحاب الخرفان البيض) ملكية كرجستان (ارثوذكسية) ، ملكية قبرص (كاثوليكية) – فى إعلان الحرب على تركية ، كان فاتح معنيا بشكل خاص بالبندقية ، ذلك أن فاتح لم يكتف بالنسبة للبندقية بالتدابير المتعددة التى اتخذها لتدمير الجمهورية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية ، بل إنه قام معها بمناورات سياسية معقدة جدا ، فقد فتح معها الباب لمفاوضات الصلح (وهذا أمر لايجرى والحرب دائرة) ، ولكن شروط الصلح المغرية بهرت عيون البنادقة ، فأوقفوا الحرب مدة من الزمن ، استطاع فاتح خلالها القضاء على أعدائه الآخرين ، ثم أعلن بعد ذلك أن المفاوضات دخلت فى طريق مغلق ، وبدأت الحرب مع البندقية مجددا .. لقد ابتلعت البندقية ذاتُ الدبلوماسية الراقية ، هذا الطعم مرات عديدة !

ضعضعت الحملات الواسعة النطاق التى بدأت فى ١٤٦٩ ، البندقية بدرجة

كبيرة ، قامت البندقية حتى تموز ١٤٧٩ فقط ، بترتيب ١٤ مؤامرة لاغتيال السلطان محمد الفاتح ، ولم توفق فى أى منها (Babinger ، ٣٤٧) .

سار فاتح فى صيف عام ١٤٧٠ بجيشه فى إحدى حملاته الكبرى وهى الحملة الهمايونية ٢١ ، حملة آغريبوز (أكريبوز) تجاه البندقية . وقد كانت هذه الجزيرة – وهى أكبر جزر إيجة – كأنها ملتصقة بشبه جزيرة آتيكا (تبلغ مساحتها ٢٩٧كم[٢]) ، بحوزة البنادقة منذ ١٢١٠ ولمدة ٢٦٠ سنة . (وقبلها كانت بحوزة البيزنط) .

دخل الأسطول الهمايونى المكون من ١٠٠ سفينة حربية شراعية كبيرة (كاليون) و٢٠٠ سفينة نقل إلى بوغاز آغريبوز فى ١٤٧٠ . أما الجيش الهمايونى (الامبراطورى) فقد دخل إلى تيساليا من ممر ترموبيل وانتقل منها إلى آتيكا . وجاء إلى منطقة مجاورة لـ Tep (Tebai) وصعد إلى قلعة Chalkis Egripo التى تشكل مركز الجزيرة والتى يطلق عليها الأتراك اسم الجزيرة نفسها : آغريبوز . كانت القلعة الواقعة وسط بوغاز أغريبوز وفى النقطة التى تقترب فيها الجزيرة إلى البر بمسافة ٥ كم ، إحدى أقوى قلاع البنادقة المستحكمة . وحتى ييسر فاتح لجيشه البالغ ٧٠٠٠٠ شخص مهمة العبور ، فقد صف ٢٠٠ سفينة جنبا إلى جنب وبذلك تمكن من إقامة جسر طوله ٥ كم . لم يكن اسطول جمهورية البندقية الذى يقوده الاميرال Nicolo Canale بعيدا ، لكنه لم يجسر على الاقتراب من الأسطول التركى .

دام الحصار ١٧ يوما ، ثم سقطت القلعة فى الهجوم الخامس (١٢ / ٧ / ١٤٧٠) ، وقد ولد سقوط آغريبوز تأثرا كبيرا فى أوربا ، كسقوط استانبول وطرابزون .

ثم قام الوزير الأعظم كذلك أحمد باشا بعد ذلك باحتلال نيغده (١٤٧٠) وعلائيه (آلانية) (١٤٧١) وسيلفكة (١٤٧٢) ووصل إلى سواحل امارة رمضان فى جقوراوفا التى كانت تحت حماية المماليك ، وبذلك حقق سيطرة عثمانية تامة على سواحل البحر الأبيض .

يمكن تصوير الوضع عند اقتراب نقطة تحول الحرب ولحظتها الجهنمية فى ١٤٧٣ على الوجه التالى :

– أوربا تعلق الأمل أكثر من أى وقت مضى على التركى الصغير .

كان فاتح بالنسبة لأوربا Great Turk Gran Tureo, Grand Turc . أما أوزون حسن فهو التركى الصغير Piccolo Turco, Petit Yurc, little Turk .

– ازداد بشكل كبير تبادل السفارات بين البندقية وتبريز – أخذت معاهدات الاتفاق تتلو إحداها الأخرى .

– الدول الأوربية من جهة وإيران من جهة أخرى – من المتعذر إجراء صلح منفرد – تتضمن المؤامرة تطبيق خطة التقسيم بعد أن يبيد أوزون حسن جيش العثمانية السيار فى حرب ميدانية – تتمثل خطة التقسيم فى أن البلقان للدول الأوربية ، أما الأناضول فهى لأصحاب الخرفان البيض – تقسيم البلقان والأناضول سيكون بالتراضى بين الأوربيين وأصحاب الخرفان البيض ، بمعنى أن أوزون حسن سوف لايتدخل فى البلقان ، ولاتتدخل أوربا فى الأناضول .

وبطبيعة الحال كان أوزون حسن قلقا بشأن قدرة الأوربيين على سحق العثمانيين واسقاط تلك القلاع المتينة بما فيها من وحدات الصاعقة وجيش روملي واخراجهم من البلقان ، ولكن ذلك لم يكن يعنيه ، وإنما الذى يهمه هو حكم الأناضول حتى ازمير وغاليبولى ، وتكوين امارات عازلة تتولى مهمة الانشغال بالعثمانية التى سوف تستمر فى بورصة وحواليها ، ومن هنا فإنه سوف لاينشغل بأمور الأناضول الغربية ، وإنما سيكون على الأغلب فى موقف الحكم .

كان أوزون حسن مغترا بقتله خاقانين كبيرين جدا من الأتراك واباده جيشهما ، (الخاقانان هما خاقان قرة قويونلو (اصحاب الخرفان السود) جهان شهاه والخاقان التيمورى أبو سعيد) .

يحكم أوزون حسن الآن المنطقة الواقعة بين أفغانستان وقرةمان ، وبين قفقاسيا وسوريا ، وكذلك كانت إيران والعراق وقفقاسيا الجنوبية والأناضول الشرقية تحت حكمه .

وكان أوزون حسن يعلم بالطبع أن الجيش العثمانى السيار ، أقوى من جيش

قرة قويونلو وتيمور . لكن جيشه كان أكثر عددا ، وقد كان يتصور أنه سيتمكن من اخضاع فاتح ، كما تمكن تيمور من اخضاع يلدرم . لكن الحال كان مختلفا فأوزون حسن لم يكن تيمور ، كما أن فاتح لم يكن يلدرم .

عقدت معاهدة ٢ شباط ١٤٦٨ بين البندقية ، البابوية ، ميلانو ، صقلية ، جنوه ، فلورنسا ، مودينا ، سيئينا ، فرارا ، بيسا ، مانتوفا ، ترينتو ، لوكا ، وأدخلت جميع الدول الايطالية ضمن الاتفاق . أما المجر فقد جمعت حولها ألمانيا ، بولونيا ، كاستيليا (اسبانيا) ، آراغون ، فرانسا ، برغونيا ، قبرص ، رودس وكرجستان . لقد تجاوز عدد دول الاتفاق ضد العثمانية لفترة من الزمن الـ ٢٥ دولة .

تمركز اسطول صليبي في لارنقة ، من بين سفنه ٥٨ سفينة حربية بندقية ، وأخذ يقصف قلاع تركية في البحر الأبيض ، ولكنه لم يتمكن من تحقيق شيء يذكر ، كذلك لم يتمكن من تمرير الأسلحة النارية التي وعد بها أوزون حسن .

تحرك أوزون حسن مع ٣٠٠٠٠٠ من خيالته من خربوت إلى ارزنجان تاركا وراءه ١٠٠٠٠٠ من خيالته .

غادر فاتح استنابول (١١ / ٤ / ١٤٧٣) وجاء إلى سيواس بجيش يتكون من ١٩٠٠٠٠ جندى على شكل ٥ فيالق بتنظيم لايصدقه العقل بالنسبة لذلك الزمن . اضطر إلى ترك قوات كبيرة فى روملى ، وكان مطمئنا إلى أنه سوف يعوض فرق العدد بين جيشه وجيش أوزون حسن بأسلحته النارية . ولم يكن يغيب عن فاتح شجاعة خيالة أوزون حسن التركمان .

أخذ الجيشان يبحث أحدهما عن الآخر ثم التقيا فى أوطلوكبلى Dtlukbeli .

تقع أوطلوكبلى ، فى المنطقة التى ينبع منها نهر جورروه Goruh وعلى الساحل الشرقى منه ، وبالقرب من جنوب النهر يصب أحد الروافد الصغيرة لنهر قره صو ، وتعلو جبال بولور Pulur فى الشمال الشرقى ، وفى الجنوب جبال كشيش . جنوب شرقى قصبة كلكيت ، وجنوبى غربى بايبورت ، وعلى مسافة ٤٠ كم من شمالى شرقى ارزنجان . وحاليا ، فى أقصى جنوب كموشخانة وتقع على بعد كيلو متر واحد شرقيها .

إن الرسائل التى أرسلها السلطان أوزون حسن فى غضون الأيام التى سبقت اللحظة الجهنمية إلى حلفائه الثلاثة ملك البندقية ، وامبراطور ألمانيا فردريك الثالث وملك المجر Matthias Corvinus تدعو إلى الاهتمام .

كتب أوزون حسن فى هذه الرسائل أن العثمانية بادرت بالهجوم عليه ، وأن جيشها كبير لكن جيشه أكبر منه ، وأن هجومها هو لطف من الله ، حيث إنه لايمكن الاستيلاء على الأناضول ما لم يتحقق افناء الجيش العثمانى ، وعكس ذلك ، فإن العثمانية سوف تتحين الفرص للانقضاض عليه واستعادة أراضيها ، وإن إبادة الجيش العثمانى خلال عدة أيام أمر مؤكد وأنه لايستطيع أن يتكهن بما إذا كان سيمكن أسر البادشاه أم لا ، كما تضمنت رسائله ان العثمانية ذات تسعة أرواح ، فقد استطاعت استعادة حيويتها حتى بعد ابادة جيشها ولم تنهز (يشير بذلك إلى واقعة انقرة التى جرت قبل ٧١ سنة) ، لذا يجب على الحلفاء الأوربيين عدم التأخر فى احتلال أراضى العثمانية فى روملى فور إبادة الجيش العثمانى ، ولو أنه لايمكن بهذا القضاء على العثمانية بشكل تام ، لكنها على الأقل ستصبح بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية وتسقط إلى درك إمارة اعتيادية ، عديمة الشأن والمنزلة ، وسوف لاتتمكن دولة بنى عثمان العاهرة من تهديد أحد !

كانت البندقية عازمة على تكرار ماقامت به تجاه الامبراطورية البيزنطية فى ١٢٠٤ ، حيث كانت قد أعطت أمر اجتياز مضيق جناقلعة واحتلال استانبول فور علمها بخبر ابادة الجيش العثمانى السيار . ستؤسس فيها امبراطورية رومانية شرقية العوبة . لابد أن تنتهى الحرب بكل سرعة .

أبلغت المجر وألمانيا ، البنادقة بفشلهما فى مجابهة الصاعقة وأنهما سوف لم يتمكنا من ذلك ، بالاضافة إلي ذلك فإن رسائل أوزون حسن كانت تفيد عدم إمكان محو العثمانية من سطح الأرض والقضاء على دولتها .

يبدو أن تصور البنادقة كان يقوم على إمكان اختراق الأسطول التركى واحتلال إستانبول ، ولكن أيا من الأمرين يتعذر تحقيقه ، فالأسطول التركى يفوق الأسطول البندقى ، واستانبول يحميها جيش غير قليل ، ومن الناحية الأخرى فإنه إذا كان من المنتظر أن يسير جيش الحلفاء من الشمال فإن ذلك تكتنفه صعوبتان كبيرتان هما : قوة قلاع روملى ، وشدة مراس الصاعقة المغاوير .

كانت سياسية فاتح الخارجية بقدر ماهي جريئة وحافلة بالمفاجآت فانها تتسم بالحذر والدقة والواقعية ، وتتجه نحو الغاية ، كما كانت فى نفس الوقت مجهولة وخافية على الأطراف الأخرى .

أما سياسة أوزون حسن ، فكانت تقوم على التظاهر والغرور .

لم يكن فاتح يعلن شيئا عن قوته وقدرته وإنما كان يحقق ذلك فعليا فى ساحات الحرب .

كان أوزون حسن مستمرا فى الفخر بنفسه ، وقوته ، وقدرته ، وكيف أنه تمكن من هزيمة خاقانين فى حربين ميدانيتين وقتلهما . لقد استطاع السلطان – زاده (سليل العائلة المالكة ، هزيمة ابن عمة فاتح بير أحمد بك – وهو من بنى قرةمان – من جهة الأم)) ، اللاجىء فى سراى تبريز ، والعليم بالتشكيلات العسكرية العثمانية – أن يؤثر على أوزون حسن باطرائه له وامتداحه المستمر لانتصاراته على أصحاب الخرفان السود والتيموريين ، ونجح بذلك فى تهوين القدرة العسكرية العثمانية فى نظر أوزون حسن ، أما بالنسبة لفاتح فانه ماكان ليسمح لأحد أبدا بامتداحه فى وجهه ، فيما عدا الشعراء بطبيعة الحال .

كان هذا هو وضع كل من عثمان أوغلو (بنى عثمان) السلطان محمد البالغ عمره ٤١ سنة وآقويونلو السلطان أوزون حسن البالغ عمره ٥٠ سنة ، كانا يعتقدان أن لهما حقا متساويا فى خاقانية الترك الكبرى ؛ لأن كليهما ينحدران من أوغزخان ، أحدهما من سلالة قايى خان والآخر من سلالة بايندرخان . كان أوزون حسن ، يعتبر العثمانية « جتاق » أى كثيرة الاختلاط بالأجانب ، متفرنجة ، الأمر الذى جعلها مختلطة الثقافة ضعيفة التدين ، لكنه لم يكن يفكر فى الكفاح المرير وكمية الشهداء الذين ضحت بهم فى مواجهتها لأوربا كلها ، حتى وصلت إلى هذه المرحلة .

٤) حرب أوطلوق بلى الميدانية (١١ آب ١٤٧٣) :

كان فاتح قد أعد خطة احتياطية فى حالة دخول المماليك فى الاتفاق ضده ، وذلك بأن يجعل كلا من مصر وإيران (كلتاهما اتراك) خارج الصف ، كلا على

حده ، غير أنه لم تعد هناك حاجة إلى ذلك حيث لم يشترك المماليك فى الحرب .

وبدأت الحرب الفعلية مع آقويونلو قبل أوطلوق بلى بمدة طويلة .

اجتاز جيش آقويونلو الحدود ودخل تركية فى ١٤٧٢ . نهب سيواس وتوقات دون أن يتمكن من إسقاط القلاع بالمباغتة واجتاز قيصرى من الخارج واقترب من قونية . كان ينوى طرد الشهزادة (الأمير) العثمانى من قونية وإجلاس قرة مان أوغلو بدلا منه . كان يوسفجه ميرزا أحد أبناء أوزون حسن ، هو القائد العام لجيش آقويونلو . اضطربت استانبول لاحتلال توقات . اجتاز فاتح إلى اسكدار ، رغم مضى موسم الحملات . وبينما هو على وشك التحرك تسلم خبر انتصار الأمير مصطفى .

سار الأمير مصطفى بكلربك (أمير ، والى) قرة مان من قونية مع مربيه كديك أحمد باشا وداود باشا والى الأناضول (مركزه كوتاهيه) . بدأت الحرب الميدانية فى الموقع المسمى قيرايلى Kireli الواقع على مقربة من شرق بحيرة بكشهرى ، أبيد جيش آقويونلو (١٤٧٢/٨/١٨) .

أسر القائد العام يوسفجه ميرزا ، وأخواه الاثنان و (٢) ميرزا من بنى تيمور ، وتمكن كل من أبناء عمات فاتح ، قرة مان أوغلوبير أحمد بك وقاسم بك اللذين كانا فى جيش آقويونلو ، من الهرب . كان الأسطول الصليبى أثناء ذلك قد قصب ميناء أزمير ، لكنه انسحب عندما علم بهزيمة آقويونلو .

سار فاتح من استانبول (١٤٧٣/٤/١١) قبل مضى (٨) أشهر من هذا الحادث . بدأت طليعة الجيش الهمايونى (الفرقة المؤلفة من ١٢٠٠٠ شخص بقيادة خاص مراد باشا) بالهجوم على آقويونلو ، ولكنها انهزمت ، واستشهد الباشا .

دخل فاتح بعد أسبوع إلى صحراء أوطلوق بلى ، حيث كان أوزون حسن ينتظر فيها مع ٣٠٠٠٠٠ من خيالته (١٤٧٣/٨/١١) .

كان الجيش الهمايونى يتألف من (١٩٠٠٠٠) جندى ومقسما إلى (٥) فيالق .

كان البادشاه على رأس الفيلق المركزى فى القلب (رئيس أركانه الوزير الأعظم محمود باشا) وكان على رأس فيلق الجناح الأيمن « أولو شهزادة » ولى العهد « بايزيد الثانى »(رئيس أركانه كذلك أحمد باشا) ، وعلى رأس فيلق الجناح الأيسر شهزاده مصطفى (رئيس أركانه داود باشا) ، احتفظ فاتح بالفيلقين الباقيين للاحتياط (بقى الابن الأصغر للبادشاه الشهزاده جم فى إستانبول كمحافظ للعرش - نائب للسلطنة) .

كان أوزون حسن وهو عسكرى مجرب قد سمع بقدرة الجيش العثمانى ، لكنه لم يكن قد شهد بعينيه الجيش العثمانى السيار . ومما يروى عنه أنه عندما شاهد الجيش عند دخوله صحراء أوطلوق بلى ، ونشره البيارق، وعزف الموسيقى العسكرية (مهتر) ونوعية قماش البدلات العسكرية للجنود ، وتجهيزاته الثقيلة قال : « ويحك يابنى عثمان العاهرة ، أى بحر هذا الذى جهزه ؟ ! » .

لم يكن أوزون حسن قد شهد طيلة حياته حربا تجرى « بالمدافع والبنادق » (نشرى ، ٢٢٨ ب) .

شاهد وهو فى حالة من التأثر الشديد كتائب الخيالة التى تتساقط الواحدة تلو الأخرى بنيران المدفعية العثمانية والمشاة حملة البنادق الثقيلة ، ولم يتمكن من السيطرة على وحداته التى كانت قد تبعثرت بفعل الأسلحة النارية على الرغم من شجاعتهم وشجاعة خيولهم .

قطع فاتح، الذى أعطى أمر غلق الملقط للفيلقين فى الجناحين، بفيلقيه الاحتياطيين طريق الفرار على جماعة آقويونلو الذين حاولوا التخلص من رأس الملقط .

حمل الأمير مصطفى مع فيلقه على جناح آقويونلو الأيسر ، وأباده مع قائد الجناح زينل ميرزا بن أوزون حسن ، وأسر (٣) أمراء إمبراطوريين من بنى تيمور . وفى الساعة الثامنة والأخيرة للحرب ، سار أولو شهزاده بايزيد إلى سرادق أوزون حسن . هرب البادشاه حسن الذى عجز عن المقاومة ، وامتطى جواده العربى المشهور فى زمانه تاركا سرادقه .

من المشهور عنه أنه قال وهو يترك ساحة القتال ، مخاطبا سليل السلطنة (سلطانزاده) قرة مان أوغلوبير أحمد بك : « ياقرة مان أوغلو ، خرّب الله

سلالتك ، سببت عارى وخزيى . مالى وبنى عثمان ! » .

لم يأمر فاتح بمطاردة أوزون حسن وفلول آقويونلو .

مكث (٣) أيام فى صحراء أوطلوق بلى . وبمناسبة خلاص الدولة من أكبر الأخطار التى مرت عليها منذ تيمور ، اشترى بدراهمه الخاصة الأسرى البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ وخلى سبيلهم (من المعلوم أن عتق الأسرى من أفضل القربات إلى الله فى الدين الإسلامى) .

دخلت الوحدات العثمانية شبين قرة حصار فى ٢٤ آب .

بعد هذا الحادث لم تبق أمام الدولة العثمانية مشكلة تسمى مشكلة آقويونلو . عقد أوزون حسن فورا صلحا مع العثمانية رغم إصرار الكثيرين ورجاء الدول الأوربية .

اعترف أوزون حسن فى الصلح بإلحاق طرابزون وقرة مان ، وجمع أولاده وأوصاهم بعدم الهجوم أبدا على العثمانية . اتخذ بنو آقويونلو بعد ذلك فى الشرق ، وضع الحليف بالنسبة للدولة العثمانية . تزوج أوغورلو محمد ميرزا بن أوزون حسن بابنة فاتح الوحيدة جوهر خان سلطان ، وأصبح باشا وفريق أول فى الدولة العثمانية . وتزوج كوده أحمد بك الذى ولد من هذه الزيجة بإحدى بنات خاله بايزيد ثم صار سلطانا على آقويونلو .

توفى فى (١٤٧٤/١٢/٢٥) الشهزادة مصطفى الذى عاد من حملة آقويونلو فى بور قرب نيغده قبل وصوله إلى قونية وعمره (٢٣) سنة . كان عالما شاعرا وقائدا عظيما . نقل جثمانه إلى بورصة ودفن فيها . خلف ابنتين . بعد انتصاره فى الحرب الميدانية قيرِلى Kireli بـ ٥٠٠٠٠ جندى على ٦٠٠٠٠ جندى مع آقويونلو من الخدمات الكبيرة (كان فيلقه من جنود الأناضول ، وفيلق الأمير بايزيد ذو الـ ٤٠ كتيبة ، من جنود روملى) .

استمرت الحرب الكبرى بعد ذلك مدة خمس سنوات ونصف ، وإن كان الحلفاء قد خسروا الحرب ــ من الناحية العملية ــ فى أوطلوق بلى فى (١٤٧٣) . كان فاتح قد حصل على النتيجة الاستراتيجية لحرب أوربية كبيرة جدا ، فى آناضول الشرقية .

المرحلة الأخيرة للحرب الكبرى (١٤٧٣ - ١٤٧٩)

بدأت الحملات على البندقية والمجر وألمانيا تزداد كثافة بمرور الأيام ، حيث قد أصبحت تركية حرة في الشرق . وعلى سبيل المثال ، اجتاز ميهال أوغلو غازى علاء الدين على باشا (١٤٥٣ - ١٥٠٧) أحد أمراء الصاعقة ، ألطونة (٣٣٠) مرة نحو الشمال بغرض الغارة . أسر إحدى بنات ملك المجر Matthias Corvinus ، مهتاب خانم وتزوجها ، أنجب منها (٥) أبناء صاروا أمراء صاعقة مشهورين . ولم يكن أخوه الوزير غازى إسكندر باشا (١٤٤٠ - ١٥٠٦) بأقل منه شهرة . وفى حملة المجر التى احتل فيها على باشا فارادين فى (١٤٧٣) ، جلب (١٨٠٠٠) من أفراد الصاعقة إلى تركيا ٦٠,٠٠٠ أسير و ٩٠٠,٠٠٠ رأس من الماشية . وتبين هذه الأرقام مقدار الضرر الذى طرأ على القوة الاقتصادية للعدو ، وبالتالى على قوته الحربية . وحملة غاليجيا وبودوليا التى جرت فى خريف عام (١٤٧٤) لاخضاع ملكية بودوليا هى من الحملات الكبرى كذلك .

استمرت الحملات على البندقية متصاعدة على مر الزمن نحو الشمال - الغربى .

إن أفراد الصاعقة الذين اجتازوا فى (١٤٤٧) نهرى Isonso و Tagliamento ، خربوا المنطقة حتى نهر Piave . اشترك فى الحملات التى جرت على البندقية فى (١٤٧٨) ٣٠,٠٠٠ شخص . كان القادة إسكند باشا وأخوه على باشا مع مالقوج أوغلو بالى بك . خربت الحملات سهل البندقية ، واحتلت Friul وأفراد الصاعقة . دخل داود باشا أوستريا فى (١٤٧٩) ، وفى (١٤٧٦) ثم احتلال « زغرب » مركز خرزاتيا و Kalgemfurt مركز Karintiya (أوستريا) ، وجاء طره خان أوغلو عمر بك أمام مدينة البندقية مجتازا نهر Piave (١٤٧٧/١١/٢) ، وشتت الجيش الذى حاول الدفاع عن البندقية ، وأسر قائدهم ، وشاهد الشعب البندقى أفراد الصاعقة أثناء تجوالهم فى بحيرة البندقية .

لقد أنهت وفاة أوزون حسن فى (١٤٧٨) تحريض البندقية اليائس لآقويونلو . وافقت البندقية على شروط تركية الصعبة فى معاهدة استانبول وانسحبت من الحرب (١٤٧٩/١/٢٥) . أجبر السلطان محمد الفاتح الذى يطلق عليه Franz

Babinger لقب « غالب الكون » البندقية على دفع غرامات الحرب والخراج السنوى . ولم تبق إلا المجر . وفى (١٤٧٩) ، دخل (٤٣٠٠٠) من المغاوير ، المجر لاخضاعها . اشترك فى هذه الحملة (١٢) من المغاوير برتبة لواء (سنجق بك صاعقة) بقيادة القائد العام ، علاء الدين على باشا . وفى حملة (١٤٨٠) ، توغل فى النمسا إلى Graz .

قام فاتح فى نهاية سنوات الحرب الكبرى بـ (٣) حملات همايونية . حملته الهمايونية الـ ٢٣(ربيع وصيف ١٤٧٦) ، هى حملة بغدان (مولدافيا) ، وفى هذه الحملة أعيدت هذه الإمارة الرومانية التى خرجت على سيادة تركية فى الحرب الكبرى وأخذت مكانها فى الاتفاق المضاد.

والحملة الهمايونية (٢٤) (نهاية ١٤٧٦) ، كانت على المجر، وهى الحملة التى نظمت للرد على محاصرة ملك المجر Matthias Corvinus سمندره دون جدوى . أسفرت هذه الحملة عن عودة فاتح بسبب فوات موسم الحرب ، وكذلك بسبب عدم سقوط سمندره .

والحملة الهمايونية (٢٥) (١٤٧٨) كانت حملة ألبانيا ٣ والبندقية .

إحدى أمانى فاتح كانت خلع البنادقة من قواعدهم فى البلقان . كان والى روملى الفريق الأول سليمان باشا قد حاصر فى شمال ألبانيا قلعة البنادقة الشهيرة أشكودرا فى (١٤٧٤) مدة ٣/٥ أشهر ، ولكنه لم يتمكن من إسقاطها . وكذلك كان قد حاصر فى (١٤٧٧) Lepanto (بالتركية : اينه بختى) المواجهة لـ Patras فى اليونان و لم يتمكن من إسقاطها ، فتم عزله .

فتح ميهال أوغلو على بك Kroya (بالتركية آقجه حصار) بعد حصار دام (١٣) شهراً (١٤٧٨/٦/١٦) . كانت آقجه حصار مركزاً لـ « إسكندربك » ، وعند وفاته انتقلت إلى حوزة البنادقة . استولى فاتح فى البداية على Alesso (بالتركية : لش) ، التى كانت قلعة للبنادقة بين آقجه حصار واشكودرا . حاصر اشكودرا بشدة . سلمت المدينة إلى تركيا (١٨٧٩/١/٢٦) استعمل فاتح فى حصار اشكودرا ، بالونات لا تحترق وصواريخ حريق و (١١) مدفعا ضخما جداً ، وصواريخ طيارة تتفجر فى المكان الذى تمسه .

حملة اشكودرا فى (١٤٧٨) هى الحملة الخامسة والعشرين لفاتح وهى آخر حملاته ؛ ذلك أن حملته الـ (٢٦) لم تكتمل بسبب وفاته .

(٦) إلحاق إمارة (خانلق) قرم (١٤٧٥/٦/١)

إن إمارة قرم هى أهم الدول التى ظهرت على أثر تجزئة خاقانية ألطون أوردى (أوربا الشرقية) التركية . لعبت قرم أهم دور سياسى بين هذه الدول التى انحدرت من السلالات الملكية ، التى تأتى على رأسها سلالة جوجى أولوسو Cuei Ulusu،أى من نسل كبير أولاد جنكيز الـ (٤) جوجى خان . كانت هذه الدولة التى تأسست فى شبه جزيرة القرم تشمل بشكل واسع أوكراينا الحالية وتمتد نحو قفقاسيا الشمالية ونحو روسيا . كانت توجد على سواحل قرم عدة قلاع - مرافىء جنوية . كانت تجارة البحر الأسود حتى فتح إستانبول تقريبا تحت سيطرة جمهورية جنوة(بالإيطالية : Genova) . أصبحت الجمهورية فى وضع حرج للغاية عند غلق فاتح المضايق وأخذه منطقة غلطه فى استانبول من حوزة الجنوبيين . امحت جمهورية جنوة من عداد الدول العظمى ، واضطرت إلى دفع أجور المرور إلى العثمانية عند مرورها من المضايق لنقل البضائع بين أوربا ومستعمراتها فى (قرم) . كان فاتح يخلق المصاعب للجنويين بسبب عدم استحسانه علاقة دولة أوربية بالبحر الاسود . كان فاتح قد أرسل أسطولا إلى (قرم) فى تموز (١٤٥٤) ، بعد فتح استانبول بعده أشهر . وأجبر « كفه » الميناء الجنوى الرئيس فى قرم على دفع خراج سنوى .

كانت قرم التى تبلغ مساحتها (٢٦٠٠٠) كم٢ تستند بدرجة كبيرة فى وجودها على مستعمراتها الواسعة فى الشمال ، وكان أكبر أعدائها الإمارة الكبرى لروسيا فى الشمال وملكية ـــ دوقية كبرى ـــ بولونيا فى الشمال ـــ الغربى . كانت دولة ألطون أوردى التى مركزها مدينة سراى على نهر الفولغا ، مازالت مستمرة فى ذلك التاريخ . لكنها كانت قد سقطت إلى درك إمارة (خانلق) محلية . كان فى إمكان قرم (التى تمتد على أراض تبلغ مساحتها نحو مليون كم ٢ وأحيانا ترتفع إلى مليونى كم ٢ أن تجهز إذا اقتضت الضرورة (٢٠٠,٠٠٠) جندى خيال . كان هؤلاء الجنود يحاربون على النمط الجنكيزى ، وكانوا مخيفين رغم أنهم لم يجددوا من أساليبهم التى

كانوا عليها فى القرون الوسطى . كانت « باغجه سراى » مدينة خان قرم تبعد عن موسكو (مسافة مستقيمة) (١٢٦٠) كم ، وعن وارسو (١٢٨٠) كم ، عن فيينا (١٢٧٠) كم ، لكنها تبعد عن استانبول (٦٠٠) كم وعن سينوب (٣٣٠) كم .

كانت سياسة فاتح فى جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية سياسة معلومة . كان قد أرسل منذ صيف (١٤٥١) وفور اعتلائه العرش ، مشير البحر (قبودان دريا) بلطه أوغلو سليمان بك مع (٥٠) سفينة حربية إلى سواحل البحر الاسود . أحتل سليمان بك باطوم فى الجنوب ، وأدخل الحكم العثمانى على الآجار (أتراك قبجاق الذين أصبحوا كرج) وكذلك أحتل « سوخوم قلعة » فى الشمال ، وأدخل الحكم العثمانى على الابهازه (الابازه عبدة الأصنام) . وبناء على ذلك ، تكون جميع سواحل كرجستان قد انتقلت إلى حوزة تركيا منذ (١٤٥١) وكانت إمبراطورية طرابزون الرومية أيضا قد حوصرت من شرقها . أما سواحل البحر الأسود الشمالية،التى تبدأ من سوجى نحو الشمال الغربى ، فقد كانت تحت رقابة امارة قرم . كانت الاقوام الصغيرة التى تسكن فى هذه المناطق وفى قفقاسيا الشمالية فى ذلك التاريخ ، من عبدة الأصنام ، وقسم قليل منهم صار مسيحيا أرثوذكسيا . (سيسلمون كلهم فى العهد العثمانى) .

انتقلت آجارستان وباطوم إلى الحكم العثمانى بشكل حاسم فى (١٤٧٩) . أسلم الآجاريون . لكنهم ، رغم كونهم أتراكا ، حافظوا على الديانة الكرجية ولو إسميا إلى يومنا هذا . وفى صيف عام (١٤٦٩) ، شوهد المشير البحرى يعقوب بك فى قرم ، وقام بانزال جيش فيها ، وقد كانت هذه الحركة ضد الجنويين . أما بنى جنكيز فى قرم ، فعدا أنهم تنازعوا فيما بينهم على الإمارة ، كانوا لايفتئون يحاربون الإمارات التركية الأخرى،وكان ذلك يحقق مصلحة للروس .

كان المبدأ الذى يتمسك به فاتح ولايقبل تغييره ، هو عدم رفع أى علم عدا العلم العثمانى فى البحر الأسود ، لقد قطع فاتح على الجنويين طريق كفه – إيطاليا ، وكان الجنويون فى كفه ، يستعملون طريق قرم – المجر – ألمانيا – إيطاليا المتعب جدا ويسددون من أجل ذلك ضريبة إلى خان قرم .

سار مشير البحر كديك أحمد باشا من استانبول (١٤٧٥/٥/١٩) بأسطول لم يشهد البحر الأسود طوال تاريخه مثيلا لعظمته (١٨٣ سفينة حربية + ٢٩٠ سفينة

نقل = ٤٧٣ قطعة) ، ورسا فى ميناء كفه فى قرم (١٤٧٥/٦/١) . استسلمت كفه (٥ حزيران) ، ثم مرافىء الجنويين الأخرى وهى سوغداق (Sudak) ومنكب Menqüp . كانت منكب الواقعة فى أقصى جنوب قرم ، وعلى مقربة من غرب يالطه ، لدى الكومنان Comnéne . وهكذا قضى على البقية الأخيرة من بقايا البيزنط . ثم انتقل الأسطول الهمايونى من بوغاز كرج إلى بحر آزوف (آزاك).. واحتل ميناء Tana (بالتركية : آزاك) النهرى الواقع على الضفة الشمالية الشرقية من بحر آزوف على دلتا نهر الدون (بالتركية : تن وحاليا ضاحية روستوف) . شيدت فى آزاك قلعة عثمانية وتشكيلات لواء . وأسست فى كفه المدينة الكبيرة البالغ تعدادها (٧٠ . . .) نسمة ، وأيضا تشكيلات لواء عثمانى .

وافق خان قرم على الخضوع للعثمانية . ونصت المعاهدة التى وقعها خان قرم مع فاتح ، والتى سوف تشكل نظام قرم لمدة (٣٠٠) سنة ، على أن يتعهد البادشاه بالاحتفاظ بإمارة قرم فى نسل جنكيز خان ، فالبادشاه حر فى تعيين أى شخص خانا (أميرا) على قرم شريطة أن يكون من نسل جنكيز ، ويسمح البادشاه فى مقابل ذلك بذكر اسم الخان فى مساجد قرم بعد اسم الخليفة العباسى واسم البادشاه ، كما يسمح بطبع اسم الخان بعد اسم السلطان على قطع النقود التى يسكها الخان (ماده ١ ، ٤) .

تم تأسيس لواء فى كفه (أصبح إيالة فيما بعد) يديره العثمانيون مركزيا ولاعلاقة له بإمارة قرم .

كان البادشاه يعتبر كافة الضفاف الشرقية لقرم التى استولى عليها من الجنويين ، هدية له من خان قرم ، ويتضح من ذلك أنه يراد أن تبقى الإمارة تحت الرقابة العسكرية العثمانية . كانت هذه الاراضى تشمل الضفاف الجنوبية - الشرقية لشبه الجزيرة ، المناطق المحيطة ببوغاز كرج ، شبه جزيرة تامان ، الموانىء الواقعة على مصر نهر دنيبر (بالتركية : أوزو) ، وكذلك أوزجاكوف (بالتركية : أوزو) ، مصب نهر الدون وخليج تاغانروغ وآزاك (روستوف) .

وتضمنت المعاهدة كذلك تعهد قرم بتزويد الجيش العثمانى بالعدد الذى تطلبه الحكومة العثمانية من الجند وفى الوقت الذى تعينه ، ومن ناحية أخرى ، توافق كذلك

على تنفيذ المهام التى يكلف بها الجيش القرمى منفردا ، وأن ترسل حصة البادشاه من الغنائم .

زوج خان قرم (١٤٦٧ ــ ١٥١٤) منكلى (باللهجة العثمانية : بنلى) كيراى خان (الأول) ، ابنتيه بأميرى العثمانية الأمير (شهزادة) ياوزسليم ، والأمير محمد حفيدى فاتح وابنى أولو شهزاده (ولى العهد) بايزيد (الثانى) الرابع والسابع .

شاهد منكلى كيراى الأول سلطنة صهره السلطان سليم ، أما صهره الصغير الأمير محمد ، فقد تولى لواء كفه حتى وفاته (ك١/١٥٠٤) ، وعند وفاة الأمير محمد ، ذهب الأمير سليمان (القانونى) ابن صهره الكبير السلطان ياوزسليم ، إلى كفه لتسلم ولايتها .

وهكذا اكتسب الحكم العثمانى صفته القطعية فى البحر الأسود ، ودخل البحر تحت الحكم العثمانى ، وامتدت حدود الدولة العثمانية دفعة واحدة إلى خط عرض (٥٥) درجة جنوب موسكو . وفى غضون ذلك ، فتحت جزيرة (سيسام) فى شرق (إيجه) ودخلت ساقز تحت الحماية العثمانية (١٤٧٥) . وفى (١٤٧٩) ، تم فتح مصب نهر كوبان حيث شيدت فيه قلعة آنابا ، وهى منفذ بلاد الشركس إلى البحر .

كان فاتح متأثرا من وجود كافة المدن والمقدسات الإسلامية لدى المماليك ، فى الوقت الذى تعتبر العثمانية أقوى دولة إسلامية .

بدأت القاهرة تتنبه عندما ادعى فاتح الذى يرسل الدراهم سنويا إلى مكة والمدينة كأجداده ، بعض الحقوق فى هاتين المدينتين .

أدرك أولا سلطان خوشقدم نية فاتح ، لكن الذى أدرك مجيء الخطر من العثمانية بصورة مؤكدة ، هو الحاكم الكبير السلطان قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٥) . وفى ١٤٧٧ جاء بنفسه إلى الأناضول وفتش قلاع المماليك فى أورفه وعنتب .

وخلال تلك الأيام حاول فاتح احتلال رودس للمرة (٣) (١٤٨٠) . كانت هذه الجزيرة قد انضمت فى عهد معاوية إلى الخلافة الإسلامية مدة (٨) سنوات (٦٧٢ - ٦٨٠) ثم استرجعها البيزنط. وعندما طرد المماليك أتباع طريقة

Saint - Jean Hospitalier اللاتينية الكاثوليكية العسكرية من عكا فى (١٢٩١ (هام أتباع هذه الطريقة حتى عام (١٣٠١) فى شرق البحر الأبيض على غير هدى ، وفى تمام (١٣٠١) أسكنهم ملك قبرص ميناء ليماسول ، وفى (١٥ آب ١٣٠٨) ، احتلوا رودس من البيزنطيين واستوطنوا فيها ، ثم فتحوا جزر الاثنى عشر وجزر نيكاريا ، كارباتوس ، وكاشوت ، وجزيرة مئيس الصغيرة ، وميناء بودرم فى الاناضول ، وحتى إخراجهم منها على يد تيمور فى (١٤٠٢) ، كانوا قد فتحوا قلعة ميناء أزمير الكائنة فى قطاع أزمير المسمى « كاوور أزمير » .

قام المماليك بـ (٣) حملات (١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦) على قبرص و(٣) حملات (١٤٤٠ ، بواسطة ٨٠ سفينة ٤٢ ـــ ١٤٤٣ ،٤٤ ـــ ١٤٤٥) على رودس ، وأجبروا قبرص على دفع ضريبة سنوية ، أما رودس فعلى الرغم من تخريبهم إياها إلا أنهم لم يتمكنوا من إسقاطها .

أرسل فاتح إلى رودس بعد الحملة المملوكية بـ (١٠) سنوات المسير البحرى حمزة بك (١٤٥٥) ، كرر فاتح عملية فتح رودس فى (١٤٦٧) ، ولم تنجح أى من الحملتين .

تم تعزيز « رودس » بشكل واسع تجاه الخطر التركى بمساعدات ضخمة من جميع الدول الأوربية . كانت حملة رودس (٣) التى قادها مسيح باشا ، أقوى من الحملتين السابقتين بمراحل ، فقد تلقى الباشا أمرا مؤكدا من فاتح باحتلال الجزيرة ، ذلك أن فاتح الذى كان يستعد لفتح إيطاليا ، لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه بؤرة تولد خطرا عليه فى المستقبل . كان الأمل الوحيد لأصحاب الطريقة العسكرية الذين يحكمون رودس ، هو إشعال حروب مقدسة مع المسلمين ، وقد كانوا يهاجمون سفن المسلمين ويكبدونها خسائر جسيمة .

سار مسيح باشا بـ (١٦٠) قطعة من السفن و٧٠,٠٠٠ جندى من غاليبولى ، ورسا أمام جزيرة رودس (١٤٨٠/٩/٢٣) . وأثناء الحصار ، كان أسطول عثمانى آخر مكون من (١٠٠) قطعة يقوم بإنزال على إيطاليا . وبينما كانت القلعة على وشك السقوط ، وركزت الأعلام التركية على الأسوار ، أبلغ الباشا القائد أمره بمنعه كافة أنواع النهب والأسر وأخذ الغنائم والحرق ، وأن كل الغنائم ستئول للخزينة .

لقد كان مثل هذا الأمر مخالفا للقواعد المتعارف عليها وغير مرضٍ للعسكريين ، إذ إن استحواز الخزينة على الغنائم لايكون إلا فى حالة استسلام الموقع من تلقاء نفسه ، فهذه هى القاعدة المتعارف عليها دوليا .

وإزاء إعلان هذا الأمر لم يتحرك الجند من أماكنهم و لم يدخلوا القلعة ، وخرج الرودسيون الذين شاهدوا ذلك وكبدوا الأتراك خسائر ليست قليلة .

تكبد الاتراك (٩٠٠٠) شهيد (استشهد ٣٥٠٠ منهم خلال الهجوم الأخير) و(١٥٠٠٠) جريحا خلال الحرب التى دامت (٢ شهر ، ١٢ يوما) . و لم يتمكن مسيح باشا من تنفيذ حصار بحرى تام ، واستمر إرسال الإمدادات للعدو . رفع الحصار .

سوف يتدارك السلطان سليمان هذه الأخطاء بعد (٢٤) سنة ، إلا أن ذلك على كل حال تسبب فى تأخير فتح (رودس) (٤٢) سنة ، كما تسبب فى هدر دماء العديد من المسلمين خلال هذه المدة . وبعد أن وبخ فاتح مسيح باشا ، وضربه ، أنزل رتبته من وزير (مارشال) إلى لواء (سنجق بك) .

٧ ــ فاتح وإيطاليا :

فتح كديك أحمد باشا جزر أيونيا (اليونان) الواقعة خارج كورفو ، من دوقات سلالة Tocco الإيطالية .. وهذه الجزر هى Kefalonya (٦٠١ كم٢) ، Zanta (ZaKynthos) (٤٠٨ كم٢) ، Santa Maura (Leukas , Levkas , Aya Mavri) (٣٠٠ كم٢) . وهى مصفوفة على بحر أيونيا (اليونان) على سواحل اليونان .

كانت هذه مقدمة لحركة فتح إيطاليا .

كان من بين أهداف فاتح ، أن يكون إمبراطورا على روما موحدة . ومنذ (١٤٥٣) ، كان يطلق عليه لقب قيصر روم، أى (إمبراطور روما الشرقية = البيزنط) ، ولكى يكون إمبراطورا على روما ، ويوحد تاجى الامبراطوريتين الموجودتين فى أوربا ، كان يجب عليه فتح إيطاليا وروما .

كانت الدولة الكبرى الكائنة فى شمال شرق إيطاليا هى البندقية ، وكانت بين

البندقية وإيطاليا مصالحة ، ويمكن صرف النظر عنها . إذ أنها كانت خارج خطة فتوحات فاتح .

وكانت الدولة الكبيرة فى جنوب إيطاليا هي ملكية نابولى التى تضم صقلية التى كانت تحت نفوذ أسبانيا (Aragon)،كانت هذه الملكية هى الهدف .

كان منتصف شبه الجزيرة ، تابعا للبابا ، ومن ناحية أخرى ، كان فى شبه الجزيرة دول أصغر ، كدوقية فلورنسا (Toskana) ، ودوقية ميلانو (لمبارديا) ، وكانت كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، ولم تكن أى من هذه الدوقيات على نفس مستوى أهمية جمهورية جنوة .

من الواضح أن فاتح كان يفكر فى إلحاق جنوب إيطاليا ، لتكون له السيادة – بصفته إمبراطورا على روما – على الدول الإيطالية الأخرى . ولقد كانت دول إيطالية عديدة قد تقبلت فاتح بهذه الصفة مقدما .

إن الأنواط التى سكتها هذه الدول باسم فاتح والتى تحمل صورته ، موجودة فى حوزتنا حاليا ، وتستطيع أن تقرأ على هذه الأنواط باللاتينية عبارة Svltani Mohammeth Octhomoni Vgli Bizantii Imperatoris 1481 / Svltanus » وتعنى « سلطان محمد Mohammeth Othomanvs Tvrcorvm Imperator » بنى عثمان إمبراطور الأتراك وروما الشرقية » .

لقد عاشت صقلية فى القرون الوسطى حكما عربيا إسلاميا لامعا . ولقد كان من حق فاتح – بصفته إمبراطور روما – طرد الأسبان من صقلية ونابولى ، فقد كانت هذه الاماكن فى ذلك الحين تابعة للإمبراطورية البيزنطية .

سار الوزير الأعظم السابق والمشير البحرى (قبودان دريا)-الحالى كديك أحمد باشا-بالنصف الآخر من الأسطول الهمايونى إلى إيطاليا ، فى ذات الأيام التى تحرك فيها مسيح باشا إلى رودس . كان الأسطول الهمايونى قد عظم شأنه إلى درجة تمكنه من القيام بحركتين عبر البحار على أوسع نطاق .

تجمع الأسطول الهمايونى الذى يتكون من (٤٠) سفينة حربية كبيرة و(٥٢) صغيرة و(٤٠) سفينة نقل فى البداية فى ميناء Avlonya الواقع على بوغاز Otranto ، وتحرك منها (١٤٨٠/٧/٢٦) .

اجتاز بوغاز أوترانتو (٧٥ كم) ، وقام فى (٢٨) تموز بإنزال ١٨٠٠٠ من المشاة ، و (١٠٠٠)خيال وعدد كبير من المدافع فى إيطاليا . كان موقع الإنزال قرب قلعة أوترانتو لايالة Apulya (بالتركية : بوليا) . كان أسطول البنادقة المكون من (٦٠) قطعة فى قاعدة كورفو . ولم يكن تدخله وارداً بسبب الصلح القائم من البندقيه .

استسلمت قلعة Otranto بعد مقاومة شديدة استمرت (١٤) يوما . مات نحو من (١٢,٠٠٠) من جملة (٢٢٠٠٠) من حامية القلعة . قسم كذلك أحمد باشا جيشه إلى فرقتين وساق إحداهماإلى الشمال - الشرقى إلى برنديزى ، والثانية إلى الشمال - الغربى إلى تارانتو . وجعل أوترانتو ، مركز لواء . كان الأتراك الذين سيطروا على كعب الجزمة (الحذاء الطويل) الإيطالية ، على وشك السيطرة على إيالة Pulya .

بقى آمر لواء أوترانتو خير الدين مصطفى بك فى القلعة مع (٦٥٠٠) من المشاة و(٥٠٠) خيال . لم يجسر ملك نابولى Ferranteعلى الهجوم على الاتراك . بدأ الشعب فى ترك بيوته فى مدينة نابولى وهو فى حالة فزع .

أبلغ أحمد باشا الملك بأن يسلم إيالة بوليا ، وإن لم يتم ذلك ، فإن البادشاه سيأتى فى الربيع إلى إيطاليا ومعه (١٠٠,٠٠٠) من المشاة و(١٨٠٠٠) من الخيالة ومدافع بحجم لم تسبق مشاهدته .

٨ - وفاة الفاتح السلطان محمد خان الثانى (٣ أيار ١٤٨١) وشخصيته

غادر الخاقان سراى طوبقابو يوم (٢٥ نيسان ١٤٨١) . اجتاز البوغاز وجاء إلى إسكدار ، ونصب السرادق الهمايونى فى الموقع الذى سمى بعد ذلك إضافة له « هنكار جايرى » ، أو « سلطان جايرى » (أى مرج السلطان) ، بين مالتبه وكبزه . كان قد شرع فى الاستعدادلحملة كبيرة موجهة على الأغلب إلى إيطاليا . أصابه مغص فجائى ، توفى بعد عدة أيام نهارا حوالى الساعة -/ ١٦ . كان عمره يتجاوز الـ (٤٩ سنة بـ ١ شهر ، ٥ أيام .

مات فاتح نتيجة السم الذى دسه له بصورة تدريجية العميل البندق أحد أطبائه الخاصين المسمى Maestro Lacopo ، الذى ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام وتسمى باسم يعقوب باشا .

تعتبر هذه هى المحاولة (١٥) التى رتبتها البندقية لاغتيال فاتح . مزق الجنود الأتراك فى الحال اليهودى البندق ، ولم يتمكن من تسلُم المكافأة الكبيرة التى وعدته بها البندقية (هذه المكافأة بالسعر الرائج حاليا (١٧) مليون دولار) (Babinger ٣٤٩ ، ٤٩٢ - ٤) . علمت البندقية خبر موت فاتح فى (١٩ أيار ، بعد ١٦) يوماً من الحادث . كانت الرسالة التى جلبها حامل البريد السياسى لسفارة البندقية فى إستانبول تحتوى على هذه الجملة التاريخية La Grand Aquila é Morta = مات النسر الكبير » .

دقت أجراس كافة الكنائس الأوربية،وجرت مراسم الشكر لمدة (٣) أيام مع لياليها بأمر البابا .

جملة سلطنته (٣١ سنة ، ٢١ يوما) (سلطنته (٣) الأخيرة دامت (٣٠) سنة ، ٢ شهر ، ٢٨ يوماً) نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن قرب جامعه . لم يدفن لا فى قبر فاتح ولا فى قبر حفيده ياوز أحد غيرهما ، هما ينفردان فى قبريهما . من المعلوم أنه قد دفن فى قبور كافة السلاطين الآخرين ، أشخاص آخرون من منتسبى السلالة . فاتح ، هو أول سلطان يدفن فى استانبول بينما دفن الذين سبقوه فى بورصة .

ولد له (٣) أبناء وبنت واحدة فقط ، هى كنة السلطان أوزون حسن .

فتوحات فاتح كبيرة ، مهمة وذات مغزى .

إن القواعد المتينة للدولة العثمانية العالمية العظمى ، قد تم إرساؤها فى هذه الفتوحات .

وصلت الدولة فى حزيران (١٤٥٣) ، بعد فتح استانبول إلى العظمة والقوة التى كانت عليها على أيام يلدرم بايزيد فى (١٤٠٢) ، بل إنها اجتازتها .

كانت الإمبراطورية تمتد على أراض مساحتها (٩٦٤٠٠٠) كم٢ (٤٨٠٠٠٠

كم٢ فى الأناضول ، ٤٨٤٠٠٠ كم٢ فى البلقان) . كان هناك توازن تام فى الجناحين (أناضولى وروملى) ، والجناحان مفتوحان بشكل جاهز للطيران . وبالطبع ، كانت الدول المستقلة ذاتيا هى : الامارات التركمانية جاندار (اسفنديار) ، قرة مان ودلقادر ، ملكية بوسنه ، إمارة الصرب ، جمهورية دوبروفنك ، إمارة افلاق الرومانية ، إمارة مورا البيزنطية ، دوقية (Attika) اللاتينية ، دوقية هرسك ، وكانت أهمها قرة مان .

لم تكن لتركية بعد أية جزيرة فى إيجة . كانت موانىء Enez ، آماسرا وبودرم فى الأناضول لاتزال فى حوزة المسيحيين (الأولى فى تراقيا الشرقية) وكذلك كانت ولايات طرابزون وريزه وآرتفين فى حوزة المسيحيين ، وعدا ذلك ، كانت أناضول الشرقية فى حوزة إمبراطوريتى التركمان الإيرانية أولا قرة قويونلو ، ومن ثم آقويونلو، وكان قسم من أناضول الجنوبية لدى سلطنة مصر .

كان الجيش العثمانى هو الجيش الأول على وجه الأرض دون منافس . أما الأسطول العثمانى ، فقد كان الثانى بعد الاسطول البندقى ، كان أقوى بقليل من نصف الأسطول البندقى .

وبعد (٢٨ سنة ، فى ١٤٨١) ، عند وفاة فاتح كانت الخارطة التركية ومكانة تركية فى العالم قد تغيرت من أساسها ؛ اتسعت ووصلت إلى (٢٢١٤٠٠٠ كم٢ ١٧٠٣٠٠٠) كم٢ منها فى أوربا و(٥١١٠٠٠) كم٢ فى آسيا (الاناضولى) . إن قرم وحدها كانت تشمل الأراضى التى تبلغ مساحتها (٩٨٢٠٠٠) كم٢ . وبذلك تكون مساحة الأراضى الأوروبية قد زادت كثيرا على مساحة الأراضى الآسيوية . وقد أصبحت تركية – عدا كونها فى البلقان – قوة كبيرة فى شمال البحر الأسود وأوربا الشرقية .

كانت تركيا ، عدا قرم ، بالنسبة لأراضيها فى البلقان فقط هى الأولى بين الدول الأوربية من حيث التعداد ، ومن حيث المساحة أيضا .

إن الدول التابعة التى كانت تحت الحماية فى (١٤٥٣) ، وزال استقلالها الذاتى وألحقت بالإدارة العثمانية المباشرة هى : ملكية قرة مان ، إمارة اسفنديار ، ملكية بوسنه ، دوقيه هرسك ، إمارة الصرب ، إمارة مورا البيزنطية ، دوقية أثينا . كان

الاستقلال الذاتى لامارة افلاق (رومانيا) ، جمهورية دوبروفنك الصغيرة وإمارة دلقادر مستمرا . وقد أضيفت دول تابعة جديدة هى إمارة بغدان (مولدافيا) ، إمارة (خانلق) قرم ودوقية خرواتيا . وبقبول بغدان الحماية العثمانية فى (١٤٥٥/١٠/٥) ، أصبحت الامارتان الرومانيتان تحت حماية الدولة ذاتها .

كانت إمارة قرم تشمل قرم ، القسم الأكبر من أوكراينا ، والأيالات الروسية الحالية Kursk , Rostov , Voronej , Krasnodar Volgagrad . كانت أراضى قرم وقسم من هذه الأراضى تحت حكم العثمانية المباشر ، وكانت العثمانية قد سيطرت كذلك بشكل كامل على القسم الغربى من قفقاسيا الشمالية بسيطرتها على Taman و Anapa .

كذلك كان جوار أوترانتو فى إيطاليا أرضاً عثمانية ، كما أن مينائى Enez الواقع على مصب مريج،وآماسرا فى الأناضول ، كانا قد أخذا من الجنويين ، وفتحت كامل البانيا وقره داغ تقريبا ، ولم يبق فى حوزة البنادقة من هذه الأراضى سوى عدة ارصفة بحرية وعلى رأسها Draç .

تم فتح جزر بوزجه آدا ، امروز ، ميديللى ، لمنى سيسام ، طاشوز، سمنديرك القريبة من الأناضول الواقعة فى الأرخبيل ، وأخذت ساقز تحت الحماية . وفتحت كذلك آغريبوز أكبر جزر البحر الواقعة فى الجهة اليونانية . وأخيرا ، انتقلت جزر أيونيا (اليونان)،عدا كورفو ، إلى الحكم العثمانى .

ألحقت طرابزون وريزه والقطاع الساحلى لآرتفين ، وهى الولايات الأناضولية الأخيرة التى فتحت من المسيحيين . كان قسم من ولاية كموشخانه قد أخذ من أصحاب الخرفان البيض .

استتب الحكم العثمانى فى جميع الضفاف الشرقية للبحر الأسود اعتبارا من آجارستان (باطوم) إلى سوخوم قلعه (آبهازستان) ، ومنها إلى بوغاز كرج . وبذلك توطد الحكم العثمانى بشكل متين جدا ، من الفرات وجبال طوروس إلى ألطونة .

بذلك يكون فاتح قد فتح إمبراطوريتين:(روما الشرقية – البيزنطية وطرابزون) ، (٤) ملكيات:(قرم ، قرة مان ، بوسنة ، الصرب) و(١١) إمارة ودوقية (أى

١٧ دولة ، ٥ منها تركية ، والأخريات مسيحية . أما الاقطار ، والمدن ، والقلاع والجزر التى أخذها من الدول الأخرى فهى خارج مجموع الـ (١٧) هذه .

لاشك فى أن فاتح قد اتخذ هذه السياسة بغرض تقوية القوة المركزية للدولة ، ومن ضاعف خلال الـ (٣٠) سنة قدرة وقوة الجيش والأسطول ، إلى عدة أضعاف . إذ جعل من الجيش قوة ضاربة كبيرة جدا على نطاق عالمى ، وعززه كذلك بمدفعية واسعة النطاق لأول مرة بين جيوش العالم .

كان الأسطول العثمانى ، عند اعتلائه العرش ، يحتوى على (٣٠) سفينة حربية (صف حرب ، قادرغه) والأخريات قطع صغيرة ، وكان الأسطول البندق متفوقا على الأسطول التركى بمراحل . وقبل (١٤٧٤) ، جعل فاتح هذا الأسطول يفوق الأسطول البندق (٩٢ قادرغه ، وأكبر منها (١٦) طرادا ، ونحوا من (٤٠٠) سفينة نقل وإنزال) ، ووضع المدافع على السفن . ولم تبق أية سفينة حربية بلا مدفع . وكون قبيل وفاته ، فى (١٤٨٠) ، أسطولا يعادل ضعفى الأسطول البندق ، (٢٥٠) سفينة حرب و(٥٠٠) سفينة نقل . وبتعبير Franz Babinqer (ص ٥٣٥) تحققت قوة بحرية نتيجة جهود « تستحق الدهشة تفوق الأساطيل الأوربية » . ولأول مرة فى التاريخ ، أحرز الأتراك الأولوية بين دول العالم فى القوة البحرية ، وسوف يتمكنون من الحفاظ على وضعهم هذا مدة قرنين ونصف .

أسس فى (١٤٥٣) جامعة إستانبول الحالية . وقد استطاع بالتعاون مع وزيره الأعظم الأخير – من سلالة مولانا – قرة مانلى محمد باشا وكاتبه ليث – زاده محمد جلبى من وضع الدستور المسمى « فاتح قونانامه سى » (أى دستور فاتح) والذى بقيت مبادئه الأساسية سارية المفعول فى الدولة العثمانية حتى (١٨٣٩) .

« يعد فاتح بالنسبة للعالم التركى ، هو أكبر الأباطرة حتى يومنا هذا ، من الصعب مقارنته بأى شخصية فى التاريخ البشرى ... محمد الفاتح ، كان بالنسبة للشعب التركى ، الشخصية الخارقة للعادة ، والتى لايمكن تكرارها فى التاريخ كله » (Babinger ، ١٩٥٣ ص ٤٩٨ – ٤٩).

« ظهور فاتح ، خطط مصير الغرب بشكل واضح . إن شخصيته القوية التى يحتمل أن تقاس بنابليون فقط ، قد غيرت أوربا بصورة جذرية . إن شخصية فاتح

تعكس الذكاء البشرى فى أعلى مراتبه ، لقد مثلت نظرة فاتح إلى البشرية والعالم طرازا فريدا ومتميزا عند الخروج من القرون الوسطى (Babinger ، ٥١٨) .

« كان محمد الثانى لايحمل إطلاقاً موقفا معاديا تجاه الأديان الأخرى وذلك على خلاف الحكام الأتراك والمغول ... وفى أعمار استانبول ، أصبح جوستينيان (جوستينيانوس) المسلم .... وكافة الروحانيين الأرثوذكس يلهجون بالامتنان لحارس دينهم العجيب . وقد أظهروا هذا الامتنان فى كل مناسبة ... ورغم ذلك ، كانت فترة سلطنة محمد الثانى بالنسبة لسلالات كثيرة فى آسيا وأوروبا ، كأنها يوم من أيام القيامة » (Lavisse - Rambaud Histoire Générale ، ٢ ، ١٨٩٤ ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩) .

لم تقتصر المؤلفات المنظومة والمنثورة التى كتبت عن فاتح ، على اللغات التركية والعربية والفارسية فحسب ، بل إن كثيرا من هذه الكتابات أوربية .

إن أطول القصائد من بين آلاف القصائد التى كتبت عنه ، هى منظومة Giovanni - Maria Filelfo المكونة من (٤٧٠٦) بيتا . وقد صار بعد وفاته كذلك ، موضوعا لآلاف من المؤلفات الفنية .

لقد ألفت فى إنكلترا فقط خلال السنوات (١٥٩٤ – ١٧٤٩) من طراز المسرحية فقط (٦) مسرحيات عالجت موضوع فاتح . ويمكن قياساً على ذلك تصور ماكتب عن فاتح فى اللغات الأخرى وفى الحقول الأدبية الأخرى .

وقف فاتح أمام Matteo , Gentile Bellini الفيرونى اللذين دعاهما من البندقية وسمح لهما برسم صورته الشخصية .

إن أعمال فاتح المؤثرة ، كقطعه طريق الشرق على الأوربيين ، واكتساحهم ، ودفعهم – باحثين عن النجاة – نحو البحار المفتوحة ، وتحقيق تفوق العثمانيين البحرى فى البحر الأبيض ... كل ذلك يعد من الأسباب المعقولة لدفع أوربا نحو المغرب (العالم العربى الغربى) بحكم كونه أضعف ، كما يعد أيضا من الأسباب التى دفعت الأوربيين إلى التهافت على المحيطات . وقد أدى تهافت الأوربيين على المحيطات إلى زيادة الحيز المكانى المعروف فى العالم (الاكتشافات الجغرافية) غير أنه من المحتمل أن يكون أهم من ذلك كله الانقلاب الذى ترتب على إبراز فاتح لسلاحه المسمى

« مدفع » وتأكيده لدور « المدفع » كعنصر استراتيجى فعال .

لقد أثبت فاتح بصورة مؤكدة فى (أوطلوق بلى) ، دور المدفع كسلاح من الدرجة الأولى فى الحروب الميدانية .

إن أوربا لم تدرك دور المدفع فى الحروب الميدانية ، إلا بعد حروب ياوز الميدانية ، وبصورة مؤكدة فى الربع الثانى من القرن (١٦) . لكن المدفع كسلاح هدام وثاقب للقلاع والأسوار كان معلوما قبلها ؛ إذ إن أى غاز منذ ألف سنة هدم الأسوار البيزنطية ، لكنه لم يتمكن من ثقبها واختراقها . وفى تلك الفترة ، كان الملوك فى وضع حرج مع الإقطاعيين ، وكان الإقطاعيون الصغار والكبار يختبئون وراء قصورهم المستحكمة ويعصون ملوكهم ، ويرسلون ضرائبهم وجنودهم إلى الدولة كما يحلو لهم . وعندما بدأ الملك فى حيازة المدفع وهدم هذه القلاع ، ظهرت فى أوربا دول حقيقية مقتدرة ، تستند على النظام المركزى ، وتتمكن من جمع ضرائبها كما تشاء ، وتنظم فاعلياتها العسكرية والاقتصادية والثقافية فى المستويات العالية بالإمكانات التى تيسرها هذه الدراهم . ولم يتمكن بعد ذلك الدوق – الكبير ، الدوق ، الأمراء ، ولاة الحدود (ماركيز) ، القمامس (الكونتات) وكلاء القمامس (الفايكونتات) البارون ، البارونيت (البارونة) ، السنيور والفرسان من التمرد على ملوكهم كما كانوا يفعلون من قبل . وهكذا نجد أن المدفع يمثل صلب هذا التطور .

على أنه ينبغى ألا ننسى أن ذلك قد جرى ببطء ، إذ إن أوربا لم تتمكن من تكوين الجيش النظامى المحترف، الذى كونته العثمانية فى بورصة ، إلا فى القرن (١٧) . والأمر المؤكد أنه نتيجة لذلك ، طويت تماما صفحة قرن مضى ، وفتحت صفحة قرن جديد .

وقد تجدر الإشارة فى النهاية إلى الأخطاء الرئيسية لفاتح . إن أكثر ماانتقده فيه الأتراك فى العصر الحديث ، هو مسألة الامتيازات التى منحها للأرثوذكسيين والكنيسة الأرثوذكسية ، فقد كانت هذه الامتيازات غير طبيعية بالنسبة لذلك العصر . غير أنه يجب النظر إلى هذا الموضوع فى ضوء ظروف تركية فى القرن (١٥) ، وليس القرن (١٩) ، والإنصاف يقتضى أن ننتظر من الديبلوماسى أن

ينظر إلى فترة معقولة من المستقبل ولاننتظر منه أن يتحسب الظروف القادمة بعد قرون عديدة .

كان فاتح مضطرا فى ذلك العهد إلى ربط العالم الأرثوذكسى به ، حتى لايتحد العالم الأرثوذكسى مع العالم الكاثوليكى ، ويشكل تجاهه جبهة موحدة تكون خطرا على تركية بشكل كبير . كانت المسيحية منقسمة إلى قسمين: كاثوليك وأرثوذكس فقط،إذ لم يكن المذهب البروتستانتى قد ظهر بعد ، وكان هم الكاثوليك فى ذلك القرن يدور حول إفناء المسلمين . ولم يستهدف هذا الاتجاه – كما سيظهر بوضوح فى الحروب الصليبية – أخذ القدس فحسب ، بل كان يتعدى ذلك إلى احتلال مكة ذاتها . أما الأرثوذكسية ، فقد اعتادت العيش مع الإسلام جنبا إلى جنب منذ عهد عمر (ر . ع) .

أيضا نجد أن فاتح قد انتهج سياسة أضرت بالكيان الوطنى بصورة كبيرة ، لقد كانت سياسة فاتح سحق الأرستقراطية التركية ، وتقديمه الدوشرمة (الذين يختارون وهم أطفال ، من العائلات المسيحية والإسلامية ، ويجرى تعليمهم لدى طائفة الانكشارية أو فى سراى البادشاه) .

وبدأ فاتح بهذا العمل فور فتحه إستانبول بإبعاده أسرة جاندارلى عن السلطة واستمر فى تلك السياسة ، ورغم أنه تراجع فى سنواته الأخيرة وعين قرة مانى محمد باشا فى السلطة فإن حزب الدوشرمة ، كان قد حصل على قوة كبيرة خلال ربع القرن ، واستمرت على هذا الحال مدة قرنين على أقل تقدير . لم تتكون فى تركية أرستقراطية تركية حقيقية كما فى أوربا . فقد الأشراف الأتراك الذين سيطروا على الدولة حتى عهد فاتح ، نفوذهم . انفتحت أبواب كافة الوظائف (ومنها رئاسة الوزارة) إلى زمرة الدوشرمه عديمى النسب والتاريخ ، الذين تربوا فى السراى ويعرفون البادشاه فقط سيدا لهم،فهم لا يستمدون قوتهم من عائلاتهم أو ثرواتهم أو ماضيهم ، وإنما يستمدونها بصورة مباشرة من البادشاه والسراى .

لاشك أن فاتح قد اتخذ هذه السياسة بغرض تقوية القوة المركزية للدولة ، ومن الواضح أن فاتح لم يكن يرتاح كثيراً ، إلى أمراء الأناضول التركمان الاقطاعيين بسبب عدم اقترابهم من الاتحاد التركى ، وإفلاتهم منه على الدوام . ولانه رجل عصر جديد ، فقد كان مقتنعا عند اعتلائه العرش بأنه لكى يتمكن من إنجاز أعمال على

نطاق عالمى ، فإنه يلزم أن تكون السلطة المركزية كبيرة ومطلقة ، وإنه لاسبيل إلى ذلك ، إلا بتبلورها فى شخص الخاقان ، ولايمكن استمرار فاعلية عجلة الدولة إلا بذلك . وعكس ذلك ، فان الدولة العثمانية ستكون مثلا ، كامبراطوريات المملوكية والتيمورية وتهوى إلى مصاف الدول الخامدة ، وتفقد كل قدرة لها على الحركة . لم يكن من شأن حاكم كفاتح أن ينتهج سياسة خامدة وثابتة ، فمثل هذه السياسة ستكون معوقة لظهور وتكامل الدولة العثمانية .

كان السلطان محمد الفاتح مولويا كأبيه . شيخه : أمير عادل جلبى .

كان شاعرا ، إخصائيا فى موضوع الأزهار والأحجار الكريمة ، وماهرا في صناعة الأقواس .

قابلته (مولدته) : ابه خاتون ، مربيته وأمه بالرضاعة:أم كلثوم هاند خاتون .

أساتذته فى العسكرية الوزير صاريجه قاسم باشا (وفاته ١٤٦٠) ، داماد زاغانوس محمد باشا (وفاته ١٤٦٢) ، خضر جلبى (وفاته ١٤٥٩) ، خادم سليمان باشا (وفاته ١٤٩٣) .

Yorgios Amirutzes الطرابزونى ، أحد أساتذته المسيحيين الذى تلقى عنه اليونانية الكلاسيكية بصورة منتظمة (وفاته ١٤٧٥) . وأخذ عن Ciriaco Anconitato (١٣٩١ - ١٤٥٥) اللاتينية ، التاريخ القديم ، الجغرافيا ، علم الآثار ، الإيطالية . وأخذ عن Giovani Mario Angielello (١٤٥١ - ١٥٢٥) التاريخ الإيطالى والأوربى .

ويمكن ذكر قصاب - زاده محمود بك ، نيشانجى إبراهيم باشا ، شهاب الدين شاهين باشا بين أساتذته الآخرين فى العسكرية .

أشهر أساتذته فى العلوم الأخرى هم : حسن جلبى (وفاته ١٤٨٦) ، ملا إياس ، جلبى - زاده إسبارطه لى قينالى عبد القادر أفندى ، خطيب - زاده محيى الدين محمد افندى ، شيخ الإسلام ملا خسرو ، نيشانجى ملا سراج الدين محمد باشا (وفاته ١٤٨٢) ، ملا خير الدين (وفاته ١٤٧٥) ، خواجه - زاده مصلح الدين مصطفى صالح أفندى (وفاته ١٤٨٨) ، ملا زيرك ، ابن تمجيد (وفاته

١٤٥١) ، ملا أفضل - زاده حميد الدين ، شاعر العصر (١٥) العثمانى الداهية الوزير بورصة لى أحمد باشا (وفاته ١٤٩٧) ، أماسيه لى ملأ إلياس فقيه ، شكر الله جلبى (فى التاريخ وعلم الموسيقى) ، الوزير الأعظم سنان باشا ، مرشده محمد آق شمس الدين (١٣٩٠ - ١٤٥٩) ، آخر رئيس فريق أساتذته فى فترة إمارته شيخ الإسلام ملا كورانى (١٤٠٨ - ١٤٨٨) ، كل محمد ده ده شيروانى (أستاذه فى التفسير) ، ولى الدين أفندى (وفاته ١٤٥٣) (أستاذه فى الموسيقى) .

٩ - بايزيد الثانى والسلطان جم (١٤٨١ - ١٤٩٥) .

تم إبلاغ خبر الوفاة إلى أولو شهزاده بايزيد ، الذى كان واليا على لواء أماسيا ، على أثر وفاة فاتح ، ولحين قدوم بايزيد أعلن ابنه الثالث الموجود فى إستانبول الأمير قورقود نائبا للسلطنة لمدة (١٧) يوما . علم السلطان جم صغير أبناء فاتح الذى كان واليا على قونية ، بالخبر متأخرا . لم يتمكن من المجىء إلى إستانبول ، لكنه لم يعترف بخاقانية أخيه الذى يكبره بـ (٩) سنوات وادعى السلطنة . تأجل إجراء مراسم تشييع جثمان فاتح حتى مجىء بايزيد الثانى ، وأجريت المراسم بعد وفاة الحاكم بـ (١٩) يوما فى (٢٢) آيار . اكتنف السلطان بايزيد بنفسه تابوت أبيه . صلى الشيخ وفاء أفندى صلاة الجنازة فى جامع فاتح مناديا « أركيشى نيته » (الصلاة لصلاة الميت) ودفن فى قبره المتواضع ، بجوار الجامع .

دعا الوزير الأعظم صارى إسحق باشا صهره الوزير الأعظم السابق كديك أحمد باشا ، إلى إستانبول بصورة مستعجلة . أخذ أحمد باشا الأسطول والقسم الأكبر من الجنود وغادر إيطاليا . حاصر الجيش الإيطالى قلعة أوترانتو . أخبر أمير لواء أوترانتو خير الدين باشا ، ملك نابولى Ferrante ، بأنه سيترك القلعة إذا سمح له بركوب السفن والمغادرة دون تعرض . وافق الملك . إخذ الباشا جنده البالغ عددهم (٨٠٠٠) وخرج من القلعة (١٤٨١/١٠/١٠) . جاء إلى تركية . استمر حكم العثمانية الأول فى شبه جزيرة أوترانتو مدة (١٣) شهرا . لم يلتفت أى من السلاطين الذين تلوه إلى خطة فتح إيطاليا .

انكسر السلطان جم أمام أخيه الذى سار إليه بنفسه فى بنى شهر فى بورصة (١٤٨١/٦/٢٠) . لم يتمكن جم،الذى أمر بتلاوة الخطبة باسمه وسك النقود باسمه

فى بورصة ، من المقاومة فى قونية كذلك ، أكثر من ثلاثة أيام . جاء إلى أدنة . استقبل رمضان أوغلو التابع للمماليك الشهزادة وقبل يده . ضيف الشهزادة (الأمير) الذى جاء إلى الشام مع (٣٠٠) شخص فى سراى Ablah . انتقل منها إلى القاهرة (١٤٨١/٩/٢٦) . أرسل السلطان بايزيد ابنه الكبير أولو شهزاده داماد عبد الله ، بدلاً من أخيه إلى عرش قرة مان فى قونية .

استقبل السلطان قايتباى ، « جم » فى القاهرة استقبالا جيدا وحضنه . رحب الشعب من صميم قلبه بابن فاتح البيزنط . بقى « جم » ضيفا على القاهرة عدة أشهر ، ذهب خلالها إلى الحج . الأمير « جم » هو الشخص الوحيد من بنى عثمان ، الذى حج طوال (٨) قرون (هناك من حج من السلطانات أى الأميرات العثمانيات) . ومع أن ذلك غريب بالنسبة لسلالة حملة الخلافة أكثر من ٤ قرون ، لكن هذه هى الحقيقة التاريخية .

خرج « جم » من القاهرة (١٤٨٢/٣/٢٦) ، وذهب إلى حلب (٦ آيار) ، أدنه (١٤ آيار) ومنها أجتاز الحدود المملوكية - العثمانية ودخل تركية،وكان قد رفض عرض أخيه الكبير بايزيد الثانى بأن يعطيه مليون آقجه كمخصصات سنوية حالة تركه ادعاء السلطة وإقامته فى بلد مملوكى معقول كالقدس .
كالقدس .

استقبل « جم » الذى جاء إلى الأناضول بعد أخذه (٦٥٠٠٠) ليرة ذهبية من السلطان قايتباى خاله قرة مان أوغلو سلطان - زاده قاسم بك . توجه « جم » إلى قونية (٢٧ آيار) ، ومنها إلى أنقرة . و لم تقبله المدينتان . أراد الشهزاده الذى خاب أمله ، العودة إلى مصر ، فعبر إلى رودس بالسفينة (٢٩ تموز) ، وكان الأستاذ الأعظم Pierre d'Aubusson (كان فرنسيا) قد أقسم على إيصال الأمير إلى مصر . لكنه لم يف بقسمه ، وأخرج الشهزاده ومعيته الذين مكثوا (٣٤) يوما فى رودس إلى البر فى نيس بعد سفرة بحرية دامت (٤٦) يوما . وهكذا بدأت إقامة « جم » فى فرنسا التى سوف تستمر « ٦ » سنوات و « ٤ » أشهر . نقل من قلعة إلى أخرى من قلاع الفرسان . تعهد بايزيد الثانى فى اتفاق (٧ ك ١٤٨٢/١ ، بدفع ٤٥٠٠٠ ليرة ذهب فى ١ آب) من كل سنة إلى الأستاذ الأعظم لقاء نفقات العناية بأخيه . وعد السلطان قايتباى بـ (١) بمليون ليرة ذهب لإرسال « جم » إلى مصر . لم

تم الموافقة . أخذت (٤) دول كبيرة هى : فرنسا ، المجر ، البندقية ومصر فى الضغط على الفرسان لتسليم الأمير إليهم ، وبعد مفاوضات طويلة قرر الفرسان أنهم لايملكون القدرة على الأحتفاظ بالأمير لديهم ، ووافقوا على تسليمه إلى البابا ، بموجب الاتفاقية المحررة فى (٥ ت ١٤٨٨/١) .

جىء بالأمير إلى ليون فى (١٨ ت ١) ، وبعد أن استضيف فيها مدة (٤٧) يوما ، نقل إلى طولون فى شباط (١٤٨٩) ، ثم سيق منها بالسفينة إلى إيطاليا . دخل روما (١٤٨٩/٣/١٤) . وبذلك بدأت مرحلة النفى الثانية فى إيطاليا .

خلال هذه السنين ، حقق بايزيد الثانى حملته الهمايونية الأولى على المجر Morava (١٤٨٣) ، ثم قام بحملة بغدان (١٤٨٤) . غادر استانبول فى (١٨٨٤/٥/١) بعد أن استجم فيها بعد حملته الأولى مدة (٥/٥) أشهر . جرت حملة بايزيد الثانى على بغدان (مولدافيا) بعد (٨) سنوات من حملة أبيه عليها . وطبعا جرى ذلك لتتبيع الإمارة الرومانية بروابط أمتن . فتحت Kilye (١٥ تموز) و Akkerman (٩ آب) .

كانت القلعة الثانية،أى (Akkerman = Cetaea Alba) الواقعة على الشرم الذى يصب فيه دنيستر فى البحر الأسود ، قلعة مهمة . اشترك خان قرم منكلى كيراى فى الحصار مع (٧٠,٠٠٠) خيال . كان العثمانيون قد حاصروا أكرمان (٣) مرات فى (١٤١٩ ، ١٤٥٤ ، ١٤٧٤) ولم يتمكنوا من أخذها . أرسل سلطان فاس سفيرا خاصا وهنأ بايزيد الثانى) . جردت إمارة بغدان من البحر الأسود ، ولم يترك لها ساحل على هذا البحر . وانتقل القسم الساحلى إلى الحكم العثمانى المباشر . كما ألحقت به الأراضى المنحصرة بين Dnyestr , Prut .

أصبح البحر الأسود بحيرة تركية بصورة تامة .

بقى بايزيد الثانى شتاءين متعاقبين فى أدرنة ولم يعد إلى إستانبول إلا بعد سنتين فى (١٤٨٦) .

بدأت الحملة الهمايونية (٣) بمجىء البادشاه إلى صوفيا أولا . لكن البادشاه، الذى ولى سليمان باشا حملة المنجر التى هدفها بلغراد ذهب إلى ألبانيا ، عاد إلى استانبول بعد (٥ / ٩) شهور فى الأيام الأخيرة من سنة (١٤٩٢) . أما

سليمان باشا ، فقد حاصر بلغراد (وهى المحاصرة العثمانية ٣) . لكنه لم يتمكن من أخذها .

دخل آمر لواء (والى) بوسنه قائد الصاعقة الشاعر يعقوب باشا ، إلى سلوفينيا ومن ثم إلى ستيريا Stirya مع (٨٠٠٠) من المغاوير ، إلى شبه الجزيرة التى تقع عليها تريسته . وأثناء عودته قطع الجيش عليه الطريق فى Adbina (بالتركية ، كاراتوفا) فى خرواتيا . قتل يعقوب باشا (٥٧٠٠) من جنود العدو وأسر (٢٥٠٠٠) منهم (١٤٩٣/٩/٩) . سجل انتصاره هذا بقصيدة منظومة .

مكث السلطان « جم » ٦ سنوات فى إيطاليا (١٤٨٩/٣/١٣ - ١٤٩٥/٢/٢٥) . استقبل فى روما بمراسم فوق العادة . تقابل مرات عديدة مع البابا Innocentius (٨) ، وبعدها مع خلفه Alessandro (٦) . خصص سراى سان آنجيلو لاقامته . وعند دخول ملك فرنسا جارلس (٨) إلى إيطاليا ، لم يتمكن البابا من مقاومة ضغوطه وسلمه « جم » . مرض الأمير أثناء ذهابه من روما إلى نابولى بصحبة الملك وتوفى فى نابولى (١٤٩٥/٢/٢٥) وعمره يتجاوز الـ (٣٥) سنة بـ (٣) أشهر ، (٣) أيام . والمعتقد بصورة أكيدة أن البابا قد دسَّ له السم أثناء تسليمه إلى ملك فرنسا . ويحتمل كذلك أن بايزيد الثانى قد دفع رشوة للبابا لهذا الغرض . أعلن الحداد فى تركيا لمدة (٣) أيام بأمر السلطان بايزيد وأقيمت صلاة الميت للغائب،ووزعت الصدقات على الفقراء . لقد أصبح جثمان « جم » مسألة دولية . نقل النعش إلى تركية بعد مكوثه فى حديقة ملك نابولى مدة (٤) سنوات . أرسل إلى بورصة ودفن . سدد بايزيد الثانى للفرسان والبابا معا مبلغ (٦٠٠,٠٠٠) ليرة ذهبية لقاء العناية بأخيه .

لقد ترتب على بقاء السلطان « جم » فى أوربا مدة (١٢ سنة ، ٤ أشهر ، ٢٩ يوماً) تأثيرات مهمة فى الحياة الاجتماعية الفنية الأوربية ، فقد أجبر بايزيد الثانى خلال هذه المدة على الالتزام بسياسة محايدة تجاه أوربا . لم يتمكن البادشاه الذى اعتاد على سياسة كهذه ، من تغيير سياسته إلى سياسة أكثر فاعلية حتى بعد وفاة أخيه .

خلف « جم »-ذو الدواوين الشعرية باللغة التركية والفارسية - (٣) أبناء وابنتين . تزوجت ابنته جوهر - ملك سلطان ، بالسلطان قايتباى فى القاهرة فى

(١٤٩٥) . لكن السلطان المملوكي توفى بعد ٣ سنوات . جاءت جوهر – ملك سلطان إلى إستانبول وتزوجت مرة أخرى ، وابنتها خانم – سلطان التى ولدت من هذه الزيجة ، كانت لا تزال حية فى (١٥٦٨) . توفى ابنا « جم » وهما طفلان ، وعاش ابنه الآخر الشهزاده مراد (١٤٧٥ – ١٥٢٢) فى القاهرة ورودس . وعند فتح الأتراك لرودس فى (١٥٢٢/١٢/٢٧) ، أعدم مع ابنه الشهزاده « جم » وأرسلت ابنتاه مع أمهما إلى استانبول وأسكنوا فيها. طلب بايزيد الثانى من السلطان قايتباى ، أثناء وجود « جم » فى أوروبا ، إرسال والدة « جم جيجك خاتون » الموجودة فى القاهرة مع ابنتى « جم » إلى استانبول . ولما لم يستجب هذا الطلب ، أضرمت نار أول حرب عثمانية – مملوكية وهى الحرب التى يمكن النظر إليها على أنها حصاد توتر طويل الأمد .

(١٠) الحرب العثمانية – المملوكية (١٤٨٥ – ١٤٩١)

كانت تركيا ومصر فى ذلك التاريخ ، دولتى العالم الأولى والثانية . منذ قرن كامل ، لم تتحاربا أبدا مع أنهما جارتان . كانت السلطنة المملوكية من الدول النادرة التى لم تحاربها العثمانية . توترت العلاقات فى السنين الأخيرة . قدمت شكاوى عديدة حول سلب البدو للحجاج الأتراك فى الطريق ، وطلبت تركيا إذنا لإرسال جنود للمحافظة على الأمن فى طريق الحج فى الدولة المملوكية . أخر المماليك الذين غضبوا لذلك المجوهرات التى أرسلها سلطان الهند الجنوبية البهمنى محمود شاه ، إلى السلطان بايزيد ، مدة طويلة فى مصر ثم أرسلوها إلى استانبول .

بدأت الحرب بصورة فعلية على أثر إسقاط قرة كوز محمد باشا تحكيمات المماليك فى بوغاز كلك ، ودخوله جوقور أوفا (أيار ١٤٨٥) . كان قد مضى (٤) سنوات على وفاة فاتح .

من المهم أن نذكر هنا أن الإمبراطوريتين حاولتا جهديهما حصر الحرب فى نطاق محلى ، وعدم تصعيدها أو تحويلها إلى حرب شاملة .

ولم تطأ أقدام الحاكمين ساحة الحرب أبدا ، وكان قصد العثمانية – إن أمكن –

حيازة إمارة رمضان أى جوقورأوفا ، وقصد المماليك – إن أمكن – حيازة دلقادر، أى منطقة ماراش ، ومن ثم عدم التقدم أية خطوة بعد ذلك .

احتل قرة كوز باشا طرسوس ونزل إلى البحر الأبيض . جاء رمضان أوغلو محمود بك إلى استانبول وعرض تبعيته للعثمانية وخروجه من تبعية المماليك .

رد المماليك على ذلك بدخولهم إلى دلقادر . كان دلقادر أوغلو علاء الدولة بورقورد بك أبا لزوجة بايزيد الثانى وأبا كذلك لوالدة الأمير (شهزاده) ياوزسليم . أخرج أمير لواء (والى سنجق بك) قيصرى يعقوب بك المماليك من دلقادر ، وجاء أمام القلعة المملوكية ملاطية . أباد القائد العام المملوكى أوزبك بك فى هذا الموقع ، يعقوب بك مع وحدته ، ثم دخل جوقورأوفا ، وأخرج العثمانيين منها ورمى بهم إلى الطرف الآخر من طوروس . مات كل من أمير لواء طرسوس داماد فرهاد بك وأمير لواء أدنة موسى بك أثناء دفاعهم عن جوقورأوفا .

وفى ك (١٤٨٦/٢) ، نزل أمير لواء (أمير الأمراء ، والى) أناضولى هرسك – زاده أحمد باشا إلى جوقواوفا ، وانتصر عليه أوزبك بك وأسره ، وسيق إلى القاهرة .

وافق قايتباى على مقابلة داماد أحمد باشا الذى صار وزيرا أعظم بعد ذلك ، وطلب إليه أن يبلغ البادشاه بأن هذه الحرب لاطائل وراءها ، وأنه على استعداد لعقد صلح تقر فيه الأطراف بحدود ماقبل الحرب ، وأنه يبلغه أيضا أنهم لايرغبون فى الحرب مع العثمانية التى تجاهد بصورة مستمرة ضد المسيحيين ، وأن هذا لايليق بهم ، كما طلب منه كذلك أن يبلغ البادشاه أنه لاينوى ترك أراض للعثمانية ، وخلى سبيله . جاء أحمد باشا إلى استانبول وسرد ذلك ، لكن الديوان العثمانى لم يكن قد اعتاد إنهاء حرب لم تتكلل بالنجاح .

احتل العثمانيون طرسوس مرة أخرى فى (١٤٨٧ . وفى صيف ١٤٨٨) ، احتل الوزير (وزير أعظم فى المستقبل) على باشا مع (٣) بدرجة فريق أول (بكلربك) كامل جوقورأوفا وبضمنها أدنة .

لحق الأمير أوزبك رجل الحرب الكبير ، وهزم على باشا (١٤٨٨/٨/١٦) .

استسلمت أدنة للمماليك بعد أن قاومت (٧) أشهر (١٤٨٩/٤/٢) .

وفى ١٤٩٠ ، حاصر أوزبك بك الذى انتصر على على باشا فى حرب آغا جايرى الميدانية ، قلعة قيصرى ، وأسر هرسك - زاده أحمد باشا ، الذى جاء للدفاع عن قيصرى للمرة الثانية . وسيق إلى القاهرة كذلك .

وفى هذه المرة ، عامل السلطان قايتباى ، صهرَ بايزيد الثانى أحمد باشا ببرود . لكنه تأثر عندما علم أن السلطان بايزيد سيخرج بحملة . حيث لم يكن يرغب فى أن تتطور الأمور إلى حرب شاملة .

كان يعلم أن تيمور فقط هو الذى تمكن من الانتصار على العثمانية فى حرب شاملة فى تاريخ العثمانية بأجمعه ، وليس هناك مثال آخر .

اتصل بسلطان تونس الحفصى يحيى الثالث . وطلب إليه أن يتوسط لتأمين الوئام بينه وبين السلطان بايزيد ، والحيلولة دون إراقة دماء المسلمين .

وافق السلطان بايزيد على تدخل السلطان يحيى ووساطته ، واقترح السلطان يحيى الصلح على أساس ترك الوضع على حاله (Statu quo) . وافق الطرفان .

ثبتت الحدود كما كانت عليه قبل بداية الحرب ، فعادت إمارة رمضان أوغلو إلى تبعيتها للماليك ، وإمارة دلقادر إلى العثمانية . زوج السلطان بايزيد جوهر ملك سلطان ابنة أخيه جم بالسلطان قايتباى وحاول إزالة البرود الكائن بينهما ، واستمر بعد ذلك متعقبا سياسة مساندة الدولة المملوكية بإخلاص كما سيظهر فيما بعد .

إن الحرب التى مرت بتفوق المملوكية على الأكثر ، وجهت أنظار العثمانية إلى جوقور أوفا التى احتلتها عدة مرات . إن سياسة الدولة العالمية التى اتبعتها العثمانية ، أظهرت لزوم توسعها فى الأناضول وهبوطها إلى العالم العربى .

(١١) الدولة العثمانية والأندلس :

فى هذا التاريخ كان قد تبقى فى أسبانيا العربية المسلمة ، فى الأندلس ، دولة إسلامية واحدة ، هى دولة النصريين أو بنى الأحمر . كانوا يحكمون منذ (١٢٣٢) ومدينة عرشهم غرناطة (بالأسبانية : Granada) ، لكنهم كانوا فى القرن (١٥)

قد أزيحوا ودفعوا إلى حدود ضيقة جدا . ومع ذلك ، فإنه من الممكن القول بأن تعداد تلك الدولة يصل إلى مليونى نسمة ، ومثل هذا العدد يعتبر بالنسبة لذلك العصر عددا كبيرا . أما العاصمة،غرناطة ، فقد كانت أكبر المدن كثافة فى التعداد فى كامل القارة الأوربية ، فقد كان تعدادها يبلغ (٥٠٠,٠٠٠) نسمة،فاقت استانبول غرناطة فى تعداد سكانها فى السنوات الأخيرة للعصر .

يتكون شعبها من البربر والأسبان (Wisigoth) الذين أسلموا ويتكلمون اللغة العربية ، وكذلك العرب الخلص . كان للدولة كذلك رعايا كثيرون من المسيحيين (الكاثوليك) والموسويين .

وفى (١٤٨٢) ، اضطرت ملكية الأندلس ، أن تدخل تحت سيادة ملكية كاستيليا ومركزها طليطلة (Toledo) . فقد كانت متفوقة من حيث الحضارة والثقافة والصناعة ، وللكنها نتأخرة جدا من الناحية العسكرية .

دفعت ملكية كاستيليا الأندلس السنية - المالكية نحو الجنوب بصورة مستمرة وقلصت حدودها .

كانت كاستيليا دولة ذات جيش قوى . أما ملكية آراغون الكاثوليكية المتعصبة بنفس الدرجة ، والتى تأسست فى الإيالات الشمالية - الشرقية من أسبانيا ، فقد كانت دولة بحرية مهمة فى البحر الأبيض . لغة هذه الدولة هى القتلونية (حاليا كذلك) ، أما كاستيليا ، فقد كانت تتكلم الأسبانية،وهى لغة لاتينية تختلف عنها تمام الاختلاف .

أخذ الأسبانيون من العرب موانىء:جبل طارق (١٤٦٢/٨/٢٠) ، روندو (١٤٨٥/٥/٢٠) ، ألمرية (بالأسبانية : Almeria) ، مالقة (بالأسبانية : Malaga) ، مدينة ولزمالقة Velez Malaga (أخذت جميعها فى ١٤٨٧) . انحطت دولة الأندلس إلى درك دول البحر الأبيض التى لاأهمية لها ، وأصبحت مقتصرة على غرناطة وأطرافها . لكن مع ذلك فإن مستوى شعب هذه الدولة البائسة ، كان مايزال هو الأول فى العالم أجمع .

أشرف الحكم الإسلامى الذى كان مستمرا فى شبه جزيرة إيبيريا منذ (٧١١) سنة ، على الانتهاء . ومنذ ذلك الحين كان لملكيتى كاستيليا وآراغون ملايين من

الرعايا المسلمين ، الذين كانوا يحاولون الإبقاء على كيانهم فى جو من الضغط والشدة لم يشهده التاريخ لإجبارهم على اعتناق الكاثوليكية .

كانوا يثورون بين الحين والآخر ، وكانت تسفر ثوراتهم عن مزيد من الشدة فى سحقهم . . .

كان هدف ملكية كاستيليا،بوجه خاص ، اقتلاع الحكم الإسلامى بكامله من أى شبه جزيرة إيبيريا ، ثم أضيف إلى هذا الهدف ، سياسة عدم Reconquista الإبقاء على أى شخص ينتسب إلى الدين الإسلامى . كان الموسويون معرضين إلى ذات المعاملة التى تطبق على المسلمين .

من الذى سيقوم بإنقاذ هذه الجماعة الإسلامية البائسة التى كانت أستاذا معلما ومربيا لأوربا فى كافة المجالات الحضارية ؟ لاشك فى أن هذه المهمة تقع على عاتق سلطنة فاس التى تعتبر من الدول الكبرى ، والتى حكمت فى البداية فى الأندلس كما تقع كذلك على بنى مرين .

كانت تركية ومصر فى الجانب الآخر من البحر الأبيض ، وأساسا فإنه لم يكن لمصر القوة البحرية التى تمكنها من القيام بهذا العمل . أما السلطنة الحفصية فى تونس فإنها كانت فى حالة تدهور .

إن اتحاد ملكيتى كاستيليا وآراغون بصورة فعلية فى (١٤٦٩) ، وتشكيلهما أسبانيا موحدة ، سبب زيادة مصائب الأندلس .

تزوجت ملكة كاستيليا إيزابيلا Isabella بملك آراغون Fernando el Catolico ، وكانت هذه الزيجة التى استمرت (٣٥) سنة لغاية وفاة إيزابيلا وعمرها (٥٣) سنة ، مثمرة للغاية بالنسبة لأسبانيا . وأضحت أسبانيا أقوى دولة فى أوربا والعالم المسيحى .

اعتلى فرناندو الذى يصغر زوجته سنة واحدة ، عرش أبيه فى (١٤٧٩) ، أما إيزابيلا فإنها اعتلت عرش أبيها فى (١٤٧٤) . وبناء على ذلك فإن الوحدة فى (١٤٧٩) ، تأسست بشكل متين . ولم تنفصل بعدها أبدا .

كانت ملكية صقلية تعود أساسا إلى آراغون ، وانتقلت ملكية نابولى إلى أسبانيا .

إن أسبانيا التى سيطرت بهذه الصورة على جنوب إيطاليا أيضا ، أصبحت دولة مقتدرة فى منتصف البحر الأبيض ، كما كانت فى غربه . وبدأت بتهديد كل الأطراف .

ولد سقوط مالقة المدينة العربية المسلمة منذ (٧٧٦) سنة ، التأثر والهياج فى العالم الإسلامى بأسره (١٤٩٨/٨/١٨) .

قرر الأسبانيون الذين أرادو فى هذه الحملة أخذ غرناطة كذلك ، الانتظار مدة من الزمن . كانوا يخشون تدخل تركية ومصر .

كانت تركية ومصر فى هذه الأيام فى حالة حرب . وعندما عقدت الهدنة لفترة بين الدولتين ، اضطربت أسبانيا .

طلب ملك غرناطة أبو عبدالله محمد (١١) مساعدة استانبول وكذلك القاهرة بصورة رسمية . وقد كانت خشية الأسبان لمصر أكثر وأشد ؛ لأنهم لم يسمعوا بعلاقة تركية بغرب البحر الأبيض وبالمغرب .

أرسل السلطان قايتباى راهب دير فرانسيسكن الكاثوليكى فى القدس كسفير إلى توليدووأبلغهم بأنهم إن لم يرفعوا يدهم عن غرناطة ، فانه سيقتل كافة المسيحيين الموجودين فى كنيسة قمامه فى القدس ، وأنه سيغلق فلسطين فى وجه كافة الحجاج المسيحيين .

لم تعر أسبانيا أية أهمية لهذا التهديد ؛ لأنها لم تكن قد سمعت أبدا بأن دولة إسلامية أضرت برعاياها المسيحيين المطيعين . حيث إن المماليك ، لم يمسوا المسيحيين فى فلسطين بسوء ، ولم يمنعوا الحجاج المسيحيين .

عرض السفراء الذين أرسلهم أبو عبد الله محمد (١١) الذى يسميه الأوربيون « بو عبد الـ Boabdil » (بكسر الدال وتفخيم الواو) ، وعرب المغرب « بو عبد الـ Bû Abdel » (بفتح الدال) ، على بايزيد الثانى الوضع الأليم المذكور أعلاه . قرر الديوان الهمايونى إرسال أسطول إلى غرب البحر الأبيض . وهكذا تحققت الحملة الأولى لكمال رئيس (١٤٨٧) ، وللمرة الأولى وطئت أقدام الأتراك غرب البحر الأبيض .

وهكذا دخلت تركيا الحرب تجاه (٤) ملكيات (كاستيليا ، آراغون ، نابولى ، صقلية) وباختصار تجاه إسبانيا . (سوف تستمر هذه الحرب قرونا طويلة دون عقد صلح) .

قصف قرة مانلى كمال رئيس بالتسلسل جربة ، مالطة ، صقلية ، ساردونية ، كورسيكا ، جزر بالير وسواحل إيطاليا الجنوبية ودخل المياه الأسبانية . وقصف كافة موانىء آراغون (كاتالونيا) . واستولى بصورة فعلية على ميناء مالقة الذى أخذه الأسبان من العرب قبل عدة أشهر وأحرقه أثناء انسحابه .

عاد من مضيق جبل طارق وصعد نحو الشمال الشرق إلى السواحل الفرنسية، ثم عاد فقصف الموانىء الأسبانية فى البحر الأبيض مرة أخرى . وعبر إلى بحر Tiren عن طريق مضيق Bonafacio الذى يفصل جزيرتى كورسيكا وساردونيا عن بعضهما . مر على بعض موانىء سلطان تونس الحفصى ، الذى قدم تسهيلات إلى الأسبان ، ورفع الراية فيها ثم عاد .

لكن هذا الاستعراض ، لم يثن عزم الحكام الكاثوليك . انتهى الحكم الإسلامى الذى دام فى أسبانيا – البرتغال (٧٨١) سنة باستسلام غرناطة (١٤٩٢/١/٢) . هرب محمد (١١) إلى فاس . أحرق بأمر أحد الكرادلة السفلة أكثر من (٥٠٠,٠٠٠) من الكتب المخطوطة فى ميدان غرناطة الكبير ، وكان هذا العدد من الكتب يفوق كافة الكتب الموجودة فى مكتبات أوربا بكاملها ، وهى مؤلفات جمعت من جميع أنحاء العالم خلال (٨) قرون .

لم تكن فى هذا التاريخ فى أوربا كلها مكتبة واحدة تمكنت من جمع (١٠,٠٠٠) مجلد .

فور سقوط غرناطة ، انتشر (٣٠٠,٠٠٠) عربى على سواحل أسبانيا .

حالت مدافع الأسطول التركى دون إفناء هؤلاء وتم نقلهم إلى فاس والجزائر . مئات الألوف منهم ، أحرقوا بالنار بصورة جماعية . وضع اليد على كيان المسلمين كاملا . لكن عدة ملايين من المسلمين ، أصبحوا مشكلة أسبانيا الكبرى لمدة قرن ونصف . يكتب نامق كمال مايلى : « عندما أخذ الأسبان غرناطة أحرقوا الشعب بالنار لإجبارهم

على تبديل دينهم . وعندما أخذنا نحن استانبول ، منحنا الحرية الكاملة لسالك كل مذهب فى ممارسة شعائره الخاصة » .

بينما كانت غرناطة قد استسلمت شرط عدم المساس بأموال وأنفس وكافة الحريات الدينية للعرب . كانت أسبانيا فى ذلك التاريخ تضم نحو (٣) ملايين من العرب المسلمين و(٣٠٠,٠٠٠) موسوى . وفى (١٤٩٢) ، أصدرت أسبانيا أمراً ملكيا إلى الموسويين بترك أسبانيا دون استصحابهم أية حاجة ثمينة ، فى حالة عدم قبولهم الكاثوليكية ، خلال فترة (٤) أشهر .

وفى (١٤٩٧) ، أعلن ملك البرتغال منشورا بنفس المحتوى . لكن البرتغال أعلنت أن اليهود الذين يتركون البلاد لايمكنهم استصحاب أولادهم (بناتهم وأبنائهم) الذين تقل أعمارهم عن (١٤) ، سنة وأن هؤلاء سيظلون فى البرتغال لتنشئتهم على المذهب الكاثوليكى .

قبلت تركيا يهود البرتغال والأسبان وأسكنتهم أماكن عديدة على رأسها استانبول ، وهذا هو منشأ يهود استانبول الذين ينطقون الأسبانية ، وكان هناك من قدم من العرب كذلك إلى استانبول وسكنوها،لكنهم على الأكثر كانوا يذهبون إلى فاس والجزائر لقرب المسافة .

أغضب هذا الظلم التعسفى الأتراك ، فقررت الدولة العثمانية التدخل فى المغرب .

وسوف نتناول سياسة العثمانية بشأن التدخل فى المغرب فى المبحث المخصص لذلك .

لقد تصادف أن يقع فى عام واحد سقوط غرناطة واكتشاف الجنوى كريستوفر كولمبس لأمريكا ، فقد اكتشف كولمبس القارة الجديدة باسم أسبانيا وبدأت تتكون فيها مستعمرات أسبانية (مغادرة كولمبس ١٤٩٢/٨/٣ ، وصوله إلى جزائر بهاما ١٤٩٢/١٠/١٢) .

اقتحم الأسبان أفريقيا السوداء كذلك . إن تاريخ ذهاب أول قافلتين للزنوج الذين ساقوهم إلى أمريكا لتشغيلهم بعد اصطيادهم من سواحل غينيا ، هو (١٥٠١) و(١٥٠٥) . وسوف لاينقطع بعد ذلك سوق هذه القوافل من أفريقيا إلى أمريكا .

وهكذا تكونت إلى يومنا هذا أقلية زنجية قوية فى أمريكا التى لم تكن تحتوى على زنجى واحد .

سار كمال رئيس بحملات عديدة على غرب البحر الأبيض . قصف أسبانيا ، نهبها . نقل المهاجرين إلى شمال أفريقيا . إن حملته الأخيرة فى (١٥١٠) ، جرت بعد (٢٣) سنة من أولاهن . ذهب إلى فاس وقابل ابن محمد (١١) آخر ولى عهد للأندلس . كان يرافقه ابن أخيه محيى الدين بيرى رئيس الذى كان عمره (٢٠) سنة ، وهو أعظم راسم للخرائط الجغرافية وجغرافى بحار فى القرن (١٦) . كان أحمد كمال الدين بك المعروف بـ « كمال رئيس » لواء بحريا ، وهو ابن قره مانلى على ، هو مؤسس المدرسة البحرية العثمانية العالمية . مات أثناء غرق سفينته عند عودته من حملة أسبانيا بالقرب من قاعدته غاليبولى (١٥١١/١/١٦) .

كتب المؤرخ الفرنسى Michelet ، أن الاسبان أفنوا فى غضون الـ (١٠) سنوات الأولى بعد سقوط غرناطة (١,٠٠٠,٠٠٠) مسلم بطرق شتى كحرقهم بالنار ، وإجاعتهم وإغراق سفنهم فى البحر وقتلهم (Renaissance ١٣٥ – ٧) .

(١٢) فترة السلطنة الثانية لبايزيد الثانى (١٤٩٥ – ١٥١٢)

أدى تحرش بولونيا فى بداية (١٤٩٨) ببغدان (مولدافيا) التابعة للدولة العثمانية إلى نشوب حرب مع هذه الدولة . كلف قائد الصاعقة المعروف ، أمير لواء سلستره مالقوج أوغلو بالى بك (باشا فى المستقبل) بإدارة الحرب . سار بالى بك إلى بولونيا بحملتين كبيرتين فى ربيع وخريف سنة (١٤٩٨) . اشترك فى هاتين الحملتين (٤٠,٠٠٠) من الصاعقة .

انهزم ملك بولونيا ، فى حرب Bukovina الميدانية وفر تاركا حمولة (٢٠,٠٠٠) عربة من مهمات جيشه .

دخل بالى بك أهم المدن البولونية مثل Lublin ؛ Lwow , Jaroslaw , Radom وارشو، وحرقها . وصعد إلى الشمال حتى خط عرض (٥٣) . ووقف على مسافة (٢٢٠) كم عن بحر البلطق .

كررت هذه الحملة فى الخريف بعد (٣) أشهر . خربت المنطقة التى ينبع منها نهرى دنيستر وسان .

أعلنت كل من المجر والبندقية الحرب على تركيا خشية اندحار بولونيا - ليتوانيا فى حملة جديدة ، وذلك على أثر الحركات الشديدة التى جرت لحمل بولونيا على الابتعاد كلية عن التدخل فى شئون بغدان ، وبالتالى فى شئون البحر الأسود .

اجتاز إسكندر باشا (الذى غزا دالماجيا قبل ١٤٩٩) أنهار Tagliemento , Isonzo (بالتركية : آقصو) و Piave ودخل سهل البندقية . ترك مدينة البندقية وراءه واجتاز نهر Brenta حرق مدينتى Vieenza و Padova . وعاد من نهر Adige قرب Verona . وبهذه الصورة تقدم نحو الغرب حتى خط طول (١١) . كان قوام هذه الحملة الشهيرة (٢٠,٠٠٠) من جنود الصاعقة . أحرقت الحملة ١٣٠ مدينة وقصبة ، ولم تتمكن البندقية من صيانة وطنها الأصلى لانشغال القوات البندقية الكبرى فى الحروب فى مورا . دخلت قوات الصاعقة فى فترة جمود لمدة ربع قرن ، بعد سنة (١٥٠٠) .

لاتوجد غارات كبيرة خلال هذه الفترة ، فقد انشغلت تركية بالشرق وهى بشكل عام فى حالة صلح مع أوربا ، وسوف تبدأ الغارات مجددا على أوربا على نطاق واسع فى عهد السلطان سليمان القانونى .

بذلك دخلت العثمانية البحرب مجددا مع (٣) دول كبرى هى : البندقية والمجر وبولونيا ، والدول الصغيرة ، التى تساندها البابوية ، كرودس وأمثالها . كانت حالة الحرب مستمرة أساساً مع أسبانيا بسبب قضية الأندلس ؛ ولم تكن هناك مشكلة فى الشرق بسبب اطمئنانها من ناحية المماليك وآقويونلو وإيران . دخلت ألمانيا كذلك الحرب ضد تركيا . تضعضعت ألمانيا بسبب انفصال الاتحاد السويسرى فى ١٤٩٩ عن الإمبراطورية الألمانية وتشكيلها دولة مستقلة تماما .

قام بايزيد الثانى بحملتى الهمايونية (١٤٩٩ ، ١٥٠٠) على البندقية واليونان وجنوب مورا . أصبحت رودس عاجزة - لمدة من الزمن - عن مساعدة البندقية بسبب إبادة أسطول رودس مع أميرالاته وسفينة الأميرالية على يد كمال رئيس .

سار البادشاه من استانبول فى (٣١ آيار ١٤٩٩) ، وأرسل قسماً من الأسطول الهمايونى إلى قبرص فاضطرت البندقية إلى أن ترسل قوات كبيرة إلى قبرص ، خوفا من عملية إنزال تركية .

أسر والى كورفو Andrea Lorenado وقتل لسوء معاملته للأسرى الأتراك .

جاء البادشاه إلى Lepanto (بالتركية : إينه بختى) وهى قلعة بندقية مهمة تقع على الساحل الشمالى من خليج كورينثوس .

وخلال هذه الأيام ، كان الأسطول البندق المكون من (٢٠٠) قطعة بقيادة الأميرال أنطونيو كريمالدى على مسافة من مياه جزيرة سابينزا Sapienza الصغيرة فى الناحية الغربية من مياه رأس (Galto (Messenya الواقع فى رأس مورا الجنوبى - الغربى .

التقى الأسطول الهمايونى بقيادة كمال رئيس ، بالأسطول البندق فى هذا الموقع . كان قائد جناح اليمين الأميرال Barak (براق) رئيس الذى سبق أن أرسله البادشاه إلى فرنسا فى مهمة ديبلوماسية . دخل العدو على العمق فى الجناح الأيمن للأسطول التركى ، وحاول إنزال راية الرئيس براق . كانت جميع السفن قد اقتربت من بعضها .

فجر براق رئيس خزان البارود فى سفينته وحرق نفسه مع قسم كبير من الأسطول البندقى واستشهد ، ومات معه فى سفينته ربان السفينة قرة حسن رئيس و(٥٠٠) من جنود البحرية وكثيرون من الجدافة (الأسرى المسيحيين) . كان بين الذين ماتوا نتيجة الانفجار ، الأميرالان البندقيان Loredanoو Armenio .

ولهذا لم يقترب كمال رئيس ، وأخذ يقصف قطعات الأسطول البندق الأخرى ، وكان كمال رئيس قد وضع فى السفن التركية — ولأول مرة فى تاريخ البحرية العالمية — مدافع ذات مدى بعيد ، بحيث تتمكن من إصابة سفن العدو من مسافة معينة ، بينما تسقط طلقات العدو خارج مجال مرمى السفن التركية ولاتصيبها .

أدار الأسطول البندق دفته نحو الشمال وهو فى حالة يرثى لها .

تقابلت فى هذه الحرب (٤٠٠) سفينة ، وعشرات الألوف من رجال البحرية

وجها لوجه ، وهى أول حرب بحرية مفتوحة كبرى ، انتصر فيها الأتراك (١٤٩٩/٧/٢٨) . سمى الأتراك جزيرة Sapienza ، جزيرة براق رئيس .

سقطت Lepanto (١٤٩٩/٨/٣٠) بعد (٣٣) يوما من انتصار Sapienza البحرى . أما البنادقة فقد احتلوا جزيرة كفالونيا التى كانت لدى الأتراك منذ (٢٠) سنة (١٤٧٩ — ١٤٩٩) ، حاولوا أخذ Preveze ، لكنهم شتتوا .

سار بايزيد الثانى من أدرنة بعد أن قضى الشتاء فيها ، يوم (٧ نيسان ١٥٠٠) وجاء مع الأسطول إلى قلعة Modon البندقية فى جنوب مورا ، وخلال الفترة من (١٠ - ١٦) آب (١٥٠٠) ، استسلمت القواعد البحرية والقلاع البندقية الموجودة فى جنوب مورا بالتسلسل Navarin , Fenar , Milona , Modon , Koron . وهكذا تم تصفية البندقية ، من مورا واليونان . وفى هذه الحرب ذاتها كذلك ، تم فتح Draç آخر قاعدة للبنادقة فى ألبانيا (١٥٠٢/٨/١٣) .

أرادت فرنسا فى هذه الأيام أن تساند البندقية ، فجاء الأسطول الفرنسى الذى يحتوى على (١٠,٠٠٠) جندى مشاة أمام ميناء ميديللى فى أواسط أيلول (١٥٠١) ، وحاول لمدة ستة أشهر إسقاط القلعة ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، وعلى أثر انتشار خبر قدوم الأسطول التركى إلى المنطقة ، أراد الأميرال Revenstein ، اللجوء إلى جزيرة Cergio (بالتركية : جوها) الواقعة جنوب مورا . غرق كل الأسطول الفرنسى هنا على أثر هبوب عاصفة وتمكن عدة أشخاص فقط من النجاة (هامر ، ٤ ، ٧٠) .

طلبت البندقية الصلح . لم يتمكن Andrea Gritti - الذى انتخب بعدها دوج رئيس جمهور - حين حضر إلى استانبول لإجراء مفاوضات الصلح ، من الحصول على نتيجه . وأرسل Zacharia Freschi بصلاحيات أوسع ، وأبرمت فى (١٤ ك ١٥٠٢/١) معاهدة استانبول المكونة من (٣١) مادة . أعطيت كافلونيا فقط للبنادقة . عقدت، بعدها تركيا صلحا مع كل من المجر (١٥٠٣/٨/٢٠) ، فرنسا ، إنكلترا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وبولونيا ، ونابولى ، وزودس .

بدأت فى أوربا فترة صلح دامت قرابة (٢٠) سنة . كانت الدولة العثمانية مضطرة للالتفات نحو الشرق ، حيث كانت تجرى أمورا مهمة فيه .

وفى الوقت الذى ساد الاعتقاد فيه أن مسألة قرة مان قد أغلقت وطويت فى سجل التاريخ ، جاء قره مان أوغلو مصطفى بك ، الذى كان يسكن فى تبريزه منذ سنين إلى الأناضول . وهو حفيد أول قرة مان بك نوره صوفى فى البطن (٨) وحفيد محمد بك الثانى فى البطن (٣) ، واحتل لارنده (قره مان) مع التركمان الذين جمعهم حوله . وعندما ثار عليه الأمير شهنشاه ابن البادشاه الساكن ق قونيه (أمه قره مانية) ، فر إلى طرسوس ولجأ إلى المماليك . أمر السلطان المملوكى الذى لايود نزاعاً مع العثمانية بسبب القرمانيين بقتله .

(١٣) ظهور الشاه إسماعيل

كان مؤسس الطريقة الصفوية الشيخ صفى الدين متصوفا سنيا خالصا ، حصلت تكيته التى أسسها فى مدينة أردبيل فى جنوب آذربيجان ، على شهرة واسعة من (١٣٠١) حتى وفاته فى (١٣٣٤) ، وقد وصلت مكانة وشهرة هذه التكية إلى حد أن تيمور زارها وتبرع لها . اعتنق حفيد حفيده ، شيخ الطريقة الخامس (١٤٤٧ - ١٤٦٠) جنيد ، المذهب الشيعى وأدهش الجميع ، وقد كان المذهب الذى اختاره من بين مذاهب الشيعة هو مذهب الشيعية الإثنى عشرية التى لاتخلو من الإفراط . ويترتب على هذا بطبيعة الحال أن يرفض سلطة الخليفة ويعترف بالشيخ الصفوى إماما .

خرج الشيخ جنيد الشاب ، فى السنة التالية (١٤٤٨) لجلوسه على بساط المشيخة ، من أردبيل وجاء إلى الأناضول .

جمع حوله بالدعاية عشرات الألوف من التركمان الجهلة . تزوج (١٤٥٨) بأخت السلطان أوزون حسن ، خديجة بغيم السنية - الحنفية الخالصة . كان أوزون حسن سنيا صميما ، ولكنه لعدم وجود نزعة التعصب تجاه الأديان والمذاهب الأخرى لدى الاتراك ، أراد أن يرتبط بهذا الشيخ ليتمكن من جمع الشيعة حوله لمواجهة تركمان قرةقويونلو عدوه الشيعى الذى يريد التخلص منه ، ولم يخطر بباله قط أن هذه المعاهدة سوف تشكل عليه خطرا فى يوم من الأيام .

قتل الشيخ جنيد . تسلم المشيخة (١٤٦٠/٣/٣) بدلا منه ابنه الطفل المولود من خديجة بغيم . سانده كذلك لخاله أوزون حسن . لم يكترث بمذهبه الشيعي أبدا .

قام حيدر الذى ولد فى نيسان ١٤٦٠ فى سراى اقويونلو المملوكة لخاله فى مدينة عامد (دياربكر) ، بإدارة تكية أردبيل بالوكالة و لم يكثر التردد عليها . قتل وعمره (٢٨) سنة (١٤٨٨/٧/٩) . كان قد تزوج فى (١٤٧٧) عند بلوغه سن (١٧) بابنة خاله أوزون حسن ، حليمة علم - شاه بغيم . ولد من هذه الزيجة الشاه إسماعيل فهو بذلك حفيد لأوزون حسن كذلك .

أعلنت فى (١٤٩٤) مشيخة إسماعيل وعمره ٧ سنوات بعد مقتل أخيه الكبير . بدأ تعقب أتراك أقويونلو للصفويين ، بسبب تجمع تركمان الأناضول حول شيوخ الصفوية .

كانت حليمة بغيم التى لم تترك المذهب السنى أبدا ، تقوم بحراسة ابنها إسماعيل الطفل . وبعد نزاع مرير ، طرد الشيخ إسماعيل وعمره (١٥) سنة ، أتراك آقويونلو من تبريز (١٥٠٢) وأعلن نفسه شاها .

أمر بقتل والدته التى ثبتت وأصرت على المذهب السني ، وحول إيران السنية بالدم والنار ، إلى إيران شيعية . حظر اعتناق المذهب السنى ، وقتل من قبض عليه من الرجال السنيين ، وأرسل النساء والبنات إلى دور البغى .

هزم خاقان تركستان (أتراك الشرق) شايباك خان بن جنكيز ، فى حرب ميدانية وقتله وكسى جمجمته بالذهب الخالص ، وشرب فيها الشراب .

تفوق على المماليك عسكريا واقتصاديا ، وأصبح حاكما للدولة المقتدرة الثانية فى العالم بعد العثمانية . كانت إمبراطوريته تشمل إيران ، شرق الأفغان ، المناطق الوسطى والشرقية من قفقاسيا الجنوبية ، داغستان ، الأناضول الشرقية ، العراق والأحساء فى البلاد العربية .

كانت الدولة الصفوية ، دولة تركية كذلك ؛ فالجيش بكامله يتكون من الأتراك . وجميع ولاة الإيالات ، أمراء تركمان ذهبوا من الأناضول . الشاه إسماعيل ، هو أحد أكبر الشعراء الأتراك .

الشاه فى نظر رعاياه ، وخاصة جيشه شيء قريب إلى الله ، وهناك عدد غير قليل من التركمان الجهلة الذين يعتقدون بأنه هو الله بذاته .

وهكذا قسم الشاه إسماعيل العالم الإسلامى السنى والتركى إلى فريقين . كان قد دخل بين تركيا و تركستان وألقى بمستقبل التاريخ التركى إلى متاهات مظلمة . كان دخوله إيران واستيطانية فيها باقتدار وقوة ، أقوى بكثير من مجيء الفاطميين - فى حينه - من المغرب واستيطانهم فى مصر . وبينا استؤصل المذهب الشيعى من مصر بضربة واحدة من صلاح الدين الأيوبى ، ماتزال إيران حاليا شيعية بسواء كانت لغتها الأم تركية أم فارسية . حقق الشاه إسماعيل هذه النتيجة باستيلائه على إيران (التى يشكل أكثريتها السنيون) من حوزة أتراك آقويونلو السنيين .

كان هدف الشاه إسماعيل ، هو تركية العثمانية . إذ إنه كان تركيا . لم يكن الشاه إسماعيل من نسل أوغزخان ، لكنه تربى فى جو تركمانى التقاليد . كان يدرك أن انتصاره النهائى سيحرزه بالقضاء على العثمانية . كان قد جلب كامل جيشه من الأناضول ، وكان لايزال آلاف التركمان يردون سنويا من الأناضول وينضمون إلى جيشه .

كان التركمان ، وخاصة أمراءهم فى الأناضول ، قد فقدوا كافة امتيازاتهم تحت وطأة الإدارة المركزية المركزة ، وأصبحوا مواطنين عاديين ، وكانت امتيازات الإمارة بالنسبة لهم أهم من مسألة المذهب .

لم يترددوا فى الذهاب إلى إيران واعتناق المذهب الشيعى ، بينما كانوا سنيين فى الأناضول ؛ حيث إن والى الإيالة هناك ، يكون قائدا وتستمر امتيازاته كلها . أما فى الأناضول فكانوا تحت إمرة الموظف الصغير الذى ترسله العثمانية من إستانبول . ولا يمكنهم جمع الضرائب وحشد الجنود أو ممارسة السلطة .

أرسل الشاه إسماعيل عملاءه وعيونه — الذين يسمى واحدهم « خليفة » — إلى الأناضول لإدخال « التركمان » الذين لم يسكنوا المدينة ، ويصبحوا « أتراكا » ، إلى المذهب الشيعى .

من ناحية أخرى ، كان يسعى إلى إضعاف وكسر شوكة الدولة العثمانية فى الأناضول عن طريق الفوضى والإرهاب .

وعلى الرغم من أن مصر كانت حائزة على الخليفة ، والمدن الإسلامية المقدسة والأمانات الإسلامية المقدسة والمؤسسات الإسلامية الكبرى كالجامع الأزهر ، فإنها كانت بالنسبة للشاه مسألة ثانوية ، ذلك أنه كان يدرك أنه عندما تتضعضع العثمانية فسوف تضمحل المماليك . والعكس ليس صحيحاً ، وكان يعلم أن الدولة المملوكية فى حالة انحطاط وفى فترة تدنٍ ، أو هى على أقل تقدير ، فقدت حيويتها ، أما العثمانية ، فإنها تعيش فترة حيويتها ، مستهدفة إقامة الدولة العالمية .

أرسل الشاه ، سفراء إلى البندقية ليخبرها بأنه عازم على القضاء على العثمانية ، وأنه على الدول الأوربية إن كانت تريد الحصول على بعض المكاسب أن تتحرك من روملى . كان يعلم أن البندقية ، هى مركز الدبلوماسية الأوربية .

لم يسع البندقية أن تقبل طلب حفيد حليف البندقية السابق أوزون حسن ، فقد كانت قد خرجت من حرب كبيرة مع العثمانية ، جلبت لها الهزيمة والانهيار الاقتصادى ، وهكذا لم يتيسر للشاه ، فى الوقت الحاضر، أن يجد له حليفا جادا .

قدم الطلب ذاته إلى القاهرة ، ولكن مصر كانت تدرك أنه لو اضمحلت العثمانية فسوف يتسلط الشاه إسماعيل عليها ، فأعرضت عن هذا الشيعى العاصى الذى تنفر منه .

طلب الشاه إسماعيل فى (١٥٠٧) ، إحدى بنات دلقادر أوغلو عبد الدولة بوزقورد بك ، للزواج بها . رفض دلقادر أوغلو تزويج ابنته من شيعى . اتخذ الشاه هذا الرفض ذريعه ودخل أراضى دلقادر . خرب مرعش وألبستان وأحرق جميع قبور سلالة دلقادر الموجودة فى تلك المدن ، وتمكن من القبض على أحد أبناء وحفيدى علاء الدولة وقتلهم . أرسل إلى بايزيد الثانى رسالة يعتذر فيها لاضطراره إلى المرور من الأراضى العثمانية .

كان دلقادر أوغلو علاء الدولة بك ، والد زوجة بايزيد الثانى ووالد أم الأمير ياوز سليم عائشة خاتون . لم تبد القاهرة واستانبول أى رد فعل إزاء مافعله الشاه ؛ وبناء على ذلك زاد اعتبار الشاه فى الأناضول وفى العالم الإسلامى بصورة كبيرة (١٥٠٨) .

جاء جيش عثمانى مكون من (١١٥٠٠٠) جندى إلى قيصرى . انتظر فيها طيلة سنة (١٥٠٨) تردد الشاه فى دخول حرب ميدانية ، وأرسل إلى البادشاه رسالة يستهلها بقوله : « أبى المبجل والمعظم » وأنسحب إلى عامد (دياربكر) .

جاء رد الفعل من الأمير (الشهزاده) سليم ، والأمير سليم هو حفيد (من ناحية الأم) دلقادر أوغلو علاء الدولة بك الذى فر من بلاده عندما ثار عليه الشاه .

كان سليم-رابع أبناء بايزيد الثانى الثمانية-واليا على لواء طرابزون ، وكانت أمه دلقادر أوغلو عائشة خاتون ، قد توفيت فى طرابزون قبل هجوم الشاه على بلاد دلقادر بقليل (١٥٠٥) ، ودفنت فى الجامع الذى شيدته فى هذه المدينة .

استدعي الشهزاده سليم ، آقويونلو (أصحاب الخرفان البيض) سلطان مراد آخر إمبراطور لأتراك آقويونلو فى إيران الذى طرده شاه إسماعيل من عرشه إلى طرابزون ومنحه وأولاده بيوتا ووظائف .

كان السلطان مراد متزوجا بعمة الشهزاده سليم ، وكانت أخت السلطان مراد ، تاجلى بغيم متزوجة بالشاه إسماعيل ، وكما سنرى سوف تؤسر تاجلى بغيم فى واقعة جالديران من قبل السلطان سليم .

سار السلطان سليم على كرجستان بـ (٣) حملات ، أشهرها حملة Kütayis فى (١٥٠٨) .

فتح فى هذه الحملات من الكرج الـ (١٥) قصبة الموجودة حاليا فى الجمهورية التركية ضمن الإيالات:قارص ، أرضروم آرتفين ، وأضافها إلى الأراضى العثمانية بصورة نهائية (بوسوف ، هاناك ، أردخان ، جلدر ، كوله ، إيسبر ، طورطم ، نارمان ، أولطو ، اولر ، شنقايا ؛ شاوشات ، آردانوج ، يوسف إيلى ، مركز آرتفين) . وفتح عدا ذلك آهيسكا وآهيلكلك اللتين بقيتا فى كرجستان حاليا .

أسلم جميع الكرج القاطنين فى هذه المناطق بصورة كاملة .

واحتل كذلك المدن من مخلفات إمبراطورية آقويونلو وهى: بايبورت،آرزنجان ، كاو ، إيسبر ، كموشخانه ، جميشكزك (طونجلى) وماجاورها وأضافها إلى لوائه .

أرسل الشاه ، الذى يدعى أنه وريث كل مخلفات آقويونلو ، أخاه إبراهيم ميرزا لاسترجاع هذه الأراضى . استصحب الشهزادة سليم ابنه الوحيد الشهزاده سليمان البالغ عمره (١٢) سنة وسار بسرعة إلى أخى الشاه . عثر على الجيش الصفوى قرب آرزنجان ودمره ، وأسر إبراهيم ميرزا .

أدت انتصارات الشهزاده سليم على الشاه ، الذى يسعى الخاقان جهده لعدم خلق مشكلة معه، إلى إكساب سليم اعتبارا كبيرا ، ولحنت فيه قصائد شعبية مثل: « سر سلطانى سر ، اليوم يومك » .

إن إدراك سليم للخطر الشيعى بهذا الشكل ، وإثباته فعليا قدرته على اتخاذ التدابير وحيازته على لواء فى مكان بعيد كطرابزون ، فتح طريق العرش أمام ابن البادشاه الصغير السن .

بناء على شكاية الشاه ، أملى الديوان الهمايونى على البادشاه رسالة لابنه . أطلق الشهزاده سليم سراح أخى الشاه ، ذلك بالإضافة إلى إخلاء آرزنجان ، وبايبورت ، وكماه وإيسبر وإعادتها للصفويين ، لكنه أعلن أن هذا العمل يعنى انعدام الشرف وأن آرزنجان لم يمض وقت طويل على فتحها على يد يلدرم بايزيد .

استاء الجيش من تسليم أراض للصفويين ، لم يلق تصرف الديوان الهمايونى ارتياحاً سواء لدى الجيش أو شعب أناضول ، أو الشهزاده سليم .

بعد أن نفذ أوامر الديوان وهو غاضب ، ترك سليم لواءه، دون طلب موافقة ، وانتقل فجأة إلى قرم فى خريف (١٥١٠) ، وأبلغ إستانبول بذريعة تهكمية مفادها اشتياقه لابنه الوحيد الشهزاده سليمان ، الذى كان أميرا على لواء كفة فى قرم منذ (١٥٠٩/٨/٦) ، والحقيقة أنه ذهب إلى قرم للحصول على مساندة والد زوجته خان قرم منكلى كيراى ، حيث كان إخوته الكبار قد بدءوا التحرك لوراثة العرش .

١٤ - مسألة الشهزادات (الأمراء) (١٥٠٩ - ١٥١٢) .

خلف بايزيد الثانى (٨) أبناء و(١٩) ابنة . أبناؤه حسب تسلسل أعمارهم هم : أولو شهزاده (١٤٨١ - ١٤٨٣) داماد عبد الله (١٤٦٥ - ١٤٨٣) ،

أولو شهزاده (أى ولى العهد) (١٤٨٣ - ١٥١٢) سلطان أحمد (١٤٦٦ - ١٥١٣) ، شهزاده سلطان قورقود (١٤٦٧ - ١٥١٣) ، ياوز سلطان سليم (١٤٧٠ - ١٥٢٠) ، شهزاده شهنشاه (١٤٧٤ - ١٥١١) ، شهزاده محمود (١٤٧٥ - ١٥٠٧) ، شهزاده محمد (١٤٧٦ - ١٥٠٤) ، شهزاده علم شاه (١٤٧٧ - ١٥٠٢) .

وبوفاة أمير لواء (والى) صاروخان الشهزاده محمود فى أواخر (١٥٠٧) فى مانيسا ، بقى للبادشاه (٤) أبناء أحياء : أحمد ، قورقود ، سليم وشهنشاه . كانت والدة آخرهم قرة مان أوغلو حسن (بضم حرف الحاء) شاه خاتون . ولذا أعطى الشهنشاه عرش قرة مان،أى أصبح واليا (فريق أول ، بكلربك) على قونية ، وقد حكم هذه الأيالات ذات البلايا بدراية تامة - بصحبة والدته - مدة ٢٦ سنة ، (٧) شهر وتوفى فى قونية فى (١٥١١/٧/٢) وعمره (٣٧) سنة ، ودفن فى بورصه . وبناء على ذلك ترك الشهزاده الأخير الذى يمكن أن يرث العرش المسرح فى صيف (١٥١١) ، وبقى المجال للإخوة أحمد ، قورقود وسليم .

كان السلطان أحمد أولو شهزاده ، أى ولى العهد ، منذ سنوات طويلة منذ وفاة أخيه الكبير أولو شهزادة عبدالله فى (١٩٨٣/١١/٦) . وكان واليا (سنجق بك ، لواء) على آماسيا (وبضمنها طوقات) منذ (١٤٨١/٥/٣) . كان السلطان قورقود خان الذى يصغره سنة واحدة رجلا داهية ، له ابنتان ، ومات له ابنان من الأمراء وهما طفلان . أى أنه بلا وريث . وكان ذلك مما يضعف حق ادعائه العرش . تولى قورقود خان لواء صاروخان (مانيسا) مدة (١٩) سنة (١٤٨٣/١٢/٣٠ - ١٥٠٢) ، ومكن لنفسه فى لواء صيغلا (أزمير) خلال هذه المدة . وفى (١٥٠٢) كلف بإدارة ألوية تكه وحميد (أنطالية وإسبارطه) ودفع إلى مناطق أبعد ، مما أدى إلى حالة عدم ارتياح واضحة لدى الشهزاده ، وقد كان ذلك مكيدة دبرها أخوه الكبير الشهزاده أحمد .

كان السلطان قورقود حاميا كبيرا للبحارة الأتراك ، البحرية وصاعقة البحر، الذين يطلق عليهم اسم « قرصان » ، وكان محبوبا من البحرية التركية . لكن البحرية لم يكن لها نفوذ يعتد به فى النظام العثمانى،فى أى وقت من الأوقات ، إذا ماتكلم الجيش .

ترعرع وازدهر أميرالات البحرية التركية العظام فى القرن (١٦) بحماية السلطان قورقود لهم . ومن بين هؤلاء أوروج رئيس ، وأخوه بربروس ، وطرغد باشا .

له مؤلفات بالعربية والتركية فى علوم الفقه ، والكلام ، والأخلاق،والتصوف .

كان الشهزاده عالما وفى ذات الوقت شاعرا ، وخطاطا ، وموسيقارا (فى موسيقى الساز التركية) وملحنا قديرا .

إن الحركات العسكرية المهمة التى حققها أخوه السلطان سليم ضد الصفويين دون حصوله على إذن من إستانبول ، وطبيعة الشهزاده قورقود ، لفتت فى إستانبول أنظار البادشاه ، الديوان (الحكومة) والجيش ، وأصبح واضحا أن جلوس أولو شهزاده أحمد على عرش أبيه لن يقابل بارتياح عند حلول موعد الجلوس .

تحرك قورقود بـ (٨) سفن و(١٣٧) شخصا من معيته من أنطاليا معرباً عن عزمه على الذهاب إلى الحج مقلدا عمه السلطان « جم » لإلقاء الخوف فى قلب أبيه . وفى ٢٩ أيار ، استقبله السلطان قانصوه فى القاهرة باحتفال عظيم جدا . ثم عاد .

لم يستجب طلبه فى منحه ولاية مانيسا القريبة من استانبول والتى ولى فيها سابقا . وأعطيت له إدارة أنطاليا وإسبارطة .

أما السلطان سليم ، فكان يقضى وقته فى قرم . كتب أولو شهزاده أحمد رسالة إلى خان قرم منكلى كيراى ، أبلغه فيها بأنه سوف يشكوه إلى أبيه ويطلب عزله، وطلب إليه أن يترك مساعدته لصهره سليم . لم يلتفت منكلى كيراى لذلك . أصدر الديوان أمره إلى الأمير بالعودة إلى لوائه فى طرابزون ، ولكن السلطان سليم ، إضافة إلى انه لم ينفذ أمر العودة إلى طرابزون ، ترك قرم وانتقل إلى روملى وطلب منحه لواء فى روملل، ولم تكن تعطى ألوية إلى الأمراء فى روملل نهائيا فى ذلك الوقت .

رغم ذلك ، أعطى للشهزاده سليم فى (١٥١١) ، إدارة (٥) ألوية دفعة واحدة (سمندرة ، وفيدين ، وآلاجه حصار ، ونيغبولو، وأيزفورنك) . وطد الشهزاده أقدامه بشكل متين فى ضفاف ألطونة الجنوبية .

كانت الأناضول فى هذه الأيام مسرحا للدم والنار ، وقد فتح ذلك طريق العرش أمام الشهزاده سليم ، باعتباره الشخص الوحيد الذى يمكنه دفع المصيبة الصفوية .

حدث عصيان شاهقولو فى هذه الأيام ، وشاهقولو هذا تركمانى من تكه (أنطاليا) ، أصبح لمدة من الزمن ضابطا سباهيا (خيالا) فى الجيش العثمانى ، ثم هرب إلى إيران بناء على دعوة من الشاه . حيث جرى تعليمه هناك وأصبح خليفة (وكيل مخابرات) فى أعلى المراتب .

جمع شاهقولو حوله جماعة من المهاجرين بعد دخوله خلسة إلى الأناضول . سار الوزير الأعظم على باشا إلى المتمردين . أباد شاهقولو وأعوانه فى الحرب الميدانية كوكجاى بين قيصرى وسيواس ، لكنه استشهد (تموز ١٥١١) . ولقد كان موت على باشا الذى بقى فى السلطة مدة (٧) سنوات وكان مؤيدا للشهزاده أحمد ، عاملا آخر لصالح الشهزاده سليم .

جاء الشهزاده سليم من فيدين إلى أدرنة فى نفس اليوم الذى سقط فيه الوزير شهيدا (تموز ١٥١١) ، وتقدم حتى جورلو . ولما خرج أبوه أمامه ، تشتت وحدات الشهزاده ، وتمكن من الهرب بفضل حصانه العداء المسمى « قره بولوت » أى السحاب الأسود (أوغراش ده ره سى ، ١٥١١/٨/٣) . ولم يتمكن من العودة إلى روملى .

ركب البحر وذهب إلى كفة فى قرم جوار ابنه سليمان .

تقدم أولو شهزاده محمد ، الذى ظن أن الفرصة قد واتته ، إلى مدخل استانبول وجاء حتى مالتبه (١٥١١/٨/٢١) ، لكن الجيش لم يرغب فى دخول ولى العهد إلى استانبول ، فقام بمظاهرات .

أمر الديوان ولى العهد بالعودة إلى لوائه .

جاء السلطان أحمد إلى قونية بدلا من ذهابه إلى آماسيا ، وطرد ابن أخيه محمد شاه (ابن الشهزاده شهنشاه) الذى كان واليا (سنجق بك) على لواء قونية ، وأعلن سلطنته فيها ، وهكذا أصبح فى وضع المدعى ، وفقد صفة ولى العهد الشرعى .

ظن الشهزاده قورقود أنه نال السلطنة عندما أصبح أخوه فى وضع العاصى . وكان يأتى بعده حسب تسلسل العمر ، فجاء فجأة من مانيسا إلى إستانبول . واجتمع بأبيه ، وبالجيش وبالعلماء . أظهر الكل له المودة والاحترام ، لكنهم أبلغوه بأن الحل الوحيد هو جلوس الشهزاده سليم .

جاء قرار تخلى بايزيد الثانى عن العرش نهائيا كمراد الثانى . وقد كان يرغب التخلى لصالح ولى العهد الشرعى أبنه الأكبر أحمد . لكن كون سليم ، الشهزاده الوحيد الذى تعلق عليه الآمال فى دفع البلية الصفوية ، وتمكن سليم من تقديم نفسه للجيش على هذا الأساس ، بالإضافة إلى طبع السلطان أحمد المنافى للسياسة..كل ذلك جعل البادشاه يدرك أنه لن يتمكن من التخلى عن العرش إلى شخص آخر ، غير ابنه سليم ، وقد صاحب ذلك كله أن انتهز الشاه فرصة ترك السلطان أحمد أماسيا وإقامته فى قونية بدون إذن ، فأرسل خليفته المسمى نور على إلى منطقة آماسيا – طوقات . حيث ولد اضطرابات كبيرة ، سببت زيادة سقوط اعتبار السلطان أحمد .

أقام الجيش فى إستانبول مظاهرة كبيرة تؤيد السلطان سليم شاه بصراحة (١٥١٢/٣/٦) .

أدرك السلطان بايزيد أن الدماء ستهدر فى حالة إصراره على ابنه الكبير .

دعى السلطان سليم بصورة رسمية من سمندرة التى يقيم فيها . جاء الشهزاده إلى استانبول فى (١٩) نيسان .

كان السلطان قورقود الذى يكبره سليم بـ (٣) سنوات ، فى استانبول . استقبل أخاه بنفسه وهنأه ، وبذلك يكون قد أظهر قبوله سلطنة أخيه .

كان عمر بايزيد فى ذلك التاريخ (٦١/٥) سنة ، والسلطان أحمد (٤٦) سنة ، السلطان قورقود (٤٥) سنة ، والسلطان سليم (٤٢) سنة .

أعلن السلطان بايزيد فى (٢٤) نيسان وكان مريضا تخليه عن العرش لابنه سليم .

كان السلطان سليم راغبا فى إقامة والده فى السراى القديم فى بايزيد ، لكن السلطان بايزيد رغب فى الإقامة فى سراى Dimetroka .

تحرك السلطان بايزيد إلى Dimetoka بعد مكوثه (١١) يوما فى السراى القديم ، ولم يستطع ركوب الحصان لمرضه ، فنقلوه على المحفة .

شيعه ابنه السلطان سليم حتى الأسوار ، وودعه مقبلاً يده .

كان موكبه يسير بطيئا بسبب مرضه ، وكان يستريح فى كل موقف عدة أيام . لم يتمكن من الوصول إلى قرب ديمتوكا ، وتوفى بعد (٣٢) يوما من مغادرته إستانبول فى قرية آبالر فى قصبة حوصة (حفصة) (١٥١٢/٥/٢٦) .

نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن قرب الجامع الذى شيده .

دامت سلطنة بايزيد الثانى (٣٠ سنة ، و١١ شهر ، و٢٢ يوما ، وبعبارة أخرى ٣١ وشهرين و٢٨ يوما) كان قبلها قد عمل وليا للعهد لمدة طويلة جدا (٣٠ سنة ، ٢ شهر ، ٢٨ يوما) . كان طفلا قد أكمل الأشهر الأربعة من عمره ، عندما اعتلى أبوه فاتح العرش للمرة (٣) (على اعتبار الرواية القائلة : إن ولادته (ك ١٤٥٠/١) ، وتقول الرواية الأخرى : إن ولادته حدثت فى (ك ١٤٤٨/٢) . تطلق عليه صفات ولى ، وصوفى، وغازى .

كان شاعرا ، وملحنا ، وعالما ، وخطاطا ، ومذهبا ، وصانع أقواس ، وهو أعلم بنى عثمان بعد أبيه فاتح . أخذ العلم عن علماء وجنرالات على درجة عالية من العلم والقدرة .

كان يجيد الأبجدية الأويغرية ، وتعلم جيدا اللغات الشرقية مع آدابها . وإضافة لذلك أخذ الرياضيات والفلسفة ، والعلوم الدينية عن أعلام تلك العلوم فى عصره . ولمزاياه هذه ، كان لوفاته وقع أليم ليس فى تركيا فحسب ، بل فى العالم الإسلامى أجمع . وعند سماع القاهرة بخبر وفاته ، أقيمت صلاة الجماعة للميت الغائب ، وكان على رأسها السلطان قانصوه.

توطدت واستقرت بشكل كامل فتوحات أبيه الكبرى . حافظ على سياسة والده العسكرية والبحرية ، وعزز الجيش والبحرية وجعلها ضعف ماكانت عليه فى السابق . زود بعض سرايا الانكشارية بالبنادق وأسس أول مشاة من حملة البنادق . كانت له مكانة عالية فى جميع الأقطار الإسلامية ، فى آسيا وفى أفريقيا وكانت له مكانة كبيرة فى إيطاليا .

ساند كثيرين من الحكام والفنانين الإيطاليين ماديا بالنقود ، وعندما توسط فى إطلاق سراح دوق Mantova الذى أسره البنادقة نفذ مجلس الأعيان البندقى رغبة البادشاه فى جلسة واحدة (هامر ، ٤ ، ١٠٤) .

كان الشاعر الإيرانى الكبير ، "جامع" المقيم فى هرات ، وشيخ النقشبندية الكبير المقيم فى بخارى يتسلم كل منهما سنويا من السلطان بايزيد مبلغ (٥٠٠) آقجه ، ويمكن قياس عطاياه الأخرى على ذلك .

كان يقرأ بدقة كل مؤلف جديد يهدى إليه ، ويعطى للمؤلف مكافأة تتفق وقيمة الكتاب كأجر عن التأليف ، ويستدعى المؤلفين ذوى الكتب القيمة ويقابلهم ، ولايشجع المؤلفين الذين كتبوا مؤلفاتهم تملقا ومداهنة . كان رحيما ووفيا ومنصفا .

كتب الدبلوماسى الشهير Andrea Gritti الذى أصبح بعدها دوج،أى رئيس جمهور،البندقية ، على أيام بايزيد الثانى باليوز (سفير) البندقية فى استانبول ، يصف البادشاه فى رسالته السرية التى أرسلها إلى مجلس الأعيان يقول (١٥٠٣ ، Cantacasin ، Origine des Turcqz ، ص ٥٩ — ٦٢) :

« قامته أطول من المتوسطة ... لايتعاطى الشراب أبدا ؛ كان يشرب فى شبابه ثم تاب بضغط من أبيه ، يأكل قليلا ، يسر جدا لركوب الخيل ... أحب شىء إليه الصيد ورياضات الفروسية . يعظم الشعائر الدينية ويتصدق كثيرا ، يهتم بالفلسفة وعلوم الفلك ... وعدا الوقت الذى يقضيه فى الاطلاع ، فإنه يخصص وقتا طويلا للاهتمام بأمور إصلاح جيشه وتنسيقه وتنميته ... زاد عدد الانكشارية ، جهز جيشه بالأسلحة الحديثة والنارية ، أجرى إصلاحا جذريا خاصة بالنسبة للمدفعيين ونقلة المدافع . يتابع هذه الأعمال بدقة . خيالته وأسطوله ، هما اللذان حققا الأحداث الخارقة التى شهدناها ، فقد نظمها بشكل تستطيع به التجمع والاحتشاد بسرعة » .

لم يشهد عهده تلك الفتوحات الكبيرة جدا ، التى شوهدت على عهد أبيه وعلى عهد ابنه . تمكن خلال (٣٠) سنة من التوسع بمقدار (١٦٠,٠٠٠) كم^2 .

كانت مساحة الإمبراطورية عند وفاته نحو (٢,٢٧٣,٠٠٠) كم^2، والدول التابعة المستقلة ذاتيا ضمن هذه المساحة وهى : إمارة قرم ، إمارة قسيم الواقعة بالقرب من

موسكو ، إمارات أفلاق، بغدان، والرومان ، جمهورية دبروفنك الصغيرة ، إمارة دلقادر .

أطول من بقى فى السلطة من وزارئه الأعظمين (رؤساء الوزارة) ، هم داماد قوجا (بالتركية : بغدان عن سواحل البحر الأسود بشكل تام وفتحه القلاع .. ولو أنها تبدو وكأنها عمليات صغيرة ، إلا أنها انتصارات إستراتيجية مهمة .

أطول من بقى فى السلطة من وزرائه الأعظم (رؤساء الوزارة) ، هم داماد قوجا داوود باشا (١٤٨٢ - ١٤٩٧) ، خادم عتيق على باشا (١٥٠١ - ١٥٠٣ + ١٥٠٦ - ١٥١١) ، داماد هرسك - زاده أحمد باشا (١٤٩٧ - ١٤٩٨ + ١٥٠٣ - ١٥٠٦ + ١٥١١) . منح الوزارة العظمى (رئاسة الوزارة) (١٤٩٨ - ١٤٩٩) إلى إبراهيم باشا ، كذلك ابن جاندارلى - زاده خليل باشا الذى أعدمه فاتح .

توفيت أمه كلبهار خاتون وهى ألبانية الأصل فى (١٤٩٣) خلال سلطنته وعمرها (٥٨) سنة .

(١٥) السلطان ياوزسليم وإخوته الكبار (١٥١٢ - ١٥١٣) .

كان السلطان سليم ـــ الذى سمى « ياوز » ، أى (شديد) لقسوة طبعه منذ أن كان أميرا ، « سليم شاه » ـــ مضطرا التأمين الأمن والوحدة فى الداخل لحل قضية إيران ، لذا كان يجب عليه قبل كل شىء ، تنحية أخيه الكبير ، الذى لايزال يدعى حق ولاية العرش .

دعا ابنه من كفة فى قرم إلى استانبول ، عند اعتلائه العرش . ترك أولو شهزاده سليمان ، نائبا للسلطنة فى استانبول عندما انشغل بقضية إخوته فى الأناضول،وكذلك خلال فترة حملة إيران الطويلة . كان سليمان ، الابن الوحيد للسلطان ، فى الـ (١٧) من عمره عند جلوس أبيه .

خرج مع (٧٠,٠٠٠) جندى إلى بورصة ، ومنها جاء إلى أنقرة . ترك السلطان أحمد قونية وذهب إلى آماسيا ، ولم يتمكن من البقاء فيها وهرب ، فى اتجاه ملاطية .

أرسل ابنيه إلى تبريز لطلب المعونة من الشاه إسماعيل الذى يتحين الفرصة لهدم تركيا ، والذى تسبب، حتى ذلك ، الحين، فى مقتل آلاف العثمانيين بمؤامراته فى الأناضول .

من الواضح ـــ بطبيعة الحال ـــ أن مجال النزاع كان واسعا ، ويؤكد ذلك ضخامة العدد الذى استصحبه ياوز من الجنود ، ففلم يكن قليلا عدد الذين يعتبرون السلطان أحمد بادشاه شرعيا لكونه الابن الأكبر ، ومن بين هؤلاء الوزير الأعظم لياوز ، قوجا مصطفى باشا ، وقد أعدم عندما ضبطت مراسلاته السرية مع السلطان أحمد .

استوزر داماد هرسك - زاده أحمد باشا للمرة (٤) وأصبح وزيرا أعظم . فى نفس الوقت لم يكن عدد الذين يخشون قسوة ياوز قليلين .

كان الوضع خطيرا إلى الدرجة التى قضى فيها ياوز شتاء (١٥١٢ - ١٣) فى بورصة دون أن يعود إلى إستانبول .

جرؤ السلطان أحمد على المجيء إلى ينى شهر التابعة لبورصة . شتت ياوز قوات أخيه الكبير بسهولة ، فى الحرب الميدانية التى جرت فى (١٥١٣/٤/٢٤) .

خُنق السلطان أحمد بالقوس والوتر بعد أسره ، ودفن فى بورصة وكان عمره (٤٧) سنة .

كان لياوز أخ آخر على قيد الحياة ، وكان أحب إخوته إليه ، وهو السلطان قورقود الذى يكبره بـ (٣) سنوات . كان ياوز قد ولى أخاه السلطان قورقود الذى اجتمع به فى إستانبول على (٣) ألوية مدى الحياة (تكه = أنطالية ، حميد = اسبارطة وميدللى) . وقد طلب قورقود إضافة ألوية صاروخان (مانيسا) ، صيغلة (أزمير) ، آيدن ، منتشه (مغله) أى منطقة إيجه بكاملها ، ولم يجب طلبه .

كان قورقود قد غادر إستانبول ، وأقسم على عدم ادعائه حق السلطنة فى أى وقت من الأوقات ، وذهب إلى أنطالية .

أراد ياوز تجربة أخيه وطلب إلى الوزراء أن يحرروا رسائل بأسمائهم تشوقه إلى السلطنة . تورط قورقود وأرسل أجوبة إيجابية على تلك الرسائل المزيفة . اعتقل إثر

ذلك وأعدم فى (١٥١٣/٣/١٧) ، وقد جرى هذا الإعدام قبل إعدام السلطان أحمد بـ (٣٨) يوما .

أعدم ياوز كذلك أبناء إخوته ، ولم يستبق أى أمير عدا ابنه سليمان وعدة أمراء لجئوا إلى مصر وإيران ؛ ذلك أنه كان يعتقد أن أبناء إخوته سوف يدعون الحق فى العرش فى غيابه عند خروجه لحملة إيران .

(١٦) حملة إيران الهمايونية (١٥١٤/٣/٢٠ - ١٥١٥/٧/١١) .
انتصار جالدران (١٥١٤/٨/٢٣) .

أعلنت الحملة فى (٢٠) آذار،وسار الجيش من أسكدار فى ٢٣ نيسان . وصل قونية فى (١) حزيران واستراح مدة (٣) أيام . زار السلطان سليم ، المولوى كأكثرية السلالة ، مرقد مولانا .

ترك الخاقان فى سيواسى التى جاء إليها قوة مكونة من (٤٠,٠٠٠) جندى ، وواصل السير مع (١٠٠,٠٠٠) شخص .

وصل آرزنجان فى (٢٤) تموز وأرضروم فى (٥) آب .

أحرق التركمانى الأناضولى اسطه جالو محمد خان ، أكبر قواد الشاه ، كافة المحاصيل ، كما أحرق بقدر الإمكان ، المساكن الموجودة على الطريق الذى سيسلكه الجيش العثمانى اعتبارا من آرزنجان إلى تبريز .

تقدم الجيش الهمايونى (الإمبراطورى) بصعوبة . كان يسير أياما عديدة وليست لديه أية أخبار عن العدو . كانت المهمات الثقيلة الأساسية قد أرسلت من إستانبول بواسطة الأسطول إلى طرابزون ، ثم تحركت من هناك إلى آرزنجان وتم إيصالها إلى الجيش . جاء الجيش إلى قصبة بايزيد (دوغو بايزيد) ودخل منها إلى آذربيجان ، ونزل نحو الجنوب - الغربى بمحاذاة نهر زنكمار ، ووصل صحراء جالدران قرب ماكو . كان جبل آغرى على بعد (٥٠) كم نحو الشمال ــ الغربى ، يتطلع إلى الجيشين العثمانى والصفوى .

إن جالدران هذه التى بقيت حاليا لدى إيران هى موقع فى شرق تبريز ، وهى ليست - كما تذكرها بعض الكتب - جالدران مركز ناحية قضاء مراديه لولاية وان . إن جالدران الأخيرة هذه ، أخذت اسمها كذكرى عن جالدران التاريخية .

كان الجيش الصفوى فى جالدران منذ مدة ، دخل الجيش العثمانى إلى صحراء جالدران يوم (٢٢) آب .

قرر المجلس العسكرى (ديوان حرب) العثمانى الذى اجتمع ليلة (٢٢ - ٢٣) آب ، القيام بالهجوم فجر يوم (٢٣) آب . كان يوم (٢٣) آب يوما من الأيام التاريخية التى ستقرر مصير تركية . لم تكن الدولة قد تهددت حتى ذلك اليوم بخطر خارجى كبير على هذه الدرجة ، عدا تيمور . كان الشاه تركيا كتيمور ، لكن تيمور كان سنيا ـــ حنفيا ، أما الشاه ، فإنه بالإضافة إلى أسرة للأقطار ، كان يريد أسر النفوس والضمائر ، وكان يستعمل لتحقيق ذلك الإرهاب والدم والنار والسيف . كان من الممكن أن يسفر انهزام الجيش العثمانى عن فرض الصفويين التشيع على أناضول الوسطى وإلحاقها بإيران . حيث إن مدينة عرش الصفويين ، كانت مدينة تبريز ، ولم تكن بعيدة جدا كمدينة عرش تيمور فى سمرقند فى تركستان .

فى الحروب الميدانية العثمانية ، يكون البادشاه دائما فى القلب،ويوجد على طرفيه فى الجناحين فيلقان ، تلتحق بها،إضافة لذلك ، وحدات الطليعة والاحتياط القوية جدا .

أما فى الجيش الإيرانى ، فإن الشاه كان فى الجناح الأيمن ، وكان على قيادة الجناح الأيسر والى دياربكر الفريق الأول اسطه جالو محمد خان تركمن ، ولم يكن هناك فيلق مركزى مستقل .

كان الطرفان متعادلان عددا (١٠٠ . ٠٠٠ محارب لكل منهما) ، وكانوا قد أحضروا وحداتهم الممتازة جدا .

كان الخيالة التركمان ، يشكلون معظم الجيش الإيرانى ، وكانوا قد فرزوا حسب ألويتهم وأيالاتهم ، وعلى رأس كل واحد منها أمراء تركمان .

كان فى الجناح الأيمن العثمانى الفريق الأول سنان باشا،الذى كان واليا على الأناضول ثم صار بعدها وزير أعظم ، ورئيس أركان الجيش والى قرة مان الفريق

الأول زينل باشا ، وسباهيون الأناضول التمارلى ، وفى الجناح الأيسر والى رومللى الفريق الأول (بكلربك) حسن باشا وسباهيون روملى التمارلى . وفى المركز ، البادشاه ، والوزير الأعظم داماد هرسك - زاده أحمد باشا، وكانت فرقة مشاة الإنكشارية الثقيلة موجودة مع فرقة المدفعية ، وكانت فرقة صاعقة رومللى فى مقدمة المركز .

كانت أسلحة الجيش العثمانى حديثة ، وتجهيزاته أكمل ، لكن الوحدات كانت مرهقة فقد قطعت طريقا مضنيا ، وقضى أكثرية الجند الليلة دون نوم بسبب التوتر الذى ولدته أخبار الحرب التى ستجرى فى صبيحة اليوم التالى .

كان تركمان الشاه ، شيعة متعصبين وفرسانا شجعان ومهرة ، لاهدف لهم سوى التضحية بأرواحهم فى سبيل شاههم ، ولم يكن للشاه مدفعية ولامشاة من حملة البنادق .

أما لدى العثمانية ، فإن الانكشارية الذين يبلغ عددهم (١٠,٠٠٠) - عدا بعض سراياهم - وكذلك وحدات كثيرة من المشاة الخفيفة (العزب ،مجهزون بالبنادق ، ولم يكن المدفع قد أصبح بعد ، لافى أوربا ولا فى آسيا ، سلاحا قطعيا ومؤثرا فى الحروب الميدانية ، وإنما كان يعتبر سلاح قلاع وحصار . وإن كان فاتح قد أثبت عكس ذلك عدة سنوات فى أوطلوق . بل ان الدولة الوحيدة التى اعتبرت المدفع ، السلاح الذى لايمكن الاستغناء عنه فى الحروب الميدانية ، هى العثمانية .

بدأ جنود صاعقة روملى بالهجوم استشهد كل من ابنى ماقوج أوغلو بيوك بالى باشا فاتح وارشو ، الذى اشتهر بحملاته على بولونيا ، ولواءى الصاعقة أميرى لواء المغاوير الأخوين على بك وتوز على بك،الواحد تلو الأخر، لايفصل بينهما غير دقائق . وقد دهش الشيعة التركمان ، الذين لايعترفون بوجود محاربين أقدر منهم ، عند مشاهدتهم الهجوم المخيف الذى شنه جنود صاعقة روملى .

أمر البادشاه بفتح الجناحين على شكل هلال ، وأخذت فرقة المدفعية موضعها ، وأخذت كتائب التركمان الشجاعة ، تتساقط بسرعة بنار المدفعية العثمانية . وبينما كان ياوز يتطلع إلى صحراء جالدران المليئة بعشرات الألوف من جنود الصفويين أغلق فيالقه فى الجناحين الأيمن والأيسر ، وساق فرقة الاحتياطية إلى الأمام ، وأمر بالهجوم

على مركز الجناح الأيمن الصفوى الذى يضم الشاه . جرحت يد الشاه ورجله ، وأخذ يستعد للهرب . خاب ذكر الرجل الذى أفنى « درزنا » (١٢) من الدول خلال (١٥) عاما . دخل بين صفوف الأتراك تركمانى شبيه بالشاه مرتديا لباسه قائلا باللهجة التركمانية ، « شاه منم » (أنا الشاه) ، وتمكن الشاه من الفرار أثناء انشغال السباهيين الأتراك الذين ظنوا أنهم أسروا الشاه .

ضحى (١٤) فريق أول تركمانى فى ساحة القتال وعدد غير معلوم من الضباط برتبة لواء بأنفسهم فى سبيل الشاه . استشهد من العثمانيين فريق أول واحد و(٩) ضباط برتبة لواء (سنجق بك) . على رأس كبار الصفويين الذين قتلوا : الصدر الأعظم الصفوى الباق بك ، ووالى ديار بكر الفريق الأول وأحسن قواد الشاه اسطه جالى محمد خان توركمن ، والقضعسكر (قاضى العسكر) الصفوى سيد حيدر ، ووالى (فريق أول) بغداد وأخو زوجة الشاه خلفاء بك توركمن ، ووالى (فريق أول) خراسان لالابك توركمن ، ووالى عراق العجمى (همدان) تكه لى (أنطاليه لى) يكان بك .

انتقل سرادق الشاه ، وعرشه ، وخزينته التى تضم أكبر الماسات العالمية وزوجته تاجلى خانم لحوزة العثمانية . بقي السلطان ياوز سليم يومين فى ساحة الحرب ، ودخل تبريز بعد مسيرة (١١) يوماً (١٥١٤/٩/٦) .

قرر الشاه عدم إمكان الدفاع عن مدينة العرش تبريز بعد مروره عليها ، وهرب إلى المناطق الداخلية من إيران . كان عدد سكان تبريز فى ذلك التاريخ يتجاوز المليون نسمة ولم يكن فى أوربا - بما فيها إستانبول - أى مدينة بهذا الحجم . كانت تبريز مدينة تركية تماما . تليت الخطبة بالشعائر السنية ، وباسم السلطان سليم (١٥١٤/٩/٨) . أمر ياوز بإرسال نحو ألف فنان وعالم وشاعر من تبريز إلى استانبول ، وألحقهم جميعا فى وظائف فى السراى الهمايونى ، ومكث البادشاه فى تبرير (٩) أيام .

يعتبر أهم شخص أرسله البادشاه إلى استانبول ، هو آخر خاقان لخراسان (هرات) لبنى تيمور السلطان بديع الزمان ميرزا ، وهو الابن الأكبر للسلطان حسين بايقره وخلفه . الذى لجأ إلى سراى تبريز عندما طرده من هرات جنكيز

أوغلو محمد شايباك خان ، ولقى احتراما من الشاه ، وقد أبدى له ياوز احتراما أكثر وخصص له راتبا كبيرا جدا ، وقد أجلس بديع الزمان على عرش أقامه بجنبه ، وتوفى الخاقان التركستانى والشاعر باللغة التركية فى إستانبول وعمره ٤٦ سنة (١٥١٥/٨/١٢) .

احتل محمد شايباك خان الذى ينحدر من سلالة جنكيز خان وجوجى أولوسو ، سمرقند كذلك بعد هرات وأخرج بنى تيمور من تركستان إلى الأفغان والهند . تدهورت مدينة هرات ، أكبر مدينة فى العالم (تقريبا ٣ ملايين) بعد هذا الاستيلاء بسرعة ، لكن الشاه إسماعيل انتصر على شايباك خان فى الحرب الميدانية طاهر آباد ، قرب مرو وقتله (١٥١٠/١٢/٢) .

توجه الشاه بعد ذلك ، نحو الغرب ، نحو الأناضول ، إلى العثمانية . وقد كانت الأناضول الشرقية والجنوبية – الشرقية أساساً فى حوزته .

أصيب الشاه بعد جالدران ، بفقدان الأمل والكآبة ، كجده أوزون حسن تماما .

لم تظهر فى تركية مسألة صفوية لمدة (٢٠) سنة ، ولكن لم يتم القضاء على الصفويين،ولا أمكن تخليص إيران من التشيع . إذ إنها كانت دولة شابة فى فترة تأسيسها .

كان هدف ياوز أخذ إيران والدخول إلى تركستان ، ولكنه لم يتمكن فى حملته هذه من تحقيق ذلك الهدف . ظهرت علامات عدم الارتياح لدى الجيش . ولم يرغب فى الحملة على إيران ، وتقرر إرجاء فتح إيران إلى حملة جديدة .

كان مراد خان آخر سلاطين اقويونلو ، قد اشترك فى جالدران فى صفوف العثمانية . أسفرت معركة جالدران عن انتقال الأناضول الشرقية والجنوبية إلى العثمانية عدا القسم الموجود لدى المماليك .

أخذ أمراء الأكراد السنيون الشافعيون ، الذين ظلوا تحت ضغط الشيعة ، فى الانضمام إلى الدولة العثمانية الواحد تلو الآخر .

ألحقت إمارة دلقادر – التى كانت تحت حماية العثمانية منذ (١١٧) سنة – بالحكم المباشر (منطقة ماراش) .

منح ياوز لبنى دلقادر رتبا ووظائف كبيرة ، لكونه من سلالة دلقادر من جهة الأم . عين دلقادر أوغلو على باشا ، كأول وال (بكلربك) على إيالة دلقادر التى تأسست حديثا ، وهو خال ياوز من الدرجة الثانية (ابن عم أمه) (١٥١٥/٦/١٢) .

استولى والى (فريق أول) آرزنجان بييقلى محمد باشا (سابقا أمير آقويونلى) على مدينة عامد البلدة الكبيرة من الصفويين (١٥١٥/٩/١٩) . قاومت غامد بشدة . كان والى دياربكر اسطه جالو قرة خان تركمن ، أخا لمحمد اسطه جالو بك الذى مات فى جالدران . صان شرف الشاه حتى الممات .

كسر بييقلى محمد باشا مقاومة الصفويين ، وأباد الجيش الصفوى فى الحرب الميدانية التى جرت فى قوجحصار (١٥١٦/٥/٤) على بعد (١٥)كم من جنوب غربى ماردين . وأصبح أول وال على إيالة دياربكر التى تشكلت حديثا .

لجأ سليمان توركمن خان أخو قره خان إلى ماردين . فتحت ماردين على يد بييقلى محمد باشا بعد أن قاومت حتى (٧ نيسان ١٥١٧) . انتقلت بيره جك الميناء النهرى المهم الواقع على ساحل الفرات الشرقى خلال تلك الأيام ، وملكية حصن كيفاء (Hasankeyf) الأيوبية إلى العثمانية . ترك ياوز الملك على عرشه إجلالا لذكرى صلاح الدين الأيوبى . ثم ألحق حصن كيفاء بالحكم المباشر على عهد القانونى عند وفاة الملك .

هبط بييقلى محمد باشا إلى رقة فى سوريا واحتلها كذلك . وهكذا أصبحت الأراضى العثمانية على حدود الدولة المملوكية .

(١٧) بداية حملة مصر الهمايونية (١٥١٦/٦/٥)

مكث السلطان سليم فى استانبول بعد عودته من جالدران ، مدة (١٠) أشهر ، (٢٥) يوما . وفى (٥) حزيران (١٥١٦) ، عبر إلى إسكدار . تعتبر هذه هى الحملة الأولى والأخيرة لحاكم عثمانى على المماليك ، فعلى الرغم من أن يلدرم بايزيد كان قد احتل بنفسه (ملاطية) من المماليك فإن حملته لاتعتبر حملة مملوكية ،

عين الوزير (٣) بيرى محمد باشا نائبا للسلطنة فى إستانبول . أما الشهزاده سليمان ، فإنه أرسل إلى أدرنه محافظا للعرش والإشراف على رومللى.

من المعلوم أن المماليك كانوا يتحاشون الحرب مع العثمانية ، ويعملون جهدهم لتفاديها ، لكنهم كانوا عازمين على الدفاع عن قطرهم بكل قوتهم .

غادر السلطان « قانصوه» القاهرة فى (١٨ آيار ١٥١٦) وجاء إلى سوريا لغرض التفتيش ، وكان يصاحبه الخليفة المتوكل (٣) وقضاة القضاة للمذاهب السنية الأربعة .

كانت الإمبراطورية المملوكية المصرية ـــ السورية ، الثالثة فى الأهمية فى العالم بعد تركية وإيران .

حمى المماليك سابقا سورية من المغول والإيلخانيين وتيمور بنجاح ، احتلت سورية ، لكنها استعيدت . أما مصر ، فقد كانت تعتبر قطرا مصانا من الناحية الجغرافية .

وفى (٢٣) تموز ، جاء ياوز مع الجيش الهمايونى إلى ألبستان (وتقع بين ماراش وملاطية) ، وكانت لدى المماليك . التأم فى هذا الموقع مع جيش سنان باشا البالغ (٤٠,٠٠٠) جندى . وفى هذه النقطة سوف تتحدد وجهة الجيش،إما تجاه إيران وإما تجاه مصر . وقد كانت رغبة ياوز فى حملة ثانية على إيران ومحوها من الخارطة أمرا معلوما، وكان الشعب فى القاهرة ، يبارك الفتوحات التى حققها بيبقلى محمد باشا على الصفويين ، حتى شهر تموز (١٥١٦) .

لكن السلطان سليم ، اجتاز فى ٢٧ تموز الحدود العثمانية – المصرية وجاء فى اليوم التالى أمام ملاطية . وهكذا اتضح هدف الحملة .

فى (٣٠) تموز اجتمع المجلس العسكرى فى الضفة الجنوبية من نهر Tohma على مقربة من شمال ملاطية . وفى (٣) آب ، حضر بيبقلى محمد باشا من دياربكر مع حفيده . وفى (١٨) آب احتل العثمانيون بسنى من أملاك المماليك . وفى اليوم ذاته ، جاء يونس بك والى عينتاب (Gaziantep) أعلى ولاة المماليك فى الأناضول ، وسلم مفاتيح المدينة إلى البادشاه . أما رمضان أوغلو فى جقورأوفا التابع للماليك ، فكان قد فعل ذلك منذ (٢٧ تموز ١٥١٦) . والحقيقة أن رمضان أوغلو

محمود بك ، كان قد أعلن طاعته فى نهاية (١٥١٤) وجاء فى (١٥١٥) إلى إستانبول ودخل فى خدمة العثمانية . وهو الآن يلحق الإمارة بالعثمانية . أعطى البادشاه إدارة أدنة إلى بنى رمضان ، وسوف يظل لواء أدنه لدى بنى رمضان حتى (١٦٠٨) ، وسوف يصبح أمراء هذه السلالة ولاة على الإيالات الممتازة جدا .

وبينما تجرى الأمور على هذا الشكل الذى يصعب على العقل تصوره ، راجع السلطان قانصوه، الشاه إسماعيل وطلب إليه الحملة على العثمانية ، وإلا فإن العثمانية سوف تتجه إلى إيران بعد أن تفرغ من مصر . لكن الشاه،الذى يبدو أنه قد اتعظ بصورة جيدة من الدرس الذى تلقاه ، رفض اتفاق مصر .

(١٨) واقعة مرج دابق (١٥١٦/٨/٢٤)

كانت قد مضت على جالدران سنتان بالضبط . وفى هذه المرة ، تقابل الجيشان العثمانى والمصرى فى مرج دابق (بالعربية : مرج الدابق) . وهى قريبه جدا من حلب .

كان مع الجيش العثمانى (٣٠٠) مدفع ، وكان عدد جيش المماليك (٨٠,٠٠٠) جندى ، لم يتمكن المماليك من الاستفادة من قلة عدد العثمانيين (٦٠٠٠٠) بفضل هذه المدافع الـ (٣٠٠) .

كان نائب السلطنة للشام شباى فى الجناح المملوكى الأيمن ، ونائب السلطنة لحلب خيرباى فى الجناح الأيسر . والسلطان قانصوه،وعمره (٦٦) سنة ، مع الخليفة فى القلب .

كان قانصوه شاعرا فى اللغات التركية العربية والفارسية ومؤلفاً فى العربية ، كان حاكما قديرا وعسكريا قديما ومجرباً .

كان السلطان ياوز سليم فى سن الـ (٤٦) .

كان الجيش المملوكى يتكون من الشراكسة والتركمان ، عدا عدة كتائب من البدو ، كانو محاربين شجعان معتدين بأنفسهم ، فقد كانوا ورثة الجيش الذى نال انتصارات كبيرة على الصليبيين والمغول المشركين .

لكن السلطان سليم أنهى الحرب نحو العصر فى أقل من (٨) ساعات . مات السلطان قانصوه وشباى (Sibey) فى الحرب . أسر الخليفة . انتقلت الخزينة المملوكية والسرادق السلطانى إلى حوزة الأتراك . فر خيرباى ، لكنه أسر بعد مدة .

دخل السلطان سليم حلب بعد (٤) أيام (١٥١٦/٨/٢٨) . كانت إحدى أكبر بلدان العالم ، ومركزا كبيرا للتجارة . أسست إيالة حلب وولى قره جه باشا على حلب . عومل الشعب وكأنه من الرعية العثمانية منذ القدم ودخل الجيش وكأنما يدخل مدينة عثمانية . كان ذلك من معالم سياسة السلطان سليم الإسلامية وسياسته فى الاتحاد الإسلامى .

(١٩) انتقال الخلافة الإسلامية من العباسيين إلى بنى عثمان (١٥١٦/٨/٢٩) .

كان مقام الخلافة الإسلامية ، لدى السلالة العباسية منذ سنة ٧٥٠ أى منذ ٧٦٦ سنة . كان العباسيون حتى (١٢٥٨) فى بغداد . وعلى أثر استيلاء المغول - المشركين فى هذا التاريخ - على بغداد انتقلوا إلى القاهرة وأصبحوا خلفاء تحت حماية السلطان المملوكى . وعندما كانوا فى القاهرة ، لم يكونوا أصحاب دولة أو حكم .

كان المماليك ، بحيازتهم للخليفة ، والمدن المقدسة (مكة ، والمدينة ، والقدس) ينظرون إلى أنفسهم على أنهم الدولة العليا فى العالم الإسلامى . كانت القدس المدينة المقدسة الأولى بالنسبة للأديان المسيحية والموسوية أيضا . كان (٣) من البطاركة الـ (٤) الأرثوذكسيين فى البلاد المملوكية (إسكندرية ، قدس ، أنطاكية) . انتقلت الآن كافة هذه المميزات المعنوية العليا ، إلى العثمانية .

كانت الفكرة فى حملة ياوز على مصر ، أنها تمثل أهم مرحلة من مراحل أفكاره الأساسية فى تكوين الاتحاد الإسلامى : اتحاد إسلام) ، ذلك أنه كان يرى أن مماليك مصر لم يقدروا ولن يقدروا على تحقيق هذا الهدف ، وكان السلطان سليم مقتنعا بأن العثمانية ، سوف توفق إلى تحقيق ذلك الهدف .

وعند عودة البادشاه من مصر ، استصحب معه إلى استانبول كلا من الخليفة

المتوكل على الله (٣) ، أبناء عمومته أبا بكر وأحمد و قاضى القضاة الشافعى فى مصر ، وشخصيات رفيعة أخرى بينها ابن السلطان قانصوه محمد بك وعائلته (ابن إياس ، (٣ ، ١٩ = ٢٠) . لم يعط السلطان سليمان القانونى إذنا بعودة الخليفة إلى القاهرة ، إلا فى (١٥٢١) (ابن إياس ، وقائع ٩٢٦) . وبذلك يكون المتوكل قد عاش فى استانبول مدة (٣) سنين . عاش بعد عودته إلى القاهرة مدة (٢٢) سنة ، ومات فيها فى (١٥٤٣) . كان المتوكل (٣) قد تسلم الخلافة فى (١٥٠٩) عن أبيه المستمسك الذى عزل من مقامه وبقى فى الخلافة (٧) سنوات واستمرت مصر معترفة بالمتوكل (٣) كخليفة بعد وقوعه فى يد العثمانية ، لكنها عينت ابوه المستمسك وكيلا لابنه . سقط المستمسك من الوكالة عندما استولى ياوز على مصر فى السنة التالية . لم يستصحبه البادشاه إلى استانبول لكبر سنه .

كان المتوكل (٣) ، الخليفة الـ (٧٣) ، من سلسلة الخلفاء والخليفة الـ (٥٤) من الخلفاء العباسيين والخليفة (١٧) من الخلفاء العباسيين فى القاهرة . والمتوكل الذى جرده طغرل بك السلجوقى من صلاحياته الدنيوية (وقد قلد المماليك السلاجقة فى هذا الشأن) والذى جعله رئيسا روحيا ورمزا للاتحاد الإسلامى ، كان حفيدا للقائم فى البطن (١٥) ، ولهارون الرشيد فى (٢٣) ، وللخليفة العباسى (٢) ومؤسس مدينة بغداد المنصور فى (٢١) ، وللعباس عم الرسول ﷺ فى (٢٩) ولعبد المطلب جد الرسول ﷺ فى البطن (٣٠) . خلف عدة أبناء ، ولكن السلالة العباسية ، انقطعت بعد ذلك .

وتقول إحدى الروايات : إن المتوكل (٣) تنازل عن الخلافة إلى بنى عثمان فى مراسم جرت فى أياصوفيا بعد عودته مع ياوز إلى استانبول .

من الممكن أن تكون قد حدثت مثل هذه المراسم،ولكنه ينبغى أن تلاحظ أن السلطان سليم قد أصبح خليفة بالفعل عندما كان فى حلب قبل هذه الحادثة .

ومن الروايات التاريخية الأخرى ، أن المتوكل (٣) قلد السلطان سليم السيف والبسه الخلعة فى جامع أيوب سلطان (بالعربية : أبو أيوب الأنصارى) بعد مراسم أياصوفيا ، وقد اشترك فى هذه المراسم علماء الأزهر الذين جلبوا إلى استانبول وعلماء العثمانية ، وأن الخلافة انتقلت إلى بنى عثمان بقرار هذا المجلس .

ولكن المؤكد كذلك أن السلطان سليم قد اعتبر نفسه خليفة فى أول صلاة جمعة فى حلب ، فعندما وصف الخطيب الذى تلا الخطبة باسم السلطان سليم فى أول صلاة جمعة (١٥١٦/٨/٢٩) فى الجامع الكبير فى حلب ، باوز بوصف « حاكم الحرمين الشريفين » تدخل البادشاه وبدل كلمة « حاكم » إلى « خادم » . والمعلوم أن الخلفاء الذين انحدروا من بنى عثمان ، لقبوا بصورة رسمية حتى ١٩٢٤ بلقب « خادم الحرمين الشريفين » .

خر السلطان سليم الذى لم يتمكن من السيطرة على دموع عينيه ، على الأرض ساجدا سجدة الشكر ، ووضع رأسه على أرض المسجد المرمرى بعد رفعه للسجادة من الموضع الذى يجلس فيه ، فرحا لنيله خلافة الرسول ﷺ الشرعية .

لقد أثار هذا التدين والتواضع الجماعة وكهربها .

خلع باوز بعد ذلك خلعته التى لاتقدر بثمن وألبسها الخطيب . ثم أمر بنقل الأمانات المقدسة الموجودة فى القاهرة ومكة إلى سارى طوبقابو فى اسطانبول، وشيد جناح خرقه شريف (البردة الشريفة) لحفظها ، واكتملت صفة خلافة السلطان سليم بانتقال القدس ، والمدينة المنورة ومكة المكرمة إلى الإدارة العثمانية .

(٢٠) من حلب إلى القاهرة (١٥١٦/٩/١٩ - ١٥١٧/١/٢٢) .

جاء السلطان سليم ، من حلب إلى حماه(١٩ أيلول) ، وإلى حمص (٢١ أيلول) ، وإلى الشام (٢٧ أيلول) . لم يلق مقاومة . بقى فى مدينة عرش الأمويين شهرين و(١٨) يوما حتى (١٥ ك ١) . أمر بإصلاح الجامع الأموى وقبرى صلاح الدين الأيوبى والشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى . وطلب تشييد جامع باسمه (دفن أكثرية بنى عثمان الذين توفوا فى المنفى فى نصف القرن الذى يلى ١٩٢٤ فى حديقة جامع السلطان سليم فى الشام) .

تقدم الوزير الأعظم سنان باشا مع (٧٠٠٠) جندى كوحدة طليعية . التقى بـ (١٠,٠٠٠) جندى مملوكى لجانبرد (وبلغة تركية تركيا : جان ويردى) غزالى فى خان يونس على حدود سيناء ــ فلسطين ، هزمهم فى(١٥١٦/١٢/٢١) ،وتمكن

(١٠٠٠) جندى مملوكى فقط من الفرار إلى مصر . أسر البقية .

غادر السلطان سليم الشام فى (١٥ ك ١) ووصل القدس الشريف فى (٣٠ ك ١) . صلى فى المسجد الأقصى ـــ الذى أنير ترحيبا بقدومه بـ (١٢٠٠٠) قنديل ـــ ركعتى صلاة الحاجة (فتحنامة ديار عرب v. 33 B) .

تحرك فى اليوم التالى ووصل غزة فى (٢ ك ١٥١٧/٢). واحتفل فيها بالعيد الأضحى وبعد مكوثه (٣) أيام ، ذهب فى (٦ ك ٢) نحو الشرق إلى خليل الرحمن وزار قبر إبراهيم (ع . س) ، وفى (٩ ك ٢) جاء إلى صحراء التيه (سيناء) وبدأ فى اجتياز الصحراء .

تمكن السلطان سليم مع جيش كبير خلال (١٣) يوما (٩ – ٢٢ ك ٢) من تحقيق محاولة اجتياز صحراء التيه ، وهى الصحراء التى لم تحاول أية شخصية عالمية فى التاريخ تجربة اجتيازهاجبرا (حتى تيمور خشى من ذلك) والمشهور عنه أنه اجتاز المسافة بين قطية وقنطرة ، والتى تبلغ (٥٠) كم فى يوم واحد . لكن مسيرة الجند تراجعت فى بعض الأيام إلى (١٨) كم . كان معدل السير (٣٠) كم فى اليوم . كان سنان باشا يتقدم الجيش مع (٦٠٠٠) خيال . كان الأسطول الهمايونى فى شرق البحر الأبيض . وأخيرا تم اجتياز برزخ السويس ودخول مصر . توجه السلطان سليم نحو الجنوب – الغربى واقترب من القاهرة وكان قد تسلم فى (٢١ ك ٢) من سنان باشا تقريرا مفصلا عن النظام العسكرى للمماليك .

(٢١) واقعة الريدانية (٢٢/ ك ٢/ ١٥١٧)

استعد السلطان طومان باى الذى انتخب مكان السلطان قانصوه وأبدى جهودا جبارة فى تجهيز جيشه بشكل تام ، وقام بتحصين القاهرة بصورة ممتازة . كان شخصا جسورا . كانت الخطة المملوكية مبنية على أساس هزيمة ياوز وإجباره على التراجع إلى الصحراء ومطاردته فيها وإبادته ، ثم يكون استرداد سورية بعد ذلك من الأمور البسيطة .

كان عدد الجيش المملوكى فى ذلك العهد ٤٢٦٠٠٠ شخصا ، وبالطبع فانه ليس بالامكان جمع كامل هذه القوه فى حرب ميدانية واحده . كانت القوة الضاربة الاساسية ١٣٣٠٠٠ خيال من الاتراك او الشراكسه المستتركين . وكان لديه ٩٣٠٠٠ بدوى من المتطوعين الذين كانوا لا يستخدمون فى الحروب الميدانية .

كانوا يقومون بالواجب الذى تقوم به الصاعقة العثمانية ، لكنهم لم يكونوا منظمين فى تشكيلات منتظمة كالصاعقة التركية ، كما أنهم لم يكونوا خاضعين لتنظيم مركزى . ومن المعلوم أن البدو يحبون القتال ، ولكنهم أحرار المزاج ، ولاتروقهم الحرب النظامية ، ومن ناحية أخرى ، كان للماليك جيش مكون من ١٨٠ ٠٠٠ تركمانى وجيش احتياطى يبلغ عدده ٢٠ ٠٠٠ من الأكراد أكثره خيالة ، وكانت هذه القوات تجمع من الأناضول وشمال سورية وتستدعى عند الحاجة ، ولما كان هذان القطران تحت سيطرة العثمانية حاليا ، فقد كان من المتعذر الاستفادة من تلك القوات (خليل الظاهرى ، زبدة كشف المماليك ، منشورات P.Ravaisse باريس ١٨٩٤ ، ص ١٠٤) .

نزل السلطان سليم حتى خط عرض ٣٠ . ولم يسبق لأى بادشاه عثمانى أن نزل إلى تلك الدرجة (نزل القانونى ومراد فقط إلى بغداد فى خط عرض ٣٣) .

كانت الظروف مواتية لصالح المماليك ، فقد كانوا فى قطرهم ، وهم بذلك سوف يدافعون عن أراضيهم التى حكموها بلياقة والتى أقاموا فيها منذ مئات السنين .

ولم يكن العثمانيون أكثر دراية من المماليك بالظروف الطوبوغرافية والاثنوغرافية البشرية والاجتماعية لهذه البلاد ، كما أن الخيال المملوكى لم يكن أقل شجاعة من السباهى التركى ، وكان طومان باى عسكريا شابا نشطاً ومقتدرا .

كان للمماليك ٢٠٠ مدفع حصلوا عليها من العثمانية والبنادقة . لكنها كانت مدافع قلاع ليست سيارة ، ولايمكن مقارنتها بالمدافع العثمانية .

استعمل ياوز فى حملته هذه للمرة الأولى المدافع ذات السبطانات الأخدودية التى يمكن مشاهدة نماذجها حاليا فى المتحف العسكرى فى استانبول ، أما فى أوربا فقد استخدمت هذه المدافع ذات السبطانات الأخدودية لأول مرة فى الجيش البروسى فى ١٨٦٨ .

استعمل السلطان سليم لأول مرة كذلك فى الريدانية ، المدافع المسبوكة حديثا والمجربة التى تطلق من ٥ إلى ١٠ طلقات بين الواحدة والأخرى فترة زمنية قصيرة جدا .

بالإضافة إلى ماتقدم يجب أن نضع فى الاعتبار أن نظام الجيش العثمانى ليس له مثيل فى أية دولة أخرى فى ذلك العصر . إن الدهاء العسكرى للسلطان ياوز سليم خان الذى كان عمره ٤٧ سنة ، لامثيل له .

كان المماليك ينتظرون العثمانيين من ناحية عادلية ، فقد كان هذا هو الطريق الملائم والمفتوح . ولايمكن دخول القاهرة قبل اجتياز الاستحكامات المملوكية الموجودة فيها . كانت فوهات ٢٠٠ مدفع موجهة نحو المستولى فى العادلية ، وكان تقرير الاستطلاع لسنان باشا قد أعلم السلطان سليم بتحكيمات عادلية ، وأن مدافع المماليك مثبتة ولاتتحرك ، وبناء على ذلك وبعد أن أمر البادشاه عدة كتائب بالتظاهر بالهجوم ، نزل بالقوات الكبيرة إلى الجنوب واستدار حول جبل المقطم وأصبح خلف القوات المملوكية . ويعتبر بهذه المناورة التاكتيكية قد انتصر فى المعركة ، وكسب الحرب فى ذات الوقت .

عندما شاهد طومان باى ، الذى كان قلقا من أن ينتهى إلى نفس عاقبة عمه فى مرج دابق والذى رسم خطتهعلى أساس إهلاك السباهيين العثمانيين أمام المواقع الاستحكامية وإفنائهم ؛ .. عندما شاهد العثمانية خلفه ، أدرك حلول العاقبة التى كان يخشاها ، واضطر إلى الخروج إلى الصحراء المفتوحة ومجابهة العثمانيين ، ولم تتمكن المدافع المملوكية الموجهة إلى جهة عكسية من عمل شيء ، لعدم إمكان تحريكها من أماكنها .

أخذ طومان باى فرق خيالة قورتباى وآلانباى الثقيلة المصفحة وحمل بنفسه على قلب العثمانية . كان يروم قتل البادشاه وحل القضية من أساسها . حيث إنه كان قد تحرى وعرف أن خطة العثمانية تتمثل فى إرهاق العدو عدة ساعات ثم تشرع فى القضاء عليه ، فأراد الأ يتيح ذلك للعثمانية . لكن البطولة لم تجد نفعا تجاه المدافع العثمانية .

انسحب طومان باى بعد أن تكبد خسائر جسيمة . أما جانبردى غزالى ، فقد حمل على جناح العثمانية الأيمن ، فأصيب الوزير الأعظم سنان باشا الذى كان يقود هذا

الجناح ، وبذلك يكون غزالى قد انتقم لنفسه من سنان باشا الذى هزمه فى حرب غزة (خان يونس) الميدانية .

مات رمضان أوغلو محمود بك ومبارك كيراى أحد الأمراء القرميين . كما كان بين القتلى كذلك أهم رجال المملوكية .

تكبد المماليك ٢٥٠٠٠ قتيل ومايقرب من هذا الرقم من الأسرى ، وترك السلطان طومان باى ساحة الحرب ، وانتقل سرادقه وخزينته لحوزة العثمانية . كان الوقت مساءً . تفقد السلطان سليم فى اليوم التالى ساحة ردانية (شمالى شرقى القاهرة) . وعين بدلا من سنان الدين يوسف باشا ، الوزير ٢ يونس باشا ، وزيرا أعظم .

(٢٢) فتح القاهرة (٢٤/ك ١٥١٧/٢)

دخل العثمانيون القاهرة فى ٢٤ ك٢ .

كانت القاهرة من أكبر وأغنى مدن العالم . انتقلت الخزينة المملوكية وقسم من الامانات المقدسة لحوزة العثمانية وأرسلت إلى استانبول . مثل فى اليوم التالى محمد بك ابن السلطان قانصوه الذى مات فى مرج دابق بين يدى السلطان سليم الذى أرسله معززا مكرما إلى استانبول ، وقد كان محمد بك قد سعى إلى أن يكون سلطانا مكان أبيه ، لكن أمراء المماليك كانوا قد انتخبوا ابن العم طومان باى ، ولذلك فقد كان محمد بك غاضبا على طومان باى وعلى الأمراء .

حمل طومان باى الثانى على القاهرة فى ٢٨ ك ٢ قبل طلوع الفجر . كان الجيش والسلطان سليم خارج القاهرة ، وكان قد ترك فى المدينة وحدة عثمانية صغيرة . ذبح طومان باى كامل أفراد هذه الوحدة . وحاول الدفاع عن القاهرة بمساعدة الشعب ، وكان معه ١٠٠٠٠ جندى ، جرت مصادمات دموية فى الشوارع والأزقة ، وكان الشراكسة يدافعون عن بيوتهم طابقا فطابقا ، وغرفة فغرفة . هدرت الدماء دون جدوى ، إذ لم يكن بالإمكان دحر العثمانية بهذه الطريقة .

اضطر طومان باى الثانى إلى ترك القاهرة بعد ٤٨ يوما ، ودخل السلطان سليم المدينة بمراسم هائلة فى ١٥ شباط وأمر بسك نقود عثمانية ذهبية باسمه فى معمل نقود المدينة .

أزعج طومان باى العثمانيين كثيرا بحرب العصابات والضربات المباغتة عندما كان السلطان سليم فى القاهرة . وأخيرا دل العرب الذين يكرهون الشراكسة على مكانه ، فأسر .
وضع ياوز عرشا بجنبه وأجلس عليه الحاكم المملوكى . خاطب طومان باى الحاكم العثمانى بكلام خالٍ من اللياقة ، قائلا له: إنه لم ينتصر على المماليك بشجاعته ، وانما انتصر بمدافعه وبنادقه ، فأجابه السلطان سليم متسائلا ، لماذا لم يتزود وهو على رأس دولة كبيرة بهذه الأسلحة ؟ وتلا عليه الآية الكريمة التى تأمر بمقابلة العدو بمثل أسلحته ، وأفحمه .

كان الشراكسة الذين التحقوا بخدمة العثمانيين يخشون نقمة طومان باى ؛ فأخبروا السلطان سليم بأنه لايزال يسعى وراء سلطنة مصر ، وشرحوا له ذلك بإسهاب ، وأقنعوه بوجوب إعدام طومان باى .

سلم طومان باى إلى دلقادر أوغلو على باشا وأعدم على باب زويلة ، وكان المماليك قد أعدموا والد على باشا دلقادر أوغلو شهسوار بك قبل ٤٥ سنة على هذه الباب لصداقته للعثمانية (آب ١٤٧٢) .

وفى ١٦ نيسان ، أقيم لطومان باى احتفال تشييع جثمان لامثيل له ، بحيث لو مات وهو على العرش لما أقيم له مثل هذا الاحتفال . ورغم أن السلاطين الأتراك يحملون فى بعض الأحيان توابيت آبائهم ولايدخلون تحت أى تابوت آخر ، فقد اكتنف السلطان سليم تابوت طومان باى الثانى . وحضر مراسم تشييع الجثمان الرسمى كافة رجال العثمانية والمملوكية . وزع البادشاه على الفقراء - تطييبا لروح السلطان المرحوم - النقود الذهبية لمدة ٣ أيام .

(٢٣) أسباب هزيمة المماليك

كيف انهارت بصورة كاملة وبضربة واحدة ، الدولة العظمى رقم ٣ فى العالم بعد تركية وإيران ؟

تنبأ ابن خلدون ، أحد ألمع العلماء الذين أنجبتهم البشرية ، بالوضع الذى ستأخذه

تركية فى المستقبل وتكهن منذ ١٢٠ سنة ، على عهد يلدرم بايزيد بأن « لاخطر على مصر إلا من بنى عثمان » (ابن حجر ، أنباء الغمر ، ١ ، وقائع ٧٩٧) .

كان الفرق بين مدفعية العثمانية والمملوكية فى حرب ردانية ، فرقا يزيد على نصف عصر . منذ ١٤١٠ ، كان السلطان المملوكى قد طلب من سليمان الأول مدفعيين وبحريين أتراكا ، وأجيب إلى طلبه ، إذ كانت تركية تفوق مصر حتى فى ذلك التاريخ .

وقد كانت عملية إرسال المهمات الاستراتيجية ، والمدفعيين ، والبحارة والفنيين إلى مصر فى عهد بايزيد الثانى ، قد اكتسبت أهمية كبيرة . وعلى سبيل المثال ، أرسل إلى مصر فى ك ٢/ ١٥١١ ، ٤٠٠ مدفع وكميات هائلة من البارود والنحاس . والجنرالات الأتراك الدهاة المقتدرين مثل عروج رئيس ، وسليمان رئيس ، وكمال رئيس . إما أنهم التحقوا بخدمة مصر ، أو قاموا بنقل المهمات الاستراتيجية والموظفين الفنيين إلى مصر ، وأصبحت البحرية المصرية تقريبا تحت إدارة الاميرالات وضباط البحرية العثمانية ، بحيث كان يتوجب على السلطان سليم القضاء على الجيش البرى فقط للدولة التى وضع اليد على أسطولها .

وفى الوقت الذى كان يستقبل فيه السلطان قانصوه فى القاهرة كمال رئيس ، وآيدن رئيس ، وحامد رئيس ، وحسن رئيس بأبهة لاتجرى إلا للحكام ، كان صغير أبناء البادشاه العثمانى شهزاده سليم فى طرابزون مشغولا بتخطيط فتح مصر . وبناء على ذلك ، أصبحت مصر فى النصف الثانى من القرن ١٥ ، مفتقرة إلى العثمانية من ناحية المهمات الاستراتيجية والضباط البحريين . ولأجل حصولها على ذلك ، أظهرت عناية خاصة للتعايش بوئام مع العثمانية التى تقدرها أصلا ، مع فاتح وبايزيد الثانى ، وكانت ترسل من إنطاليا إلى الإسكندرية فى كل سنة سفنا مليئة بالأخشاب والحديد والنحاس ، والكبريت ، والزفت ، والأسلحة النارية وأمثالها من المواد المشغولة .

وعندما نشبت حرب عثمانية مملوكية موضعية على عهد بايزيد الثانى دامت ٦ سنوات ، وبالرغم من أن هذه الحرب قد انتهت بتفوق المماليك فإن الجيش والأسطول المملوكى حرما من المساعدات العثمانية . وقد بذل السلطان قايتباى الذكى جدا ، مابوسعه – من اتصالات واجتماعات بصهر بايزيد الثانى أحمد باشا سلطان تونس يحيى – لإنهاء هذه الحرب .

ولقد جنت النزعة الخيالية وعدم الاعتراف بالواقع على المماليك ، فقد كانوا مغرورين بحيازتهم للمدن المقدسة ، والخليفة ، الأمانات المقدسة ، والأزهر مركز العلوم الإسلامية ، ولم يتنازلوا عن فكرة أن فرسان الترك والشركس ، أشجع الجنود ولايمكن قهرهم ، كانوا يظنون أنهم يعيشون على عهد السلطان بيبرس . يحتمل أن جيوشهم لم تكن أقل من ذلك العهد ، لكنه على الناحية الأخرى كان الجيش العثمانى قد اجتاز ذلك العهد منذ زمن بعيد ودخل القرون الحديثة .

عاشت مصر فى راحة واسترخاء دون أن تتعرض لخطر استيلاء ، مدة قرن كامل منذ أن تجاوزت الخطر التيمورى . أما العثمانية فكانت فى حرب دائمة فى كل لحظة ، ولم تكن تحارب دولة واحدة ، بل كانت تحارب دائما خمس دول أو عشر وأحيانا عشرين أو ثلاثين دولة . وفى وضع كهذا ، كانت وجها لوجه أمام ضرورة قهر أعداء العثمانية . ولم تبال بالتضحية بكل شىء فى سبيل إقامة جيش قوى وأسلحة متفوقة ، ومن ثم فقد فرضت كل هذه الظروف على العثمانية القتال المستمر وعدم الراحة أو الاسترخاء .

وبينما كانت القوة المادية والأدبية للعثمانية فى تعاظم كانت مصادرها الاقتصادية غير متناهية . ماليتها قوية . أصبح القدوم من كافة أنحاء العالم الإسلامى والحصول على وظيفة لدى العثمانية ، من الأمور المشرفة بالنسبة للمسلمين ذوى الخبرة .

لقد درس السلطان طومان باى بصورة جيدة أسباب الهزيمة التى منى بها عمه فى مرج دابق ، وأدرك نوعية السلاح والتكتيك الذى تفوقت به العثمانية ، وأراد تعليم جيشه تكتيك الحرب الميدانية العثمانية ، لكن الوقت كان متأخرا ، فقد كان ياوز يسير إلى مصر فى هذه الأثناء . كان الوقت قد فات منذ زمان بعيد .

وبالإضافة إلى الاسترخاء الناشىء عن عدم وجود أى خطر خارجى يهدد المماليك بعد تيمور ، كانت الدولة المملوكية تعيش دور الانحطاط والعثمانية تعيش دور الفتوحات . كانت الخطوط المميزة للدورتين فى حياة كافة الدول ظاهرة فى كلا الطرفين . يضاف إلى ذلك التفوق النوعى لحكام العثمانية ، فحكام المماليك فى هذه الفترة لايمكن مقارنة إمكاناتهم الشخصية بالحكام العثمانيين فى الفترة ذاتها . وعنصر آخر ، يتمثل فى طريقة تولى العرش فالحاكم العثمانى يصل إلى العرش بالوراثة وفى ذلك مافيه من التمكين على خلاف السلطان المملوكى الذى كان يصل إلى العرش فى هذه

الأونة من خلال موافقة أمراء المماليك ، وفى ذلك مافيه من الصراع الذى يؤثر على الحاكم وإطلاقاته وصلاحياته .

وأخيرا ، كان المماليك صنفا يستشعر الامتياز ، وكانوا لايزيدون على عدة من مئات الألوف من الأشخاص ، ولم يكونوا ملتحمين بالشعب ، وكان السلاطين يتكلمون التركية ، وأكثرهم لايفهم العربية . فمثلا ، كان قلاوون – وهو من السلاطين المتأخرين – يفهم العربية بصعوبة ، وكان للمماليك امتيازات كبيرة كفئة إقطاعية ، وقد استمرت هذه الامتيازات فى العهد العثمانى إلى أن قضى عليها محمد على باشا . أما الدولة العثمانية فقد كانت كيانا سياسيا مندمجا فى الشعب وغير معزول عنه .

شىء آخر ، هو أن الاقتصاد المملوكى كان قد تدهور ، ولم يعد كما كان فى العصور السابقة ، بحيث أصبح لايمكن مقارنته مع مصادر العثمانية الاقتصادية والمالية .. تلك هى الخطوط الرئيسية للهزيمة المملوكية .

(٢٤) الحاق الحجاز وتسليم الأمانات المقدسة (٦ تموز ١٥١٧)

رسا الأسطول الهمايونى المكون من ٣٠١ قطعة فى ميناء الإسكندرية فى ١٩ آيار ١٥١٧ . خرج السلطان سليم من القاهرة فى ٢٨ آيار لتفتيش الأسطول . قضى معظم أيام سياحته التى بلغت ١٥ يوما ، لحين قدومه إلى القاهرة فى ١٢ حزيران ، فى الإسكندرية . زار المدن فى الدلتا . رافقه ٥٠٠ إنكشارى . مكث الأسطول فى الإسكندرية مدة ٥٧ يوما ، وفى ١٥ تموز ، استصحب معه ١٨٠٠ من أعيان ووجوه المصريين وغادر متوجها إلى استانبول . أرسلت جمهورية البندقية سفيرا إلى السلطان سليم الموجود فى القاهرة ، أعلمه بأن الـ ٨٠٠٠ ليرة ذهب التى تسدد سنويا لمصر عن قبرص سوف تسدد بعد الآن إلى العثمانية .

أرسل أمير مكة الشريف بركات الثانى (١٤٩٧ – ١٥٢٥) ابنه الكبير محمد أبى نمى إلى السلطان سليم فى القاهرة (وفاته ١٥٨٣) . سلم أبو نمى مفاتيح مكة ، المدينة ، الكعبة والروضة المطهرة والأمانات المقدسة الأخرى الموجودة لدى الأشراف إلى السلطان سليم ، وعرض عليه دخول الحجاز تحت حماية العثمانية (١٥١٧/٧/٦)

(فتحنامه ديار عرب ، V . 66 a-b) . إن أهم مافى الأمانات المقدسة ، الراية الشريفة والبردة (خرقه سعادت) . خطى يد على (ر.ع) وعثمان (ر.ع) ومصحفان . أرسلت جميعها إلى إستانبول وحفظت فى جناح « خرقه شريف » الذى شيد خصيصا لها فى سراى طوبقابو ، ومازال موجودة فيه .

تشكلت هيئة برئاسة القضعسكر (شيخ الإسلام فى المستقبل) كمال باشا – زاده أحمد شمس الدين أفندى ، ومشاورة خير بك ونظمت إيالة مصر بالصورة الملائمة للنظام العثمانى . وتقرر أن تحتل مصر الدرجة الأولى فى قائمة تشريفات الإيالات فى الإمبراطورية (كانت روملى تحتل المرتبة الأولى حتى ذلك التاريخ) . لم تتغير مرتبة الأولوية لمصر واستمرت حتى تاريخ الانفصال النهائى لمصر عن الامبراطورية فى نهاية سنة ١٩١٤ . أصبح الوزير الأعظم يونس باشا (١٥١٧/٤/١٠ – ١٥١٧/٨/٢٩) أول وال (بكلربك ، فريق أول) على مصر ، وعلى أثر إعدامه جىء بدلا منه بخير بك باشا أحد رجال المماليك القدامى .

كانت خريطة العالم السياسية قد تغيرت من أساسها ، عند إقامة ياوز فى القاهرة ، وهذا التغير سوف يظل مستقرا قرونا طويلة .

تغلغل النفوذ العثمانى فى السودان ، وليبيا والجزائر .

عرض سفراء اليمن الذين جاءوا إلى القاهرة ولاءهم وتابعيتهم إلى السلطان سليم ، وقد كانت فى زبيدة منذ مدة حامية عسكرية عثمانية . عين جركس حسن ، أول وال على اليمن .

فتح كوجوك سنان باشا خلال هذه الأيام مصوّع ، ميناء إرتيرة (The Bloss History of Suakin ١٨٧) .

كان الأسطول المملوكى يشرف على البحر الأحمر ومتحفزا تجاه البرتغاليين الذين بدءوا فى التسلط عليه .

كان كمال رئيس قد جاء إلى مصر ونظم الأسطول المملوكى على عهد السلطان قانصوه وبإذن من بايزيد الثانى ، وقد عين سلمان رئيس لقيادة هذا الأسطول وحسين رئيس مساعدا له ، وبوفاة كمال رئيس(١٥١١) ، جاء ابن أخيه محيى الدين بيرى رئيس وأصبح رئيس ملاحى (قبودان) سلمان رئيس .

احتل سلمان رئيس عدن فى ١٥١٦ وأراد غلق باب المندب ، ولما لم يوفق فى ذلك عاد ودخل ميناء جدة . وخلال وجوده فيها فى شباط ١٥١٧ ، علم بانتصار السلطان سليم فى ردانية . سأل السلطان سليم عما يأمر به . أمر البادشاه بأن يبقى فى جدة مع ٥ سفن ، وأن يرسل الـ ٣٠ قطعة من سفن الحرب إلى القاهرة القاعدة البحرية الكبرى للمماليك . أمر السلطان سليم بتوسيع معمل السفن فى القاهرة وإنشاء سفن جديدة فيها . عين سلمان رئيس أميرالا على البحر الهندى .

وبقدر ماأحدث فتح مصر وهزيمة المماليك – التى تعتبر من الدول التى لايمكن أن تقهر – تأثيرا فى العالم الإسلامى ، أحدث فى أوربا كذلك تأثيرات كبيرة جدا . إن ردانية ، تعتبر الخطوة نحو الدولة العالمية الكبرى . سيطرت الدولة العثمانية على شمال وشرق أفريقيا بشكل واسع جدا ، وانفتحت نحو المحيط الهندى . أخاف هذا الانتصار أوربا ، كما مهد للسلطان سليم السبيل إلى تحقيق أعمال كبيرة فى الشرق . وقد أراد النزول إلى السودان والحبشة ، لكن الرغبة كانت شديدة لدى الجيش فى العودة إلى أوطانهم . مكث البادشاه والجيش الهمايونى فى مصر ٨ أشهر (إلا يومين) .

غادر السلطان سليم القاهرة (١٠/٩/١٥١٧) وجاء إلى الشام (٧ ت ١) . جاء الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) الجديد بيرى محمد باشا من استانبول إلى الشام (٢٥/١/١٥١٨) وقابل البادشاه . جاء سفراء الشاه إسماعيل فى ١٥ شباط وطلبوا الاتفاق على معاهدة صلح نهائى . أعاد ياوز السفراء ، فقد كان عازما على فتح إيران وتركستان . مكث فى الشام مدة ٤ أشهر ، و١٦ يوما ونظم تشكيلات الأقطار السورية ايضا (قضى الـ ١٥ يوما الأولى فى مقر الجيش خارج الشام . تحرك من الشام (٢٢/٢/١٥١٨)، وجاء إلى حلب (٥/٣/١٥١٨) وبقى فيها مدة شهرين ويومين . جاء إلى عينتاب (Gaziantep) (١٧/٥/١٥١٨) . وأرسل بعد يومين بيرى باشا إلى العراق .

عاد السلطان سليم إلى استانبول (٢٥/٧/١٥١٨) من حملة مصر (أطول حملة فى التاريخ العثمانى) بعد سنتين وشهرين . عاد وهو فاتح للاقطار التى يعيش فيها اليوم ١٢٠ مليون نسمة ، وحائز على الخلافة الإسلامية . كان « خادما » للبلدان المقدسة . كانت استانبول قد حرمت من سلطانها مدة سنتين . وقد علم أن شعب

استانبول أعد مراسم كبيرة للاستقبال ، فخجل من الخروج أمام حشد كهذا يصفق له . انتظر حتى حلول الليل ، واجتاز بالقارب خلسة إلى سارى طوبقابو ، ولم يعلم الشعب أن سلطانهم فى السراى إلا فى اليوم التالى .

وعلى بساطة هذا الحادث ، فانه يشير إلى العلاقة بين تواضع السلطان وعظمة الدولة ، وقد كانت هذه العلاقة بين عظمة الدولة وتواضع السلطان ملحوظة فى الدولة العثمانية ، ويتضح ذلك جليا عند مقارنة حرص السلاطين على المظاهر والتظاهر فى فترة انحطاط الدولة العثمانية .

مكث ياوز ١٠ أيام فى استانبول وتحرك إلى أدرنة خلال ٩ أيام (١٥١٨/٨/١٣) . واجتمع بابنه الشهزاده سليمان محافظ العرش فى روملى المقيم فيها ، وأرسله إلى لوائه مانيسا . جدد معاهدات الصلح مع البندقية والمجر . وأخذ يستعد لحملة إيران الثانية .

عاد كذلك الوزير الأعظم بيرى محمد باشا من حملة العراق وجاء إلى أدرنة (١٥١٨/١٢/٢٠) .

فتحت هذه الحملة ألوية الموصل ، كركوك وأربيل من الصفويين . وهكذا اقتربت الحدود العثمانية إلى ١٠٠ كم من شمال غرب بغداد . وانتقلت بادية الشام بكاملها إلى الحكم العثمانى .

(٢٥) وفاة السلطان ياوز سليم (١٥٢٠/٩/٢٢) وشخصيته

غادر الخاقان أدرنة فى ١٨ تموز ١٥٢٠ متوجها إلى استانبول . كان يعتزم التوجه من استانبول إلى أسكدار ويخرج منها فى حملة ، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى استانبول وتوفى مساء ٢٢ أيلول ١٥٢٠ نحو وقت المغرب فى طريق أدرنة فى السرادق الهمايونى فى قرية صرت Sirt بسبب التأخر والخطأ فى مداواة القرحة التى كانت فى ظهره والتى تسمى (شيربنجه) . لم يكن قد أكمل الـ ٥١ من عمره . دامت سلطنته ٨ سنوات و٤ أشهر و٢٨ يوما وخلافته ٤ سنوات و٢٣ يوما . ترتيبه الـ ٧٤ بين خلفاء المسلمين . لم يعلن خبر وفاته لمدة ٩ أيام لحين قدوم ابنه من مانيسا .

نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن بالقرب من جامع السلطان سليم الذى شيده ابنه باسمه وهو كجده فاتح ، يرقد فى هذا القبر وحده .

له ديوان باللغة الفارسية أشعاره التركية قليلة ، وهو أحد أفضل الذين استعملوا الفارسية من الشعراء العثمانيين . له أشعار باللغة العربية كذلك . درس الرياضيات ، والفلسفة ، والآداب ، واللغات الشرقية والعلوم الإسلامية وتعمق فيها ، وكان عالما فى بعض بحوثها . ولى على طرابزون وعمره ١٧ سنة ولمدة ٢٤ سنة (١٤٨٧ – ١٥١١) . اشتهر فيها بحملاته على إيران وكرجستان . وطأت له هذه الشهرة الجلوس على العرش رغم إخوته الكبار . توفى أحد أبنائه (أورخان) وعمره ١٠ سنين ، ومات ابناه الآخيران (موسى وقورقود) وهما طفلان . وعند اعتلائه العرش كان له ابن واحد هو شهزاده سليمان . وإلى اليمن أويس باشا (وفاته ١٥٤٦) ابنه من جارية ، بناته خديجة ، حفصة ، فاطمة وشاه سلطان .

نقل جثمانه إلى استانبول بيرى محمد باشا على رأس الجيش الهمايونى . استقبل السلطان سليمان الجثمان عند أسوار استانبول ودخل تحت التابوت . جىء به على الأكتاف إلى جامع فاتح حيث أقيمت صلاة الميت .

قبيل وفاته كانت ١٥٠ سفينة فى حالة إنشاء فى مصنع السفن فى استانبول ، ويحتمل أن هذه السفن كانت تعد لحملة لفتح رودس .

عاش أطول من جده فاتح سنة واحدة ، لكن جلوسه على العرش لم يكن بقدر مدة جده فاتح .

قام خلال ٨ سنوات بأعمال لايستوعبها العقل ، وجعل من الامبراطورية العثمانية دولة عالمية حقيقية كبرى (١٥١٧) ، وحافظت الدولة العثمانية على فتوحاته مدة ٤ قرون . ترك دولة مخيفة لأعدائها تمتد بين فاس وحضرموت ، سوذان وروسيا . كان هدفه أن يحقق فى إيران ماحققه صلاح الدين الأيوبى فى مصر من حيث القضاء على الحكم الشيعى – الذى لم يكن قد أكمل بعد سنته الـ ٢٠ ، والسعى لإقامة الاتحاد الإسلامى ، والوصول إلى طوران ، تركستان والهند . دخلت السياسة الخارجية العثمانية بعده فى غير المجرى الذى رسمه لها ، ولم يتحقق هذا المشروع .

كان متوسط القامة أقرب إلى الطول ، قاصب الحاجبين ، شديد النظرات ، غير

ملتحح ، طويل الشاربين ، عصبيا ، جسورا ، صيادا ماهرا ، فارسا ماهرا فى استعمال الأسلحة .

ترك التقاليد و لم يلتح حتى وفاته (كان قد منع إطالة اللحية بالنسبة للأمراء أبناء السلاطين أو أبناء أبنائهم) كان مولويا ومؤمنا بفلسفة وحدة الوجود . أبدى احتراما كبيرا لمحيى الدين بن العربى ومولانا جلال الدين الرومى . يظهر من قراءته بواسطة النظارات أنه كان مصاباً بمرض طول النظر (Hypermetropia) (كان تيمور كذلك يستعمل النظارات وقد شاهد الأوروبيون أول نظارة عندما استعملها تيمور) . كان يجتمع بالعلماء والفنانين ويتباحث معهم ، لم يكن يسمح أبدا بدخول المشروب إلى هذه المجالس ، كما كان يفعل بعض خلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين . يمتاز لباسه بالبساطة التامة عدا المراسم الكبرى . سخر من ابنه سليمان الذى يحب الزركشة فى اللبس . له ولع شديد بالخيل ويملك أرقى أنواع الخيول فى العالم . يسير أمور الدولة ضمن منهج وخطة مدروسة ، يستشير ثم يتوصل إلى قرار ، ويعاقب الذين لايمتثلون لهذا القرار بالإعدام أحياناً . كان مطلعا بشكل فائق على السياسة العالمية ، وكان لايستغنى ولايترك أبدا قطع خريطة العالم التى رسمها بيرى رئيس (إحدى هذه القطع هى خريطة أمريكا المحفوظة حاليا فى سارى طوبقابو) . كان يعنى ببقاء الخزينة مليئة فى جميع الأوقات . مصاريفه الشخصية لاتذكر . دهاؤه العسكرى لامثيل له ، ولايفوقه فى هذا المجال غير الفاتح فقط . رجل دولة رائد ، ويأتى ترتيبه كسياسى وخبير فى السياسة الخارجية .. بعد فاتح وابنه سليمان القانونى ، ويمكن القول بأنه أعلم سلاطين بنى عثمان بعد جده الفاتح وأبيه بايزيد .

اعتلى العرش وهو يرث إمبراطورية تمتد على أراض مساحتها ٢٣٧٣٠٠٠ كم٢ ؛ منها ٥٩٦٠٠٠ كم٢ فى آسيا (الأناضول) ، والبقية فى قارة أوربا (١٧٧٧٠٠٠ كم٢) . أما الامبراطورية التى تركها لابنه عند وفاته (١٥٢٠) فقد كانت تمتد على أراض مساحتها ٦٥٥٧٠٠٠ كم٢ ؛ ١٧٠٢٠٠٠ كم٢ فى أوربا ، ١٩٠٥٠٠٠ كم٢ فى آسيا ، ٢٩٥٠٠٠٠ كم٢ فى أفريقيا . ويعنى هذا إن مقدار الاتساع يبلغ ضعفين ونصفا خلال ٨ سنوات .

كانت قد تأسست فى أفريقيا ، إيالة مصر العظيمة التى تمتد إلى ليبيا ، والسودان وبلاد الحبش ، وإيالة جزائر التى سيأتى ذكرها فيما بعد . وكان الاتحاد الأناضولى

قد تحقق تقريبا ، وألحقت ولايات أدنة ، غازى عنتب ، هاتاى ، أورفة ، دياربكر ، ماردين ، سعرت ، موش ، بينغول ، بتلس ، طونجلى ، أرزنجان وكموشخانه . وقد أخذ قسما من ولايات حكارى وأرضروم وسوف يجرى القانونى بعد عدة سنوات التعديلات الأخيرة ، ويضع النقاط على الحروف ، وسيلحق بالدولة مناطق ولايات أرضروم ، وأرتفين ، وآن ، وآغرى التى لم تلحق ، ويحصل على الحدود الحالية . كانت حدود الدولة فى تلك الأيام تمتد بين أفريقيا الوسطى ، وأوربا الوسطى وجنوب موسكو ، وبإلحاق إمارتى دلقادر ورمضان ، أصبحتا آخر إمارتين تذكرنا بعهد الإمارات التركمانية فى الأناضول ، فى ذمة الماضى .

« أصبحت تركية على عهد ياوز سليم ، دولة عالمية .. دولة عالمية كبرى حقيقية ، ومع أنه ترك الحرية لأوربا فإن فتوحاته التى لاتعد ولاتحصى فى آسيا وأفريقيا ، جعلت من الدولة دولة عالمية كبرى . كان البحر الأبيض على وشك أن يصبح بحيرة تركية ، وصل إلى المحيط الهندى » (L'Empire du Levant, Rene GRousset ٦٤٢ - ٤) .

(٢٦) منشأ الأخوة بربروس (١٥٠٠ - ١٥١٣)

والد الأخوة بربروس ، هو أبو يوسف نور الله يعقوب آغا . وقد كان هو وأبوه عبد الله آغا تمارلى سباهي (أى ضباط فروسية) . جاءوا من قاراسى (بالكسير) وأخذوا تمار (أراض تعطى من قبل الدولة لإصلاحها) فى شبه جزيرة غاليبولى ، إيجة آباد (مايدوس) ، ثم فى فاردار ينيجه سى (تراقيا الغربية) . وعلى أثر اشتراك يعقوب آغا ، فى فتح فاتح لجزيرة ميديللى فى ١٤٦٢ ، أعطيت لهم فيها أراض أوسع . استوطن فى ميديللى وتزوج بإحدى بناتها ، وأنجب ٥ أبناء ، ٤ منهم اشتهروا فى التاريخ ، وأسماؤهم حسب التسلسل إسحق ، أوروج ، خضر ، إلياس ، وفرق العمر بينهم قليل جدا . إن لقب « بربروس » الذى أطلق على هؤلاء الإخوه وخاصة على أشهرهم أوروج وخضر ، هو لقب يعتقد أنهم لقبوا به لكونهم حمر اللحى .

كان وضع المغرب ، (العالم العربى الغربى بخطوطه الرئيسية) فى النصف الأول من القرن ١٦ قبيل تدخل الإخوة بربروس فى أفريقيا كما يلى :

كانت إمبراطورية فاس فى هذه المنطقة دولة كبيرة ، وكانت تشمل أقصى غرب المنطقة بين البحر الأبيض والأطلسى . (بالعربية : المغرب الأقصى) .

كان الوطاسيون (فرع المرينيين البرابرة المستعربين) يتنافسون على فاس مع شرفاء السعدية .

كانت فاس التى تمتد فى الجنوب بشكل واسع نحو أفريقيا قد فقدت مجدها الذى كانت عليه على عهد المرابطين ، والموحدين ، والمرينيين الأوائل ، وانشغلت بالفوضى الداخلية ونزاع السلالات .

وبالإضافة إلى أنها لم تثبت وجودها فى الدفاع النهائى عن الأندلس ، فإنه لم يكن بإمكانها التصدى لتسلط الأسبان على شمال إفريقيا وسواحل الأطلسى لفاس . لكن الدولة الأكثر اقتدارا والأقوى مكانة ، كانت المغرب ، وكان الاستيلاء عليها من الخارج صعبا .

كانت السلالة المسماة عبد الواد أو زيانى، تحكم غرب الجزائر ومدينة عرشها تلمسان . وكان هؤلاء قد فقدوا قوتهم منذ زمن بعيد ، وكانوا عاجزين عن الدفاع حيال الهجوم الأسبانى .

وفى تونس ، كان الحفصيون .

تأسست السلطنة الحفصية فى ١٢٢٨ ، وبمضى الوقت تدهورت وضعفت ، وكانت تحافظ على بقائها بالتعايش مع الأسبان . وبحكم موقع تونس جنوب صقلية ، فإن أسبانيا التى تسيطر على صقلية ونابولى ، كانت تشكل خطرا على تونس .

كان وضع الجزائر الوسطى والشرقية ضعيفا تماماً . وكذلك قبيليّة فى الجنوب . كان شيوخ البرابرة المستعربون فى نزاع قتّال ، وكل واحد منهم يسعى لإفناء الآخر ، وليس من بينهم من يحمل صفة الحاكم . وبذلك يمكن القول بأن قطاع ساحل الجزائر كان مفتوحا وميسرا لاستيلاء الأسبان .

كانت كافة هذه الأقطار سنية – مالكية ، ولم يكن هناك حنفيون لعدم مجىء الأتراك ، وفى ذلك التاريخ ، كان معظم السكان ينطقون باللغة البربرية ، وهى لغة حامية ، وكانت العربية تكاد تكون خاصة بالمدن .

غادر الكاردينال Ximenés مع ٣٣ سفينة حربية و٥١ سفينة نقل تحمل ٢٤٠٠٠ جندى أسبانى ، ميناء قرطاجنة فى جنوب أسبانيا واحتل ميناء أوران (بالعربية : وهران) فى الجزائر الغربية (١٥٠٩/٥/١٦) ، ذبح ٤٠٠٠ مسلم وساق البقية كعبيد إلى أسبانيا . أصبحت وهران أهم قاعدة للأسبان فى شمال أفريقيا . بينما لم يبق للمسلمين فى أسبانيا أية قاعدة فى ذلك التاريخ .

وفى ١٥٠٨ ، احتلت أسبانيا Penon de Velez ثم جاء Don Pedro Navarro مع ١٥ سفينة حربية و١٤٠٠٠ جندى إلى بجاية (بالفرنسية : Bougie) ، واحتل هذا الميناء كذلك ، وهكذا أصبحت سلطنة تونس محاطة من الغرب والشرق ، بالقواعد الأسبانية .

انتقلت مدن جزائرية كثيرة لحوزة أسبانيا أو اعترفت بسيطرة الأسبان عليها مثل تنسى مستغانم ، شرشل ، دلس .

احتل دون بيدرو المنطقة الحجرية التى تبعد مسافة ٣٠٠ متر عن ميناء الجزائر ، وشيد فيها قلعة Penon d'Argel ، وكان بإمكانه قصف مدينة الجزائر ومينائها والسفن التى تدخل إلى الميناء بنار المدفعية كما يحلو له .

كان المدفعيون الأسبان يتسلون بتوجيه مدافعهم أثناء أذان المؤذن فى مدينة الجزائر ويصوبونها نحو المؤذنين فى المنارة ويهدمرونها .

تعهد العرب بعدم إدخال أية سفينة لايقبل الأسبان دخولها إلى أى من الموانىء الجزائرية .

وهكذا تأسست مستعمرة الجزائر الأسبانية ، ووضع حجر أساس متين لجعل شمال أفريقيا ، أمريكا اللاتينية ، وكان الوضع يوحى بأنه لا توجد قوة تحول دون أن يلقى شمال أفريقيا نفس عاقبة الأندلس والقارة الأمريكية .

أقام دون بيدرو فى مدينة وهران بلقب ماركيز Gomares كوالٍ عام على مستعمرات شمال أفريقيا . أما البرتغال فقد شيدت قلعتى Mazagan و Âzemûr على سواحل فاس فى الأطلسى .

كان الأخوة بربروس ، خلال السنوات التى كانت تعانى فيها أفريقيا من هذا

الوضع ، يعملون كملاك سفن يربحون من تشغيل سفنهم .

كانوا فى البداية يعملون فى الجزر فى بحر إيجة ، ثم أخذوا يعملون بين موانىء سلطنة مصر الواقعة شرق البحر الابيض وتركيا . وفى إحدى هذه الاسفار ، اثناء ذهابهم من ميديللى إلى طرابلس الشام ، اعترضت طريقهم سفن فرسان رودس ، واستشهد صغيرهم إلياس رئيس وعمره حوالى ٣٠ ، ووقع كبيرهم أوروج رئيس فى الأسر .

كان الأخوة بربروس أصحاب سفن أغنياء ، وقد وصلت شهرتهم إلى تركية وكانوا معروفين فى مصر ورودس .

جاء أخوه خضر رئيس إلى بودرم ، وعندما علم بأسر أخيه وسوقه إلى رودس لحمل الأحجار ، وعد بافتداء أخيه بفدية كبيرة ، لكن الفرسان كانوا لايريدون إطلاق سراح أوروج لعلمهم بخبرته وتفوقه فى البحر .

وفى هذه الأيام كان السلطان قورقود أخو السلطان سليم الكبير واليا فى أنطاليا . اتفق مع الفرسان على أن يسلموا سنويا إلى الشهزاده ١٠٠ أسير مسلم ويتسلمون هم عوضا عن ذلك أسرى مسيحيين أودراهم . كان الفرسان يعتزمون عدم ادخال أوروج ضمن قوافل الـ ١٠٠ التى تم الاتفاق عليها ، لكن أوروج ، كان فى تلك السنة فى سفينة الفرسان التى تنقل الأسرى المسلمين إلى أنطاليا كجداف (وقد حدث ذلك نتيجة لغفلتهم) ، وعندما شاهد سواحل أنطاليا ، خرج من سلاسله ، وتمكن من القفز إلى البحر والخروج إلى البر .

استمر أوروج الذى نال حريته فى العمل فى سفنه فى البحر الأبيض . ويحتمل أن سنة خلاصه من الأسر هى ١٥٠٦ .

يقال إن السلطان قانصوه استدعاه عندما كان فى ميناء الإسكندرية ، وذهب إلى القاهرة ومثل بين يدى السلطان الذى كلفه بقيادة الأسطول المصرى الرفيع ، فوافق . وقاد أوروج أيضا الأسطول المملوكى الذى أعاد الشهزاده قورقود من الإسكندرية إلى أنطالية . كلفه السلطان قانصوه أميرالية البحار الهندية . وافق فى البداية ثم اعتذر بعد مدة حيث كان لايرغب فى الذهاب إلى المياة الهندية وإنما كانت رغبته فى البحر الأبيض .

ترى لو كان قد وافق على أميرالية الهند ، ماذا كان سيصبح مستقبل المغرب ؟

جاء أوروج رئيس إلى مانيسا واجتمع بالسلطان قورقود وتسلم منه سفينتين حربيتين كهدية . ذهب إلى ميناء أزمير وتسلم سفينتى الشهزاده . كان قورقود يفكر فى تأسيس أسطول قراصنة (الصاعقة البحرين) . وعندما مثل أورج بين يدى السلطان قورقود ليشكره ، تساءل الشهزاده عن سبب عدم ذهابه إلى غرب البحر الأبيض وأخبره بأن المسيحيين هناك يستولون على المسلمين ، وأوصاه بالذهاب ومشاهدة الوضع شخصيا ، وأن يسير فى أثر كمال رئيس . قبل يد السلطان قورقود ونال دعاءه .

ذهب بسفينتيه الحربيتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية ، وضرب السفن الأسبانية والبندقية ، وعاد إلى خليج أزمير .

كان يريد تقبيل يد السلطان قورقود ، ويشكره ويقدم هدية له ، وقبل دخوله ميناء أزمير ، سمع بخبر جلوس السلطان سليم واعتقاله أتباع أخيه السلطان قورقود . ويمكننا أن نقول دون كثير مبالغة أن معظم البحارة الأتراك هم من أتباع قورقود وأنهم يدينون له بالولاء . نزل أوروج فى أنطاليا دون أن يمر بأزمير . كان يريد أن يعرف ما إذا كان لقورقود أى أمر يقضيه . وهناك علم مع الأسف باعتقال وإعدام الأمير . كان مقتنعا بأن حياته هو كذلك فى خطر .

ترك أوروج المياه التركية ، ودخل ميناء الإسكندرية مع ٤ قطع من سفنه (١٥١٣) . أرسل يحيى رئيس إلى القاهرة إلى السلطان قانصوه مع ٤ عبيد و٤ جوارى وهدايا ثمينة . ومع أن السلطان صرح ليحيى رئيس بأن أوروج بك كان فى خدمته فى السابق وأنه ترك خدمته ولامه على ذلك ، فإنه قبل هداياه وقال إنه بإمكانه أن يعتبر نفسه من رعايا السلطنة المملوكية وبإمكانه أن يطلب الأسلحة والمعدات التى لايستطيع توفيرها . (يبين هذا شدة حاجة المماليك للبحارة) . غادر أوروج الإسكندرية فى صيف سنة ١٥١٣ وجاء إلى جزيرة جربة الواقعة بين تونس وليبيا . وبمجيئه هذا ، تغير سير تاريخ شمال أفريقيا بصورة جذرية .

(٢٧) أوروج بك فى المغرب (صيف ١٥١٣ - ١٠/١٠/١٥١٨)

سأحاول فيما يلى أن أقدم الخطوط الرئيسية لحياة أوروج بك الملحمية خلال السنوات الخمس التى قضاها فى المغرب . إن مساحة جزيرة جربة التى رسا فيها أوروج (والتى ستذكر بعد الآن مئات المرات فى تاريخ البحرية التركية)، ٥٤٠ كم[٢] . فيها أماكن تقترب من تونس بمسافة ٢ كم[٢] .

يسكن الجزيرة البرابرة الذين استعرب أكثرهم من ناحية اللغة ، وعدا السنيين - المالكيين ، توجد جماعة الخارجية - العبادية كذلك ، ويتبع شيوخ البرابرة الموجودون فى الجزيرة السلطان الحفصى فى تونس .

كان كمال رئيس قد ذهب من قبل إلى جربة مرات عديدة . وكان كمال رئيس قد توفى قبل أن تطأ أقدام أوروج رئيس الجزيرة بسنتين ونصف فقط . كان كمال رئيس والبحارة الذين ذهبوا إلى جربة هم السبب فى مجىء أوروج إلى جربة . وطد أوروج قدمه فى الجزيرة ، واشترى قسما من الساحل من الشيوخ ، وأسس قاعدة وتأسيسات مهمة . وبدأ منها بحملاته ، وبعد مدة جاء أخوه خضر رئيس من ميديللى إلى جربة خوفا من ياوز ، وجلب معه سفنا ومعدات كثيرة . كان أوروج بك ، لايريد قطع علاقته بمصر ، ولم يكن مطمئنا إلى ما إذا كان قد اعتبر فى تركيا عاصيا أم لا ، والحقيقة أن عائلته الموجودة فى ميديللى ، لم تتعرض لأى ضغط ، لكنه لم يكن من الميسور معرفة نوايا سليم ، خاصة أنه لم يكن من عادته أن يصرح مسبقا بما سيفعله . أرسل أوروج إلى السلطان قانصوه باستمرار هدايا من الغنائم التى حصل عليها من المسيحيين . كان يبتاع المهمات البحرية من مصر . وقد صرح السلطان قانصوه فى شأنه قائلا : « إن كان هناك شخص لاينكر النعمة ويعرف الخير فى العالم ، فهو ابنى أوروج قبطان » . إن عبارة كهذه فى ذلك العهد ، كانت يستعملها السلاطين الكبار فى حق تابعيهم الحكام الصغار فقط .

لقد كان يجب على الأخوة بربروس الذين يعيشون فى الأراضى التونسية ، أن يؤسسوا علاقات حسنة مع السلطان التونسى .

كان أبو عبد الله محمد الخامس (١٤٩٤ - ١٥٢٨) ، على عرش تونس فى هذه

الأيام . هو خلف وابن أخ يحيى الثالث (١٤٨٨ - ١٤٩٤) الذى توسط لعقد الصلح العثمانى - المملوكى .

جاء الإخوة بربروس إلى تونس فى ١٥١٣ ومثلوا بين يدى السلطان وقدموا له هدايا ثمينة .

وافق السلطان على إعطائهم قلعة حلق الواد (بالفرنسية : La Goulette) . وهى مجاورة لتونس ، وكانت ميناء متحكما فى خليج تونس ، وكان على الإخوة بربروس أن يقدموا إلى السلطان مقابل ذلك خمس الغنائم .

وفى هذه الأيام ، كان لأوروج ١٢ سفينة حربية ، وكان معه أخواه ، ونوتية أتراك قديرون ، وكان لديه ١٠٠٠ جندى بحرى (لوند) فقط .

كان أوروج فى حاجة شديدة إلى جلب جنود بحريين من الأناضول . فقد كان لديه أعوان كثيرون من العرب والبرابرة ، لكنهم ليسوا بحارة . ولتحقيق مشاريعه كان بحاجة شديدة إلى جنود البحرية .

كانت حلق الواد على وشك أن تشهد أحداثاً كبيرة . قضى أوروج شتاء ١٥١٣ - ١٥١٤ فيها . ثم ذهب إلى المياه الخارجية لساردونيا ، استولى بعدها على سفن كثيرة جدا . التقى بين كورسيكا وألبا بسفينتين galerruvayalli للبابا . كانت هاتان السفينتان العملاقتان تعتبران من الطرادات الكبيرة فى ذلك العهد ، وكانت قطعات أوروج الصغيرة بمثابة الزوارق إذا ماقورنت بهاتين السفينتين كانت كل سفينة من هاتين السفينتين تسير بواسطة ٥٠ زوجا أى ١٠٠ مجداف وفى كل مجداف أكثر من درزن من الجدافة ، وهما مبتعدتان عن الساحل ، استولى أوروج على الأولى ، ثم على الثانية . ذاع صيته فى كامل أوروبا باسم « بربروس » .

كان مقتنعا بوجوب تأسيس دولة فى شمال أفريقيا ، لإمكان صد المسيحيين .

أراد أولا تحقيق ذلك فى تونس . لكن الحفصيين كانوا سلالة متمكنة ، ومن المحتمل أن تؤدى إزالة عائلة كهذه إلى فقدان محبة شعب شمال أفريقيا .

أما فى الجزائر فلم يكن فيها سلالة ولاحاكم .. وكانت معرضة أكثر من غيرها للتسلط المسيحى ، وقد انتقلت أماكن كثيرة منها لحوزة الأسبان . ورغم أن الشيوخ

والقواد فى الجزائر كانوا يعترفون ظاهرا بتبعيتهم لملك أسبانيا أو والى عام أوران وللسلطان فى الغرب وللسلطان العبدى (نسبة إلى عبد الواد) فى الشرق ، لكنهم فى الحقيقة كانوا مستقلين .

قرر أوروج بك البدء من بجاية (بالفرنسية : Bougie) ، التى كانت مرفأ أسبانيا على بعد نحو من ٢٠٠ كم غربى مدينة الجزائر . وقد كان بإمكانه التمركز فيها ، والتوصل إلى مدينة الجزائر وإنهاء التسلط الأسبانى عليها .

دخل بجايه بـ ٤ سفن . أغرق إحدى السفن الأسبانية الـ ٩ التى حاولت منعه . ظفر باثنتين منها وأجبر الـ ٦ الباقية على الفرار . أنزل أوروج بك الجنود والمدافع إلى البر وبدأ بحصار القلعة . وفى اليوم ٨ من الحصار (ك ١٥١٤/١) ، أصابت إحدى طلقات المدفعية ذراعه اليسرى إصابة بالغة . رفع الحصار ، وبترت ذراع الرئيس .

أخذت أساطيل الأخوة بربروس فى الاتساع على مر الزمن . وبدأت بضرب السفن المسيحية على نطاق واسع . وعلى سبيل المثال : تمكن خضر رئيس فى بداية سنة ١٥١٥ فى حملته خلال الشتاء من الاستيلاء على ٢٠ سفينة و٣٨٠٠ أسير . كثيرون من ربابنة السفن الشهيرين جاءوا من الأناضول والتحقوا بالأخوة بربروس ، من هؤلاء ابن أخ كمال رئيس راسم الخرائط البحرية الشهير بيرى رئيس ، آيدن رئيس ، قورقود أوغلو مصلح الدين رئيس ، صالح رئيس (باشا) ، ابنى خضر الاثنين بيوك حسن رئيس (باشا) ، كوجوك حسن رئيس (باشا) ويحيى رئيس . وكافة هذه الأسماء تدخل ضمن أشهر أميرالات القرن ١٦ .

كانت الحاجة الشديدة إلى جنود البحر ماتزال مستمرة . تحسنت صحة أوروج بك فى صيف عام ١٥١٥ وبدأ بالخروج فى الحملات . رسا فى جزيرة Minorka ، رفع الراية وقام بعرض فى خليج جنوة وبحر Ligurya . أخذوا بترتيب أسفار كثيرة وبدءوا بنقل عشرات الألوف من الأندلسيين من أسبانيا إلى شمال أفريقيا ، حيث كان عملا خطيرا يجرى والأسبان يطاردونهم .

لم يعد أوروج رئيس يخشى السلطان سليم ، فقد كان قد أدرك سياسته الإسلامية وأيدها . كان هو كذلك يقوم بنفس المهمة فى المغرب . بعث بمحيى الدين بيرى

رئيس إلى استانبول مع ٦ قطع من السفن . قابل ياوز بيرى (آذار ١٥١٦) ، وأهداه سيفين مرصعين قائلا : « يتقلد أحدهما لالا (مربى السلاطين) أوروج والآخر يتقلده لالا خير الدين خضر ويغزوان الأعداء » . ملأ سفينتين حربيتين بالمهمات الإستراتيجية وسلمها إلى بيرى رئيس . تنفس أوروج بك الصعداء ، وعادت علاقته بالوطن الأم . كان ياوز يأمل الشيء الكثير من الأخوة بربروس فى سياسة المغرب .

وفى هذه الأثناء احتل الأخوة بربروس Cicelli ثم ساروا منها على بجاية ، وفى هذه المرة احتلوها (١٥١٦/٨/٤) . أقيمت الدعوات فى كافة مساجد المغرب لتوفيق الأخوة بربروس فى جهادهم . أصبح أسطول أوروج بك ، أسطولا حقيقيا يتكون من ٢٨ قطعة حربية مجهزة بصورة ممتازة جدا ، ولم يكن فى ذلك الحين لدى كثير من الدول الأوربية قوة بحرية تعادلها . استرد الأسبان بجاية فى الحال . إن أوروج ، الذى كان لايبالى بأية ظروف غير مواتية ، دخل ميناء الجزائر بأسطول كبير و ٨٠٠ جندى بحرى و ٥٠٠٠ من العرب المتطوعين الذين انضموا إليه ، واحتل المدينة (ك١٥١٧/٢) . أمر بتلاوة اسمه فى الخطبة بعد اسم السلطان ياوز سليم . وهكذا أعلن حكمه بصورة رسمية .

عاد قورقود أوغلو مصلح الدين الذى أرسله إلى إستانبول مع سفينتين حربيتين عثمانية مليئتين بالمواد الاستراتيجية والجنود البحريين ، وأحضر معه لأوروج بك – الذى سمى فى المغرب « سلطانا » بصورة رسمية – الأمر البادشاهى (الفرمان) المهم الذى أصدره السلطان سليم والذى يخول أوروج جمع جنود البحر (لوند) من الأناضول وابتياع مايحتاج إليه من المهمات العسكرية .

بدأ أوروج بك بحل الخلافات الداخلية للجزائر ، وتحصين الجزائر بالشكل الذى لايمكن الأسبان من الاستيلاء عليها (سوف يستمر أخوه خضر خير الدين على ذلك) .

صرح العقيد مهند الحج عند نيل الجزائر استقلالها فى ١٩٦٢ بهذا البيان : « نحن مدينون بكل مالدينا وحتى بكياننا كشعب واحد للأتراك . كنا قراصنة عند مجىء العثمانيين ، مكونين من مئات القبائل . عين العثمانيون لأدارتنا أحد الباشوات . جمعوا

القبائل المتفرقة وجعلوها كتلة واحدة وجعلوا منها قوما بقى تحت الإدارة التركية المركزية مدة ٣٠٠ سنة وتعلموا قيمة الاتحاد . لقد أصبحنا قوما بمساعدة الأتراك » (صحيفة حريت ، ١٩٦٢/٨/٣) .

احتل أوروج بك تنيس Trnes وسيطر على ١٠ مدن ومنطقة واسعة . اعلنت أسبانيا الحرب على أوروج بك الذى أعلن نفسه سلطانا (١٥١٧/٩/١) . جاء Don Diego de Vera مع ٤٠ سفينة حربية ، ١٤٠ سفينة نقل و ١٥٠٠٠ جندى مشاة أمام قلعة الجزائر . بدأ بقصف القلعة التى حصنها أوروج . كان آلاف من المحليين يساندون الأسبان .

بدأ أوروج بالهجوم على هؤلاء مؤكدا لهم قوته ، وعلى الرغم من أن الأسبان ركزوا العلم على أبراج قلعة الجزائر ، فى ٣٠ أيلول ، فإن أوروج قام بهجوم شديد اضطر Don Diego إلى رفع الحصار ، وطارده الأتراك وقتلوا ١٥٠٠ أسبانى ، وهكذا يكون ذلك البحار المتواضع قد تغلب على أكبر دولة أوربية برية وبحرية .

أحتل أوروج مليانة ومدية . وعاقب الشيوخ الذين تعاونوا مع الأسبان . أجرى فى البلاد تعداد النفوس وتحصيل الضرائب ، وأخذ فى تطبيق النظام العثمانى .

كان أوروج الذى سيطر على سواحل الجزائر الوسطى والشرقية ، يريد إخراج الأسبان من القطاع الغربى . كان الساحل لدى الأسبان (وهران) ، أما القطاع الداخلى الذى يقع على حدود فاس ، فإنه كان لدى سلالة عبد الوادى (تلمسان) .

كانت تلمسان معرضة لتهديد جدى من قبل الأسبان الموجودين فى وهران حيث لم يكن لدى بنى عبد الواد ، الجيش الذى يمكنهم من صد الجنود الأسبان المجهزين بالمدافع والبنادق .

عقد ملك تلمسان محمد الخامس معاهدة مع الأسبان ضد الأتراك . كان مقتنعا بأنه تخلص بذلك من استيلاء أسبانى ، وفى الوقت ذاته تمكن من إيجاد من يدافع عنه ضد الأتراك .

كان فى تلمسان عدد كبير من الأندلسيين . استاء هؤلاء كثيرا من المعاهدة التى عقدت مع الأسبان الذين سفكوا دماء المسلمين ، ولكون المعاهدة ضد المسلمين

الأتراك وهم القوة الوحيدة التى تساعدهم .
ترك أوروج أخاه خضرًا فى الجزائر وسار إلى تلمسان .

كانت تلمسان بتعدادها البالغ ١٢٥ ٠٠٠ نسمة إحدى أكبر المدن الأفريقية ، كانت مزينة ببدائع الفن المعمارى الذى لامثيل له (كان تعداد لندن فى هذا التاريخ ٨٥ ألفا ، وباريس أكبر مدينة مسيحية ٣٨٠ ألف نسمة) . تبلغ المسافة بين تلمسان وتونس (مسافة مستقيمة) نحو ١٠٠٠ كم . كان الإخوه بربروس ، قد تمكنوا خلال ٤ سنوات من تكوين أكبر قوة على مساحة كبيرة كهذه وأثبتوا وجودهم فيها . كان محمد الخامس يسدد إلى الوالى الأسبانى سنويا فى وهران ١٠ ٠٠٠ ليرة ذهب ، و ١٠ ٠٠٠ رأس غنم ، و١٠٠٠ رأس من المواشى ، و ١٠ أطنان حنطة و ١٤ حصانا عربيا و١٤ عبدا أسود البشرة . أفتى علماء تلمسان بوجوب قتل السلطان ، ذهب وفد من أعيان البلد إلى الجزائر ودعوا أوروج .

فتح أوروج قلعة القلاع أو قلعة بنى رشيد (حاليا عويد فضة) وهى على مسافة ١٨٠ كم شمال شرق تلمسان . ترك فيها ٣٠٠ جندى مع أخيه الكبير إسحق رئيس . شتت جيش محمد الخامس الذى يتكون من ٦٠٠٠ خيال و ٣٠٠٠ مشاة بكل سهولة خارج تلمسان ودخل المدينة كصديق . استقبله الشعب بمظاهرات التأييد . أعدم محمد الخامس بناء على فتوى علماء تلمسان (ت ١٥١٧/١) . اعتلى العرش مكانه أخوه ابو حمّو الثالث . بدا الأمر وكأن أوروج رئيس حاكم الجزائر كلها ، عدا وهران .

دخل أوروج بك فاس واحتل وجدة أكبر مدينة فى فاس الشرقية (تبعد ٦٠ كم جنوب غربى فاس) . عقد مع سلطان فاس معاهدة ضد الأسبان ، لكن سلطان فاس هاله جدا رقى الأتراك وكان يستعد للاتفاق مع الأسبان على إبعاد الأتراك من هذه الديار ، ومن هنا فقد اتجه تفكيره إلى أن يتخلص من الأتراك أولا ثم بعد ذلك يفكر فيما يجب عمله !

ولضرورات جغرافية - سياسية ، انتشر أوروج بك على مساحة واسعة جدا . اعتبارا من جزيرة جربة فى حدود ليبيا ، إلى وجدة فى فاس الشرقية ... وقد كان مثل هذا الوضع عرضة للانهيار ، إن لم يتمكن من جلب جنود من تركيا .

كان يظن أن الجميع سوف يؤيدونه لجهوداته فى نقل الأندلسيين من أسبانيا وجهاده ضد المستعمرين الأسبان فى شمال أفريقيا ولتطبيقه للنظام العثمانى فى الإدارة ، لكن هذا النظام العثمانى كان قد ولّد رد فعل حتى فى الأناضول ؛ فقد ترك الأناضول مئات الآلاف من التركمان الذين لايريدون التنازل عن امتيازاتهم الإقطاعية ، ووصل بهم الأمر إلى حد تغيير مذاهبهم والذهاب إلى إيران . لقد كان توقع أوروج أن تتقبل المغرب الإقطاعية هذا النظام فوراً أو أن تتقبله فى وقت قصير - مخالفا للواقع .

علم أوروج بك ، خلال الأيام التى دخل فيها السلطان ياوز سليم إلى القاهرة ، أن ضغوطا كبيرة ستقع عليه . لم تكن أسبانيا المغرورة تفكر أبدا فى ترك أفريقيا الشمالية . زود الإخوة بربروس أخاهم الكبير إسحق رئيس بالإمدادات لأنه كان هو الأقرب إلى وهران . اجتمع تحت إمرة إسحق رئيس فى قلعة القلاع ٩٠٠ جندى بحرى تركى و ٢٠٠٠ خيال عربى .

سار دون مارتن دى آرغوت إلى إسحق رئيس من وهران ، واتحد مع الأسبان آلاف من خيالة بنى عبد الواد . تقع قلعة القلاع على طريق مستغانم - معسكره ، وتبعد عن وهران ٨٠ كم فقط . كان الأسبان لايرغبون فى بقاء قلعة شديدة الخصومة كهذه ، وكانت مستغانم ومعسكره بيد الأسبان ، وكان يوشك أن يحتلها الأتراك .

قاوم إسحق رئيس حتى النهاية . لم تصل المعونة التى كان ينتظرها من أخيه خضر رئيس فى الجزائر . استشهد إسحق رئيس وأكثرية المتطوعين العرب وتسعة أعشار الجنود البحريين . كان الأسبان قد اكتسبوا قوة كبيرة حيث أرسلت أسبانيا إلى وهران حديثا ١٠٠٠٠ جندى . أما قلعة القلاع فقد حاصرها ٢٠٠٠ أسبانى و ١٠٠٠٠ عربى . نفد عتاد وطعام الأتراك . وعندما دخل دون مارتن القلعة ، أدهشه أن يجد حفنة من الجنود البحريين الذين لم يذوقوا الطعام منذ أيام وكذلك الجرحى - ملتفين حول إسحق رئيس الذى امتلأ جسمه بالجراح . لقد رفض هؤلاء جميعا التسليم وصمموا على الحرب حتى استشهدوا جميعا (١٥١٨/١/٣١) .

(٢٨) استشهاد أوروج رئيس (١٥١٨/١٠/١٠) وشخصيته

وفى هذه الأيام ذاتها سار الجيش الأسبانى الأصلى إلى أوروج بك فى تلمسان . كان مكونا من ١١٥٠٠ أسبانى و ٣٥٠٠٠ عربى ، وكان المشاة الأسبان مجهزين

بالبنادق ولديهم وحدات مدفعية كذلك .

أما أوروج بك فقد تمكن من جلب عدد قليل جدا من المدافع إلى تلمسان ، وكان يعتمد على شعب الجزائر الغربية ، وسلطان فاس . كانت قلعة القلاع قد قاومت ثلاثة أسابيع وأربعة أيام .. فكم من الوقت ستقاوم تلمسان ياترى ؟ .

دافع أوروج بك عن تلمسان تجاه قاتل أخيه دون مارتن مدة ٦ أشهر . كان يأمل أن يمل الأسبان وينسحبوا ، لكنهم كانوا جنودا عُنَدَاء .

انتظر المعونة من سلطان فاس ، لم تصل المعونة . حتى أخيه خضر بك فى الجزائر لم يتمكن من عمل مايؤدى إلى عدم ضياع مدينة الجزائر ولم يتمكن من المجىء إلى تلمسان التى تبعد مسافة كبيرة . لم يكن التلمسانيون قد شاهدوا حربا تركية وأسبانية تستمر إلى النهاية . ضاقوا بهذا الوضع . أغاروا فى صبيحة يوم عيد الأضحى بعد صلاة العيد على جنود البحر الأتراك وقتلوا عددا كبيرا منهم . تمكن أوروج بك من السيطرة على الوضع بصعوبة . ولكنه أدرك أنه لن يتمكن من الاحتفاظ بالقلعة بهذا الوضع ، ولم ير من وسيلة غير الخروج وخرق الحصار .

كان الأسبان يتسلمون الإمدادات بصورة مستمرة وكان ماركيز غومارس قد حضر بنفسه من وهران لإدارة وقيادة الحصار . نفد طعام أوروج وعتاده . قام بطلعة آنية وقتل ٧٠٠ أسبانى وأسر ١٠٠ منهم . كانت هذه هى حملته الأخيرة . بقى لديه ٤٠ جنديا بحريا (لوند) فقط . وفى إحدى الليالى قبل طلوع الفجر وأثناء نوم الأسبان ، اجتازوا على حين غرة خط الحصار وخرجوا . تعقب الأسبان أثر أوروج بك بعد مضى ساعتين وكان على رأسهم Don Gareia de Tinco .

قام أفراد قبيلة بنى عامر بتعقب أثر ٤٠ تركيا سيئى الحظ لنهبهم . أخرج الجنود كل مايملكونه ورموه عدا الأسلحة . تأخر البدو خلفهم لاقتسامها . لكن الأسبان لم يغفلوا لحظة واحدة عن التعقب . وصلوا إلى نهر Rio Salado . عبر نصف اللوندات النهر ، مع أوروج وقبل عبور نحو ٢٠ منهم لحق بهم الأسبان . تمكن ٤٥ فقط من خيالة Alferez Garcia de Timeo من المجىء . وبناء عليه ، لو كان قد قدر لأوروج أن يستمر فى طريقه لتمكن من النجاة ولتمكن خلال فترة قصيرة من تعويض خسائره ، لكنه عاد إلى النهر إلى الوراء . وعند عودته كان من الطبيعى أن يجد أن

اكثرية الجنود الذين لم يتمكنوا من العبور قد استشهدوا . كانوا جياعا عطاشى ، متعبين ، ويعانون من حرارة الشمس . شاهد كذلك استشهاد آخر جندى له . رفض التسليم .

أغمد الدون غارسيا سيفه فى قلب البحار الكبير . وفصل رأسه عن جسده وأرسله إلى أسبانيا للتشهير . بقى جسده فى الجزائر فى منطقة قريبة جدا من فاس فوق الأراضى المحرقة .

لم تذهب هذه التضحية هباء ، فقد كان من ثمارها تصميم العثمانية على طرد الأسبان من المغرب .

إن خلعة أوروج بك (الذى نجى مستقبل الدين الإسلامى فى أفريقيا من الزوال وأسس الاتحاد الإسلامى) المطرزة بالذهب ، موجودة لدى كاتدرائية مدينة Cordoba (بالعربية : قرطبة) . وقد عرضت سنوات عديدة على الشعب لكسر معنوياته .

كان عمر أوروج بك عند استشهاده ٤٨ سنة (١٥١٨/١٠/١٠) . لم يتزوج ولم يخلف أولادا . قامته أقرب إلى الطول ، أسمر البشرة من تأثير الشمس ، أحمر اللحية ، أشقر الشعر ميال إلى الحمرة ، عيناه كستنائيتان تميلان إلى الصفرة نارينا النظرات ، عريض الكتفين جدا ، قوى البنية جدا ، كريم إلى درجة كبيرة ، سخى ، رحيم ، خلوق ، كثير الجد وشديد فى عمله ، إدارى ممتاز ، محبوب ومطاع بصورة مطلقة من جنوده البحريين ، شجاع ، جرىء ، ذكى ، ليس له نظير فى حل المشاكل الكبرى ، ماهر فى استعمال الأسلحة ، بحار ذو دهاء عظيم . « داهية عظيم وفاتح عظيم ، إن استيطانه شمال أفريقيا التى لاتحتوى على تركى واحد ، توفيق لايصدق . قلد المارشال الفرنسى Bugeaud فى القرن ١٩ ، تكتيك أوروج وفتح قطر الجزائر » Histoire Générale , Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٨٠٣ ، ٨٠٥ – ٦ ، ٨٠٨) .

(٢٩) تأسيس إيالة الجزائر (١٥١٩/٥/١٥)

تبعت الجزائر ، فرنسا بصورة رسمية فى ٣١ ك ٢/ ١٥١٠ .

ذهب سالم التومى الذى يقوم بإدارة المدينة ، إلى أسبانيا بنفسه ومثل بين يدى

الملك فرديناند . كان شعب مدينة الجزائر الذى مل من تسلط الأسبان قد أرسل وفدا إلى أوروج بك الموجود فى Cicelli ودعاه . جاء أوروج إلى الجزائر وأمر بقتل الشيخ سالم حيث كان قد علم أن الشيخ سالم قد رتب له عملية اغتيال داخل الجامع أثناء صلاة الجمعة . لم يبق أثرا للقلعة الأسبانية المشيدة على البحر والتى كان الأسبان يصوبون منها على المنائر ويهدمونها للتسلية . قام أخوه خضر خير الدين بك شخصيا ووحده بنقل ٧٠٠٠٠ أندلسى إلى المغرب بأسطوله فى ٧ سفرات بحرية غير مبال بالأخطار الكبيرة . وفى إحدى هذه السفرات نقل بواسطة ٣٦ قطعة من السفن ١٠٠٠٠ عربى مسكين من سواحل Oliva الواقعة على مسافة ٦٠ كم جنوبى شرق بلنسية . واستمر آيدن رئيس وسنان رئيس على هذا العمل متعرضين للأخطار . تمكن من تخليص آلاف من الأندلسيين من الموت حرقا (Hammer ، ٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٢) .

وفى إحدى هذه السفرات اعترض طريقه أسطول أسبانى ، فدفع الخطر باستيلائه على ١٥ سفينة حربية وإغراق ٣ منها . ساندت استانبول سياسة تخليص الأندلسيين ، قدر استطاعتها .

جاء حاجى حسين رئيس إلى الإسكندرية مع ٤ سفن فى ١٥١٧ . ذهب إلى القاهرة وقدم الهدايا التى أرسلها أوروج بك . منح ياوز كلا من أوروج بك وخير الدين خضر بك رتبة لواء بحرى بصورة رسمية وبهذا كان قد ضم الجزائر إلى الحدود التركية . تليت الخطبة فى الجزائر وتلمسان باسم السلطان سليم . لم يضع الإخوة بربروس أسماءهم على النقود التى سكوها ووضعوا اسم السلطان سليم ، كان وضعهم بالنسبة للمغاربة « سلطان » وبالنسبة للأوروبيين « rey d'Argel, roi d'Alger » (ملك الجزائر) . أرسل ياوز إلى الجزائر ٢٠٠٠ جندى عثمانى وكمية كبيرة من المدافع والبنادق . وانتخب من بين عدد كبير من المتطوعين من أناضول الغربية الذين يرغبون فى الذهاب إلى الجزائر كجنود بحريين ، ٤٠٠٠ شاب عزب أرسلهم للتدريب ولتعلم استعمال المدافع والبنادق وألبسهم البزة العسكرية ، وأرسلهم إلى الجزائر ، لكن أوروج بك كان قد استشهد عند وصول هذا المدد . مات السلطان سليم كذلك بعد فترة وجيزة . لكن ابنه السلطان سليمان استمر على نفس السياسة تجاه المغرب .

ولّد دخول العثمانية إلى المغرب القلق لدى أوروبا الغربية وعلى رأسها أسبانيا والبرتغال . كما أن السيطرة التركية على غربى البحر الأبيض أضرت بالمصالح القتلونية والفرنسية . وافق السلطان سليم على لقاء الحاجى حسين رئيس فى استانبول (١٥١٩/٥/١٥) حيث استمع منه إلى تفصيلات استشهاد أوروج بك ، تأثر السلطان سليم لذلك ، وأدرك بدهائه المتميز وجوب العناية بالمسألة الجزائرية بصورة أكثر عمقا وتركيزا . منح خضر خير الدين بك رتبة فريق أول بحرى (بكلربك بحرى) ورفع درجة الجزائر من نظام اللواء العثمانى إلى نظام الإيالة العثمانية . وولى بربروس خير الدين باشا على الإيالة ، ومنح ابنه حسن بك البالغ عمره ٢٠ سنة رتبة لواء بحرى (سنجق بك) .

دخل بربروس خير الدين باشا ميناء بلنسية ، وقصف المدينة وأفنى الأسطول الأسبانى الراسى فى الميناء (أيار ١٥١٩) (حضر الأسبان إقامة العرب فى بلنسية فى ١٥٢٦ ، أخرجوا كافة العرب وهدموا كافة المساجد من قواعدها ، Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٩) . أرسلت أسبانيا التى أرادت الانتقام إلى الجزائر نائب الملك فى صقليا وأكبر قائد أسبانى فى عصره Don Ugo de Moncada . استصحب مونكادا ، الذى جاء من باليرمو إلى وهران ، ماركيز غوماس وذهب إلى ميناء الجزائر مع ١٧٠ سفينة حرب ونقل و ٢٥٠٠٠ جندى .

كان لخير الدين باشا فى الجزائر ٣٠٠٠ جندى تركى و ٢٠٠٠٠ جندى عربى . كان قد استدعى الوحدة التركية الموجودة فى تلمسان ، لكنها لم تكن قد تمكنت بعد من القدوم .

كان ابن خير الدين باشا حسن بك فى تلمسان مع ٧٠٠ جندى تركى و ٢٠٠٠ عربى . أبلغه مونكادا بأنه لايرغب فى سفك الدماء ، وأنه يسمح لخير باشا بخروج جنوده وحاجاته التى يمكن نقلها معه وذهابه . أجابه الباشا بنار المدفعية ، وبعد قتال طويل ، حمل خير الدين باشا مع ٥٠٠ من جنوده البحريين على سفن المهمات التى رست واقتربت إلى البر . وأثناء انشغال الأسبان الذين ظنوا أن ذلك هو الهجوم الرئيسى ، خرج الباشا من القلعة وصار خلف العدو . ترك نائب الملك مونكادا مدافعه ومهماته وأركب جنوده القلائل الذين تمكنوا من النجاة من سيوف الترك فى أسطوله ورمى بنفسه فى ميناء Ibiza فى جزر بالير .

بذلك يكون خير الدين باشا الذى حصل على رتبة فريق أول قبل ٣ أشهر و ٩ أيام ، قد انتصر على أسبانيا المقتدرة . وقد كان لانتصار الجزائر (١٥١٩/٨/٢٣) آثار كبيرة . أرسل قره حسن باشا إلى بلنسية بعد شهرين . اقتتل الأتراك الذين أنزلوا جنودا فى البر مع الأسبان وجلبوا معهم عددا غير قليل من المهاجرين العرب .

وفى ربيع عام ١٥٢٠ ، هزم الباشا أسطولا مكونا من ١٥ قطعة أرسلته أسبانيا بواسطة ١٨ سفينة ، واستولى على ٥ قطع منها . احتل تنيس من الأسبان ، وخلال ذلك دخل الأسطول الحربى الأسبانى (آرمادا) المكون من ١١٠ قطع من السفن بقيادة الأميرال فرناندو ميناء الجزائر . دمر بربروس ، الذى تمكن من جمع أسطوله ، الأسطول الأسبانى ، واشتهر ذلك فى التاريخ العثمانى بانتصار الجزائر الثانى . أسر ٣٦ من رؤساء ملاحى السفن (قبطان) و ٣٦٠٠ جندى أسبانى ، قتل أكثرهم . انتقلت سفينة الأميرالية لحوزة الأتراك ، وأسر الأميرال .

ثارت خلال هذه الأيام قبائل كثيرة وقسم من شعب الجزائر على الأتراك . قال خير الدين باشا : إنه لم يأت إلى هذه الأراضى لسفك دماء المسلمين ، وإنما جاء للجهاد ، « ليكن وبال المسلمين على رقابكم ، لنرى كيف تصونون البلاد تجاه الكفرة ؟ » قال ذلك وسلم مفاتيح المدينة لأشراف المدينة ، وترك مدينة ، الجزائر (ك١/١٥٢٠) . كان للسلطان الحفصى فى تونس دخل كبير ، فى ذلك . اهتم خير الدين بالسلطان وأخذ يراقبه . وخلال هذه الأيام وصل خبر وفاة السلطان سليم وجلوس السلطان سليمان ، تغير الاسم فى الخطب وفى النقود .

(٣٠) ولاية بربروس خير الدين باشا على الجزائر (١٥١٩/٥/١٥ - ١٥٣٣/١٢/٢٧) :

المرحلة الأولى

بترك خيرالدين باشا مدينة الجزائر فى ك ١٥٢٠/١ ، كان الأتراك بعد منازعات دامت ٦ سنوات كأنهم عادوا إلى وضعهم السابق الذى كانوا عليه فى ١٥١٤ .

كان بربروس خير الدين باشا يقيم فى هذه الآونة فى Cicelli ، وكان يملك أسطولا مهما وجيشا له مكانته .

لم ينس الشعب العثمانية التى أذاقت الأسبان الأمرين . كان بربروس يتجول فى البحر الأبيض مع ٤٠ قطعة من سفنه .

احتل خلال إحدى جولاته جزيرة جربة من سلطان تونس الذى كان يحقد عليه ، وطرد سفراء سلطان تونس كذلك ورفض هداياهم ، وأعلن أنه لن يتكلم مع الذين تعاونوا مع الكفار الذين سفكوا دماء المسلمين فى الأندلس والمغرب . لم يكن يمر يوم واحد دون أن تأتى من الجزائر الوفود والهدايا والدعوات . لم يوافق على الدعوات . كان الشعب الجزائرى متضررا من اختلال الأمن فى المدينة ، ومن الحرمان من النعم التى كانت تدرها الغنائم التركية ، ومن ركود التجارة ، بالإضافة إلى استعلاء الأسبان عليهم .

بعد أربع سنوات ونصف دخل خير الدين باشا شرسل ومنها إلى مدينة الجزائر وسط الهتاف والتصفيق . لم تطلق طلقة واحدة . احتل تنيس Tenes . دخل قسنطينة . طوّع القبيلة . وسيطر على الجزائر مجددا عدا وهران . كانت حامية أسبانية قد تمركزت مجددا فى Penon . أصبحت مدينة الجزائر هادئة منذ عودة بربروس إليها فى ١٥٢٥ . قام خير الدين باشا بإنزال على القلعة بعد أن قصف المنطقة الحجرية مدة ٢٠ يوما . استسلم دون مارتن و ٧٠٠ جندى أسبانى ، وبعد أن أخذ خير الدين باشا Penon (١٥٢٩/٥/٢٧) ، إضافة إلى ردمه المسافة الواقعة بين المنطقة الحجرية والميناء وذلك بتشغيل ٣٠٠٠٠ أسير مسيحى أغلق الميناء بجدار عظيم كاسر للأمواج مايزال يحمل اسمه . ولم يعد ممكنا بعد الآن دخول السفن إلى الميناء قبل إسكات المدافع التركية . وعندما لم تشاهد السفن الأسبانية الـ ٩ ، التى جلبت العتاد والمهمات إلى القلعة ، المنطقة الحجرية ، ظنت فى البداية أنها أخطأت الطريق ، استولت عليها جميعها ١٥ سفينة تركية أمام أعين شعب مدينة الجزائر .

بعث خير الدين باشا الذى علم فى صيف عام ١٥٢٩ ، بمجىء ملك أسبانيا وإمبراطور ألمانيا – Charles Quint إلى جنوة ، صالح رئيس وآيهدن رئيس مع ١٤ سفينة إلى بحر ليغوريا . قصف هذا الأسطول بلنسية بعد قصفه مارسيليا ونيس ، وملأ سفينة بآلاف الأندلسيين وتوجه نحو طريق الجزائر . قطع عليه الطريق الأسطول الأسبانى الذى يقوده الأميرال Portondo ، وقد كان الأمبراطور – الملك قد أمر

الأميرال بوقف هذا الأسطول التركى مهما كلفه الأمر وقتل كافة الأندلسيين الموجودين فيه لإرهاب المسلمين الموجودين فى أسبانيا .

أدرك آيدن رئيس بن أحمد (الذى عمل فى السابق كأميرال فى خدمة المماليك) والذى سماه المسيحيون Caccia Diavolo (ضارب الشيطان) ، وسماه الأتراك للمزاح « ضارب الكفار » ، عدم إمكان القتال بسفن مليئة بالبشر ، عاد إلى الساحل مرة أخرى وأنزل الأندلسيين الذين كانوا يتباكون ويعارضون نزولهم ، فى الأراضى الأسبانية ثم جابه الأسطول الأسبانى . بدأ الأتراك بالهجوم واستولوا على ٧ سفن أسبانية ، وتشتت الأسطول الأسبانى الذى لم يستطع مقاومة المدافع التركية بعيدة المدى ودمر ومات Portondo .

اقترب آيدن رئيس من الساحل وعاد عمال سفنه بالأندلسيين الذين تركهم والذين يشكل أكثرهم النساء ، والأطفال ، والشيوخ والمرضى . والذين كانوا كلهم يبكون بصوت عال ويدعون بإخلاص للسلطان سليمان ، سلطان بنى عثمان . لقد أبكت هذه الدعوات حتى الملاحين الأتراك المشهورين بشدة صلابتهم ، حيث كان عقاب الأندلسى إذا قبض عليه بعد محاولته الفرار شيه وهو حى فى نار خفيفة (Les Hauser Debats de L'Age Moderne ، ٤٠١) .

أبلغ خير الدين باشا ، السلطان سليمان بهذا الانتصار الذى جرى فى مياه Formentera المفتوحة فى أسبانيا بعريضة مفصلة .

أبحر خير الدين باشا بأسطول مكون من ٢٨ قطعة على مستغانم أهم بلدة فى حوزة الأسبان بعد وهران وقريبة منها وفتحها (١٥٢٨) . ومنها سار برا إلى قلعة القلاع التى استشهد فيها أخوه الكبير ، ثم تلمسان ، وفتحهما . قاومت تلمسان ٢٠ يوما . سك خير الدين باشا فى تلمسان نقودا باسم السلطان سليمان .

جاء الأميرال Andrea Doroa بأسطول أسبانى - جنوى معزز بـ ٢٠ سفينة حرب فرنسية إلى شرشل (تموز ١٥٣٠) . سار إليه خير الدين باشا بـ ٤٢ سفينة حربية وهزمه . انسحب Doria الذى خسر ١٥٠٠ قتيل و٦٤٠ أسيرا . تعقب الباشا خصمه ، لكنه لم يوفق فى القبض عليه . دخل ميناء مارسيليا . وقصف طولون . دخل ميناء جنوة وأدار فوهات مدافعه نحو المدينة ، وخلص الأميرالين طرغد

رئيس وصالح رئيس اللذان أسرا قبل ثلاث سنوات وقيدا بالسلاسل . لم يتمكن من القبض على دوريا الذى خرج من جبل طارق إلى المحيط الأطلسى .

عند عودته إلى الجزائر ، وجد أمامه التعليمات السلطانية (فرمان) التى تأمره بعدم الإضرار بأى شكل من الأشكال بالسفن والموانىء الفرنسية ، وعلى أثر الأخبار الأليمه الواردة من الأندلسيين ، أرسل أسطولا مكونا من ٣٦ قطعة إلى أسبانيا . تسلم من السلطان سليمان القانونى فى هذه المرة الأمر السلطانى الذى ينص على تعيينه للقياده العامة للقوة البحرية العثمانية (قبودان دريا ، مشير البحر) وناظرا للحربية ، ويأمر بقدومه إلى استانبول . ترك ابنه نائبا عنه واستصحب جميع أميرالاته وتوجه إلى استانبول .



المبحث الرابع

«الدولة العالمية»
للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)



الدولة العالمية للسلطان سليمان القانونى
(١٥٢٠ - ١٥٦٦)

(١) الحملة الهمايونية ١ : بلغراد (١٥٢١)

كان السلطان سليم قد عين خير باى باشا والى إيالة على مصر والمناطق المجاورة ، وجانبرد غزالى باشا على أقطار سورية ، عدا حلب أى المنطقة الشمالية - لبنان ، وفلسطين برتبة بكلر بك (والى) الشام .

كانا كلاهما من رجال المماليك الذين ارتقوا إلى رتبة نائب السلطنة . كتب جانبرد الموجود فى الشام ، عند وفاة السلطان سليم ، إلى خير باى الموجود فى القاهرة بأن البادشاه قد مات وأن إعادة إحياء الدولة المملوكية سهل .

أرسل خير باى إلى جانبرد رسالة توصية بأخذ حلب التى وليها بكلربك عثمانى ، وأرسل الرسالة نفسها التى أرسلها له جانبرد إلى استانبول .

وقعت هذه الحادثة فى غضون شتاء ١٥٢٠ - ٢١ .

انهزم جانبرد الذى حاول محاصرة حلب أمام دلقادر أوغلو على بك (باشا) (١٥٢١/٢/٦) وقطع رأسه ، وعين مكانه والى الأناضول إياس باشا الذى صار بعد ذلك وزيرا أعظم .

لم يمض على وفاة والد السلطان سليمان ٨ أشهر حتى خرج بحملته الأولى ، كان الهدف بلغراد ، مفتاح أوربا الوسطى وأقوى قلعة للمجر فى الحدود التركية التى حاصرها العثمانيون ٣ مرات من قبل ، وقد جرح السلطان محمد الفاتح فى الحصار الثانى ، ومات هنيادى جانوس الذى كان يدافع عن القلعة ، لكن القلعة لم تسقط . كانت القلعة على مسافة ٢٠ كم من الحدود العثمانية .

خرج السلطان سليمان مع ٣٠٠٠ جمل محمل بالبارود والرصاص و ٣٠٠٠٠ جمل محمل بالمهمات وسفينة محملة بـ ٤٠٠ حصان على نهر الطونة ، و ٥٠ سفينة حربية ، و ١٠٠٠٠ عجلة محملة بالطحين والشعير ، وفيله مدرعة ، ومدافع .. احتل قلعتى بوغوردلن وزملين ، ثم اجتاز فى ٢٦ تموز سافا ، وجاء إلى بلغراد وفتح المدينة فى ٨ آب والقلعة فى ٢٩ آب . وهكذا حقق النتيجة التى تعذر تحقيقها فى محاصرات ١٤٤١ ، ١٤٥٦ ، ١٤٩٢ . بقى ١٩ يوما فى المدينة ، ترك فيها ٢٠٠ مدفع و ٣٠٠٠ جندى وعاد من حملته التى دامت ٥ أشهر ، ويومين إلى استانبول فى ١٩ ت ١ .

(٢) الحملة الهمايونية ٢ : رودس (١٥٢٢ - ٢٣)

كانت رودس بلوى كبرى بالنسبة للمسلمين . كانت طريقة Saint - Jean العسكرية التى تسيطر على رودس والجزر الإثنى عشر وبودروم ، قد تأسست خلال الحملات الصليبية فى عكا للجهاد ضد المسلمين . كانت هذه الطريقة لاتزال تقوم بمهمتها بواسطة أسطولها ، تضرب السفن التى تسير فى شرق البحر الأبيض بين الأناضول ومصر وسورية .

أمر السلطان فاتح بمحاصرتها ٣ مرات ولم يتمكن من أخذها . أعلن السلطان سليمان أن تحقيق ذلك مهمة سلطانية . غادر الأسطول الهمايونى استانبول فى ٤ حزيران (١٥٢٢) ، وفى ١٦ حزيران غادر الجيش الهمايونى مع البادشاه وشيخ الإسلام زنبيللى على أفندى وابن أخيه الوزير الأعظم پيرى محمد باشا .

جاء الخاقان إلى جزيرة مرمريس ومنها انتقل إلى رودس (٢٨ تموز) بواسطة السفينة الحربية التى يقودها محمد رئيس المسماة يشيل ملك (الملاك الأخضر) (احتفظ الأتراك بهذه السفينة فى مصنع سفن رودس لمدة قرون ، وعرضوها على الناس) ويحتمل أن رودس كانت محصنة أكثر من بلغراد ، ويحتمل أنها كانت تعتبر أكثر تحصينا من أية قلعة أخرى فى العالم . كان القانونى قد درس المحاصرة الفاشلة السابقة بصورة جيدة واستفاد منها . طوق الجزيرة بالسفن . فتح الجزر الإثنى عشر الواحدة تلو الأخرى واحتل بودروم (Halikarnassos) آخر أرض مسيحية فى الأناضول .

قاوم الفرسان حتى النهاية . ضحى الأتراك بنحو ٢٠٠٠٠ شهيد ، وفى النهاية استسلم (١٥٢٢/١٢/٢٠) الفرسان الذين أدركوا أن القلعة إن سقطت جبرا - وكان سقوطها رهن أيام - فسيتم إفناؤهم .

كان والى مصر خير باى قد أرسل بواسطة صهره قايتباى بك فى ٩ آب ٢٤ سفينة محملة بالأرزاق والمهمات ، وقد توفى خير باى بعد مدة وجيزة من ذلك وأصبح الوزير ٢ مصطفى باشا الوالى ٣ للدولة العثمانية على مصر . عجز الفرسان بسبب إمكان الرمى داخل القلعة بواسطة مدافع الهاون والقذائف التركية . كان الجاسوس الموجود داخل القلعة ، يخبر بالأماكن الحساسة فى القلعة بواسطة الضوء . لم يقبض على الجاسوس إلا بعد عدة أسابيع حيث مزقه الفرسان (١٤ أيلول) . لقيت الجاسوسات التركيات الـ ٣ الموجودات فى القلعة نفس العاقبة أثناء إضرامهن النار ، ورغم تقطيع أعضاء هؤلاء إربا إربا ، لم يبحن بأسماء الجواسيس الآخرين الموجودين فى القلعة . تظاهر أعضاء شبكة الجاسوسية التى أرسلتها العثمانية إلى رودس قبل سنوات بالمسيحية . ويقال إن الفارس الأسبانى Don Andrea d'Amaral ، حامل رتبة Grand Croix (الصليب الأكبر) ، جاسوس عثمانى كذلك (Atlas Hallert ، ، ١٩آ) .

أخذ الفرسان أسلحتهم ، عدا المدافع ، وحاجياتهم التى يمكن نقلها وركبوا سفنهم . وافق السلطان سليمان على زيارة الأستاذ الأعظم de l'isle (الذى كان فرنسيا) (٢٦ ك ١) ، حيث مثل بين يدى السلطان مرة أخرى بعد ٦ أيام وشكره على السماح للفرسان بالخروج بسماحة إنسانية لاتصدق .

خلال هذه الأيام ، كان البابا أندريانوس الثانى يجرى مراسم أعياد الميلاد فى كنيسة سان بيترو فى روما ، فتدحرجت حجارة سقطت من حافة سقف الكنيسة نحو قدميه ، فتشاءم البابا . وقال : « سقطت رودس » . كان ذلك اليوم ، هو اليوم الذى قبل فيه القانونى زيارة الأستاذ الأعظم .

دخل البادشاه المدينة يوم ٢٩ ك ١ . أهم الجزر التى فتحت مع رودس هى استانكوى (باليونانية : Kos) . وجزيرة سومبكى (باليونانية : Simi) وهى جزيرة مهمة كذلك . مساحة رودس ١٤١٢ كم٢ وبإضافة الجزر الإثنى عشر

تكون المساحة ٢٦٨٢ كم٢ . كان تعداد سكان هذه الجزر يعادل سكانها حاليا أو أكثر بقليل ، وهى تقع فى منطقة استراتيجية مهمه فى البحر الأبيض .

وهكذا اقتلعت وأزيلت من شرق البحر الأبيض دولة لاتينية (كاثوليكية) من بقايا الحملات الصليبية التى يرجع تاريخها إلى ٢١٣ سنة ، وهى آخر دولة صليبية قضى عليها المسلمون . وفى ١٥٣٠ ، أعطى الإمبراطور - الملك شارل كوينت Charles - Quint إلى الفرسان جزيرة مالطة ، وفى هذه المرة ، قاموا من هذه الجزيرة بإيذاء المسلمين الموجودين فى أواسط البحر الأبيض .

اجتاز البادشاه البحر إلى مرمريس .. فى ٣ ك ٢ (١٥٢٣) مغادرا الجزيرة . وهذه الحملة هى إحدى الحملات الهمايونية عبر البحار النادرة كحملة فاتح على ميديللى وإكريبوز ؛ حيث إن النظام العثمانى لايسمح بخروج البادشاه عبر البحار .

تم تسريح نحو ٦٠٠٠ أسير مسلم فى رودس ، وأعفى الشعب الرومى من الضرائب لمدة ٣ سنوات وأسكنت الجزيرة بالأتراك القادمين من الأناضول ، وأصبحت لواء بحريا . كان كل الولاة الذين عينوا فيها برتبة لواء بحرى .

مات البابا Adrianus الذى علم بسقوط رودس (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٢٨) .

ولّد سقوط قلعتين من أقوى القلاع المسيحية التى تشكل مفاتيح استراتيجية والتى حاصر العثمانيون كلا منهما ثلاث مرات ، كبلغراد ورودس خلال سنتين متتاليتين الإعجاب والخوف الشديد فى أوروبا تجاه السلطان سليمان . استمرت هذه الحملة الهمايونية ٧ أشهر ، ١٢ يوما .

عاد البادشاه إلى استانبول يوم ٢٩ ك ١٥٢٣/٢ . من حملته هذه التى تعد إحدى الحملات الهمايونية الشتائية النادرة . قاومت قلعة رودس ٤ أشهر و٢٢ يوما .

أحال السلطان سليمان ، الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) بيرى محمد باشا ، والذى بقى فى الوزارة منذ عهد أبيه ، إلى التقاعد وعين بدلا منه مقبول إبراهيم باشا (١٥٢٣/٦/٢٧) [الذى كان تربه] وعمره ٢٨ سنةً . مات بيرى باشا فى ١٥٣٢/١١/١٣ . اما عمه شيخ الإسلام زنبيللى على جمالى أفندى فإنه توفى فى

١٥٢٦ وبقى فى مقامه حتى وفاته ، كانت مدة مشيخته ٢٣ سنة . ومدة صدارة بيرى محمد باشا هى ٥ سنوات ، ٩ أشهر ، و١٤ يوما .

ترك الوزير الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا استانبول لمدة ١١ شهراً ، ٥ أيام (١٥٢٤/٩/٣٠ - ١٥٢٥/٩/٥) وذهب لتفتيش مصر . أجرى إصلاحات مهمة فى هذه الإيالة ، ونظمها على النمط العثمانى . قلل الضرائب . اجتمع بأصحاب الشكايات من الشعب واستمع إليهم ، عمر جامع عمرو بن العاص فاتح مصر .

لم يتمكن الشاه إسماعيل من التخلص من الكآبة النفسية التى ولدتها هزيمة جالدران ومات فى هذه الأيام (١٥٢٤/٥/٢٢) . كان عمره ٣٧ سنة . احتل مكانه ابنه طحمسب الأول الذى كان عمره ١٠ سنوات ، وانتقلت إدارة الدولة فى الحقيقة إلى الأمراء التركمان .

مات خان قرم منكلى كيراى خان فى سنة ١٥١٤ بعد أن ظل على العرش مدة ٤٤ سنة . شتت كبير أبنائه وخلفه محمد كيراى خان ، الجيوش الروسية فى ١٥٢١ ، ودخل مدينة موسكو وأحرقها . ومنها جاء إلى قزان وأجلس أحد إخوته صاحب كيراى على عرش قزان (جلس صاحب كيراى بعدها ١٩ سنة على عرش قرم) . فتح صاحب كيراى هذا فى ١٥٢٤ Nijni Novogrod (حاليا : غوركى) وهى من أهم المدن الروسية . عاد إلى قرم تاركا ابن أخيه صفاء كيراى بدلا منه فى قزان . حكم صفاء كيراى قزان مدة ٢٣ سنة كممثل للعثمانيين ، وفى ١٥٣٦ ، احتل للمرة الثانية Nijni Novogrod . أما محمد كيراى خان ، فإنه احتل إمارة استرخان فى ١٥٢٢ .

بهذه الفتوحات أصبحت الحدود العثمانية تمتد إلى شمال غربى بحر الخزر ، دلتا الفولغا ، إلى كاما ، إلى موسكو وإلى غوركى . جاء خاه قازان صاحب كيراى فى ١٥٢٤ إلى استانبول ومثل بين يدى السلطان سليمان . فتح إسلام كيراى فى ١٥٢٧ ، مدينة Ryazan فى جنوب شرق موسكو . وصل حكم ونفوذ العثمانية فى أوربا الشرقية إلى حده الأقصى حيث ظهرت بعدها فى أوربا قضايا كبيرة جدا .

الحملة الهمايونية ٣ : حملة أنكرس ٢ (المجر) أو موهاج (١٥٢٦)

يعزى اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو غرب البحر الأبيض وأسبانيا ، إلى تسلط أسبانيا – التى حققت وحدتها – على المغرب وغرب العالم الإسلامى ، أما سبب اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو أوربا الوسطى اعتبارا من جلوس السلطان سليمان ، فهو ظهور عهد شارل – كوينت Charles - Quint .

اشتهر الحاكم الذى يحمل لقب كارلوس Carlos الأول كملك أسبانيا وكارل Karl الخامس كإمبراطور ألمانيا ، بلقب « شارل – كوينت Charles - Quint » ، ومع أنه من عائلة هابسبورغ أى انه ألمانى ، الا أنه لم يكن يحسن التكلم بالألمانية . نشأ فى هولندا ثم فى أسبانيا . حاز أجداده وأبواه اقطاراً كثيرة بالتزاوج .

لم ينجب فرناندو (وفاته ١٥١٦) ملك آراغون ونابولى وصقلية الكاثوليكى الذى حقق الوحدة الأسبانية بزواجه فى ١٤٦٩ وجلوسه فى ١٤٧٩ ، بملكة كاستيليا (أى أسبانيا الأصلية) إيزابيلا (وفاتها ١٥٠٤) سوى طفلة واحدة هى جوانا Juana . وحيث يجوز جلوس النساء على العرش فى كاستيليا ولم يكن هذا جائزا فى آراغون ، فإن جوانا لم تتمكن من الجلوس على عرش أسبانيا المتحدة عند وفاة أبيها فرناندو فى ١٥١٦ ، وأصبح ابنها ملكا على أسبانيا بلقب كارلوس Carlos الأول . وبذلك يكون هذا الشاب قد وحد على رأسه تيجان ٤ ملكيات كاستيليا ، آراغون ، صقلية ونابولى . وعند وفاة والد كارلوس (أى شارل – كوينت) ، امبراطور ألمانيا ماكسيميليان الأول ، انتخب إمبراطورا على ألمانيا كذلك . أما أخوات شارل – كوينت ، فقد تزوجن بملوك البرتغال-فرنسا – الدانمارك – النرويج – السويد ، المجر – بوهيميا وأصبحن ملكات تلك الأقطار .

كان شارل – كوينت الذى لايقيم كثيرا فى ألمانيا ويقيم فى أسبانيا وهولندا ، يدير ألمانيا بوساطة أخيه الأرشيدوق فرديناندفون هابسبورغ . كانت عاصمة ألمانيا ، فيينا .

كان فرديناند يقيم فى فيينا كأرشيدوق (دوق كبير) للنمسا وتتبعه نحو ٥٠٠ دولة ألمانية . كانت أخته ماريا قد تزوجت بملك (١٥١٦ – ١٥٢٦) المجر وبوهيميا (جيكوسلوفاكيا) Lajos (وتقرأ لايوش) الثانى وتقيم فى بودابست .

وكان فرديناند متزوجا من أخت لايوش الثانى ، وهى أخته الوحيدة Anna (١٥٠٣ - ١٥٤٧) ولا أخ له ، ولم يكن للايوش الثانى ولد . أى أن الأرشيدوق فرديناند - الذى كان وكيلا للإمبراطور فى ألمانيا نيابة عن أخيه الكبير شارل - كوينت - وملك المجر لايوش أحدهما صهر وكذلك عديل للآخر .

استلفت هذا الوضع اهتمام العثمانية الشديد ، فانتخاب ملك أسبانيا امبراطوراً على ألمانيا ، وكونه الأخ الكبير لملكة المجر (باختصار ، حكمه أو سلطته على أوروبا الوسطى) صنع ماردا عجيبا كان يهدد الدولة العالمية العثمانية ، إذ إنه عدا أن وضع الدولة العثمانية مع أسبانيا بسبب المغرب ومسألة الأندلس واضح ، فإن وضعها المتقابل مع كل من جارتيها الشماليتين المجر وألمانيا معلوم كذلك .

صمم السلطان سليمان على تشتيت هذه الدولة وتقسيمها إلى دول كما كانت فى السابق . ويلاحظ أنه فى ذلك الوقت كانت أسبانيا هى الدولة المسيحية الوحيدة التى تمتلك أقدر جيش وأسطول ، كما كانت قد أصبحت ذات مستعمرات كبيرة فى أمريكا .

وكان يجب ضرب مارد شارل - كوينت فى جبهتين : فى أوربا الوسطى والبحر الأبيض .

قرر السلطان سليمان أن يترك الأمر فى البحر الأبيض إلى بربروس خير الدين باشا ، أما مسألة أوربا الوسطى فقد قرر أن يتبناها بنفسه .

سنرى فيما بعد أن شارل - كوينت سوف يتفق مع إيران الصفوية وسوف يحاول ضرب تركيا من الشرق .

بقى ملك فرنسا فرانسوا Francois وملك إنكلترا هنرى ٨ Henry مستقلين بين الحكام الأوروبيين ، وكان شارل - كوينت قد أدخل البقية بشكل أو بآخر فى قبضته .

عزم فرانسوا ١ على منازلة الإمبراطور شارل - كوينت مهما كلفه الأمر ، لكنه هزم فى الحرب الميدانية وأسر وسيق إلى مدريد وسجن فى أحد القصور .

أرسلت أمه Louise Savoie ، الكونت Jean Frangipani إلى السلطان سليمان

القانونى ورجته تخليص ابنها من السجن . وعندما اطلع السلطان (١٥٢٥/١٢/٦) على كتاب نائبة ملكية فرنسا ووالدة ملك فرنسا ، أصبحت بيدة حجة مهمة تجاه شارل - كوينت كما أصبح معه حليف طبيعى فى الغرب ، وأصبح بإمكانه التحرك باسم ملك فرنسا بصورة شرعية ورسمية ، حيث إن فرنسا قد طلبت منه ذلك بصورة رسمية .

كان شارل - كوينت بالنسبة ، للأوروبيين ، إمبراطورا على روما الغربية ، أما السلطان سليمان ، فإنه إمبراطور روما الشرقية ، وكان السلطان سليمان يرى أنه هو إمبراطور روما الموحدة وان شارل - كوينت غاصب . وبالنسبة للدبلوماسية العثمانية ، كان شارل - كوينت هو « كارلوس ملك أسبانيا » فقط ، ولا نجدأبداً صفة الإمبراطور لشارل - كوينت فى أى وثيقة عثمانية . أما بالنسبة لفرنسا ، فقد كان لجوءها لإمبراطور أوربا الشرعى ، السلطان سليمان ، أمراً مشروعا بالنسبة للقانون الدولى فى ذلك العهد ؛ إذ كان فى ذلك العصر مرجعان اثنان بالنسبة للملوك المسيحيين الذين يصيبهم الحيف : الإمبراطور والبابا ، وكانت قوة البابا العسكرية محدودة ، إذ لم يكن يسيطر إلا على إيطاليا الوسطى فقط .

كان شارل - كوينت قد سجن فرانسوا فى قصر Alcazar (بالعربية : القصر) من مخلفات العرب فى مدريد (بالعربية : مجريط) ، وأجبره هناك على توقيع معاهدة مدريد (١٥٢٦/١/١٤) ذات الشروط الصعبة وأخلى سبيله .

ذهب فرانسوا الذى وقع هذه المعاهدة السيئة للحصول على حريته إلى باريس ناجيا بنفسه ، ولم يكن ينوى أبدا تنفيذ شروط هذه المعاهده ، وأخذ فى تطوير العلاقات التى بدأت والدته بتأسيسها مع السلطان سليمان ، وأخذ يرجو ويطلب من استانبول طلبات لانهاية لها ؛ فقد كانت قوته العسكرية غير كافية لمجابهة الإمبراطور - الملك .

اضطر شارل - كوينت ، خلال سلطنته الطويلة ، إلى مواجهة أربعة أعداء ألداء له : أحدهم سليمان القانونى ، الثانى بربروس خير الدين باشا ، الثالث فرانسوا ١ ، ورابعهم مارتن لوثر .

لقد كان ظهور لوثر فى هذه السنوات بالضبط ، نعمة بالنسبة للعثمانية . تمزقت

الوحدة الكاثوليكية . عمل شارل - كوينت الكاثوليكى المتعصب ، مابوسعه للقضاء على هذا الرافضى المتعنت ، لكن مذهب لوثر انتشر بسرعة فائقة ، وأصبحت أقطار كثيرة تدين بالبروتستانتية ، وانفصلت عن نفوذ البابا . عمل القانونى مابوسعه لمساندة لوثر وتقويته .

وهكذا تمهد السبيل إلى حملة القانونى الهمايونية ٣ (١٥٢٦) وهى أشهر حملة بين حملاته الـ ١٣ . لقد كانت حملة بلغراد التى جرت قبل ٥ سنوات على المجر أيضا (بالعثمانية : إنكرس Engûrüs) ، ولكنها كانت محلية ، ولم تكن تستهدف سوى فتح القلعة مفتاح أوربا الوسطى ، بينما كانت حملة المجر فى هذه المرة حربا شاملة ، تستهدف القضاء على الملكية الكبرى التى دخلت تحت جناح ألمانيا وشارل - كوينت . لم تكن العثمانية ترغب فى ملك يرثه عند وفاته فى بودابست شاب عديم التجربة ، لاوريث له ، صهر وفى نفس الوقت عديل لشارل - كوينت . لم يكن بوسعها أن تسكت على تهديد كبير كهذا فى شمال ألطونة .

لم تكن ملكية المجر ، آنذاك ، المجر الحالية الصغيرة . كانت المجر الكبرى التى تمتد حتى البحر الأدرياتيكى ، والحقيقة أنها تكونت من اتحاد ملكيتى المجر وبوهيميا (جيكوسلوفاكيا) . وهى تشمل عدا جيكوسلوفاكيا الحالية ، كافة الأقطار الشمالية ليوغسلافيا (سلوفينيا ، خرواتيا ، إكلافونيا ، أى مابين سافا - درافا ، فويفودينا) ، ترانسلفانيا (بالتركية : أردل) التى ظلت حاليا فى رومانيا وبانات ، وتشمل منطقة الكاربات التى ظلت حاليا فى أوكرانيا . ومع أن المجريين هم العنصر المسيطر ، إلا أنه كان للملكية كثير من الرعايا السلاف (الجيك ، السلوفاك ، السلوفين ، الخروات) ، وحتى الألمان والرومان والصرب . كانت دولة كاثوليكية تعتمد على جيش قوى . كانت ملكية راسخة يرجع تاريخها إلى ٦٣٧ سنة . كان نفوذ العثمانية كبيرا على دوقية خرواتيا منذ سنوات طويلة .

سار السلطان سليمان من استانبول (١٥٢٦/٤/٢٣) . وصل بلغراد (١٥٢٦/٧/٩) . كان الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا مشتركا فى الحملة . تم الاستيلاء على قلعة بترفارادين ، ذات الأهمية بعد أن قاومت ١٣ يوما (١٥٢٦/٧/٢٧) . تمكن الجيش الهمايونى من العبور من فروع ألطونة براحة وانتظام بفضل الجسور الكبيرة التى تم تشييدها وفى ٢٣ آب ، هدم السلطان سليمان

بنار المدفعية جسر درافا الذى اكتمل فى ١٩ آب ، وكان هذا يعنى أنه لاعودة إلى الوراء . وانه كان يتحتم فتح المجر . دخل الجيش الهمايونى (الإمبراطورى) إلى سهل المجر الكبير (بالمجرية : Alföld)من الجنوب ، وجاء إلى صحراء موهاج التى تقع على مسافة ١٨٥ كم شمال غربى بلغراد ، و١٧٠ كم جنوب بودابست . وبذلك يكون الجيش الهمايونى قد قطع من استانبول مسافة ١٥٠٠ كم خلال ١٢٨ يوما .

كان قوام الجيش الهمايونى ١٠٠٠٠٠ جندى و٣٠٠ مدفع (Hammer و ٥ ، ٧٦) أما الجيش المجرى فقد كان يبلغ عدده نحو ٢٠٠٠٠٠ ، ويتكون من أقوام مختلفة . ومن بين هذا العدد ٣٨٠٠٠ من الوحدات المساعدة التى جاءت من ألمانيا .

كان يقود الجيش ابن عمة البادشاه غازى بالى بك ، ويقود المؤخرة ابن عمة البادشاه كذلك غازى خسروبك ، وكانت فرق الصاعقة تقوم بصيانة طريق الجيش .

جعلت الامطار المستمرة منذ شهور من السهل ، مستنقعات متناثرة ، وكان الرذاذ مايزال يتساقط . وقد كانت بالفعل ناحية من السهل (بالتركية : قره صو) ،مستنقعا كبيرا .

دخل البادشاه بعد صلاة الصبح بين صفوف الجيش وألقى خطبة بليغة ثم دخل بين صفوف فيلق الصاعقة وألقى خطابا على الجند هناك أيضا قال فيه إن : « روح الرسول ﷺ تنظر إليكم » . ويقول جلال - زاده : إن السباهيين لم يستطيعوا السيطرة على دموعهم . كان البادشاه مرتديا درعه .

هجم المجريون الذين سئموا الانتظار فى وقت العصر . أمر البادشاه فرق روملى بالأنشطار إلى قسمين ، وجر العدو إلى الداخل بعد مقاومة قليلة . كان ٣٥ فارسا مجريا قد أقسموا على قتل البادشاه ؛ ٣ منهم الفارس Marczali ورفيقاه ، استطاعوا الاقتراب من البادشاه ، وقتل الآخرون . أصيب القانونى برمية سهم ، لكن السهم لم ينفذ من الدرع ، وقتل الفرسان الثلاثة بسيفه . يعتبر هذا الحادث من الملاحم الوطنية فى التاريخ المجرى . تم تدمير الخيالة المجرية المدرعة التى تعرضت لقصف ٣٠٠ مدفع دفعة واحدة . قام بالى وخسرو بمناورات مستمرة تستهدف سوق العدو نحو المستنقعات . استمرت الحرب ساعة ونصف ساعة فقط . وفى نهاية هذه المدة ، أصبح الجيش المجرى الذى عاش ٦٣٧ سنة فى ذمة التاريخ .

ظل القسم الأكبر من جيش المجر فى ساحة الحرب وغرق أكثرهم فى المستنقعات فى موهاج ، إن هذه المعركة لهى أكبر حروب الإبادة النموذجية والكلاسيكية فى التاريخ .

غرق الملك لايوش الثانى ، و٧ أساقفة ، وجميع القواد الكبار فى المستنقع ، وأسرت البقية وهم ٢٥٠٠٠ جندى .

انتهت الحرب خلال رمشة عين ، حتى إن العدو لم يتمكن من إدراك ماحاق به . كانت خسائر الأتراك ١٥٠ شهيدا ، وبضعة آلاف من الجرحى وقد تحركوا بدقة كبيرة بحيث لم يقع واحد منهم فى المستنقع . « لم يشهد التاريخ حربا كموهاج ، حسمت نتيجتها على هذه الصورة فى مصادمة واحدة ، ومحت مستقبل شعب كبير لعصور طويلة » (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٦٢٢) .

قام الجيش الهمايونى باستعراض فى صحراء موهاج فى ٣١ آب وحيا الخاقان . هنأ الخاقان وقبل يده جميع القواد ابتداء من الوزير الأعظم فردا فردا . وبعد صلاة الفجر فى يوم ٣ أيلول ، أخذ الجيش فى الصعود نحو الشمال بمحاذاة ساحل ألطونة الغربى . وصلوا إلى بودابست (بالألمانية : Ofen ، بالمجرية : Budapest ، بالعثمانية : بودين) خلال ٨ أيام . دخل السلطان سليمان مدينة عرش المجر (١٥٢٦/٩/١١) . كان قد أحتفل بعيد الفطر فى (١١ تموز) فى بلغراد . استقبل السلطان سليمان تهانى عيد الأضحى فى سراى الملك (١٧ أيلول) . مكث ١٣ يوما فى المدينة .

كانت علاقة فويفودا (أمير) أردل (ترانسلفانيا) Szapolya (Zapolya) متوترة مع الملك ، لذا لم يشترك فى موهاج . جاء مع جنوده الـ ٣٠٠٠٠ إلى البادشاه وعرض طاعته . كان سبب خلافه مع الملك لايوش المتوفى ، ازدياد نفوذ الألمان فى المجر . نصب السلطان سليمان ، Zapolya ملكا على المجر وأميرا على أردل تابعا لتركيا ومنحه عرش بودابست . ألحق إسكلافونيا مباشرة . أما جيكوسلوفاكيا ، فقد ألحقها الأرشيدوق فرديناند المدعى لوراثة لايوش ٢ ، وأصبح ملكا على بوهيميا .

استغرقت الحملة الهمايونية ٣ سنة ، و٦ أشهر و٢٠ يوما . عاد السلطان سليمان إلى استانبول كـ « فاتح المجر » (١٥٢٦/١١/١٣) ، تبدل الميزان تماما فى أوربا

الوسطى ، وصلت الحدود التركية إلى النمسا وجيكوسلوفاكيا . ودخلت العثمانية بين دول أوربا الوسطى .

(٤) الحملة الهمايونية ٤ : حملة فيينـا (١٥٢٩)

بعد أن مكث السلطان سليمان فى استانبول نحو سنتين ونصف غادر استانبول (١٠/٥/١٥٢٩) فى الحملة الهمايونية ٤ . كان يرافقه إبراهيم باشا أيضا . كان يحمل مهمات الجيش ٢٢٠٠٠ جمل وعشرات الألوف من البغال . قبل السلطان زيارة الملك زابوليا الذى جاء مع ٦٠٠٠ خيال فى سرادقه الهمايونى فى صحراء موهاج يوم ١٨ آب ، وسمح له بتقبيل يده . جلس على الكرسيين الذهبيين الموضوعين أمام عرشه الذهبى ، إبراهيم باشا وزابوليا . وكما هو معلوم فإن تيجان ملوك المجر المكونة من تاجين متداخلين أحدهما داخل الآخر تسمى كورونا Corona ، ومن لايملك هذا التاج تعتبر ملكيته مشكوكا فيها . سرق جواسيس الملك فرديناند الكورونا ، وكانوا على وشك أن يهربوا به إلى فيينا . وفى ٢٠ آب قطع بالى بك طريق الجواسيس فى طريق فيينا وتمكن من ضبط الكورونا وأرسله فى ٤ أيلول إلى السلطان سليمان الذى أرسله إلى زابوليا .

كان زابوليا قد فشل فى الدفاع عن بودابست (بالعثمانية : بودين) أمام الألمان وخرجت من حوزته إلى الألمان . كان غرض الحملة استرجاع بودين وإخراج الألمان من المجر . جاء السلطان سليمان فى ٣ أيلول ١٥٢٩ أمام المدينة التى يحتلها الألمان منذ ٢٠ آب ١٥٢٧ . سلم الألمان القلعة والمدينة إلى الأتراك بعد ٥ أيام . غادر الخاقان بودين فى ١٢ أيلول . جاء زابوليا فى ١٤ أيلول ولبس التاج فى سراى الملك . وضع سكبانباشى الإنكشارية التاج على رأس ملك المجر . وفى هذه المرة ترك حسن بك فى بودين كقائد للقلعة . حيث اتضح أن زابوليا بجنوده غير قادر على حماية القلعة فى مواجهة الألمان .

كان السلطان سليمان يبحث عن جيش الملك فرديناند ، ولكن الالمان كانوا حريصين على أن يتجنبوا عاقبة كعاقبة كموهاج .

عثر غازى محمد بك أخو بالى بك على أحد الجيوش الألمانية قرب قصبة Bruek على مسافة ١٥ كم جنوب شرق فيينا وهزمه . أسر القائد العام Von Zedlitz و ٦ من جنرالاته . وفى ٢٧ أيلول ، جاء الجيش الهمايونى والخاقان أمام قلعة فيينا (بالعثمانية : بج) ، وكانت عرش الامبراطورية الوحيدة للعالم المسيحى .

تم إخلاء المدينة ، كان الألمان قد تركوا المدينة على دفعات فى قوافل ، كل منها ٥٠٠٠ شخص . أسرت الصاعقة بعض هذه القوافل . ترك الملك فرديناند مدينة العرش وانسحب إلى لينز . تولى الدفاع عن فيينا الكونت Nicolas Von Salm وعمره ٧١ سنة مع معاونه الفيلد مارشال Wilhelm Von Rogendorf . بقى فى المدينة ٢٠٠٠٠ من المشاة ، و٢٠٠٠ خيال والمدفعية ووحدات أخرى . أبلغ فرديناند أخاه الكبير شارل - كوينت بأن السلطان سليمان ينتوى الوصول إلى نهر الراين . اتخذ الخاقان Kaiser Ebers dorf الواقعة على مسافة ٢ كم من القلعة ، مقرا له . أحرق الألمان ٢٨ سفينة حربية فى ألطونة لئلا يستولى عليها الأتراك . كان بالقلعة عتاد ومهمات تكفى لعدة شهور .

لم يكن غرض حملة السلطان سليمان احتلال فيينا ، بل كان غرضها العثور على الجيش الألمانى السيار وإبادته . جاء إلى فيينا لتعجيز العدو . ولم يكن ذلك ضمن خطته . حيث إنه كان قد ترك مدافع الحصار الثقيلة فى بودين . حوصرت المدينة مدة ١٩ يوما فقط (٢٧ أيلول - ١٦ ت١/١٥٢٩) . لم تكن هذه المدة كافية فى ذلك العهد لإسقاط قلاع بهذا الحجم عنوة ، فعلى سبيل المثال كان السلطان سليمان قد أسقط قبل عدة سنوات قلعة بلغراد خلال ٣٤ يوما ورودس خلال ١٤٤ يوما . لم يتمكن السلطان من العثور على الجيش الألمانى السيار ، ولم يشأ شارل - كوينت أن يرتكب عملا خاليا من الحيطة كهذا . رفع الحصار عند هطول الثلج .

دامت الحملة الهمايونية ٤ مدة ٧ أشهر ، و٧ أيام . عاد الخاقان إلى استانبول يوم ١٥٢٩/١٢/١٦ . كانت خسائر العثمانية فى هذه المرة ١٤٠٠٠ بين شهيد وجريح .

جرت طوال مدة استمرار الحملة الهمايونية ٤ ، فى صيف وخريف ١٥٢٩ ، أكبر عملية غزو فى التاريخ العثمانى . أصبحت المنطقة من النمسا ، بافيرا ، مورافيا ،

بوهيميا ، سلوفاكيا ، سيليزيا ، سلوفينيا وحتى الحدود السويسرية ، مجالا للغزو . اجتاح ابن عمة القانونى يحيى باشا - زاده غازى محمد بك (شقيق بالى بك) فعليا كلا من بافيرا ، بوهيميا ، مورافيا واحتل فعلاً Regensbuvg مركز بافيرا وBrünn مركز مورافيا .

واجتاح مالقوج أوغلو قاسم بك ، الإيالات النمساوية ودخل فريق من المغاوير Vaduz مركز إمارة Liechtenstein وأحرق قصر الأمير وأسر ابنه ، ثم دخل سويسرا ، ووصل إلى نهر الراين . إلى خط طول ٩ نحو الغرب .

تقع Vaduz على مسافة ٥٠٠ كم (مسافة مستقيمة) جنوب غربى فيينا (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٧٢٧ ، هامر ، ٥ ، ١٣٢ ، ٤٨١) .

احتل الأتراك فى (١٥٢٩/١١/١٥) Graz المدينة الكبيرة الثانية فى النمسا ، وكذلك Maribor فى سلوفينيا ، وكان الغزو لايزال مستمرا فى ك ١٥٢٩/١ ، حيث كانت الغاية تأمين انسحاب الجيش الهمايونى ، وتأمين عدم تدخل الألمان مرة أخرى فى أمور المجر .

انكسرت شوكة شارل - كوينت وانهارت خطة التحكم فى أوربا . جاء السفراء الألمان إلى استانبول فى ت ١/ ١٥٣٠ ، وطلبوا إقرار صفة الإمبراطور لشارل - كوينت ومنح المجر لاخيه فرديناند بنفس الشروط التى منحت بها إلى زابوليا (أيا كانت) ، أو بشروط أكثر ملاءمة للعثمانية . رفض إبراهيم باشا بصورة قطعية . وعلى أثر ذلك ، ولكى يحصل شارل - كوينت على الصلح الذى ينشده بالقوة ، تحرك فى شتاء ٣٠ - ١٥٣١ .

وفى الأيام التى كان يحاصر فيها قاسم باشا Sigetvar الموجودة فى حوزة الألمان بدأ فرديناند كذلك بمحاصرة بودين . دام الحصار نحو شهرين .

كان حامى القلعة كوجوك قاسم باشا ، وكان بالقلعة ٣٠٠٠ جندى تركى و١٠٠٠٠ مجرى . لكن المصاعب بدأت تلوح فى بودين . لحق داماد غازى يحيى باشا - زاده سلطان - زاده غازى محمد بك (باشا) ، مع أفراد صاعقته . طارد جيش الفيلدمارشال Von Roggendorf - الذى رفع الحصار بصورة مستعجلة - إلى أعماق النمسا وأسر ١٥٠٠٠ . لكن السلطان سليمان قرر القيام بحملة جديدة

على ألمانيا فى الربيع ، سواء للرد على حصار بودين أو بأمل ضرب جيش شارل - كوينت فى حرب ميدانية .

(٥) الحملة الهمايونية ٥ : الحملة الألمانية ٢ (١٥٣٢)

سار السلطان سليمان الثانى من استانبول ، مع إبراهيم باشا فى ٢٥ نيسان ١٥٣٢ ، مستصحبا معه ٢٠٠ ٠٠٠ جندى و٤٠٠ مدفع . فتح قلاع Siklos (بالتركية : شيكلوش) (٢١ تموز) ، Kanije (بالمجرية : Nagy Kanizsa ، بالألمانية : Gross - Kanisa) (٣٠ تموز) و١٥ قلعة أخرى من الدرجة الثانية ، هى قلاع المجر الجنوبية - الغربية التى كانت بحوزة الألمان . شيد جسرا على نهر Raba (بالألمانية : Raab) واجتازه . جاء أمام قلعة Güns (بالمجرية : Köszeg ، بالتركية : كونش) وهى قلعة مهمة على بعد ٢ كم من حدود النمسا و٩ كم جنوب فيينا وفتحها فى ٢٨ آب ، ولذلك يطلق على هذه الحملة فى التاريخ العثمانى اسم « حملة كنز » ، « حملة نمجه (أوستريا) » .

ورغم أنه حرر فى ٣٠ آب رسالة شديدة اللهجة إلى الملك فرديناند تساءل فيها عن محل وجوده وأخيه الكبير ، لكنه لم يصادف الجيش الألمانى السيار ، وأيقن جيدا أن شارل - كوينت سوف لايرضى بحرب ميدانية وأنه سيسيطر على المجر بطريقة اضرب وأهرب . وفى ١١ أيلول دخل السلطان سليمان Graz المدينة الكبيرة الثانية فى النمسا . سقطت كثير من القلاع النمساوية ، واحتل المدن والنمسا بكاملها .

عاد الخاقان إلى استانبول (١٥٣٢/١١/٢١) من حملته التى دامت ٦ أشهر ٢٦ ويوماً .

بعد المفاوضات الطويلة مع الديبلوماسيين الألمان ، أبرمت معاهدة استانبول (١٥٣٣/٦/٢٢) . وافق الديوان الهمايونى (حكومة الإمبراطورية العثمانية) الذى قرر الحملة على إيران ، على الصلح مع ألمانيا . تم تثبيت الحدود التركية - الألمانية على أساس الحدود النمساوية - المجرية الحالية تقريبا .

نصت المعاهدة على أن تبقى قلعة Györ (بالتركية : يانق قلعة بالألمانية :

Raab) المهمة – التى تعتبر مفتاح فيينا – لدى العثمانية . تبعد هذه المدينة مسافة ٩٥ كم غربى بودابست و٨٠ كم جنوب شرق فيينا ، و٦٠ كم جنوب شرق براتسلافا ، و١٢ كم عن ألطونة ، على الضفة الغربية من نهر Raba (بالألمانية : Raab) .

تضمنت المعاهدة أيضا اعتراف الديوان بفرديناند ملكا على بوهيميا وأرشيدوقا على النمسا ، وتعتبر أسبانيا خارج معاهدة الصلح .

وبموجب المعاهدة أيضا يعتبر فرديناند فى التشريفات معادلا للوزير الأعظم (رئيس الوزراء) ويخاطب أحدهم الآخر بكلمة « أخى » يعتبر الطرف الألمانى Zapolya التابع للسلطان ، ملكا على المجر ومعادلا له ويعترف بالبادشاه « أبا » له .

الحملة الهمايونية ٧ : حملة إيطاليا (كورفو و بوليا) (١٥٣٧)

خرج سليمان الثانى بحملة إيران ١ ، بعد هذه الحملة كما سنرى فيما بعد .

أعلنت الحرب على البندقية وسار البادشاه من استانبول بالأسطول الهمايونى فى ١٥٣٧/٥/١٧ ، وكان مشير البحر بربروس خير الدين باشا قد سار بالأسطول الهمايونى من استانبول قبل ٦ أيام ، وكان إياس محمد باشا ، الوزير الأعظم منذ ١٥٣٦/٣/١٥ ، يرافق البادشاه . أما الوزير ٣ (وزير أعظم فى المستقبل) داماد لطفى باشا ، فقد كان فى الأسطول مع بربروس ويقود جنود المشاة الموجودين فى الأسطول .

وهكذا انهار الصلح الذى كان مستمرا مع البندقية منذ معاهدة ١٥٠٢/١٢/١٤ أى منذ ٣٥ سنة .

ومن أسباب الحملة قيام البندقية بتقديم المساعدات المستمرة خفية لألمانيا – أسبانيا ، ورفضها دعوة الديوان لاتفاق تركية – فرنسا .

كان بصحبة البادشاه من أبنائه الأمير (شهزاده) محمد والأمير سليم (الثانى) ، وكان عمراهما ١٦ و١٣ سنة . أما أولو شهزاده (ولى العهد) مصطفى الذى كان عمره ٢٢ سنة ، فقد كان فى مانيسا يقوم بإدارة لواءيه صاروخان وآيدن . وبالنسبة

للمعاهدة ، كان ملك فرنسا François ، قد احتل من ألمانيا كونتية Savoie ، لكنه لم يجسر على الدخول إلى شمال إيطاليا وأخل بهذا البند من المعاهدة .

جاء السلطان سليمان إلى ميناء آفلونيا فى ألبانيا ، الواقع على بوغاز أوترانتو والساحل المقابل له قلعة - ميناء اوترانتو وإيالة بوليا Pulya الإيطالية ، عن طريق استانبول - أدرنة - فيليبه - اسكب - الباسان . وكانت إيالة بوليا وجميع جنوب إيطاليا فى حوزة اسبانيا ، أما جزيرة كورفو العائدة للبنادقة فإنها تقع جنوب آفلونيا .

كان الأسطول الهمايونى المكون من ٢٨٠ قطعة والجيش الهمايونى قد دخلا إلى خليج آفلونيا فى ١١ تموز قبل البادشاه بيومين . اجتاز الأسطول بوغاز أوترانتو البالغ طوله ٩٢ كم وأنزل جنودا فى إيطاليا وفتح أوترانتو (١٥٣٧/٧/٢٣) . كان قد مضى ٥٦ سنة على إخلاء الأتراك أوترانتو فى ١٤٨١ .

أعلنت برنديزى خضوعها . لكن لطفى باشا أخلى إيطاليا بعد ٢١ يوما وعاد إلى آفلونيا (١٣ آب) ، وبدأ حصار كورفو (٢٥ آب - ٦ أيلول) التى تقترب من الساحل التركى إلى حد ٥ كم . احتل كامل الجزيرة ، وكانت القلعة مازالت تقاوم ، تم إنزال ٥٠٠٠٠ جندى وأكثر من ٣٠ مدفعا إلى الجزيرة . لكن البادشاه أمر برفع الحصار فى اليوم الـ ١٢ من الحصار . عارض لطفى وبربروس فى رفع الحصارات وأفادا بأن القلعة سوف تسقط بعد ١٢ يوما آخرين ، لم يستمع البادشاه لهما ؛ فقد كان متأثرا بمنظر استشهاد أربعة من الجنود الأتراك دفعة واحدة بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة .

أخليت الجزيرة فى ١٤ أيلول ، وأصدر القانونى أمر العودة . عاد إلى استانبول (١٥٣٧/١١/٢٢) بعد ٦ أشهر و٦ أيام عن طريق منسطر - سلانيك - سرز - قاوالا ، ديمتوكا - أدرنة . مكث ٢٤ يوما فى أدرنه أثناء عودته .

قلب بربروس فى طريق عودته جزر كيكلاد وكريت رأسا على عقب . طلبت البندقية الصلح . رجت فرنسا الديوان فى قبول هذا الصلح . وصل خبر انتصار Vertizo (١٥٣٧/١٢/٢) بعد ٢٠ يوما من وصول القانونى إلى استانبول . كان السلطان - زاده (سليل العائلة المالكة) غازى محمد بك ، قد أباد جيش الجنرال كاتزيانر Katzianer - المكون من ٤٥٠٠٠ جندى و٤٩ مدفعا - الذى اقترب إلى Vertizo قرب Osiyek فى شرق خرواتيا .

(٧) الحملة الهمايونية ٨ : حملة بغدان (مولدافيا) (١٥٣٨)

خرج البادشاه فى السنة التالية بحملة بغدان (١٥٣٨/٧/٨) . وتصادف فى هذه الأيام خروج بربروس خير الدين باشا بحملة البحر الأبيض التى أثمرت انتصار Preveze ، أما والى مصر (وزير أعظم فى المستقبل) سليمان باشا ، فقد كان فى حملة الهند . اشترك فى هذه الحملة كل من الشهزاده محمد والشهزاده سليم (الثانى) ، الوزير الأعظم أياس محمد باشا والوزير الثانى داماد لطفى باشا . وكان فاتح وبايزيد الثانى قد قاما سابقا بحملات على بغدان (مولدافيا) .

كانت بغدان (مولدافيا) إمارة رومانية مستقلة ذاتيا تابعة لتركية . لم يكن لديها ساحل على البحر الأسود وكان قسمها الساحلى تابعا لإدارة العثمانية المباشرة . كان دخول الفويفودا (لقب أمراء المجر) بترو ٥ ، بتحريض سرى من ألمانيا ، أراضى ملكية بولونيا المتصالحة مع تركية ، وشكوى السفير البولونى ، أحد أسباب هذه الحملة . أعدم السلطان سليمان جنديين تركيين لحرقهما دارا تخص مسيحياً فى ٢٩ آب عندما كان الجيش فى قيزيل كول قوناغى فى شمال دوبروجه وايساكجى . تم تسجيل هذا الحادث فى الكتب المدرسية الأوربية كقصة كلاسيكية ، كان الجيش فى أراضى العدو ، لكن الحرب كانت قائمة . ولم يكن الإعدام هو عقوبة هذا الفعل فى أوقات الصلح .

تم اجتياز نهر Prut من الجسر الذى شيده المعمار سنان فى ٣١ آب . جاء الجيش إلى ياشا أكبر مدن بغدان ، ومنها إلى سوجوفا (بالرومانية : Suceava) عاصمة الإمارة التى تبعد عنها ١١٠ كم (١٥٣٨/٩/١٥) . كان قد تم اجتياز نهر Seret كذلك . مكث القانونى فى سوجوفا مدة ٧ أيام . أعلن البويار (أشراف الرومان) الرومانيون خضوعهم للبادشاه ، وأعلنوا تمرد الأمير الهارب وعدم اعترافهم به . كانت بشرى كبيرة تنتظر السلطان سليمان فى قصر يانبولو عند عودته (١٥٣٨/١٠/١٥) : لقى أمامه حسن بك بن بربروس خير الدين باشا ، الذى قص عليه تفصيلات انتصار Preveze الذى تحقق قبل ١٧ يوما . عاد البادشاه إلى استانبول فى ١٥٣٨/١١/٢٧ من أقصر حملاته التى استمرت ٤ أشهر و ٢٠ يوما .

نتيجة لهذه الحملة ، ضمت الأراضى الواقعة بين نهرى دنيستر الذى يطلق عليه الأتراك اسم « بوجاق » وبروت ، إلى الإدارة العثمانية المباشرة وفصلت عن بغدان . ومنذ ذلك الحين تقرر تخصيص حامية مكونة من ١٠٠٠ سباهى و٥٠٠ إنكشارى فى سوجوفا بدعوى حراسة الفويفودا . ألحقت بالعثمانية كامل البلاد المنحصرة بين بروت ودنيستر (بالتركيه : تورلا) والتى تسمى بيسارابيا ، وقلصت حدود بغدان بصورة كبيرة . وفى هذه الحملة ، شاهدت الأراضى الرومانية ، لأول مرة فى تاريخها ، الفيلة حاملة الكوس (الطبل الضخم) (كاتب جلبى ، فذلكة ، ١/٤٠٤) .

كذلك أخذت من إمارة أفلاق ، المناطق المحيطة بمدينة إبرائيل وضمت إلى الإدارة العثمانية المباشرة (١٥٤٣) . تمت السيطرة بشكل كامل على المناطق الحساسة لنهر ألطونة . أصبحت دوبروجه منذ ذلك العهد وكأنها بلادا تركية . وارتفع عدد سكان باباداغ إلى ١٠٠٠٠٠ نسمة . جاء خان قرم وخان قازان السابق صاحب كيراى مع جيشه فى هذه الحملة ، وانضم إلى الجيش الهمايونى .

أبرمت مع البندقية معاهدة استانبول (١٥٤٠/١٠/٢٠) . وهكذا تم على نطاق واسع الحيلولة دون انحياز البندقيه إلى شارل - كوينت . ترك آخر رصيفين بحرين بندقيين فى مورا (Malvoisia = Monemvasia بالتركية : منكشة = بنفشة ، وNavplion = Nauplia) = لتركية : آنابولو) إلى تركيا ، وانتقلت بعض الجزر فى جنوب إيجه ، قلعتين فى دالماجيا (Nadin وUrana) إلى تركية . وسددت البندقية بالإضافة إلى ذلك ٣٠٠٠٠٠ ليرة ذهب كغرامات حرب .

(٨) الحمله الهمايونية ٩ ؛ حملة بودين (١٥٤١)

غادر القانونى استانبول فى حملته الـ ٩ بتاريخ ١٥٤١/٦/٢٠ .

سبق أن ذكرنا أنه قد تم إعلان اعتبار الملك زابوليا فى ١٥٢٩ « ابنا معنويا » للسلطان سليمان (Makkai ، ١٢٤) ، كما وافق القانونى فى ١٥٣٣ على اعتبار الملك فرديناند كذلك ابنا معنويا له .

لم يكن فرديناند قد ترك بعد أطماعه فى المجر ، وكان كبير الأمل فى ذلك لأن الملك زابوليا ، زوج أخت ملك بولونيا ، لم يكن له ابن ، لكن زابوليا تزوج بأمر القانونى بابنة ملك بولونيا Sigismund الأول ، وأنجب ابنا ، لكنه توفى بعد ١٥ يوما من ولادة الطفل (١٥٤٠/٨/٢٢) وعمره ٥٣ سنة بعد أن ظل ملكا على المجر مدة ١٥ سنة .

إن ترك طفل لايتجاوز عمره ١٥ يوما على عرش المجر - ترانسلفانيا ، كان يعنى تحريكا لأطماع فرديناند ، وبخاصة أن الأم البولونية ، شابة وليست ذات نفوذ ، وتشغل موقع نيابة السلطنة وهى ليست ذات كفاءة للمنصب .

كان هذا هو الوضع الذى استدعى قيام الخاقان بحملة جديدة . كان يرافقه أبناؤه شهزاده سليم (الثانى) وعمره ١٧ سنة وشهزاده بايزيد وعمره ١٥ سنة ، قضعسكر (قاضى العسكر) روملى (شيخ الإسلام فى المستقبل) أبو السعود أفندى ، سليمان باشا الذى صار صدرا أعظم بدلا من داماد لطفى باشا .

أرسل فرديناند الذى أراد السبق والمبادرة ، جيشا ألمانيا كبيرا بقيادة Von Roggendorf وحاول فتح بودين . فاجأ غازى محمد بك (باشا) الجيش الألمانى (ليلة ٢١ - ٢٢ آب ١٥٤١) فى Istabur خارج بودين . هرب الألمان بعد أن تكبدوا خسائر فادحة جدا . نصب السلطان سليمان سرادقه خارج بودين بعد الانتصار بـ ٤ أيام فى ٢٦ آب . وفى ٢٠ آب استقبل الملك المسمى Janos الثانى = يانوش » وعمره سنة واحدة بمراسم خاصة ، احتضن الأمراء (شهزادات) الطفل ولاطفوه بمحبة . أعلن السلطان سليمان ، أنه منح يانوش الثانى إمارة أردل (ترانسلفانيا) وأنه يسمح له بأن يحمل لقب « ملك » إلى نهاية حياته .

أما المجر ، فقد أعلن أنها أصبحت إيالة باسم « إمارة بودين » (١٥٤١/٨/٢٩) . سوف تصبح الإيالة الثانية بعد مصر ، وقبل روملى .. فى التشريفات العثمانية . ومن الصدف الغريبة ، أن ذلك اليوم صادف الذكرى السنوية الـ ١٥ لانتصار موهاج . عين رمضان أوغلو أزون حسن واليا على الإيالة بمرتبة وزير ، وهذا الأمير التركمانى كان قبل عدة سنوات أول وال للدولة على إيالة بغداد (العراق) . وهو حفيد محمد بك الذى توفى فى معركة ردانية وابن رمضان أوغلو

كباد باشا . وعين لولاية بودين بعد سليمان باشا ، ابنا عمته يحيى باشا - زاده غازى بالى باشا ، وبعد وفاته ، أخوه غازى محمد باشا .

خصص لقلعة بودين ٦٠٠٠ جندى وفى مراكز الالوية حاميات لاتقل أعدادها عن ١٠٠٠ جندى . أما أردل (٨٤٠٠٠ كم٢) فقد أصبحت إمارة مجرية مستقلة ذاتيا .

دخل القانونى بودين بمراسم عسكرية واستمع إلى الخطبة التى تلاها أبو السعود أفندى فى جامع فتحية (١٥٤١/٩/٢) . أخلت الملكة السراى الملكى ، وقام الأتراك بصيانته والعناية به ، واعتبر قصرا للبادشاه ، ولم يخصص لإقامة الأمراء ، حيث أقاموا فى سراى آخر .

ظل شريط من الأراضى فى شمال شرق المجر بحوزة الملك فرديناند . ووفقاً لمعاهدة استانبول كان فرديناند بالنسبة لهذه الأراضى تابعا للبادشاه ويدفع سنويا ضريبة قدرها ٤٠٠٠٠ ليرة ذهبية .

دامت هذه الحملة ٥ أشهر ، ٧ أيام . عاد السلطان سليمان الذى أقام فى بودين ٢٦ يوما إلى استانبول فى ١٥٤١/١١/٢٧ .

قام فرديناند بمحاولة أخرى لأخذ بودين . جاء منتخب براندنبورغ Joachim الثانى Von Hohrnzollern أمام بودين (١٥٤٢/١١/١٧) ، بجيش صليبى مكون من ١٠٠٠٠٠ جندى ؛ منهم ٤٠٠٠٠ من المشاة و٨٠٠٠ خيال من الألمان والبقية أسبان ، وقوات البابوية الخ .

بدأ يواكيم Joachim الثانى الذى يجلس على عرش برلين (وعمره ٣٧ سنة) ، بقصف قلعة بودين بواسطة ٤٠ مدفعاً .

جاء القانونى من استانبول إلى أدرنة لمراقبة الوضع عن كثب : هزم الألمان فى كل من الهجومين العامين . أعطى المنتخب فى ليلة ٢٣ - ٢٤ ت ٢/(١٤٥٢) أمر الانسحاب بصورة سرية ، لكنه شاهد فى صبيحة يوم ٢٤ ت ٢ ، جيوش السلطان - زاده غازى بالى باشا مع ٨٠٠٠ من جنوده تطارده . قتل وأسر الباشا أكثر من نصف الجيش بعد أن تمكن من اللحاق به .

(٩) الحملة الهمايونية ١٠ : انتصار استركون (١٥٤٣)

سار القانونى من أدرنة التى قضى فيها شتاء كاملا (١٥٤٣/٤/٢٣) .

اخذت ٣٧١ قطعة من أسطول ألطونة الرفيع (الأسطول النهرى الذى يتكون من قطع بحرية رفيعة وطويلة) فى حمل الأرزاق والمهمات من دلتا ألطونة فى البحر الاسود ، والمسير على طول نهر الطونة . وفى الوقت الذى خرج فيه السلطان سليمان فى حملة ألمانيا ، كان بربروس كذلك يسير فى حملة فرنسية غرب البحر الأبيض ، تجاه أسبانيا . كان قد فتح جبهة ثانية . استعيدت بج(٤ تموز) التى كانت فى حوزة الألمان منذ ٣ سنوات واستعيدت كذلك شيكلوش (٥ تموز) .

وفى ٢٩ تموز جاء البادشاه أمام استركون (بالمجرية Esztergon وبالألمانية : Gran) ، التى كانت قلعة مهمة جدا على مسافة ٣٠ كم شمال غربى بودين ، على الساحل الجنوبى من ألطونة (الساحل المواجه له ، سلوفاكيا) . قصفت القلعة بواسطة ٣١٥ مدفعا ، واستعيدت بعد ١٢ يوما (١٥٤٣/٨/١٠) . استشهد عقيد مشاة وعقيد بحرية واحد . مات بالى باشا فى تلك الأثناء وعين مكانه أخوه محمد باشا واليا على بودين .

كانت هناك قلعة مهمة أخرى يحتلها الألمان منذ ٣ سنوات وهى استولنى – بلغراد (بالمجرية : Székesfehervar بالألمانية : Stuhlweissenburg) تقع على مسافة ٥٠ كم من جنوب غربى يورش . تم استعادتها فى ٤ أيلول ١٥٤٣ بعد أن قاومت ١٥ يوما .

كانت استركون مركزا دينيا للمجر ، يقيم فيه رئيس أساقفة المجر الكاثوليك . كان الأتراك يحترمونه . أما استولنى – بلغراد ، فكانت هى المدينة التى يدفن فيها ملوك المجر ، وكان الملوك الذين يتوجون فى هذه الكاتدرائية يدفنون فيها عند وفاتهم . كانت القاعدة أنه يتم تحويل الكنائس الكبيرة فى المدن التى لاتستسلم من تلقاء نفسها وتفتح بالقوة إلى جوامع . لكن السلطان سليمان الثانى ، مراعاة لشعور المجريين ، لم يأمر بتحويل هذه الكاتدرائية إلى جامع وأمر بتحويل كنيسة أصغر منها ، وأعاد الكاتدرائية لإدارة الرهبان الكاثوليك ، وتحتوى الكاتدرائية على صلبان من الذهب موضوعة على نعوش الملوك ، وفى أصابعهم محابس من الماس ، وعلى رءوسهم تيجان مرصعة . لم يمس الأتراك أبدا هذه الخزينة .

ارتبطت استركون واستولنى - بلغراد ببودين كمركزى لواءين مهمين . وأصبحت استركون من أهم قواعد جنود الصاعقة . حيث إنها كانت على الحدود الألمانية تماما . عين والى بودين أحمد بك شقيق غازى محمد باشا ، واليا على لواء استولنى - بلغراد وهو ابن عمة البادشاه .

دامت الحملة الهمايونية ٦ أشهر و٢٣ يوما . عاد الحاكم العالمى السلطان سليمان إلى استانبول فى ١٦ ت٢/١٥٤٣ .

أحيل الوزير الأعظم سليمان باشا - المشهور بحملته على الهند - إلى التقاعد ، وحل محله فى هذا المقام زوج ابنة القانونى الوحيدة .. داماد رستم باشا . فتح والى بودين غازى محمد باشا ، بالاشتراك مع والى بوسنة أولاما باشا ، قلاعاً كثيرة من الألمان بعد عودة البادشاه . طلبت ألمانيا الصلح .

أبرمت فى البداية مع ألمانيا فى ١٠ ت٢/١٥٤٥ ، هدنة لمدة ١/٥ سنة . طالت مفاوضات الصلح بسبب دلال العثمانية . لكن فيينا التى تفقد فى كل سنة عدة قلاع فى حروب الحدود والتى عجزت عن صد هجمات الصاعقة ، مالت إلى الصلح ، وكان الديوان الهمايونى الذى يريد التوجه نحو الشرق ، نحو إيران ، يؤيد الصلح كذلك . تم التوقيع على معاهدة استانبول فى ١٩ حزيران ١٥٤٧ وصادق عليها شارل - كوينت فى ١ آب وصادق عليها السلطان سليمان فى ٨ ت ١ .

جرت مراسم التوقيع فى سراى رستم باشا فى استانبول . وقع رستم باشا نيابة عن تركية . مات فى هذه الأثناء بربروس ، وكانت السياسة الأسبانية للقانونى قد دخلت مرحلة التوقف لعدة سنوات . ولم تعد فرنسا تراعى شروط المعاهدة ، وتقوم بالاتفاق مع شارل - كوينت كلما وجدت ظروفا مواتية لها .

كان القانونى يستعد لحملة ثانية على إيران .

تتلخص أهم شروط معاهدة استانبول التى تعتبر انتصارا كبيرا للديبلوماسية التركية فى القانون الدولى فيما يلى :

- الاعتراف بالفتوحات التركية .

– يعتبر فرديناند حاكما تابعا للبادشاه فيما يتعلق بالأراضى العائدة للتاج المجرى السابق والموجودة فى حوزته .

– يدفع ضريبة سنوية تبلغ ٥٣٠٠٠ ليرة ذهبية .

– كملك بوهيميا وأرشيدوق النمسا ، لايكون فرديناند تابعا للبادشاه .

– يسمح لرعايا الإمبراطوريتين التركية والألمانية بزيارة قطرى احدهما الآخر بصورة متقابلة ، وبحرية ، وكذلك المتاجرة فى كلا القطرين شرط سداد الرسوم الجمركية .

– يعاد الشخص من رعايا العثمانية الهارب إلى ألمانيا ، فى الحال إذا طلبت العثمانية ذلك – سواء كان مسيحيا أو مسلما .

– لايعاد اللاجئون إلى تركيا من الرعايا الألمان إن كانوا مسلمين ، أما إذا كانوا مسيحيين فإن الدولة العثمانية سوف تعيدهم إذا أسفرت نتيجة التحقيق عن أنهم مجرمون عاديون ، ولاتعيد المجرمين السياسيين .

– يعتبر الملك فرديناند فى التشريفات العثمانية معادلا للوزير الأعظم ، ويتم تنظيم جميع المكاتبات على هذا الأساس . ويعتبر الخاقان التركى أباً له ، ويطيعه كالابن .

– لاتخل هذه الشروط بتابعية فرديناند لأخيه الكبير ومتبوعه أمبراطور ألمانيا وملك أسبانيا شارل – كوينت .

– يقر شارل – كوينت بشروط هذه المعاهدة سواء كإمبراطور المانيا ، أو كملك أسبانيا .

– لايستعمل الإمبراطور – الملك صفة الإمبراطور أبداً فى مكاتباته مع الجهات الديبلوماسية التركية ولايطلب استعمالها ، ويعتبر كملك لأسبانيا فقط ، ويوافق على استعمال عبارة « كارلوس ملك ولاية أسبانيا » .

– لاتستعمل صفة الإمبراطور فى أوربا فى المكاتبات الديبلوماسية مع تركية ، إلا بالنسبة « لبادشاه العالم » السلطان سليمان .

– تتعهد دول كل من : فرنسا ، البندقية والبابوية برعاية شروط هذه المعاهدة .

تمثل هذه المعاهدة القمة التى توصلت إليها شوكة تركيا طوال فترة التاريخ (Hammer ٥ ، ٣٩٥ - ٦) .

لقد جعلت هذه المعاهدة أوربا جميعها توافق بصورة رسمية على رجحان الوضع القانونى لتركية وعدم مساواتها مع أية دولة اخرى .

وهكذا يكون نزاع القانونى - شارل - كوينت ، قد انتصر فيه القانونى بشكل حاسم ، بعد حروب استمرت ٣٠ سنة .

(١٠) العلاقات التركية - الألمانية من معاهدة استانبول (١٥٤٧/١٠/٨) إلى تنازل شارل - كوينت عن العرش (١٥٥٦/١/١٦) .

اعترت العلاقات التركية - الألمانية فترة توقف فى غضون الأربع سنوات التى تلت معاهدة استانبول . قام القانونى خلالها ، بحملته الـ ٢ على إيران .

جرت حملة والى (بكلربك ، فريق أول ، أمير الأمراء) روملى صوقوللو محمد باشا على أردل فى ١٥٥١ ، بسبب تدخل الملك فرديناند فى قضايا أردل بصورة سرية وقت أن كان البادشاه فى إيران .

غادر صوقوللو فى ١٠ تموز ١٥٥١ ، مركز إيالة روملى صوفيا وجاء إلى بلغراد . وفى ٧ أيلول اجتاز ألطونة نحو الشمال بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندى و ١٥٠ مدفعا ، واحتل كافة القلاع الموجودة بحوزة الألمان فى بانات وأردل والتى أهمها Libva (Lippa بالرومانية : Lipova) ، Arad ، جاناد (بالمجرية : Csanad) . أما تامشوار (بالرومانية : Timisoara بالمجرية : Temesvar) فقد حوصرت مدة ١٥ يوما ورفع عنها الحصار فى ١٦ ت ٢ . كان قد تجمع فيها جيش ألمانى مكون من ١٠٠٠٠٠ شخص . ومع أن الجنرال Toth حاصر Segedin بجيشه البالغ ١٠٠٠٠٠ جندى ، فإن الفريق الأول على باشا الذى جاء من بودين (١٥٥٢/٢/٢٤) افنى الجيش الألمانى عن بكرة أبيه .

وعندما لم يتمكن صوقوللو من إسقاط تامشوار ، أرسل فى السنة التالية الوزير ٢ داماد قره أحمد باشا (وزير أعظم فى المستقبل) كقائد عام . احتل القلعة من

الألمان بعد حصار دام ٢٨ يوما (١٥٥٢/٧/٢٦) . أما والى بودين على باشا ، فقد أباد الجيش الألمانى الذى بادره بالهجوم فى حرب Fülek الميدانية (١٥٥٢/٨/١١) وأسر القائد العام ومساعده . وبعد تطهير قره أحمد باشا ، اردل من الالمان ، واحتلال Szolnok فى ٤ أيلول سار بجيشه على قلعة أكرى (بالمجرية : Eger بالألمانية : Erlau) المهمة جدا التى بحوزة الألمان والواقعة فى شمال شرق المجر . والتى تبعد مسافة ٩٠ كم شمال شرق بودين . كان والى بودين على باشا ، ووالى إيالة روملى صوقوللو محمد باشا ووالى بوسنه أولاما باشا بمعية أحمد باشا . لم ينته الحصار إلى نتيجة ومن ثم فقد تم رفعه فى ١٩ ت ١ بعد أن استمر ٣٩ يوما . كانت المدفعية التركية قد قذفت القلعة خلال هذه المدة بـ ١٢٠٠٠ طلقة (Hammer ، ٦ ، ٥٠) . سيفتح أحمد الثالث أكرى بعد ٤٤ سنة من هذا التاريخ .

ودخلت العلاقات الألمانية – التركية مرة أخرى فى فترة توقف . وخلال تلك الفترة حاصر والى بودين على باشا Sigetvar مدة ٣٢ يوما (٢١ آيار – ٣١ تموز ١٥٥٦) لكنه لم يتمكن من إسقاطها ، وسوف يحتلها القانونى بعد ١٠ سنوات . كانت خسائر تركيا فى هذا الحصار ضابطا واحدا برتبة لواء و ٣ عقداء خيالة واستشهد ٧٠٠ ضابط وجندى ، وجرح ضابطان برتبة لواء .

كان المارد العجيب المسمى شارل – كوينت ، قد انهزم تجاه العثمانية فى أوربا الوسطى ، وفى شمال أفريقيا والبحر الأبيض ، كما سنرى فيما بعد . وقد شهد خلال سنى حكمه ، انقسام أوربا من الناحية الدينية إلى فريقين عدوين كاثوليك وبروتستانت . وفشل فى منازلة القانونى وبربروس ولوثر .

حاولت أسبانيا تعويض خسائرها فى أوربا ، باتخاذها مستعمرات فى القارة الأمريكية . وبدأت تعتمد عليها اقتصاديا .

إن استعمار أسبانيا للعالم الجديد يشكل صحائف مشينة فى التاريخ كأعمالهم فى الأندلس ، فعلى سبيل المثال ، كان تعداد جزيرة هائيتى فى السنة التى اكتشف فيها البيض القارة عام ١٤٩٢ ، نحو ٥٠٠٠٠٠ نسمة . وبعد ٢٢ سنة ، فى ١٥١٤ ، بقى فيها من السكان المحليين ١٣٠٠٠ ، أفنى المستعمرون الأسبان بقيتهم . إن الأسبان الذين اصطادوا الزنوج من ضفاف خليج غينة فى أفريقيا ، اعتبارا من

١٥٠١ ، ساقوهم أولا إلى جزر الانتيل ، ومن ثم إلى القارة الأمريكية واستعبدوهم كعمال أراضى ومناجم ، كانوا عاملا فى تكوين كتلة كبيرة من الزنوج الموجودين حاليا فى القارة الأمريكية ، ولقد لجأ الأسبان إلى ذلك لأن تشغيل سكان أمريكا المحليين الذين يتكونون من مئات الأعراق ، والذين يطلق عليهم اسم الهنود الحمر ، كعبيد فى الأراضى والمناجم ، كان من الأمور الصعبة جدا . أفنى الأسبان السكان المحليين بالقتل الجماعى فى كل مكان يتواجدون فيه ، أحرقوهم بالنار ، اصطادوهم كالحيوانات ، وأجبروا الباقين منهم على اعتناق المذهب الكاثوليكى وعلى تكلم اللغة الاسبانية . درست آثار حضارات **inka** الكبرى ، **Aztek** و **Maya** ، وبدائعها المعمارية ومدنها . نهب كل ماكان موجودا . احتلت بهذا الشكل فى ١٥١٩ – ٢٢ دولة **Aztek** فى المكسيك وفى ١٥٣٢ – ٣٥ دولة **Inka** فى بيرو . احتلت فنزويلا فى ١٥٢٠ – ٤٠ ، وشبه جزيرة **Yukafan** فى ١٥٢٧ – ٤٧ ، كولومبيا فى ١٥٣٨ ، شيلى فى ١٥٤٠ . واعتبارا من ١٥٥٠ ، أصبحت الأرجنتين وباراغواى مستعمرة أسبانية . استوطن هذه الأراضى على مر الزمن ملايين الأسبان . وأصبحت هذه المستعمرات – وبخاصة مناجم الفضة فى بيرو – المصدر الرئيسى لتمويل القوات البرية والبحرية الأسبانية فى القرن ١٦ .

انتشرت على مر الزمن البروتستانتية التى بدأت بـ « احتجاج » مارتن لوثر على بيع صكوك الغفران (موافقات البابا على دخول الجنة) .

قامت حرب كاثوليكية – بروتستانتية لايتصور العقل فظاعتها ، حاول فيها كل طرف من الطرفين إفناء الآخر .

لم يتمكن المذهب الجديد من النفاذ أبدا إلى أسبانيا أو البرتغال أو إيطاليا . أثر قليلا على فرنسا والأقطار الألمانية كالنمسا ، لم ينفذ كذلك إلى بافيرا ، ولم ينتشر فى الأقطار الأرثوذكسية ، وأوربا الشرقية والبلقان . حقق نفاذا فى الاقطار الكاثوليكية على الأخص .

على أثر قبول كثير من الدول الألمانية ، المذهب الجديد اضطر شارل – كوينت إلى الاعتراف بصورة رسمية بالمذهب البروتستانتى الذى ينفر منه ، وذلك للحفاظ على صفة إمبراطور ألمانيا ولمنع انقسام الإمبراطورية . ولكن سلالة هابسبورغ حاملة

تاج الإمبراطورية ، وسلالة Capet أكبر سلالة مسيحية فى فرنسا ، بقيتا على المذهب الكاثوليكي .

بدأ الحكام البروتستانت وعلية القوم فى أوربا فى طلب المعونة المستمرة من الديوان الهمايونى . كان البروتستانت يطلبون معونة بادشاه العالم لمواجهة « الكاثوليك الوثنيين والإمبراطور الذى يؤيدهم » . ذهب محرم جاووش إلى أوربا كممثل شخصى للقانونى وحمل معه كتاب السلطان الذى يؤيد فيه مساندة البروتستانت . ووصل حتى هولندا ونقل الخطاب السلطانى إلى الأمراء معتنقى المذهب البروتستانتى (صورة الخط السلطانى : منشئآت السلاطين ، ٢ ، ٤٥٠) .

ساند الديوان الهمايونى كافة الحكام البروتستانت وجميع معارضى الإمبراطور والبابا . كان الخط الهمايونى المؤرخ ١٥٥٢/٥/١٠ ، يقدم الضمانات لحاكم سكسونيا موريس الأول (١٥٤١ - ١٥٥٣) ، ولدوق بروسيا آلبرت (١٥٢٥ - ١٥٦٨) ولحكام البروتستانت الألمان الأقل رتبة ، فى مواجهة من الإمبراطور ، كما كان يتضمن التعليمات حول السياسة التى يجب عليهم اتباعها .

اضطـــر شارل - كويـــنت إلى إصدار المنشور Augusburg المؤرخ (١٥٥٥/١٠/٣) والذى يظهر فيه الليونة ، والموافقة على الحريات المذهبية للحكام البروتستانت ، ثم تنازل عن العرش (١٥٥٦/١/١٦) ، وانسحب بعدها إلى سراى الحمراء فى غرناطة Granada ولم يخرج منه . وكان قد عقد الصلح مع فرنسا بمعاهدة Vaucelles تاركا فكرة ابتلاع فرنسا التى تصدى له فيها الأتراك على نطاق واسع ، وترك الإمبراطورية الألمانية وكافة الأقطار التابعة لها إلى أخيه الوحيد فرديناند ، وترك ملكية أسبانيا وكافة الأقطار التابعة لها والمستعمرات الأمريكية لابنه الكبير فيليب الثانى (بالفرنسية : Philippe) . وبذلك أصبح فيليب الثانى وارثا لأقوى وأقدر دولة مسيحية .

تحققت كل هذه النتائج بسبب سياسة القانونى التى اتبعها على مدى ٣٥ سنة ، تمزق المارد ، بل وفقد العالم الكاثوليكى اتحاده « وفى الحقيقة ، يمكننا أن نقول إن كافة الحكام المسيحيين البروتستانت مدينون بسلامتهم لسليمان المعظم » (Hammer ، ١٥ ، ٣٢٦) . لم تتحقق هذه النتيجة بوساطة سياسة أوربا

الوسطى وحروبها التى أجملناها فيما سبق أو بواسطة المغرب والاسطول ، التى سنجملها فيما يلى .

(١١) نظارة البحرية وقيادة القوات البحرية (قبودان دريالك) لبربروس خير الدين باشا (١٥٣٤/٤/٦ - ١٥٤٦/٧/٤)

غادر والى الجزائر بربروس خير الدين باشا فى يوم من أيام الشتاء ، الجزائر مستصحبا ٤٤ قطعة من أسطوله و١٨ من أميرالاته ، وجاء إلى استانبول (١٥٣٣/١٢/٢٧) بناء على الأمر السلطانى (الفرمان) للسلطان سليمان القانونى الذى يستدعيه إلى استانبول .

وصل استانبول – بعد أن قام بهجوم بحرى كبير على أسبانيا – عن طريق خليج جنوة ، بحر ليغوريا ومضيق مسينا ، واستولى على كافة السفن الأسبانية التى كانت راسية فى ميناء مسينا (صقلية) وعددها ١٨ سفينة ، (Hammer ، ٥ ، ٢٤٣) . اتجه إلى Andrea Doria الذى علم بوجوده قرب Preveze ، لكن الأميرال الجنوى ، انسحب ولم يستجب للقتال .

كانت البحرية الهمايونية راسية فى ميناء Navarin جنوب غربى مورا تحت قيادة مشير البحر كانكش أحمد باشا . دخل بربروس الميناء ، تبادل الأسطولان التحية بطلقات المدفعية . انضم الأسطول الهمايونى إلى بربروس وحضر معه إلى استانبول . كان عرضا كبيرا .

خرج شعب استانبول برمته وتجمع بامتداد السواحل . هذه هى المرة الأولى التى يحضر فيها خير الدين باشا إلى استانبول التى تسمى باى تخت جهان (مدينة عرش العالم) . وفى اليوم التالى سمح السلطان لبربروس و١٨ من أميرالاته بتقبيل يده فردا فردا بمراسم الديوان ، أى باحتفالات إمبراطورية (لم يكن فى ذلك العهد فى التشريفات العثمانية ، تقبيل الأرض ، الأقدام ، الرداء ، الأغطية) لم يحضر هذه الاحتفالات الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا ، لوجوده فى حلب استعدادا لحملة إيران :

وبعد أن اجتمع بالبادشاه وتباحث معه مدة طويلة بشئون أسبانيا ، والبحر الأبيض ، والمغرب والأسطول ، تحرك إلى حلب للاجتماع بالوزير الأعظم . وصل حلب راكبا الحصان خلال ١٠ أيام . بقى فيها يومين . وعاد خلال ١٠ أيام راكبا الحصان كذلك ، وهذا أمر يلفت النظر بالنسبة لشخص فى الـ ٦٣ من عمره . وفى الطريق مكث يوما فى بورصة ويوما فى قونية . وبذلك استطاع أن يجد وقتا لتقبيل كسوة قبر مولانا فى قونية .

اقترح على إبراهيم باشا ضرورة إرسال أسطول إلى أمريكا التى تسمى « العالم الجديد » والحصول على مستعمرة فيها ، لكن الباشا أفاد بأن لديهم أعمالا مهمة وكثيرة فى البحر الأبيض ، حيث إنه يجب كف يد الأسبان عن المغرب بصورة مطلقة وإلا فسوف تفعل أسبانيا فى المغرب مافعلته مع الشعب فى الأندلس وفى العالم الجديد ، وسوف تسعى إلى كثلكة شمال أفريقيا بكامله من الأطلسى إلى مصر .

عاد بربروس إلى استانبول (١٥٣٤/١/٢٢) وبتعيينه قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (١٥٣٤/٤/٦) أصبح عضوا فى الديوان الهمايونى وكلف فى الوقت ذاته بإدارة ولاية الجزائر . غادر استانبول بحملة تونس قبل مضى ٤ أشهر على تعيينه . وخلال هذه المدة القصيرة وضع فى معمل استانبول لإنشاء السفن، هيكل ٦١ سفينة .

ساند السلطان سليمان سياسته البحرية بكل مافى الكلمة من معنى . تتلخص هذه السياسة فى تعزيز الأسطول الهمايونى بحيث يكون أقوى من مجموع بقية كافة الأساطيل . ومع احتمال تعذر ذلك من حيث عدد السفن ، فقد تعهد بربروس بإمكان تحقيق ذلك من حيث تأمين تفوق مرمى المدافع وتربية وتدريب الأفراد . وتقرر استبدال السفن والمدافع وتجديدها خلال بضع سنوات وبيع القديم منها إلى الداخل والخارج وتجهيز السفن بصورة متفوقة . أصبح بربروس ، أقرب مستشارى القانونى خلال توليه القيادة البحرية ، ولم يتمكن الوزير الأعظم والوزراء من الاعتراض على ذلك . وقد أبدى خير الدين فطنة سياسية كبيرة وتمكن من الحفاظ على قربه من البادشاه بعدم المساس بمشاعر أحد منهم . ومع أنه كان هناك من يحسده على إكسابه الدولة قطرا كالجزائر ، إلا أن هؤلاء تحاشوا إظهار مثل هذه المشاعر .

وهكذا اهتم السلطان سليمان خان الثانى القانونى بالأسطول بقدر اهتمامه بالجيش حتى إنه أعطى للسياسة البحرية أولوية فى بعض السنوات لم تشاهد من قبله ولامن بعده . لم يكن للقانونى مثيل فى تركيا كافة ولا فى تاريخ الأتراك بأسره . لم تكن سياسته سهلة التطبيق ، لكنه طبقها بنجاح وجنى ثمارها . كان للجيش التركى ماض عريق يرجع إلى مئات من السنين ، بينما كان الأسطول قد ظهر مع مجىء الاتراك إلى الأناضول قبل أربعة قرون ونصف وعاش تحت ظل الجيش دائما . حقق السلطان سليمان سياسته البحرية فى دعم الأسطول دون أى اعتراض أو شكوى من أى فئة من فئات الجيش . ولم ينج الأميرالات وجنود البحرية من بعض حوادث الغيرة والحسد ، بل وحتى المؤامرات فى استانبول ، لكن ذلك لم يجد فرصة للتوسع ، وأخمده السلطان سليمان بدراية . لم يكن وزراء الديوان الهمايونى والذين أكثرهم من الجنرالات ، يستسيغون كثيرا السياسة البحرية ، وكانوا حانقين بوجه خاص على تبجح الأميرالات الذين نشأوا فى الجزائر وجاءوا إلى استانبول . ورغم كل ذلك استمرت سياسة القانونى .

(١٢) فتح تونس (١٥٣٤/٨/٢٢) وفقدانها (١٥٣٥/٧/٢١)

سار ناظر البحرية قائد القوات البحرية والى الجزائر بربروس خير الدين باشا – خضر رئيس سابقا – بأسطوله الهمايونى البالغ ١٠٤ قطع محملة بـ ٨٠٠٠ من المشاة البحريين مغادرا استانبول (١٥٣٤/٨/١) . دخل مضيق مسينا **Messina** . احتل مدينة **Reggio** الواقعة على الضفة الإيطالية من المضيق واستولى على ٢٤ سفنية أسبانية . قام بإنزال الجنود فى موانىء جنوب غربى إيطاليا وميناء ساردونيا . دخل ميناء بنزرت (بالفرنسية : **Bizerte**) فى ١٥ آب .

كانت المناطق الشرقية والجنوبية لقطر تونس فى حوزة العثمانية أساساً . احتل خير الدين باشا مدينة تونس بلا مقاومة فى (٢٢ آب) ، واستقبل الشعب العثمانيين بكل ترحاب لنفورهم من سلطانهم مولاى حسن الذى كان شبيها بالسفاك كاليغولا .

كان السلطان الحفصى مولاى أبو عبد الله حسن الذى اعتلى العرش فى ١٥٢٦

كسلطان ٢٢ للسلالة ، بعد أن قتل ٤٤ أخا له ، قد باع الجوارى الموجودات فى السراى ، وأسس حرسا من ٤٠٠ شاب .

تمكن أحد إخوته المسمى مولاى رشيد من التخلص منه والفرار إلى استانبول ، كان السلطان الحفصى مكروها من شعب تونس برمته بسبب أخلاقه هذه وبسبب دعوته للأسبان ضد العثمانيين فى كل فرصة ، كان قد انسحب إلى الجنوب إلى الصحراء واستنجد بالأسبان عند دخول الأتراك إلى مدينة العرش .

لم تكن أسبانيا تعير أهمية كبيرة لمناطق تونس الأخرى الموجودة بحوزة العثمانية ، لكن الوضع كان مختلفا بالنسبة لمدينة تونس لأنها كانت تواجه صقلية .

لما علم خير الدين باشا أن السلطان الذى ينفر منه فى قيروان ، سار إليه . والمشهور عنه أنه ركب الأشرعة على عجلات المدافع وسيرها فى الصحراء .

بانتقال كامل قطر تونس ومدينة تونس ، التى تبعد عن صقلية ١٥٠ كم وعن ساردونيا ١٨٥ كم ، إلى العثمانية ، تبنى المسألة شارل - كوينت بنفسه بدعوى الدفاع عن السلطان الشرعى تجاه العثمانية المستولية .

أصبح خير الدين باشا وكيلا لوالى (فريق أول) إيالة تونس لحين صدور تعيين من استانبول .

كان السلطان سليمان خلال هذه الحوادث ، فى حملة إيران وفى تبريز . سار شارل - كوينت من ميناء برشلونة Barselona (١٥٣٥/٢٩) بأسطول مكون من ٥٠٠ سفينة حرب ونقل حاملة ٣٠٠٠٠ من المشاة ، والخيالة ، ومدفعية البر .

وفى ١٥ حزيران ، أنزل جنودا فى ميناء حلق الواد فى تونس . كان اللواء سنان رئيس يحمى قلعة حلق الواد ، وكان بربروس فى مدينة تونس مع ١٢٠٠٠ جندى . تعرضت حلق الواد للقصف بواسطة ١٢٠ مدفعا من جهة البر ، وبمئات المدافع البحرية من أسطول أندريا دوريا من ناحية البحر . أجرى سنان رئيس ٣ طلعات وكبد العدو ٦٠٠٠ قتيل . كان الأسطول الهمايونى ومعه بربروس فى استانبول . قتل كبار الأسبان كدوق Sarno وماركيز Mondeia ، لكن مولاى حسن جاء لإمداد شارل - كوينت بحمولة ٨٠٠٠ جمل من الأرزاق و١٦٠٠ خيال . أطلق

جنود خير الدين باشا البالغ عددهم نحو ٦٠٠٠ متطوع بربرى ، بسبب وعود مولاى حسن وخوفا من الأسبان ، سراح مايقرب من ١٠٠٠٠ أسير مسيحى فى مدينة تونس . اشترك هؤلاء الأسرى مع البرابرة فى القتال ضد جنود البحرية الأتراك . سقطت حلق الواد فى ١٥ تموز .

جاء سنان باشا مع حفنة من جنوده البحريين إلى مدينة تونس وانضم إلى خير الدين باشا . كان مع الباشا ٩٧٠٠ جندى تركى ، إلا أنه كان من غير الممكن مقاومة قوات العدو البالغة ٣٠٠٠٠ جندى و٥٠٠ سفينة ومئات المدافع . لم يتمكن من المقاومة أكثر من ٦ أيام بعد سقوط حلق الواد ، وانسحب من مدينة تونس .

وفى ٢٩ حزيران ، جاء مولاى حسن إلى الإمبراطور وخر على قدميه . فقد خير الدين باشا فى أول هجوم ٢٥٠٠ شهيد ، كان حر الصيف والعطش يؤديان إلى تكبده أضرارا تماثل أضرار العدو . قام الباشا بهجومه الأخير بواسطة ٧٢٠٠ من جنده . وعندما أراد العودة إلى المدينة ، كان المسيحيون الأسرى ، الذين سيطروا على المدينة ، قد أغلقوا الأبواب دون الأتراك . خرق بربروس خط العدو بهجوم مدهش . أدى هذا الهجوم إلى استشهاد عدة آلاف أخرى من جنود البحر . نجا خير الدين باشا مع عدد من أميرالاته المسنين كآيدن رئيس وسنان رئيس وعدة آلاف من جنود بحريته ، وألقوا بأنفسهم فى بلدة العناب (رأس بون) . كان الإمبراطور موقنا من أسر خير الدين باشا . ولذلك فقد اغتاظ كثيرا وعاقب قواده .

دخل الصليبيون مدينة تونس فى ٢١ تموز . كانت بلدة كبيرة . يهون الظلم الذى ارتكب فى الحملات الصليبية إذا ماقورن بالظلم الذى ارتكب فيها ؛ لقد ذبح ٣٠٠٠٠ عربى ، واستحيى ١٠٠٠٠ امرأة شابة وطفل كعبيد ، وتم تخليص وتسريح ٣٠٠٠٠ أسير مسيحى ، ونهبت السرايات ، وأحرقت عشرات الألوف من الكتب المخطوطة ، وأتلفت البدائع الفنية النادرة ، وهدمت الجوامع ، والمدارس والقبور المشيدة (Hammer ، ٥ ، ٢٥٢ - ٢٥٣) .

دخل شارل - كوينت المدينة التى باتت وكأنها مذبح . « تصادف أن الأيام التى دخل فيها شارل - كوينت تونس ، هى أيام دخول السلطان سليمان بلدتى ألد أعدائه الصفويين الغنيتين والكبيرتين جدا بغداد وتبريز ، لم يحدث أى نهب أو أى ظلم » (Von Hammer ، ٥ ، ٢٥٦ - ٧) .

أصبح مولاى حسن تابعا لأسبانيا بمعاهدة ١٥٣٥ . كان عليه أن يسدد ١٢٠٠٠ ليرة ذهبية ، كضريبة سنوية ، ويبقى ١٠٠٠ جندى أسبانى و١٠ سفن حربية فى تونس بصورة دائمة .

وهكذا سيبدأ فى مدينة تونس وشمال تونس الحكم الأسبانى الذى سوف يستمر ٣٩ سنة وشهرا ، و٢٣ يوما بعد الحكم العثمانى الأول الذى دام ١١ شهراً . وفى ١٥٤٢ ، فقئت عينا مولاى حسن على يد ابنه مولاى أحمد (١٥٤٢ - ١٥٦٩) وأرسل إلى قيروان ، ومات فيها ١٥٥٠ .

جاء خير الدين باشا إلى الجزائر . غادر ميناء الجزائر فى (١٥٣٥/٨/١٥) بأسطول مكون من ٣٢ قطعة بعد ٣٢ يوما من مغادرته تونس . قلب جزر بالير رأسا على عقب واستولى على ميناء ماهون فى مينوركا ، أسر ٥٥٠٠ شخص . خرج من جبل طارق وجاء إلى خليج قادش وضرب ميناء Faro الكائن فى جنوب البرتغال . وأحتل بنزرت ميناء مدينة تونس ، أثناء عودته إلى استانبول ووضع فيها حامية . ترك ابنه الكبير حسن بك الأول وكيلا عنه فى الجزائر وعاد إلى استانبول .

(١٣) انتصار بروزة Preveze (٢٨ أيلول ١٥٣٨)

غادر بربروس استانبول مع الأسطول فى ١١ آيار ١٥٣٧ . سار القانونى من استانبول بالجيش بعد ٦ أيام إلى البنادقة فى حملة على أوترانتو وكورفو كما أسلفنا من قبل . تعتبر هذه الحملات من الحملات الهمايونية النادرة فى التاريخ العثمانى التى يشترك فيها الأسطول .

كان الأسطول مكونا من ٢٨٠ قطعة ، عليها ٣٠٠٠٠ جداف ، وعشرات الألوف من جنود البحرية و٤٠٠٠ انكشارى و٦٠٠ مدفعى برى وعده آلاف من الفرسان السباهيين (تمارلى) . سلم بربروس بعد انسحابه من إيطاليا ، القسم الأكبر من الأسطول إلى الوزير ٣ داماد لطفى باشا الموجود فى ميناء مودن Modon فى مورا للإبحار به إلى استانبول . وجاء هو مع ٧٠ سفينة إلى جزر كيكلاد (أيلول ١٥٣٧) فى جنوب إيجه التى يحكمها البنادقة . كان شعب هذه الجزر روماً ، وكانت

هذه الجزر دوقية إيطالية تابعة للبندقية . تجول فى كافة الجزر الواحدة تلو الأخرى وأجبر الدوق (Giovanni Crispo) على إعلان تبعيته لتركية وتسديده مبلغ ٥٠٠٠ ليرة ذهب ، كضريبة سنوية .

غادر خير الدين باشا استانبول بعد أن قضى فيها الشتاء والربيع فى ٧ حزيران ١٥٣٨ . سوف يغادر السلطان سليمان مدينة عرشه بعد ٤١ يوما فى حملة بغدان ٨ . وسوف يغادر والى مصر - وزير أعظم فى المستقبل - سليمان باشا السويس بعد ٦ أيام من مغادرة بربروس استانبول بأسطول آخر فى حملة إلى الهند .

عاد بربروس إلى جزر كيكلاد مرة أخرى وضرب الجزر التى شاهد فيها جنود البنادقة . انضم إلى أسطول صالح رئيس (باشا) المكون من ٢٠ قطعة . جاء فى تموز إلى كريت وخرب هذه الجزيرة التى يحكمها البنادقة من أولها إلى آخرها . وفتح جزر كربة (Karpatos) الواقعة بين جزيرتى رودس وكريت وجزر كاشوت . علم الديوان الهمايونى بتشكيل أسطول صليبى جهنمى بقيادة أندريا دوريا . أرسل طرغد رئيس (باشا) مع ٢٠ سفينة إلى بحر اليونان (أيونيا) للاستطلاع . كان دوريا قد انسحب إلى كورفو ، دخل بربروس بروزة وأصلح القلعة .

كان الأسطول الصليبى مكونا من أكثر من ٦٠٠ سفينة حرب ونقل منها ٣٠٨ سفينة حربية من أنواع (galerruvayyal , Karaka ، قادرغة ، كاليون) وتحمل ٦٠٠٠٠ جندى . يجدف فيها عشرات الألوف من الجدافة . وكان بينها نحو ٢٠ سفينة عملاقة ذات ٣ طوابق تحمل أكثر من ٢٠٠٠ جندى .

كان الأسطول الهمايونى يحتوى على ١٢٢ سفينة حرب و٢٢٠٠٠ جندى .

دعا بربروس أميرالاته إلى سفينته الأميرالية ، وتباحث معهم طويلا . تردد بعضهم إزاء تفوق العدو . كان رأيهم انتظار دخول العدو إلى شرم Preveze حيث يتم تدميره بمدافع القلعة وبمساندة جنود البر . قال خير الدين باشا ، إن الحرب البحرية تكون فى البحار المفتوحة ولاتكون فى الساحل ، ولايمكن القيام بالمناورة (الحركة والاستدارة) فى الساحل ، وإن المدافع بعيدة المدى ستفقد تفوقها عند زيادة اقتراب العدو ، وإنه فى حالة إصابة إحدى السفن فإن السفن حاملة جنود البر ، خاصة

الذين لم يألفوا البحر سيرمون بأنفسهم فى البحر دون نظام ناشدين البر ، وتاركين السفينة بدون طاقم .

خرج من شرم بروزه وحماية مدافع القلعة ؛ وفى ٢٧ أيلول من خليج Arta وابتعد عن الساحل مسافة ٩ كم . وبعد إجراء المناورات والاستدارات اللازمة ، التقى الأسطولان فى بحر أيونيا (اليونان) فى مياه انجير ليمانى (بالإيطالية : Porto Fogo ، باليونانية : Vasiliko فى الجنوب ـــ الغربى من جزيرة Aya Mavri المواجه لخليج Arta (Preveze) .

وفى صبيحة يوم السبت الموافق ٢٨ أيلول ، شاهد الأسطولان أحدهما الآخر بوضوح . كان مشير البحر قائد القوات البحرية فى المركز . أهم مساعديه ابناه الرئيسان حسن الكبير (بيوك حسن) وحسن الصغير (كوجوك حسن) (كلاهما باشا فى المستقبل) . وفى الجناح الأيمن صالح رئيس (باشا) ، وفى الجناح الأيسر سيدى على رئيس العالم الشهير فى الجغرافية والرياضيات ، وفى الاحتياط طرغد رئيس (باشا) ويرافقه الرؤساء مراد ، وصادق ، وكوزلجه محمد . كان كل من الرؤساء سنان ، وشعبان وجعفر قواد أساطيل خفيفه فى الجناحين .

كان الأميرال الأسبانى الكبير الجنوى الأصل Andrea Doria على رأس الأرمادة (الأسطول) الصليبى . وكان الأميرال – الكبير Vineenti Capelli يقود الاسطول البندق ، وMarco Grimani يقود الأسطول البابوى . لم يكن الأسطول أسطولا وطنيا متجانسا ، ولذلك لم ينفذ الكثير من أوامر دوريا.أدى دهاء بربروس ، وقدرة السفن التركية على المناورة وبعد مدى مدافعها ، وعدم مقدرة السفن الصليبية على الاستدارة السريعة إلى هزيمة المسيحيين . ظهرت نتيجة المعركة خلال ٥ ساعات تقريبا . أعطى دوريا أمر إطفاء الضوء وتراجع . كانت خسائر الأسطول الصليبى كبيرة ، أما الأتراك فقد فقدوا عدة سفن .

اجتمع بربروس – زاده حسين بك بعد الانتصار بـ ١٧ يوما بپادشاه العالم السلطان سليمان أثناء عودته من حملة بغدان الهمايونية ٨ فى قصر يانبولو على نهر

طونجه Tunca وقبل يده ، وبعد تلاوته رسالة أبيه بشأن خبر الانتصار كتبليغ رسمى أمام الديوان الذى اجتمع ، عرض تفصيلات الانتصار شفويا . ولإظهار الحمد لله ، استمع البادشاه لتلاوة كتاب الانتصار وقوفا على قدميه دون أن يجلس .

أمر باعتبار بروزة جهادا أكبر وإقامة الاحتفالات فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وفى ٢٣ ت ١ ، جاء بربروس بنفسه إلى أدرنة ، وسرد خلال عدة أيام على البادشاه تفصيلات بروزة وسياسة البحر الأبيض الذى أصبح منذ الآن بحيرة تركية .

عاد حسن بك إلى الجزائر . قصف السواحل الأسبانية . نقل الأندلسيين ونقل إليهم الأسلحة . احتل قلعة جبل طارق مرتين وخربها . أرسل شارل – كوينت رجاله بصورة سرية إلى بربروس عارضين عليه أنه سيجعله حاكما مستقلا على كافة المغرب وشمال أفريقيا فى حالة قطعه علاقته بتركيا . ثم قدم نفس العرض بالنسبة للجزائر فقط ، إلى حسن بك الذى ينوب عن أبيه فى الجزائر . سرد بربروس ذلك على الديوان وبين احتمال قيام الإمبراطور بحملة كبيرة ويائسة ، وقد تحقق ذلك فعلا فى ١٥٤١ . اعتقل بأمر البادشاه اليهودى الدكتور Romeo التركى الجنسية فى الجزائر الذى قدم هذه العروض وسيق إلى استانبول ، حيث أجرى التحقيق معه وسجن .

(١٤) انتصار الجزائر (٢٤/ ت١ / ١٥٤١)

مضت على بروزة ٣ أعوام . قرر شارل – كوينت فتح الجزائر بنفسه كما جاء وفتح مدينة تونس بنفسه . سيكون هو بنفسه على رأس جيشه ، وكأنه يريد أن يلعب لعبة السلطان سليمان . وخلال الأيام التى تصادف عودة القانونى من حملته الهمايونية ٩ ، يوم ٢٠ ت ١ / ١٥٤١ أخذ فى إنزال قواته الصليبية من أسطوله المخيف فى خلق مرج حراش قرب ميناء الجزائر .

إن الارمادة (الأسطول) الصليبية التى يقودها أندريا دوريا تتكون من ٥١٦ قطعة بحرية ، منها ٢٧٤ سفينة حربية و ٦٥ سفينة عملاقة تبهر النظر من نوع Galerruvayyal . كان الأسطول يضم عدا الجدافة ، ١٢٣٣٠ جنديا بحريا

و ٩٠٠ ٢٣ جندى برى ، وبذلك يكون المجموع ٢٣٠ ٣٦ محارباً (أخذت هذه الأرقام عن مصادر مسيحية ، وعند كتاب جلبى ٥٠٠٠٠ محارب) استصحب كبار أشراف الأسبان ، القتلون ، الإيطاليين والألمان زوجاتهم الدوقات الماركيزات والكونتيسات وحضروا لمشاهدة انتصار إمبراطورهم الملك .

كان بيوك حسن رئيس (بك) الابن الأكبر لخير الدين باشا ، يقيم فى الجزائر كنائب للوالى (البكلربك ، الفريق الأول) برتبة لواء بحرى ، وكان بمدينة الجزائر ٦٠٠ جندىَ بحرى (لوند) تركى و ٢٠٠٠ متطوع عربى فارس ومدفعى ، و لم يكن فى ذلك التاريخ قد تأسست فى الجزائر حامية الانكشارية (أى صنف المشاة) . كان أسطول الجزائر فى البحر الأبيض . و لم يكن بإمكان القوات العثمانية الموجودة فى المدن الأخرى أن تخترق جيشا مسيحيا على هذه الدرجة من القوة وتأتى للمساعدة (Hammer ، ٥ ، ٣٤٦) . هجم فى الطليعة فى الصف الأمامى الفرسان الأسبان ملك صقلية الأمير Eernando Gonzaga و١٤٠ فارسا مالطيا و٤٠٠ مقاتل (مبارز) مالطى بقيادة الأمير Camillo Colonna . وكان كل من فاتح المكسيك وواليها العام ماركيز Hernan do Cortez Vallée d'Oaxaca (الذى كان عمره حينذاك ٥٧ سنة) وابنيه الاثنين دوق آلبا ، والجنرال فون Frundsberg (الذى يقود القوات الألمانية ، والجنرال البابوى Anguillara فى الصف الخلفى (Lavisse - Rambau ، ٤ ، ٨١٠ - ١) .

ورغم أن هذه القوات تمكنت من احتلال مرتفع قدية الصابون ، انهزمت وتراجعت أمام الدفاع الشديد يوم ٢٣ ت ١ . وقبل أن يتمكن العدو من لم شعثه ، قام حسن بك ليلة - ٢٣ - ٢٤ ت ١ بهجوم مفاجىء . قتل ٣٠٠٠ من جنود الأعداء . ونظراً لشيوع خبر اقتراب قدوم أسطول الجزائر ، أو الأسطول الهمايونى ، فقد تردد الإمبراطور وأمر الجيش بركوب السفن ، ولو أنه ثبت لأمكنه أخذ الجزائر . لم يتمكن الإمبراطور من التعرف على مبلغ قلة عدد جنود حسن بك ، وكان شعب الجزائر يضغط على حسن بك للتفاوض مع الإمبراطور كى يترك المدينة عن طريق الصلح دون قتال . حيث لم يكن قد غاب بعد عن الأذهان ماعمله شارل - كوينت بشعب مدينة تونس التى دخلها عنوة .

كان الصليبيون قد انتشروا على نطاق واسع . أمر الإمبراطور بتجمعهم فى رأس

Matifou (بالعربية : قنطرة المغرون) . صدر أمر انسحاب كافة الجنود إلى سفنهم . كان العدو ينسحب . كان من الممكن أن يسر حسن بك بانسحابهم وذهابهم ، لكنه لم يكتف بذلك . كان عازما على إعطاء الصليبيين الدرس اللازم حتى لا يفكروا بعدها فى التسلط على الجزائر . عَلم بقرب هبوب عاصفة شديدة فأراد الاستفادة من ذلك . وفى الحقيقة كانت أكثر من نصف سفن الأسطول قد رست وقعدت فى رمال الساحل . هاجمت القوات العثمانية السفن . كان الجيش المسيحى جائعا وعطشانا لسوء تنظيم مراكز التموين ، وكان ناعسا ومرهقا وفى حالة يرثى لها من أثر العاصفة . ذبح الأتراك جياد العدو التى نجت من الغرق والتى بقيت من مجموع جيادها الأصيلة ، وكان عددها ٤٠٠٠ . كان بارودهم قد ابتل ، فلم تعد أسلحتهم صالحة للإطلاق . لم يتمكنوا من إعادة نقل مهماتهم الثقيلة إلى السفن . غرق وأسر وقتل بسيف المسلمين ٢٠٠٠٠ من جنود الصليبيين . امتلأ الساحل على مدى كيلومترات بجثث العدو وأنقاض السفن اعتبارا من شرسل إلى دنيس . حصل المسلمون على غنائم كبيرة ، ووقع فى أسرهم كبار القواد ، والأمراء والأميرالات وزبدة المجتمع الأوربى من سيدات الأسبان ، والإيطاليين والألمان ، وغرقت سفينة فاتح المكسيك الدموى عديم الشرف ، طريد السجون السابق Cortez ، المليئة بالبضاعة المسروقة من الأزتك Aztek لكنه تمكن من النجاه بنفسه (Hammer ، ٥ ، ٣٤٨) .

مات غرقا أكثرية الجدافة المسلمين الأسرى فى الأسطول الصليبى . تمكن حسن بك بصعوبة من تخليص ١٨٠٠ منهم من الموت . اغتنم الأتراك (ليلة ٣١ ت ١) ١٣٠ سفينة للعدو ، كانت سفينة الأميرالية لأندريا دوريا وسفينة ابن أخيه Gianetto Doria بين السفن الغارقة (Hammer ، ٥ ، ٣٤٧) .

أركب دوريا ، شارل – كوينت على ظهر إحدى السفن بصعوبة . بكى الإمبراطور ، ولشدة تأثره ألقى بتاجه الذى يلبسه على رأسه فى البحر (Alexandre de la Borde ، ص ٨٥) . وذبح جواده الذى لايقدر بثمن وأكله . لم يتمكن حسن بك من أسر الإمبراطور لعدم كفاية قوته ، ولم يتمكن من خرق جدار الحماية الذى أحاطه به فرسان مالطة الذين دافعوا عنه بتضحية كبيرة .

أبحر القسم المتبقى من الأسطول فى ٢ ت ٢ . تمكن الصليبيون من البقاء فى

الأراضي الجزائرية مدة ١٣ يوما فقط . اطلع السلطان سليمان فى استانبول على جميع تفصيلات النصر عند عودته من حملته ٩ فى ٢٧ ت ٢ . حضر بربروس إلى الجزائر بعد الحادث بشهر واحد . ولو كان قد تمكن من الحضور قبل هذا الوقت لأمكنه أسر الإمبراطور . لقد كان اقتراب بربروس ، هو أحد أسباب اضطراب وهزيمة الصليبيين .

كان الصليبيون قد اختاروا الوقت المناسب وقاموا بهجوم مفاجىء فى الوقت الذى لم يكن فيه الأسطول موجودا فى الجزائر . لكن عزم بربروس - زاده حسن بك ، كان فائقا . ولم تتمكن أية قوة بعد ذلك من التفكير فى أخذ الجزائر حتى عام ١٨٣٠ . لواء بحرى عثمانى ، يتغلب على الإمبراطور شارل - كوينت الذى يحكم نصف العالم المسيحى . جددت هزيمة الجزائر عزم فرنسا على الصراع مع الإمبراطور . سار خير الدين باشا للحملة على فرنسا من أجل هذا الصراع ، كما سنرى فيما بعد .

(١٥) حملة فرنسا (١٥٤٣ - ١٥٤٤)

كانت ملكية فرنسا ، بتعدادها البالغ ١٥ مليونا ، أكبر المجتمعات الأوربية كثافة فى النفوس . كان فرانسوا François الأول عازما على عدم الدخول تحت نفوذ شارل - كوينت . تمكن من ذلك بمساندة العثمانية . وفى ١٨ شباط ١٥٣٦ ، وقع الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا على معاهدة الامتيازات (بالفرنسية : Capitulations) التى تحصل فرنسا بموجبها على بعض الامتيازات (هى معاهدة مساعدة ، لتنمية فرنسا عسكريا واقتصاديا والحيلولة دون وقوعها لقمة سائغة لألمانيا - أسبانيا) ، وهكذا منح الديوان الهمايونى فرنسا بعض الامتيازات التجارية التى من شأنها تقويتها ببعض الميزات التى لم يعترف بها لغيرها من الدول . كانت البندقية قد حصلت من قبل على بعض التعهدات السلطانية التى تعترف لها ببعض التسهيلات التجارية . لكن الامتيازات التى منحت لفرنسا كانت شاملة ، وأعقب ذلك تقديم مساعدة مالية كبيرة لفرنسا فى ١٥٣٦/٢/١٨ .

غادر بربروس خير الدين باشا استانبول مع الأسطول الهمايونى فى ٢٨ آيار ١٥٤٣ .

وهكذا تحقق طلب فرانسوا الأول بشأن إرسال جيش وأسطول إلى فرنسا ، وقد كان يصر على ذلك منذ سنوات عديدة مع طلباته الأخرى ، كالطلبات المالية والتجارية وفتح جبهات متعددة .

كان السلطان سليمان قد سار من استانبول بحملة استركون ١٠ قبل ٣٥ يوما .

كان الأسطول الهمايونى مكونا من ١٥٤ قطعة ويحمل عدا الجدافة ٤٤٠ ٢٩ جنديا .

جاء الأسطول إلى مضيق Messina فى ٢٠ حزيران . استسلمت مدينتا مسينا (صقلية) وريجيو Reggio (إيطاليا) الواقعتان على ضفتى المضيق دون مقاومة . دمر بربروس الاستحكامات العسكرية لهاتين المدينتين وجعلها كأن لم تكن . لم يمس الشعب واستمر فى طريقه .

قاوم القائد الأسبانى Don Diego Gaetano فى قلعة Gaeta الواقعة بين نابولى وروما . احتل الأتراك القلعة بعد أن قدموا ٣ شهداء فقط ، ولم يمسوا أحدا بسوء . كانت ابنة الدون دياغو التى يبلغ عمرها ١٨ سنة ، حسناء ، وقد اشتهرت بجمالها فى كافة أنحاء أوربا ، عقد بربروس عقدة النكاح عليها وأرسلها إلى استانبول .

احتل الأسطول بعد ذلك ميناء أوستيا Ostia الواقع على مصب نهر Tevere (بالتركية : تيبر) والذى يبعد ١٥ كم عن روما .

كان بربروس يروم الدخول إلى روما وإجراء عرض فيها . لكن السفير الفرنسى الموجود فى الأسطول ، خر على قدمى القائد البحرى ورجاه ألا يفعل ، إذ إن ذلك لايساعد فرنسا وإنما يحمل البابا على الحكم بالحرمان على مليكه .

انتقل من بحر Tiren من مضيق Bonifacio إلى غربى البحر الأبيض ، ودخل الأسطول الهمايونى فى ١١ تموز ميناء طولون قاعدة الأميرالية الفرنسية فى البحر الأبيض فى ذلك العهد ، كما هو حاليا . رفعت السفن الفرنسية الأعلام التركية وأطلقت مدافعها تحية له .

دخل الأسطول الفرنسى المكون من ٤٤ قطعة تحت امرة قائد القوات البحرية . وفى ٢٠ تموز جاء إلى مرسيليا . استقبل الأميرال الفرنسى الكبير دوق Enghien

الامير فرانسوا دى بوربون ، بربروس باسم الملك ورحب به . وفى ٢١ تموز نزل بربروس إلى البر باحتفال لايقام عادة إلا للحكام . حيث إنه كان لايزال يعتبر فى أوربا ملكا على الجزائر .

مكث بربروس ١٦ يوما فى مرسيليا وعاد إلى طولون . ذهب إلى Antibes ومنها إلى نيس . كانت نيس تابعة إلى شارل - كوينت . استسلمت قلعة نيس فى ٢٠ آب . استشهد أمام نيس ١٠٠ من جنود البحر . لم يمس الأتراك الشعب بأى أذى . سلم بربروس مفاتيح مدينة نيس إلى الفرنسيين ، وعند انسحاب الأتراك ودخول الجيش الفرنسى المدينة ، قام الجيش الفرنسى للأسف بعملية سلب فظيعة .

عاد الأسطول الهمايونى إلى طولون Toulon لقضاء الشتاء . تركت المدينة لإدارة الأتراك طيلة مدة بقاء الأسطول التركى فيها بموجب معاهدة ١٥٤٣/٩/١٦ . انسحب كافة الموظفين الفرنسيين . رفع العلم التركى فى المدينة . رفع الأذان المحمدى فى الأوقات الخمسة . جمع الأتراك ضرائب تلك السنة . وظلوا فى طولون مدة ٨ أشهر . وخلال هذه الفترة ، قصف الرئيسان صالح وبربروس - زاده كوجوك حسن ، سواحل أسبانيا وإيطاليا . غادر الأسطول الهمايونى طولون فى نيسان ١٥٤٤ . عاد بربروس من حملة فرنسا التى استغرقت سنة و٣ أشهر إلى إستانبول ولم يخرج بعدها إلى البحر .

ألقت هذه الحملة اليأس فى قلب شارل - كوينت وأجبرته على عقد مصالحة Crespy مع فرنسا ، لقد كان كل أسطول يرسو سنويا فى فرنسا يمثل كابوسا لشارل - كوينت .

وهكذا انتهى دور المساعدة العثمانية لفرنسا الذى بدأ بمراجعة الديوان الهمايونى فرانسوا الأول فى ١٥٢٥ بالكتاب السلطانى الشهير للقانونى الذى ورد فيه « أنت يافرانسيسكو Françesko ملك ولاية فرنسه ... » .

مات فرانسوا بعد قليل ، وخلفه ابنه هنرى الثانى . وتشكل المساعدات التى قدمت له المرحلة الثانية .

توفى بربروس خير الدين باشا كذلك فى استانبول يوم ٤ تموز ١٥٤٦ وعمره ٧٤ سنة أو أكبر بقليل . وترك ٣٠ سفينة حرب كبيرة من نوع كالير (galley) ،

التى أنشأها وأثثها وجهزها بدراهمه الخاصة ، للدولة كما ترك عبيده الـ ٨٠٠ الذين تربوا بصورة ممتازة - للسلطان ، وترك ٢٠٠ عبد له للصدر الأعظم داماد رستم باشا ، و١٠٠٠٠ ليرة ذهبية إلى ابن أخيه (إسحق رئيس) بربروس - زاده مصطفى بك ، و٣٠٠٠٠ ليرة ذهبية إلى أوقاف الجامع والقبر والأعمال الخيرية الأخرى التى شيدها فى بشكتاش ، وكافة أمواله وأملاكه الموجودة فى الجزائر إلى ولده وخلفه كوالٍ على الجزائر بيوك حسن باشا ، وبقية ثروته ومن بينها ١٠٠٠ عبد وجارية وسراية فى استانبول لولده الوحيد بربروس - زاده كوجوك حسن باشا (وهو صهر طرغد باشا) . ولم يدون شيئا بالنسبة لما تركه لابنته زوجة طرغد باشا ، حيث إن هذه السيدة كانت غنية جدا بفضل زوجها . وإضافة إلى ذلك ، منح لمئات من رجاله نقودا وأملاكا تؤمن عيشهم مدى الحياة . أوصى ابنه حسن باشا بعدم مطالبة رستم باشا بالدين الذى قدمه له قبل مدة والبالغ ٢١٠٠٠٠ ليرة ذهبية ، وكذا بعدم قبول المبلغ فى حالة إذا ما أراد رستم باشا دفعه .

حيا الأسطول الهمايونى أثناء مغادرته إستانبول فى كل حملة يقوم بها على مدى عصور ، قبره الكائن على ساحل البحر فى بشكتاش بإطلاق نيران كافة مدافعه . ويقام حاليا أمام قبره سنويا احتفالات بحرية .

يعتبر من أبرز الشخصيات التى تعد على الأصابع فى التاريخ التركى . إن طول عمره ، ومعيشته فى عصر علت فيه شوكة الأتراك إلى القمه خلال تاريخهم كله وسمى « العصر التركى » كالقرن ١٦ ، وكونه أخا لداهية كأوروج رئيس ، واقتفائه أثره ، ووجود حام له ذو دراية تامة كالسلطان سليمان ... كل ذلك كان عاملا فى إطلاق مواهبه وتفجرها .

(١٦) إيالة الجزائر البحرية بعد بربروس خير الدين باشا (١٥٤٢ - ١٥٦٨)

تولى إدارة شئون إيالة الجزائر البحرية خلال فترة قيادة بربروس خير الدين باشا للقوات والتى استمرت ١٢ - ١٣ سنة ، ابنه حسن بك (بيوك حسن ، حسن أغا رئيس ، بك ، باشا الأول) .

منحه الديوان على أثر انتصار الجزائر ، رتبة بكلربك (فريق أول بحرى) أى رتبة أبيه . وعند وفاة بربروس ، أصبح واليا على إيالة الجزائر بالأصالة .

وفى ١٥ ت ١٥٤٥/٢ ، أعفى الديوان الهمايونى حسن باشا الأول من وظيفته هذه وأرسل بدلا عنه من إستانبول لهذه الوظيفة ، ابن بربروس الأصغر منه سنا حسن باشا الثانى . انشغل حسن باشا الأول بالأملاك والأوقاف الكبيرة التى تركها له أبوه فى الجزائر وتوفى فى ١٥٤٩ وعمره ٥٨ سنة . استمرت ولاية حسن الثانى الأولى مدة ٥ سنوات و١٠ أشهر و٧ أيام حتى ١٥٥١/٩/٢٢ .

حاول الكونت Alkoder الموجود فى وهران احتلال تلمسان مرتين ، لم يتمكن من الحفاظ عليها . وفى هذه المرة أراد سلطان فاس أخذ تلمسان واحتلها بالفعل .

جاء حسن باشا إلى مستغانم وانتصر على جيش مولاى عبد القادر البالغ ٢٠ ٠٠٠ شخص بجيشه المكون من ٦٠٠٠ جندى تركى و ٨٠٠٠ عربى بدوى فى الموقع المسمى Rio Salado .

انسحب الفاسيون من تلمسان ، وكان أحد ملوك سلالة عبد الواد حاكما عليها بصورة رسمية . أنهى صالح باشا هذه السلالة فى ١٥٥٥ وضم تلمسان إلى الجزائر كلواء . وانتهت سلطنة بنى عبد الواد التى استمرت ٣١٩ سنة .

انتهى بذلك نظام الحماية العثمانية الذى استمر ٣٨ سنة وذلك بإلحاقها بالعثمانية بصورة قطعية . كانت هذه خطوة مهمة فى توحيد الجزائر . جاء حسن باشا إلى قبيلية وجهز القبائل البربرية عسكريا . وعلى أثر تلكئه ومماطلته فى تنفيذ الأمر الذى تسلمه من الديوان حول مساندة فرنسا لعدم ارتياحه للفرنسيين ، استدعى إلى استانبول . عين بدلا منه صالح باشا واليا (١٥٥١/٩/٢٢ - حزيران ١٥٥٦) .

قازداغلى صالح باشا ، من مواليد جناقلعة كان عمره ٦٣ سنة عندما أصبح بكلربك (فريق أول بحرى) ، وهو أميرال له شهرة واسعة فى جميع أنحاء أوربا والعالم الإسلامى . كان من معية أوروج رئيس وأول من وطئت أقدامهم شمال أفريقيا معه ، ثم أصبح خير أميرال لخير الدين باشا . حقق مع زميله طرغد رئيس (باشا) حملات بحرية موفقة جدا . نقل المهاجرين الأندلسيين مرات عديدة ، أسر كذلك مع طرغد

وبقى ٣ سنوات كجداف فى سفينة جنوية حتى خلصهما بربروس . اشتهر بذكائه المفرط ، وكان دوريا يخشاه بعد بربروس وطرغد . وعندما ولى على الجزائر ، ربط الجزائر الجنوبية بالدولة بواسطة ٤٠٠٠ جندى تركى ، ٨٠٠٠ جندى عربى تحت قيادة الأمير عبد العزيز . اجتاز جبال أطلس التل وأطلس الصحراء ونزل حتى رغله . ثم نزل إلى أقصى الجنوب وتجول فى الصحراء الكبرى . وأخضع برابرة الطوارق ، وتعد هذه الحملة من الحملات الهامة من الناحية الجغرافية (Gyver ، - Lavisse Rambaud ; Encycelopédie de L'Islam, Supplément ، ٤ ، ٨١٤) . لم يكلل بالنجاح قيامه بإرسال سنان رئيس المسن مع رمضان رئيس (باشا) الشاب إلى قابلية ورغبته فى إعدادها كلواء ، فقد عارض القابليون وأفادوا بأنهم سيدفعون الضرائب ويرسلون من يرغب من المتطوعين إلى الجيش ، لكنهم لايرغبون فى أن يرأسهم موظف عثمانى فهم قادرون على إدارة أنفسهم بأنفسهم .

وفى غضون تلك الأيام ، كان أشراف السعديين فى فاس قد أسسوا سلالة جديدة وانشغلوا بإخماد بقايا مقاومة السلالة المرينية – الوطاسية القديمة . خرج صالح باشا من مدينة الجزائر فى ت ١٥٥٣/١ . رسى بـ ٢٢ سفينة حربية فى ريف ، أى سواحل ، فاس على البحر الأبيض . كانت آثار التمرد والاعتراض التى بدت عند سقوط الوطاسيين فى ١٥٥٠ قد ظهرت بشكل واسع ، فى شمال فاس ومدينة فاس ، تجاه السعديين القادمين من الجنوب من مراكش . كان السلطان السعدى محمد الثانى ، ينتظر صالح باشا مع ٨٠٠٠٠ جندى و٢٠ مدفعا وكتيبة الحرس الخاص التى يشكلها الأتراك . لكنه ترك هذه الكتيبة فى فاس بعد أن تأكد من عدم إمكان استعمالها ضد العثمانية .

اجتاز صالح باشا ، فى الأيام الأولى من شهر ك ١ (١٥٥٣) ، الحدود العثمانية – الفاسية من تلمسان ، وتمكن بفضل تفوق مدفعيته من تشتيت الجيش الفاسى قرب تازة على مسافة ٦٠ كم شرقى مدينة فاس . لمّ محمد الثانى فلول جيشه فى ٥ ك ١٥٥٤/٢ وهجم على الباشا مرة أخرى فى الساحل الجنوبى من سبع . هزم مرة أخرى . وانتصر صالح باشا فى المعركة التى جرت فى اليوم التالى أمام أسوار فاس ودخل فاس نحو الظهر .

مكث صالح باشا فى فاس مدة ٤ أشهر حتى بداية شهر آيار . عامل الشعب بلين . أرسل زوجة محمد الثانى وحرمه إلى مراكش مكرمين معززين . دخل ريف وأخذ من الأسبان Penon وVelez (التى لازالت لدى أسبانيا) استمر حكم العثمانية فى مدينة فاس وشمال فاس لمدة ٨ أشهر و١٦ يوما . استعاد محمد الثانى فاس بعد انسحاب الأتراك فى ٢١ أيلول ١٥٥٤ .

سار صالح باشا بعد ذلك على بجاية (بالفرنسية : Bougie) شرقى مدينة الجزائر . استسلمت قلعتها التى تحتوى على ٦٠٠ أسبانى بعد قصفها بـ ١٤ مدفعا لمدة ١٢ يوما (١٥٥٤/٩/١٦) ، وترك فى بجاية على رئيس مع ٦٠٠ من جنود البحرية ، وأعلم الديوان الهمايونى فى استانبول بأنه لايمكن تأمين وحدة الجزائر مالم يتم إخراج الأسبان من وهران وطلب الموافقة والمدد لتنفيذ ذلك . أرسلت استانبول ٤٠ سفينة حربية و ٦٠٠٠ انكشارى .

سار صالح باشا إلى وهران من البحر بأسطول مكون من ٧٠ سفينة حربية ، وسار هو من البر بجيش مكون من ٤٠٠٠٠ شخص أكثره من العرب ، مات فى الطريق وعمره آنذاك ٦٨ سنة .

أرسل الديوان بربروس – زاده حسن بك للمرة الثانية من استانبول واليا (بكلربك) على الجزائر . وناب عنه لحين قدومه صالح باشا – زاده محمد بك (باشا) .

وأرسل الديوان إلى الجزائر أولوج على رئيس وأمره بإعادة الانكشارية مع الـ ٤٠ سفينة إلى استانبول ، وأبلغه بصرف النظر عن فتح وهران .

بقى محمد بك نائبا عن الوالى (الفريق الأول) ، مدة ١٤ شهرا . لم يتمكن حسن باشا من القدوم إلى الجزائر وتسلم الإدارة إلا فى آب ١٥٥٧ (تعيينه الرسمى حزيران ١٥٥٦) .

أبلغ الديوان حسن باشا بوجوب صرف النظر حاليا عن مسألة وهران وأبلغه أيضا إن سلطان فاس محمد الثانى قد عقد معاهدة مع ملك أسبانيا فيليب الثانى ضد العثمانية ، وأن هذه المسألة أكثر أهمية إذ من الممكن أن تكون وخيمة العاقبة .

أراد السلطان أن يحتل تلمسان مرة أخرى ، ولم يوفق .

سار حسن باشا إلى فاس بجيشه المكون من ٦٠٠٠ جندى تركى و ١٧٠٠٠ جندى عربى . من ناحية أخرى كانت كتيبة الحرس الخاص لمحمد الثانى مشكلة من الجنود العثمانيين بقيادة صالح كاهيه الذى كان تركيا ومن رجال صالح باشا . قتل صالح باشا وكتيبته ، محمد الثانى خارج مدينة مراكش (١٥٥٧/١٠/٢٣) ، (وكان عمره ٦٩ سنة) ، وأرسل رأسه إلى إستانبول عن طريق تلمسان والجزائر وشهّر به . كان السلطان سليمان قد غضب غضبا شديدا على محمد الثانى . حيث كانت دماء كثير من المسلمين قد سفكت فى سبيل المغرب ، ومن ثم فإن الاتفاق مع أسبانيا المتسببة فى ذلك يعتبر خيانة (L'Etablissement des , August Cour Dynasries) (des Chérifs au Maroe et Leur Rivalité avee les Tures, P . 130) .

عزز تمكن حفنة من الأتراك من قتل حاكم دولة كبيرة كفاس جلس على عرشها تلك المدة الطويلة ، بتهمة خيانته وخروجه على الإسلام نفوذ العثمانية فى المغرب تجاه المنافقين . تمكن صالح كاهيه وجنوده بعد خسائر كبيرة من التخلص من مطاردة الفاسيين والذهاب من مراكش إلى تلمسان .

وكالعادة ، بدأ النزاع على العرش فى فاس .

دخل بربروس - زاده حسن باشا ، فاس . لم يحقق الطرفان نتيجة فى حرب وادى البند الميدانية (كان جيش فاس يتكون من ٤٥٠٠٠ جندى و ٣٠٠٠٠ خيال و ١٠٠٠٠ مشاة و ٤٠٠٠ حملة بنادق ومدفعية) ، وبينما يستعد حسن باشا لهجوم جديد ، علم باستعداد الكونت Alkodet فى وهران للهجوم عليه من الخلف . كان الكونت يضفى الشرعية على حركته بإدعاء تنفيذ شروط المعاهدة المنعقدة مع السلطان المقتول .

خرج من وهران (١٥٥٨/٨/٢٢) ١٢٠٠٠ أسبانى وعدد يماثله من الجنود المحليين والمدفعيين وكان يريد تلمسان . استولى الأتراك على ٤ سفن تحمل له المهمات ، فتدهورت الروح المعنوية للأسبانيين . علم الكونت بالاستعدادات الممتازة التى أعدها أمير لواء (سنجق بك) تلمسان أولوج Uluç على رئيس (باشا) ، فغير رأيه ، وبدأ بحصار مستغانم ، ثم رفع الحصار عندما شاهد حسن باشا أمام مستغانم ومعه ٦٠٠٠ تركى و ١٦٠٠٠ عربى ، واتخذ تشكيل حرب الميدان ، إلا أن الـ ١٢٠٠٠ عربى الموجودين فى الجيش الأسبانى ، عندما شاهدوا أمامهم حسن

باشا ابن بربروس الذى لايقهر ، انسحبوا دون أن يطلقوا رصاصة واحدة .. الأمر الذى أدى إلى تقرير مصير الحرب .

تعد واقعة مستغانم الميدانية (١٥٥٨/٩/٥) إحدى الانتصارات الهامة التى أحرزها الأتراك تجاه الأسبان . مات فى ساحة الحرب ١٢٠٠٠ جندى إسبانى والكونت Alkodet العسكرى الكبير المجرب والبطل ، والكبير السن ، وأسر ابنه دون مارتن Don Martin . اشتهرت هذه الحرب بأنه لم يبق منها جندى واحد على قيد الحياة . كان شارل - كوينت فى هذه الأيام قد تخلى عن العرش ، وكان مريضا وطريح فراش الموت فى سراى الحمراء ، لم يبلغ بكارثة مستغانم لئلا تعجل بموته .

وهكذا فشلت خطة إفناء ابن بربروس والتى كانت تستهدف جعله بين نارى الفاسيين والأسبان ، وانتهت بلجوء الأسبان إلى داخل أسوار وهران .

ترك حسن باشا الذى لم يرضخ لطلبات انكشارية الجزائر (المشاة) الذين حسدوا جنود اللوند (البحرية) ، الإيالة وجاء إلى استانبول وطلب من الديوان اعفاءه من وظيفة الولاية (ت٢ / ١٥٦١) . عين أحمد باشا وأرسل إلى الجزائر . جاء إلى الجزائر بالأسطول واعتقل الانكشارية العصاة وساقهم إلى استانبول لمحاكمتهم ، لكنه توفى بأجله فى السنة التالية (ك ١ / ١٥٦٢) . عين الديوان حسن باشا للمرة ٣ على الجزائر وأمره بالتوجه إليها ، ولحين مجيئه ، أصبح يحيى رئيس الكبير السن ، وكيلا عن الوالى فى الجزائر لمدة ٣ أشهر .

جاء حسن باشا من إستانبول إلى الجزائر ترافقه ١٠ سفن حربية . سار من مدينة الجزائر (١٥٦٣/٢/٥) فى الحال بعد أن أخذ معه ١٦٠٠٠ تركى و ١٢٠٠٠ جندى قاصدا وهران . جاء أمام مياه وهران فى ٣ نيسان . كان قد استبقى أمير لواء تلمسان ريزه لى على إسكندر بك مع عدة آلاف ، فى منطقة بين الجزائر ووهران تحسباً لاحتمال حدوث إنزال من قبل الأسبان . استولى هذا الأميرال على أسطول أسبانى محمل بالإمدادات مع سفينة الأميراليه ..كان يتولى الدفاع عن حامية وهران Don Alonzo de Cordoba واخوه ماركيز كورتيس Don Martin ابنا الكونت Alkodet ، وكانا جنرالين قديرين نشآ فى شمال افريقيا .

كانت وهران التى بقيت بحوزة الأسبان منذ ١٧/ ١٥٠٩/٥ ، تبعد ٢٠٠ كم

عن ميناء المريه (Ammeria) فى أسبانيا . استمر الحصار مدة ٢٦ يوما اعتبارا من ١١ آيار حتى ٥ حزيران . جرى قتال شديد . تكبد الطرفان خسائر جسيمة . بالنظر إلى توقع مجيء أسطول (أرماده) أسبانى ، فقد قام حسن باشا بفك الحصار ، وبالفعل لم تمض ٤٨ ساعة حتى دخل وهران أسطول إسبانى مخيف .

أرسل الديوان الذى خشى من عملية إنزال أسبانية على فاس طرغد باشا مع ٦٠ سفينة حربية من طرابلس إلى سواحل ريف (فاس) . اشترك حسن باشا بعد ذلك فى حصار مالطه (١٥٦٥) ثم استدعى إلى استانبول فى شهر ك ٢ سنة ١٥٦٧ ، وعين مكانه محمد باشا ابن صالح باشا .

تبلغ مجموع ولايات حسن باشا الثلاث ١٥ سنة و ٤ أشهر . استدعى محمد باشا كذلك إلى استانبول (١٥٦٨/٦/٢٧) وعين بدلا منه أولوج على باشا . توفى حسن باشا فى استانبول وعمره ٧٢ سنة ، ودفن بجوار أبيه (١٥٧٢/٣/١٥) .

(١٧) طرغد باشا وليبيا

ولد طرغد ابن أحد الرعاة ، فى قرية تابعة للواء منتشة..(موغلة) فى سنة ١٤٨٥ . دخل البحرية كجندى بحرى (لوند) عادى فى سن مبكرة جدا تقارب سن الطفولة . وفى الوقت الذى لفت فيه انتباه السلطان قورقود ، كان شابا عمره ٢٥ سنة ملاحاً لسفينة . أصبح أولا قائدا لسفينة أوروج ثم لخضر خير الدين باشا ثم أصبح قائدا لقطعة من الأسطول . قدم خير الدين باشا – عند مجيئه إلى استانبول لتعيينه قائدا للقوات البحرية – طرغد رئيس الذى تعاظمت شهرته ، إلى السلطان كأحد أميرالاته الـ ١٩ ؛ كان عمره آنذاك ٤٨ سنة .

منح القانونى ، طرغد رئيس رتبة لواء بحرى وأصبح اسمه فى الوثائق العثمانية الرسمية (طرغد جه بك) . اشتهر على الأغلب كرئيس قراصنة . قام بإدارة القراصنة (الصاعقة البحرية) لسنوات طويلة . يلى بربروس خير الدين باشا مباشرة من حيث الشهرة ، وكان قد صاهر بربروس كذلك . نظراً لمزاجه وعدم رعايته قواعد التشريفات ، لم يحصل على رتبة قبودان دريا (مشير ، قائد القوات البحرية) و لم

يتمكن من دخول الديوان الهمايونى ، لكنه بقى محافظا على صفته كرئيس حقيقى للبحارة الأتراك . كانت قاعدته جزيرة جربة . تمكن على مر الزمن من الاستيلاء على أربعة أخماس القطر التونسى وحشر السلطان الحفصى فى مدينة تونس وضواحيها . احتل ميناء بنزرت . لكنه أولى اهتماماً خاصاً بتحصين قلعة مهدية فى الجنوب كقاعدة بحرية ، بصورة ممتازة .

كان أوروج رئيس قد فتح من قبل مدينة مهدية (مدينة العرش الفاطمية القديمة) . فشلت كل المحاولات الاسبانية - الحفصية المختلفة حتى ١٥٥٠ فى إخراج طرغد من مهدية . كان طرغد فى ربيع هذه السنة ، أولا فى خليج بلنسية Valeneia ثم فى جزر باليبر Balear . كان فى مهديه كل من عيسى رئيس ، وابن أخ طرغد حصار رئيس . شوهد عند ذاك أسطول Andrea Doria المكون من ٤٧ قطعة أمام مهدية (١٥٥٠/٦/٢٨) .

جاء دوريا إلى مهدية بعد أن أخذ مناسطر من الأتراك ومعه جيش بقيادة نائب الملك فى صنقلية Don Juan de Vega ، وكان السلطان الحفصى قد انضم كذلك إلى هذا الجيش . أما حامية عيسى رئيس فقد كانت تتكون من ٢٣٠٠ جندى بحرى تركى و٥٠٠٠ خيال عربى . أطلقت مدافع الأعداء حتى ٢٦ آب ٧٠٠٠ قذيفة . كان يوم ١٠ أيلول اليوم ٤٣ من الحصار . كانت قد انفتحت ثغرات واسعة . دل إبراهيم برات من تجار المهدية المشهورين الصليبيين على أماكن الأسوار التى تركها الأتراك مفتوحة ، لقاء دراهم . دخل العدو إلى القلعة وذبح وقطع المسلمين . أسر عيسى رئيس مع حفنة من بقايا جنوده . كان هو و٧٠ من جنود بحريته جرحى (سيتخلصون من الأسر بعد مدة عن طريق المبادلة) . أخذ الصليبيون سكان المدينة البالغ عددهم ٧٠٠٠ كعبيد . أدرك الأسبان بعد ذلك عدم إمكان احتفاظهم بمهدية ، فهدموا القلعة من أساسها فى بداية سنة ١٥٥٤ وانسحبوا . تأثر الديوان الهمايونى من سقوط مهدية وأرسل إلى شارل - كوينت رسالة شديدة اللهجة . أجاب الإمبراطور بأن حربه ضد قرصان وليست ضد الأتراك .

وحتى يمكن القبض على طرغد قرر دوريا ضرب جربة . جاء إلى جربة مع ١٥٠ سفينة . أنزل طرغد أسطوله بواسطة مزالق مدهونة إلى الطرف الآخر من الجزيرة ولم يقبض عليه (Hammer ، ٦ ، ١٧٩ - ٨٠) .

استدعى الديوان فى ربيع سنة ١٥٥١ ، طرغد بك مع عقدائه السبع البحريين (قبودان) إلى استانبول وكان من بينهم بربروس ـــ زاده غازى مصطفى بك (ابن شهيد إسحق رئيس) وألوج (قيليج) على رئيس باشا) .

الذى أصبح فيما بعد قائدا للقوات البحرية وواليا على الجزائر . أعطيت لأمر طرغد بك ٩٠ سفينة حرب وعدد مماثل من سفن النقل . جاء طرغد إلى صقلية على رأس الأسطول الهمايونى . أنزل إلى البر ١٥٠٠ من جنود البحرية واحتل ميناء Augusta على مقربة من شمال سيراقوسا Siracusa بعد مقاومة استمرت يومين . انهزمت القوات الصقلية التى جاءت بقيادة Don Hernan do Vega . كانت خسائر الأتراك ١٠٠ شهيد و ١٤ أسيرا . جاء الأسطول الهمايونى إلى مالطة (١٥٥١/٧/١٦) حيث أنزل الجنود فيها وخربها ، وتم الاستيلاء على جزيرة Gozo وأسر كافة سكانها (٧٠٠٠ شخص) ، وأركبوا البواخر ووضعت فى الجزيرة حامية عسكرية .

وهكذا بقيت جزيرة غوزو الملاصقة لمالطة بيد الأتراك فترة طويلة (Histoire de Malte , J.Godeehot ، ص ٤٦) . هبت عاصفة شديدة وأغرقت ٨ سفن من الأسطول الإسبانى الذى جاء للمساعده كما غرق ١٥٠٠ إسبانى قرب جزيرة لامبيدوسا .

جاء طرغد بك من مالطة إلى طرابلس الغرب .. فى ذلك العهد كانت السفينة تستطيع أن تجتاز تلك المسافة فى الأجواء الطبيعية خلال ٣٠ ساعة . كان كامل ليبيا تقريبا بما فى ذلك بنغازى (برقة Sirenaika) تحت سيطرة الأتراك ، إلا أن البلدة الرئيسية للقطر ميناء طرابلس الغرب والمناطق المجاورة لها ، كانت لدى المسيحيين منذ ١٥١٠ وهى الآن لدى فرسان مالطة (من المعلوم أن الفرسان من ألد أعداء المسلمين) كان الأتراك قد أسسوا قاعدة فى تاجوار تبعد مسافة ٢٠ كم عن طرابلس . كان مراد آغا وحفنة من جنوده يحاولون منذ سنين منع الفرسان من النفاذ إلى المناطق الداخلية من البلاد وارتكاب المظالم ، ولم يكن الفرسان قد تمكنوا من إخراج مراد أغا من تاجوار .

أنزل طرغد بك ٤٠ مدفعا و ٦٠٠٠ جندى . واستولى من الفرسان على طرابلس ، (١٥٥١/٨/١٥) وأخرجهم منها . دافع عن القلعة الفرنسى Gaspard de Vallier ومعاونه Desroches . كانت مساعدة العرب المحليين للأتراك كبيرة .

أصبح مراد آغا ، أول وال (فريق أول) على أيالة طرابلس البحرية ، وأصبحت طرابلس ، هى الأيالة البحرية (بالفرنسية : Province maritime) الثانية للدولة العثمانية بعد الجزائر وستكون تونس الأيالة الثالثة . كان مراد باشا قد خدم فى تاجوار وقام بصيانتها بصبر مدة ٣١ سنة منذ ١٥٢٠ . بقى واليا عليها حتى وفاته فى ١٥٥٦ . قاد جيشا إلى فيزان (فزان) ، وأخذ المناطق الجنوبية حتى جبال Tlbesti وضمها إلى الإدارة العثمانية وأخضع الملكيات الزنجية فى الجنوب وأدخلها تحت النفوذ العثمانى . غطى النفوذ التركى المناطق التى تتعدى بكثير بحيرة جاد .

على الرغم أن طرغد بك هو فاتح الأيالة ، لكنه أصبح ثانى وال عليها . وهكذا رقّى إلى رتبة بكلربك بحرى أى فريق أول بحرى فى ١٥٥٦ وعمره ٧١ سنة . حكم ليبيا مدة ٩ سنوات حتى وفاته . كان يدير خلال قيامه بواجب الولاية أربعة أخماس ليبيا .

قاد طرغد بك الأسطول إلى إستانبول . ذهب إلى مركز لوائه بروزة Preveze . أقلع منها بأسطول مكون من ١١٢ قطعة . رسى فى ميناء Pozzuoli ضاحية نابولى الغربية . كان السفير الفرنسى d'Aramont يرافقه فى الأسطول . كلف طرغد بك بمهمة الدفاع عن فرنسا ومساعدتها بسبب إعلان شارل - كوينت الحرب على فرنسا مجددا فى ١٥٥١/٩/٢٨ . كان طرغد بك يكره الفرنسيين بسبب نكثهم المتكرر لعهودهم . سار دوريا إلى طرغد . تقابل الأسطولان بالقرب من جزيرة Ponza فى مياه خليج Gaeta (١٥٥٢/٨/٥) . انسحب دوريا بعد أن عجز عن حماية ٧ من سفنه انتقلت لحوزة طرغد ، هذا عدا السفن الغارقة . يعد انتصار بونزا هذا ، أحد أهم إنجازات طرغد . احتل جزيرة كابرى المواجهة لنابولى (Sorrento) بعد أن سيطر على بحر Tiren مدة شهرين .

غادر طرغد بعد أن قضى الشتاء فى إستانبول مع ٤٥ قطعة من السفن فى ١٥٥٣/٦/١٥ . كان هنرى الثانى يعترف بالبادشاه كإمبراطور أوروبا الأوحد وسيده المبجل بموجب معاهدة إستانبول فى ١٥٥٣/٢/١ . وكان يضع الأسطول الفرنسى رهنا لتركيا فى مقابل المساعدات البحرية التركية ، (تترك فرنسا أسطولها إلى تركية فى حالة عدم تسديدها مصاريف الحملة البحرية) نص المادة الخاصة بذلك فى المتن الفرنسى من المعاهدة :

engagés en neantissement de la somme précitée, Jusque'a ce que cette derniére somme soit payéa a l'Amiral du Grand - Seigneuv يقول هنرى الثانى فى رسالة منه إلى السلطان سليمان : « لم يبق لدى فرنسا أى أمل فى المساعدة من أى مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم ؛ حيث إن حضرة سلطان العالم قد قدم من قبلُ مساعداته لمرات عديدة . إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سوعدت بمقدار من النقود والبضاعة . ستطبق شهرة الكرم التركى العالم أجمع ، إن مثل هذه المساعدة تعتبر لاشيء بالنسبة إلى سلطان العالم » .

وبعد أن ضم طرغد بك الأسطول الفرنسى الموجود فى Modon (Mora) وارتفع عدد سفنه إلى ١٥٠ قطعة ، أنزل جنودا فى كاتانيا (المدينة الثانية فى صقلية) ، وكذلك أنزل جنودا فى Bastia مركز كورسيكا . واستولى على المدينة والقلعة (١٥٥٣/٨/١٧) . أبيد جيش العدو المكون من ٧٠٠٠ شخص . قاوم Bonifacio مدة أسبوع ، ثم فتحت . انتقلت الجزيرة لحوزة الأتراك . تم تخليص ٧٠٠٠ أسير مسلم كانوا فى الجزيرة . عاد طرغد إلى استانبول بعد أن سلم إدارة كورسيكا بأمر الديوان إلى الفرنسيين .

لم يتمكن الفرنسيون من الحفاظ على كورسيكا أمام أسبانيا . جاء أندريا دوريا فى الأشهر الأخيرة لسنة ١٥٥٣ وأخذ الجزيرة من الفرنسيين . تأخر استرداد الفرنسيين للجزيرة مدة ٢٠٠ سنة . كانت الجزيرة التى ينطق شعبها الإيطالية – ولازالت كذلك – من أملاك الجمهورية الجنوية وكانت الجمهورية تحت حماية أسبانيا .

(١٨) قيادة القوة البحرية لبيالة باشا (كانون الثانى ١٥٥٤)

عين بيالة بك خلال هذه الفترة قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (قبودان دوريا) برتبة لواء بحرى . كان عمره ٣٨ سنة . خرج بالأسطول الهمايونى فى صيف ١٥٥٤ إلى البحر الأبيض . كان عليه بموجب أمر الديوان أن يفتح كورسيكا للمرة الثانيه ويسلمها إلى الفرنسيين . كانت فرنسا قد اراقت الكثير من ماء وجهها فى هذا السبيل . أخذ لأسطوله طرغد بك ثم والى الجزائر صالح باشا . والتأم بأسطول

البارون de la Garde الفرنسى . رسى فى ميناء Piombino الإيطالى . أنزل إلى البر فى كورسيكا ٣٠٠٠ جندى . حاصر Calvi . لكنه غضب على الفرنسيين ورفع الحصار . وجلى عن كورسيكا ، ولم يتمكن الفرنسيون من أخذها .

خرج بيالة باشا فى السنة التالية بأمر الديوان لمساعدة فرنسا كذلك (١٥٥٥/٦/٢٦) . التقى بطرغد بك . احتلا Reggio . ذهب طرغد رئيس حتى إسبانيا . عاد بيالة بك الذى لم يعثر على دوريا إلى استانبول .

وفى السنة التالية ، سار بيالة باشا من استانبول فى صيف سنة ١٥٥٦ بـ ٤٥ سفينة حربية . ذهب إلى الجزائر ثم عاد . وفى ١٥٥٧ ، سار بحملة بحرية قوامها ٦٠ سفينة حربية . لم يتمكن من العثور على دوريا كذلك ، رفع الراية وقام بعرض فى البحر الأبيض . استقال أندريا دوريا الذى تقدم فى السن ، والذى تأثر كثيرا لتخلى شارل – كوينت عن العرش ، من قيادة القوة البحرية الأسبانية وانسحب إلى قصره الكبير فى جنوه . عين لقيادة القوة البحرية الأسبانية ، ابن أخيه Gian Doria .

وفى صيف سنة ١٥٥٨ ، سار بيالة بك ، مع طرغد باشا بأسطول مكون من ١٥٠ قطعة . احتل كامل جزر بالير . عقدت إسبانيا التى لم تقدر حتى على صيانة جزر بالير معاهدة صلح Chateau - Cambrésis مع فرنسا فى ١٥٥٩ . رقى بيالة بك عند عودته من هذه الحملة إلى رتبة فريق أول بحرى . وفى صيف ١٥٥٩ خرج بيالة باشا مع ٩٨ سفينة حربية وجاء إلى آفلونيا ودخل البحر الأدرياتيكى . رفع الراية وقام بعرض فى تلك البحار .

(١٩) انتصار جـربة (١٥٦٠/٥/١٤)

كانت أسبانيا مضطرة لإثبات وجودها ، ومن ثم فقد اختارت طرغد باشا وقاعدته الرئيسية جزيرة جربة هدفا لها . أرسل طرغد باشا فى شباط ١٥٦٠ أمير لواء (والى) صيغلة (أزمير) الذى يرافقه ، اللواء البحرى أولوج على رئيس (قيليج على باشا) إلى الديوان فى استانبول ، وأخبرهم بأن المسيحيين قد جهزوا تحت إمرة أسبانيا أسطولا هائلا ومن المحتمل أن يكون هدفهم جربة .

كان هذا الأسطول ، أعظم أسطول جهزوه منذ بروزه يتكون من ٢٠٠ سفينة حربية ، تحمل ٣٠٠٠٠ جندى . كان الأسطول بقيادة Gian Andrea Doria ، وكانت القوات البرية بقيادة نائب الملك فى صقلية Don Juande la Cerda (دوق Medinaceli) ، والأسطول البابوى بقيادة الأمير Flamino Orsini ، والأسطول الفلورنسى (توسكانا) بقيادة الأمير Andrea Gonzag . اشتركت فى الأسطول سفن ألمانية ، ومالطية ، وجنوية ، وحتى سفن موناكو . غادر الأسطول صقلية (١٥٦٠/٢/١٠) ولم يتمكن لسوء حالة الجو من التجمع ولم يتمكن من الوصول إلى جربة ، إلا فى ٢ أيار وأنزل جنوده فى الجزيرة حتى ٧ من أيار . كان فى جربة ١٠٠٠ جندى بحرى ، قاوموا ٥ أيام وانسحبوا إلى طرابلس . أخذ الأسبان الجزيرة وشيدوا فيها قلعة عظيمة . وضعوا فيها ٢٢٠٠ جندى بقيادة Don Alvaro de Sandi .

جهز بيالة باشا الأسطول ، على إثر إرسال أولوج على رئيس مع سفينتين حربيتين إلى استانبول من قبل طرغد باشا . كان الصليبيون يريدون الحملة على طرابلس الغرب واحتلالها . وبينما هم على وشك المغادرة ، آثروا انتظار الأتراك فى جربة عند سماعهم خبر حركة الأسطول الهمايونى . كان بيالة باشا قادما مع ١٢٠ سفينة . إن قدومه بمثل هذا العدد من السفن بينما يملك العدو ٢٠٠ سفينة ، يدل على مبلغ اعتماده على سفنه وجنوده . لكنه أضاف فى الطريق إلى الأسطول ٦ سفن حربية و ٢٤ سفينة نقل . تم إبلاغ كل من طرغد باشا فى طرابلس وحسن باشا فى الجزائر بأن يكونا على استعداد . جاء بيالة باشا إلى مالطة خلال ٣٣ يوما ومنها إلى جربة خلال يومين ورسى على بعد ٣ أميال منها .

اتفقت آراء أمراء البحر فى المجلس الحربى (العسكرى) على تطبيق خطة بربروس التى استعملها فى بروزه . كان قائد الجناح الأيسر ، أمير لواء(والى)صيغلا (أزمير) اللواء البحرى أولوج على رئيس (قائد القوات البحرية وناظر البحرية قيليج على باشا فى المستقبل) ، ويقود الاحتياط سيدى على رئيس . كان عمر طرغد باشا آنذاك ٧٥ سنة ، وبيالة باشا ٤٥ سنة ، وسيدى على رئيس ٥٣ سنة . كان قادة الأساطيل الخفيفة أمير لواء ميديللى اللواء البحرى المسن قورد أوغلو الدين مصطفى رئيس (كان قد أصبح قائدا للأسطول قبل ٣٩ سنة فى حملة القانونى على رودس) ، أخيه

أمير لواء رودس اللواء البحرى قورد أوغلو أحمد رئيس ، أمير لواء كاراسى (بالكسرة) اللواء البحرى غضنفر رئيس .

من الملفت للنظر أن أمراء البحر كانوا مسنين وبحارة قدماء ، ولكن يبدو أن الدهاء البحرى التركى فى النصف الثانى من القرن ١٦ – ولو أنه لا يتضح فى تلك الأيام ـــ كان قد بدأ يدخل مرحلة توقف ويحتمل مرحلة ضمور .

جرت حرب جربة البحرية ، بعد بروزة بـ ٢١ سنة و٧ أشهر و١٦ يوما . جرت فى صباح يوم ١٤ أيار ١٥٦٠ ، على مسافة من جزيرة جربة وهى إحدى أكبر المعارك البحرية فى التاريخ العالمى . انهزم الصليبيون خلال ساعات عديدة . كان تكتيك الحرب التركى سليما خاليا من العيب وخارقا للعادة . قتل أو غرق أو أسر ٢٠ ٠٠٠ جندى من جنود الصليبيين الـ ٣٠ ٠٠٠ عدا الجدافة . أسر كثير من الأشراف وأمراء البحر والجنرالات . قتل الأمير Orsini . غرقت ٧٠ سفينة صليبية . انتقلت لحوزة الأتراك ٢١ سفينة حربية ، ٢٦ سفينة نقل . وأصيبت معظم السفن الأخرى . كانت خسائر الأتراك قليلة كما فى بروزة بشكل مدهش ؛ عدد الشهداء أقل من ١٠٠٠ وغرقت بضعة سفن تركية فقط .

كانت معركة جربة ، أكبر معركة بحرية جرت فى البحار المفتوحة انتصر فيها الأتراك بعد بروزة على مدى التاريخ التركى . كان دوريا وعمره ٩٤ سنة فى قصره الكائن فى جنوة ينتظر خبر انتصار ابن أخيه الصغير . وعندما علم بخبر الهزيمة ، بات طريح فراش الموت . مات فى ١٥٦٠/١١/٢٥ . جرت فى أيام ١٦ و ١٧ أيار حركات مطاردة ناجحة جدا . تولاها طرغد باشا الذى جاء من طرابلس بعد إحراز النصر مع ١٢ سفينة حربية .

ومع أن الديوان قرر إعطاء الباشا رتبة وزير (أميرال – كبير) ، لكن السلطان سليمان لم يصادق على هذا القرار قائلا : إنه نال رتبة فريق أول بحرى قبل سنتين وإنه سوف لا تبقى للرتب قيمة إذا ما نالها الضابط بهذه السرعة . لكنه كافأ بيالة باشا شخصيا بتزويجه حفيدته . إن الرتب التى لم يفرط السلطان سليمان فى منحها إلى الباشا بربروس خير الدين ، طرغد ، بيالة ، سوف تمنح بعد مدة قصيرة وبعد جيل واحد إلى العسكريين ورجال الدولة الذين لم يحققوا واحدا على المئة من

الإنجازات التى حققها هؤلاء . هنأ السلطان سليمان كلا من بيالة باشا وطرغد باشا بكتاب سلطانى مستقل .

طوق بيالة باشا وطرغد باشا قلعة جربة بـ ١٤٠٠٠ جندى من البر وبالسفن من البحر . كان قد تجمع فى القلعة الصليبيون الذين لجأوا مؤخرا و ٨٠٠٠ من الجنود المسيحيين ، كانوا قد تلقوا أمراً من فيليب بعدم ترك القلعة قبل أن يموت آخر جندى . دام الحصار ٦٣ يوما واستسلمت القلعة فى ١٥٦٠/٧/٣٠ . أطلق الأتراك خلال هذه المدة ١٢٠٠٠ طلقة مدفع وأكثر من ٤٠٠٠٠ سهم . لقد كانت هذه المعركة إحدى معارك التاريخ الدموية ، وكانت فى هذه الفترة قد انقلبت الحرب من حرب قلاع إلى حرب آبار المياه الإرتوازية ، فالطرف الذى يحوز الآبار يكون هو الطرف المنتصر . تمكن أولوج على رئيس من حيازة بئر واحدة فقط بعد قتال دموى شديد ، وظلت البقية لدى الأسبان . كان الأتراك لايجدون الماء بدرجة كافية ، أما المسيحيون فلم يكن لديهم أى مصدر للمياه عدا الآبار . شوهد أسبان جنوا يلجأون من شدة العطش إلى الأتراك . استشهد وجرح بجراحات بليغة ٧ قواد سفن (قبطان) برتبة عقيد بحرى دفعة واحدة ، أمام بئر واحدة . اقتربت الخنادق من بعضها إلى درجة أن الأتراك والأسبان كان يكلم بعضهم بعضا من أماكنهم ، أبدى الدون آلفارو شجاعة بحيث اقترب من سرادق طرغد باشا . نفذ توصية مليكه ؛ فلم يبق عند سقوط القلعة ، شخص واحد حى من جنود الأسبان الذين كان عددهم ٨٨٠٠ . عندما أسر دون آلفارو لوحده ، كان قد اقترب إلى مسافة بضعة أمتار من سرادق طرغد باشا .

كان دون آلفارو قد اشتهر بمعاملته السيئة للجدافة المسلمين ، ولذلك فقد حاول الذين كانوا أسرى وجدافة تمزيقه . جعل دورمش رئيس ربان سفينة الأميرالية (القيادة العامة) لبيالة باشا من جسمه سدا لجسم الأميرال ونجاه من الموت . سيق دون آلفارو مع عدد كبير من أمراء البحر والجنرالات الذين أسروا إلى إستانبول .

قدم الأتراك فى محاصرة قلعة جربة نحو ١٠٠٠ شهيد أكثرهم من الضباط . جرح كل من ابن اخت طرغد إلياس رئيس ومساعده محمد رئيس بجراحات بليغة . جاء بيالة باشا وطرغد باشا إلى طرابلس بعد تحصين القلعة ، مكثا فيها ٣ أيام وغادرا سوياً فى ١٠ آب . احتفل الأسطول بعيد الأضحى فى بروزة Preveze . دخل

الأسطول الهمايونى استانبول فى ٢٧ أيلول (١٥٦٠) . كان الشعب قد تكدس على السواحل ، أما الخاقان فكان مع الوزراء والسفراء الأجانب فى قصر المراسم . حى الأسطول الخاقان ، بإطلاقه نيران مدافعه .

اعتبر الاشتراك فى حرب جربة ، شرفا كبيرا بين جنود البحرية كما كان الحال فى حرب بروزة Preveze . والجنود الذين اشتركوا فى كليهما ، اعتبروا أبطالا ذوى امتياز كبير .

قام بيالة باشا فى ذكرى الحملات للسنوات ١٥٦١ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٣ بعرض فى البحر الأبيض ورفع الراية . وفى ١٥٦٤ ، جاء إلى الريف (سواحل فاس فى البحر الأبيض) . كانت أسبانيا قد شيدت خلال ١٥٦٠ ــ ٦٥ بعد تضحيات كبيرة ٥٠ سفينة حربية وجهزتها . كانت بذلك قد عوضت خسائرها فى جربة . فتح بيالة باشا عدة قلاع قرب نابولى وسلمها إلى الفرنسيين لكنهم لم يتمكنوا من الحفاظ عليها (Von Hammer ، ٦ ، ٤٩٣) .

تعاظم نفوذ العثمانية فى هذه الأيام فى ريف وشمال فاس . كان بعض الزعماء الفاسيين ، وأمراء أسر الشريف ، وحتى بعض السلاطين قد اعترفوا بنفوذ الخليفة وبدأوا بالتعاون مع العثمانية . لكن بعضهم كان لايزال يعقد مع أسبانيا اتفاقيات معقدة لاتتفق والعقل السليم ، بأمل التغلب على صراعات الأسر والعثمانية . لم يكونوا قد أدركوا بعد أن الإمبراطورية العثمانية ، دولة إسلامية . كانوا يخشون من مجىء العثمانية وإلغائها الامتيازات الإقطاعية التى يتمتعون بها .

كان بيالة باشا قد عين قرة مصطفى رئيس فى جزيرة Penon do Velez التى تبعد ١٠٠ كم عن أسبانيا (الأندلس) وجعلها مقراً له . كانت تطوان وكذلك صافى فى الأطلسى تحت نفوذ الأتراك ، أسسوا فى كل منها أساطيل للقراصنة المجاهدين . وبناء على ذلك كان اجتياز مضيق جبل طارق إلى البحر الأبيض أو العكس ، يشكل مشكلة بالنسبة للأسبان . احتل جيبون دوريا Penon de Velez فى ١٥٦٤/٨/٣١ بـ ٨٩ سفينة حربْ و ٢٠٠٠٠ جندى . كان مصطفى رئيس فى تطوان . لم يتمكن الأسبان من المجىء إلى تطوان التى تقع فى الداخل وعلى مسافة ليست بعيدة عن الساحل . لكن Penon de Velez بقيت لدى الأسبان حتى يومنا هذا .

كان ينوب عن طرغد باشا فى طرابلس (ليبيا) ، خلال وجوده فى الحملات وفى استانبول ، محمد باشا الذى قام بهذا الواجب مدة ٢ سنة ، ٧ أشهر ، وعند وفاة طرغد أصبح تلميذه أولوج على باشا واليا (بكلربك) لمدة ٥ أشهر ، ثم جاء والى لواء رودس البحرى يحيى رئيس وحكم الايالة لغاية ١٥٧١/٣/٢٨ بلقب يحيى باشا .

(٢٠) حملة مالطه (١٥٦٥)

أقام فرسان الطريقة العسكرية Saint - Jean الذين تركوا رودس فى الأسبوع الأول من سنة ١٥٢٣ فى جزر مالطة و Gozo التى منحها إياهم شارل ــ كوينت فى ١٥٣٠/١٠/٢٥ .

كان تعداد سكان مالطة ٩٠ ألفا وغوزو ٧ آلاف . ظلت جزيرة غوزو تحت نفوذ الأتراك مدة طويلة (١٥٣٠ ــ ٦٥) ورغم أنهم كانوا يقصفون مالطة فى كل سنة تقريبا ، إلا أنهم لم يتمكنوا من زحزحة الفرسان منها . وقد راجع طرغد باشا ، الديوان مرات عديدة لفتح مالطة وإخراج الفرسان الذين سفكوا دماء كثير من المسلمين من الجزيرة .

كان الأستاذ الأعظم (grand - maître) أى رئيس الدولة فى تلك الفترة ، فرنسى من إقليم بروفانس Provence اسمه De la Valette Parisot . ولد فى سنة ١٤٦٤ ، وانتسب إلى فرسان مالطة عام ١٥١٥ وعمره ٥١ سنة . كان موجودا فى فتح القانونى لرودس فى ١٥٢٢ وكذلك عند الانتقال إلى مالطة فى سنة ١٥٣٠ . جدف كأحد الجدافة المسيحيين الأسرى سنوات عديدة فى سفينة عبد الرحمن رئيس ، ثم تخلص من الأسر ، أوقف حياته لمقاتلة طرغد باشا ، كان يجيد ٥ لغات أوربية ، كما كان يجيد التكلم باللغة التركية ويتكلم أيضا قليلا من العربية .

كانت جزر Lampedusa و Linosa بحوزة الأتراك . ورغم جهود La Valett الذى انتخب أستاذا أعظم فى ١٥٥٧/٨/١٧ فإنه لم يتمكن من إخراج الأتراك من هذه الجزيرة الصغيرة . تنبأ لافاليت منذ سنوات بأن العثمانية لابد وان تقوم إن عاجلا

أو آجلا بحملة كبيرة جدا على مالطة ، ومن ثم فقد استعد وجهز الجزيرة بتحصينات تفوق تحصينات رودس وسدود وأنفاق يتاه فيها وجعل منها عش صقر داخل صخور . راجع لافاليت الذى أرهقته غارات الأساطيل التركية المتكررة فى كل سنة ــ إسبانيا قائلا إن قطعة الصخرة هذه لا تستأهل كل هذه التضحية ، وأنه يجب إخلاؤها وتركها على شكل تلال صخرية ليحتلها الأتراك ، وأن يأخذواهم جزيرة كورسيكا الأفضل صيانة فى الشمال . وافق فيليب . لكن جمهورية جنوة استرحمت الملك فعدل عن قراره ، فلم يكن على لافاليت بعد هذا ، سوى الدفاع عن مالطة مهما كلفه الأمر .

يتكون الأسطول الهمايونى الذى سيقوده بيالة باشا من ١٣٠ سفينة كبيرة وسفينة حرب و ١١ كاليون (سفينة حرب شراعية) ، ٣ سفن من نوع قرة مرسل ، ٥٠ سفينة نقل . كان الذى سيقود القوات البرية التى ستنزل فى جزيرة مالطة ، الوزير ٥ اسفنديار أوغلو ــ سلطان زاده مصطفى باشا . حمل الأسطول عدا الجدافة ، ١٣٠٠٠ جندى بحرية ، ١٦٠٠٠ جندى مشاة (٤٥٠٠ انكشارى ، ٣٥٠٠ سباهى روملى ، ٨٠٠٠ سباهى أناضولى) ، ١٧٥ مدفع حصار ، ٢٠ . ٠٠٠ قنطار بارود ، ٤٠ . ٠٠٠ طلقة ، ١٠ . ٠٠٠ معول ، ١٠ . ٠٠٠ مجرف ومهمات أخرى تعادلها فى العدد .

كان مصطفى باشا ، وعمره ٧٠ سنة ، هو ابن عمة السلطان سليمان ، لايفهم الأمور البحرية ، مغرور عنيد ، لكنه كان عسكريا بطلا برتبة مشير (مارشال) . لم ينسجم مع بيالة باشا الذى يقود أسطولا يجدفه ٧٠٠٠ جداف (فورصة = أسرى مسيحيين) ولامع طرغد باشا الذى عين مستشارا له وأمره الديوان الأيحيد عن توصياته . كان لدى لافاليت ١٠٦٥٠ جنديا يعتبرون من أجود محاربى ذلك العصر فى العالم المسيحى ،كما كان يعتمد من ناحية أخرى ، على الشعب كله الذى يستتر وراء الصخور ويدافع .

وصل الأسطول الهمايونى الذى غادر استانبول بعد أن حيا قبر خير الدين باشا بمدافعه فى ١٥٦٥/٤/١ إلى مالطة فى ١٩ وأنزل فى الجزيرة ٢٠ . ٠٠٠ جندى خلال ٤٨ ساعة . كان صالح باشا ــ زاده محمد بك (باشا) قد أجرى فى وقت سابق

استطلاعاً من البحر ومن المعروف أن الجزيرة بقيت تحت سيطرة العرب المسلمين خلال ٨٢٤ ــ ١١٢٧ والشعب يتكلم لغة ممزوجة بالعربية .

أدى تأخر مجيء طرغد فى ٢ حزيران بصحبة ٢٣ سفينة حربية و ٢١١٠ من مشاة البحرية (عزب) ، وحالة بيالة النفسية غير الهادئة إلى ارتكاب مصطفى باشا أخطاء تكتيكية . جرى قتال دموى رهيب . أصيب طرغد باشا فى الهجوم ٦ بشظية فى رأسه ، وجرح بصورة بالغة ، واصطبغت لحيته البيضاء بلون أحمر قانىء . جاء فى الحال كل من مصطفى باشا ، وأقرب صديق له محمد باشا ابن المرحوم صالح باشا ، وتلميذه المحبوب أولوج على بك . تلا مصطفى باشا القرآن ، ومات شهيدا بعد عدة ساعات ، كان عمره ٨٠ سنة . تقرر نقله إلى طرابلس التى خلصها أولوج على بك وطرغد من ظلم المسيحيين حيث دفن هناك وشيد له قبر فيها . يطلق على الموقع الذى استشهد فيه الباشا حاليا اسم Pointe Dragut (رأس طرغد) . كانت الطلقات التى أطلقت على قلعة مالطة خلال محاصرتها ومايماثلها من الحاجيات التذكارية ، يلتقطها السياح من الأرض ويأخذونها معهم للذكرى . يكتب الأميرال Stanley Lone-poole : « كان طرغد على مستوى بربروس من حيث إمارة البحر ، ويفوق دوريا » .

ومع أن قلعة Sant'Elmo سقطت فى ١٥٦٥/٦/٢٣ إلا أن القلعة الأصلية قاومت . كلفت هذه القلعة الأتراك ٦٠٠٠ مابين شهيد وجريح . رمى لافاليت ١٠٠٠ مسلم من الأسرى أمام الأتراك بعد أن قطعهم إربا إربا . وخلال ذلك ، كان أسطولا صليبيا مكونا من ١٠٠ قطعة قد تجمع فى صقلية بهدف إنزال قوة فى مالطة ، دون أن يهاجم سفن بيالة باشا البالغة ٢٣٦ سفينة .

شرع فى محاصرة القلعة الأصلية فى ١ تموز . مضى شهر تموز تحت أشعة الشمس المحرقة وعلى الصخور أو بداخلها ، فى قتال دموى رهيب بالنسبة للطرفين .

اعتبار من ٢ آب ، بدأ صالح باشا ــ زاده محمد بك (باشا) فى قتال الألغام (أنفاق تحت الأرض) ، وفى ٧ آب هجم مصطفى باشا بـ ٢٢٠٠٠ جندى دفعة واحدة . استمر هذا الهجوم ٨ ساعات . احتل محمد باشا برج Castilla . واعتقد أن القلعة قد سقطت ، لكن لافاليت ، انقذ الموقف نحو الليل . وفى الأيام ذاتها

وصلت أخبار بأن ٢٠٠ جندى مسيحى تمكنوا من التسلل من صقلية إلى مالطة وأن ذلك سوف يستمر ولايمكن منع تكرره . أبلغ حسن باشا ابن بربروس خير الدين باشا ، القائد العام بالقيام بهجوم آخر تحت قيادته هو فإن لم يوفق فإن رفع الحصار يكون أوفق ، إذ سوف لايمكن الاستمرار على القتال مالم تصل إمدادات من الجزائر واستانبول ومالم يؤخذ بعين الاعتبار قضاء الشتاء فى مالطة .

رفع الحصار فى ٨ أيلول وتحرك الأسطول الهمايونى من مالطة فى ١١ أيلول . شحت المؤن لطول فترة الحصار . قدم الأتراك ٨٠٠٠ جندى بين شهيد وجريح ومريض وأسير ، وأصبح عدد الجند الباقين غير كاف للاستمرار فى حصار يؤمل منه النجاح . تحرك حسن باشا متوجها إلى طرابلس مع أسطوله يرافقه جثمان طرغد باشا وكذلك أولوج على باشا الذى عين مكانه واليا . عاد مصطفى باشا بأسطول خفيف إلى استانبول . تجول بيالة باشا مع القوات الأساسية عدة أشهر أخرى فى البحر الأبيض وإيجه . تحسبا لاحتمال قيام المسيحيين بحركة نتيجة عدم التوفيق فى مالطة . مات كذلك فى حصار مالطة أكثر من ٨٥٠٠ جندى مسيحى ، كما قتل ٢٦٠ من فرسان مالطة من جملتهم البالغة ٥٠٠ كلهم من الأشراف وبدرجة « فارس » . جرح بيالة باشا فى ساقه فى ١٨ آب . رميت الجزيرة بـ ٨٠٠٠٠ طلقة مدفع . امتلأت كافة الأطراف بأكوام الرماد . بدأ لافاليت **La Valette** بالإنشاء مجددا . اشترك ٣٠٠٠ عامل فى بناء المدينة المسماة حاليا **La Valetta** وهى عاصمة الجزيرة بالقرب من المدينة العربية المسماة مدينة .

أبحر بيالة باشا الذى جاء إلى استانبول فى الأيام الأخيرة من سنة ١٥٦٥ ، فورا فى ١٥٦٦/٣/٢٦ . دخل ميناء ساقز بـ ٧٠ سفينة حربية (١٥٦٦/٤/١٤) . كانت جنوة تدير الميناء تحت حماية العثمانية ، لم تقاوم ، وألحقت الجزيرة كلواء بحرى وأنهى الحكم الإيطالى .

دامت قيادة القوة البحرية لبيالة باشا ، مدة ١٤ سنة ، وفى ١٥٦٨ ، أصبح وزير قبة ووزير ٢ .

(٢١) الأتراك والبرتغاليون فى البحار الهندية

كان المحيط الهندى والبحار التابعة له حتى القرن ١٦ ، بحرا إسلاميا . كانت السفن الإسلامية وعلى رأسها العربية تسير فيه محملة بالبضائع .

دخلت البرتغال ، القرن ١٦ كدولة بحرية كبرى سيطرت على الميحط الهندى وادعت أنها هى التى تجلب البضاعة الآسيوية وتوزعها من لشبونة على أوروبا ولهذا فقد استحوذت على أرصفة بحرية فى جنوب آسيا .

لعدم وجود أية دولة إسلامية تمتلك قوة بحرية كبيرة عدا العثمانية ، فقد تحير المسلمون ؛ كان البرتغاليون ينفذون فى جميع أفراد سفن المسلمين التى يقبضون عليها ، القتل بالتعذيب طويل الأمد الذى يستمر عدة أيام ، يقطعون فى كل يوم جزءا من أجسامهم ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك منع المسلمين من الخروج إلى البحار الهندية .

كانت أوروبا فى حاجة إلى كثير من البضاعة الآسيوية وكان هذا العمل يدر الربح الكبير ؛ حيث كانت البضاعة الواردة من أى قطر آسيوى ، تباع فى أوروبا بسعر يصل إلى ٢٠ ضعفا من سعر شرائها ، وقد كانت هذه البضاعة توزعها على أوربا فيما مضى دولتا المملوكية فى مصر والعثمانية ، تبيعانها إلى الجنويين ، وهم بدورهم ينقلونها إلى الأقطار الأوروبية ، وبعد تسلط البرتغاليين على البحر الهندى ، بقى لدى العثمانيين الطريق البرى فقط الذى كانت تعترضه إيران المخاصمة ، وهكذا أصبح من الصعب جلب البضاعة من الأقطار الآسيوية النائية عن طريق البحر والاستفادة من أرباح المرور (الترانست) . وقد تأثرت التجارة البندقية والجنوية بصورة كبيرة لمصلحة البرتغاليين . وبينما كان البحر الأبيض ، مركزا للتجارة العالمية ، تكونت باكتشاف أمريكا تجارة الأطلسى .وبدأت منذ ذلك الحين تتشكل تجارة المحيط الهندى التى يسيطر عليها الأوربيون .

دعت سلطنة كجرات فى الهند أياز بك من تركية وإستخدمته فى تأسيس وحدات بحرية ومدفعية لها . إتخذ أياز بك جزيرة ديو Diu فى أقصى جنوب كجرات قاعدة له . خسر البرتغاليون أكثر من ٧٠٠٠ أسير عندما أغاروا على رجل البحر العثمانى

الذى يلقب بـ « ملك بومباى » (History of Gujarat, Bailey ، بومباى ١٨٩٦ ، ص ٣٢٢) . استشهد من العثمانيين الذين يقودهم حسين بك ، نحو ٤٠٠ ومن الكجراتيين ٦٠٠ . يبين هذا الحادث علاقة العثمانية بالمحيط الهندى قبل فتح العثمانية لمصر وهبوطها إلى البحار الهندية . عاد حسين بك من كجرات فى ١٥١١ . وعين واليا مملوكيا على جدة وقائدا للأسطول . أمر السلطان سليم سلمان رئيس عندما كان فى مصر ، بأن يقتل حسين بك هذا ولانعرف سببا لذلك .

جاء حسين رئيس آخر من تركية ، وأصبح قائدا لقوات السلطان قانصوه البحرية . سار إلى صنعاء بأسطوله فى ١٥٠٧ وأعلن الحكم المملوكى فى اليمن . أرسل بايزيد الثانى بعد ذلك ، كمال رئيس إلى مصر مع ٣٠٠ مدفع و ١٥٠ عمودا لربط الأشرعة ، ٣٠٠٠ مجرفة وكميات كافية من الأشرعة ، والأخشاب ، والزفت ، والفئوس الخ . وأهدى ٨ سفن حربية إلى المماليك . أمر كمال رئيس الفنيين الذين تركهم فى مصر بصنع ٣٠ سفينة حربية فى السويس . ولأن هذه القوة سوف تقوم بحماية التجارة الإسلامية فى البحر الأحمر وخارجة فى مواجهة البرتغاليين ، فإن خدماتها سوف لا تقتصر على المماليك فحسب بل ستتعداها إلى خدمة العثمانية والعالم الإسلامى بـأسره (Relations et Commeree de l'Afrique ، Mas Latrie Septentrionale de Moyen - âge ، باريس ١٨٨٦ ، ٥٠٣ — ١٠) . أرسل بايزيد الثانى كذلك ، أحمد أوغلو آيدن رئيس الذى سيشتهر بين أمراء البحر للإخوة بربروس ، ثم حامد رئيس مع كمية كبيرة من المهمات لخدمة المملوكية وإصلاح الأسطول المصرى . وعندما أراد المماليك دفع ثمن المهمات ، رفض قائلا : إن هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفرة.

عين السلطان سليم عند فتحه مصر فى ١٥١٧ ، سلمان رئيس برتبة « قبودان السويس » (وتلفظ قبطان) (قائد السويس) وكان يطلق عليه اسم « قبطان مصر ، قبطان الهند » كذلك (سيقوم بمهمته فى الدولة المملوكية ، وسوف يكون أميرالا – كبيرا عثمانيا مسئولا عن البحر الأحمر وجميع البحار المتصلة بهذا البحر) ، كانت رتبة وظيفته هذه لواء بحرى ، وكان مستقلا عن قائد القوات البحرية (قبودان دوريا) ؛ فقد كان تابعا إلى والى مصر بالنسبة للأمور المالية ورأسا إلى الديوان بالنسبة للأمور العسكرية .

وسع كل من السلطان سليم والوزير الأعظم مقبول إبراهيم باشا مصنع السفن المصرى بشكل كبير عند قدومه لإصلاح مصر ، وأمر كلاهما بإنشاء سفن حربية جديدة وجهزاها وعززا أسطول سلمان رئيس . ويجب ألا ننسى عدم إمكان إمرار السفن من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر بسبب عدم وجود قناة . وقد كانت هذه هى مشكلة العثمانية . أراد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ ـــ ٧٤) فتح القناة كما فى العهود السابقة . لكن هذا المشروع أهمل بعد ذلك .

سار سلمان رئيس فى ١٥٢٣ بحملة ، كان البرتغاليون قد احتلوا جزر كاماران المواجهة لليمن . أخرج البرتغاليين من هذه الجزر ومن البحر الأحمر . اشترك فى هذه الحملة ٤٠٠٠ جندى مشاة عثمانى بقيادة خير الدين حمزة بك .

أسس سلمان رئيس قاعدة بحرية فى جزر كاماران ، وعين لحمايتها خوجة صفر رئيس . وفى ١٥٢٧ ، أسس سلمان رئيس الحكم العثمانى فى القسم الأكبر من اليمن . حصل خلاف بينه وبين خير الدين بك ، ومات فى المبارزة التى جرت بينهما ، أحد أقدر أمراء البحر فى العثمانية ، سلمان رئيس الأكبر سنا . دعا مصطفى بك ابن أخ سلمان رئيس ، خير الدين بك إلى المبارزة وقتله فيها .

أراد سلمان رئيس أخذ عدن بـ ١٩ سفينة عليها ٢٤١ مدفعا ، لم يوفق (بجوى ، ١ ، ٨٤ ؛ تحفة الكبار ، ٢٤ ـــ ٥) .

عين الديوان بعد وفاة سلمان رئيس ، مصطفى بك ابن أخيه بهرام بك ، واليا على لواء اليمن (سنجق بك ، لواء) ، لكن جنود المشاة العثمانيين الموجودين فى اليمن ، اعترضوا على مصطفى بك وجنوده البحريين لقتله قائدهم خير الدين بك .

استدعى الديوان بهرام بك إلى استانبول وأمر ابنه مصطفى بك بالعودة إلى القاعدة البحرية فى قره مان .

جاء مصطفى بك إلى عدن لكنه لم يتمكن من أخذها (شباط ١٥٣٠) . عين سيدى على رئيس واليا على اليمن وأصبح أحمد بك ابن سلمان رئيس معاونا له (أى أنه عين لهذا المقام شخصين بحريين) . يظهر بوضوح أن الديوان لم يكن يشغله فتح اليمن وإنما كان يشغله تسلط الأساطيل البرتغالية على البحر الأحمر .

جاء بهرام بك ـــ زاده مصطفى بك ، مع مساعده خوجة صفر رئيس إلى ميناء الشحر (شيح ، شحرات) . وأعطى أمير الشحر ١٠٠ من جنود البحر ومدافع وحذره من قبول البرتغاليين بأمر خليفة روى زمين (خليفة سطح الأرض) ، وغادر المدينة فى ١٥٣٠/١٢/٢ . كان قد ترك خوجة صفر رئيس لدى بدر أمير شحر .
جاء البرتغاليون فورا إلى شحر لكن صفر رئيس ردهم ، ثم غادر صفر رئيس فى ١٥٣١/٣/٤ للحاق بمصطفى بك . اجتمع سلطان كجرات بهادرشاه ، فى جامبانير بالأميرالين التركيين . وخلال تلك الأيام ، كان على رأس أسطول كجرات الذى يقوده العثمانيون فى جزيرة ديو ، ملك دوغان ابن ملك آيازبك الذى جاء من تركية .

غادر الأميرال البرتغالى Nuno da Cunha قاعدته فى Goa فى ١٥٣١/١/٦ ، ووصل ديو Diu فى ٧ شباط مع ١٩٠ سفينة حربية و ٢١٠ سفينة نقل محملة بـ ٢٦٠٦٠ جنديا ؛ ٢٦٠٠ منهم جندى برتغالى ، والبقية محليون وشرع فى قصف ميناء ديو بـ ٤٠ مدفعا ترمى قذيفة من عيار ١٢ ليبرة . دافع عن ريو ملك دوغان بك ، ومصطفى وصفر رئيس . وبعد أن ضعضعت المدافع البرية التركية الأسطول البرتغالى ، أبحر الأسطول التركى وابتعد عن الساحل وأغرق ٤٠ سفينة للعدو واستولى على ٢٠ سفينة ، وقتل ١٥٠٠ برتغالى و آلاف الهندوس الذين يخدمونهم .

أصبح مصطفى بك واليا على صورات وأميرالا على خليج كامبى . وبدلا من أن يتعاونا مع ملك دوغان أمير البحر العثمانى الذى حصل قبلهما على شهرة فى البحار الهندية وأحرز نفوذاً واسعا فى الهند ، تعاونا مع ابن أخ وابن سلمان رئيس اللذين لم يكن لديهما دهاء لأخوة بربروس ، واتفقوا وسعوا ضده وفى النهاية تسببوا فى أن يقتله الشاه ، وهكذا مات معه أمل الحصول على مجال عثمانى فى المحيط الهندى .

بعد سنوات استولى تيمور أوغلو همايون شاه وهو ابن بابور شاه ، وخلفه ، على كجرات . دخل مصطفى بك فى خدمته كقائد للمدفعية . أما شاه كجرات بهادر ، فقد أرسل خزينته بكاملها إلى الخليفة فى استانبول أى إلى السلطان سليمان لئلا تقع بيد همايون ، كما أحرق سفنه الـ ١٠٠ التى سعى أمراء البحر الأتراك فى إعدادها منذ سنوات ، خوفا من وقوعها بيد غريمه . وبطبيعة الحال سعد البرتغاليون بذلك .

سار الأميرال البرتغالى Nuno da Cunha بـ ٣٠ سفينة وتمركز فى جزيرة ديو

(١٥٣٥/١٠/٢٥).. حاول صفر رئيس إخراج العدو من ديو ، لكنه لم يكن يملك سفنا فقد أحرقت كلها ، لم يوفق . لكنه انغمس فى جهاد طويل الأمد ، إلى أن واتته المنية فى ١٥٤٦ برصاصة من بندقية برتغالية . أصبح ابنه رجب بك واليا مكان أبيه على صورات بلقب أبيه « خداوند خان » ، قتل هو الآخر فى ١٥٦٠ . كان خوجة صفر رئيس (رئيس ملاحى سلمان رئيس وولده الشرعى) ، هو الذى أوحى إلى محمود شاه ابن أخ بهادر الذى إحتل مكانه وأصبح شاها على كجرات ، بطلب المعونة من حضرة خليفة الكرة الأرضية السلطان سليمان .

(٢٢) حملة الهند لسليمان باشـا (١٥٣٨)

أمر الديوان ، خادم سليمان باشا (وزير أعظم بعد ذلك) وهو برتبة وزير ومن أكبر إداريى العثمانية فى القرن ١٦ والى إيالة مصر ، بالحملة على الهند .

كان عمر سليمان باشا فى ذلك التاريخ ٧١ سنة ، لكنه كان رجل دولة ملىء بالحيوية ، شديد الطبع ، إدارى ، ذكى وداهية . سار الباشا من ميناء السويس بأسطول مكون من ٧٦ قطعة (١٥٣٨/٦/١٣) ، وسوف يتحرك السلطان سليمان من استانبول بعد ٢٥ يوما بحملته الهمايونية ٨ . وكان بربروس قد سار من استانبول بالأسطول الهمايونى قبل ٦ أيام إلى بروزة .

كان على أسطول سليمان باشا ٧٠٠٠ انكشارى و ١٣٠٠٠ جندى بحرى عدا الجدافة . وكان سليمان باشا واليا على مصر منذ ١٢ سنة . اجتاز البحر الأحمر بتأن ودون عجلة وأصلح كل مايمس سلطة الدولة فى البحر الأحمر ولو كان طفيفا . جاء من السويس إلى عدن خلال ٣٤ يوما . احتل عدن فى ٢٧ تموز . شنق أمير عدن عامر الثالث (كان من عائلة طاهرى التركية الأصل) على صارى سفينته الأميرالية . اتهمه بتقديم التسهيلات للبرتغاليين وعدم إطاعته الخليفة .

كان سليمان باشا يريد إخراج البرتغاليين من جزيرة Diu . تبعد جزيرة ديو عن شمال جزيرة بومباى بمسافة ٢٥٠ كم . فتح الباشا أولا قلعتى Gokala (بندر = ميناء ترك وباللغة التركية : ترك ليمانى) و Kat . لجأ البرتغاليون إلى ديو بعد أن تكبدوا نحو ١٠٠٠ قتيل .

أنزل الأتراك جنودهم فى الجزيرة الصغيرة فى ٢٧ آب وبدأ الحصار فى ١ أيلول . كان Antonio da Sylveria يحمى القلعة . تكبد العدو خسائر جسيمة وبينا انفتحت ثغرات كبيرة فى القلعة أمر سليمان باشا رفع الحصار بعد ٢٠ يوما (٢٠ أيلول) لاعتبارات سياسية أكثر مما هى عسكرية .

وبالنسبة لكتب التاريخ الهندية المدونة فى ذلك العصر (فرشتة ، ٢ ، ٣٧٢) ، فإنها تشير إلى أن سليمان باشا كان يسعى فى الهند وراء الفتوحات أو أنه على الأقل كان يريد أخذ سلطنة كجرات ، وكانت الدولة العثمانية التى يمثلها ، دولة فتوحات .كما تشير إلى أن شنق الباشا أمير عدن ، ألقى الفزع فى قلب محمود شاه ، الذى كان قد تورط فى طلب المساعدة من الخليفة .

أما بالنسبة لكتب التاريخ العثمانية ، فقد كانت لسليمان باشا مهمتان : إنهاء مظالم البرتغاليين التى استهدفت إخراج مسلمى الهند والتى كانت شبيهة بمظالم الأسبان التى ارتكبوها تجاه العرب فى الأندلس والمغرب وكان هذا دينا فى رقبة الدولة العثمانية بحكم كونها دولة الخلافة ، وبحكم كونها أقدر دولة عسكرية ، وكونها الدولة الإسلامية الوحيدة التى تمتلك أسطولا . أما المهمة الثانية لسليمان باشا فهى إعادة فتح طرق تجارة الهند أمام البحارة المسلمين وطرق المرور للعثمانية ولمصر كقطر عثمانى ، فقد كانت مصر من أكثر الأقطار التى تضررت من توقف تجارة المرور ، ولايخفى أن ذلك كان عاملا اقتصاديا هاما منذ عهد المماليك . وقد كان استخدام المماليك للبحارة الأتراك باستمرار ، بغرض دفع هذه الأزمة أو تقليلها .

من ناحية أخرى ، كان من الواضح أنه لايعنى محمود شاه كجراتي ــ الذى يتعاون مع البرتغاليين ــ أن يسيطر البرتغاليون على المحيط الهندى أو أن يتسلطوا عليه ، وإنما كان الذى يعنيه فى المقام الأول هو شئونه الداخلية ، ومن هنا فإن افتراض اتفاقه مع البرتغاليين لإزاحة العثمانية يعتبر أكيدا ومن المعلوم عنه أنه تظاهر بأنه تمكن من الحصول على رسالة محررة باللغة البرتغالية ــ وطبعا مزورة ــ تقول إن إسطولا برتغاليا مكونا من ٣٠٠ قطعة على وشك الوصول إلى ديو ، وعرض هذه الرسالة على الباشا وأقنع الباشا الذى لايعرف القطر بصورة جيدة بما جاء

فيها ، كما وأن الوحدات الكجراتية المساعدة ، كانت تتظاهر بمساعدة الجيش العثمانى ، بينما تخلق اضطرابات عديدة . ومن المعروف كذلك أن الشاه أقنع بعض ضباط العثمانية بترك خدمتهم بإعطائهم رواتب توازى رواتب الوزراء الذين يتقاضونها فى تركيا .

كان بابورشاه قد فتح الهند قبل ١٢ سنة بواسطة ١٣٥٠٠ جندى تركى وسرية مدفعية عثمانية واحدة ، وقد أدهش ذلك كافة الحكام المسلمين والهندوس الموجودين فى الهند . ظن محمود شاه الذى شاهد مدافع سليمان باشا المخيفة وآلاف الخيالة ، أنه بعد أخذه ديو سينقض عليه ويدخل أحمد آباد ، وطبعا فإن المعلومات التى تمكننا من الإجابة على ما الذى كان سيعمله الباشا لو احتل ديو ، غير متوفرة لدينا .

وقد أدرك الباشا الخيانة ، ولكنه لم يلجأ إلى معاقبة الشاه ؛ حيث كان الشاه صاحب دوله إسلامية ، كان هجومه على حاكم دولة إسلامية قبل إنهائه قضية البرتغاليين ، مخالفا للأوامر التى تسلمها من الديوان ، لذلك فقد أعطى الباشا أمر العودة ، لكنه قدم لصفر رئيس الضابط البحرى العثمانى المستخدم لدى دولة كجرات مهمات ومدافع بأحجام لم تسبق مشاهدتها . والمشهور عن أكبر شاه حفيد بابور شاه وابن همايون شاه (الذى كان يحكم البلاد أثناء حملة الباشا) أنه عندما فتح كجرات بعد سنوات طويلة ، شاهد هذه المدافع المدون عليها اسم السلطان سليمان وأخذها معه .

مكث سليمان باشا فى موانىء الشحر ، عدن ومخا بعد أن تجول فى سواحل عمان وحضرموت وأخضعها للعثمانية . أرسل المدافع والبنادق إلى مسلمى أريترة والصومال ضد البرتغاليين وحليفتهم ملكية الحبشة . وعين والى (برتبة لواء « سنجق بك ») لواء غزة مصطفى بك واليا (برتبة فريق أول « بكلربك ») على أيالة اليمن على أن يكون المركز زبيد (مصطفى بك هو ابن بييقلى محمد باشا الذى فتح جنوب غربى الأناضول ودياربكر من الصفويين) ، وترك له قوات مهمة .

وهكذا تأسست أيالة عثمانية جديدة ، وقد كانت إدارة اليمن حتى ذلك الحين كلواء (سنجق) .

وأعلن الإمام الزيدى الموجود فى الأقسام الداخلية خضوعه .

رسى سليمان باشا فى جده(١٥٣٩/٣/١٣) ، وذهب إلى مكة وحج ، ونظم الحجاز على أساس النظام العثمانى . استبقى الأسطول فى السويس وجاء إلى القاهرة . أمر الديوان بقدومه إلى استانبول وتقديم تقرير تفصيلى بنفسه عن حملة الهند التى استغرقت سنة كاملة .

أراد بعض الوزراء فى الديوان إجراء تحقيق بشأن الحملة ، لكن الديوان قرر فى النهاية بأصوات الأكثرية ، أن الباشا حقق حملة ناجحة ومفيدة (بجوى ، ١٢ ، ٢٢٥) . تقرير الباشا حول حملة الهند موجود فى أرشيف سراى طوبقابو ، رقم E ٩٦٦٣ .

نقل سليمان باشا إلى الديوان كوزير قبة وأصبح بعد فترة قصيرة وزيرا أعظم . تم توسيع شبكة الاستخبارات العثمانية فى الهند بعد حملته ، قد يكون من المفيد أن نقول إن سليمان باشا إدارى ووالٍ قدير جدا ، لكنه ليس على تلك الدرجة فى السياسة الخارجية والعسكرية .

(٢٣) فتوحات السودان والحبشة لأزدمير باشا

لم تكن أرباح البرتغال التى حصلت عليها من تجارة الهند ، بأقل من أرباح الأسبان من مناجم الفضة الأمريكية . ورغم ذلك ، لم ينج الأسبان والبرتغاليون من أزمات اقتصادية لعدم حسن استخدام الأموال وإسرافهم فى حياتهم فى أوطانهم الأصلية . وعلى سبيل المثال ، كان لأكبر حاكم مسيحى كشارل ــ كوينت ديون باهظه فى الداخل والخارج . وعدا أن شيئا من هذا القبيل ، لم يكن وارداً بالنسبة للدولة العثمانية ، فإنها كانت أصلا قد أسست اقتصادا مكتفيا بذاته ، وكانت تقوم بتجارتها الرائجة لغرض غنائها ورفاهتها .

كانت ديون شارل ــ كوينت فى سنة ١٥٥١ ، تقدر بالسعر الحالى ، بما يزيد على ٣ مليارات دولار (Meizig ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨٠ ــ ١) .

لم تتمكن البرتغال ــ رغم آمالها الواسعة ــ من تأسيس إمبراطورية مستعمرات

فى القارة الهندية . لكنها تمكنت بواسطة قواعدها البحرية من السيطرة على تجارة المحيط الهندى ، وقد كان نجاحها الاستعمارى أكبر فى أندونيزيا وخاصة فى شرقى أفريقيا ، إذ لم تكن فى هذه المناطق دول منظمة عسكريا لتقف حيالها . وعدا أن العثمانية تمكنت بقدر ماسمحت لها الظروف ، من الدفاع عن شرقى أفريقيا وغربى أندونيزيا تجاه البرتغال ، كما فتحت جبهة كبيرة جدا فى شمال غربى أفريقيا فى فاس ، فإنها حطمت فى النهاية تلك الدولة البحرية الاستعمارية المقتدرة .

كان أوزدمير بك قد اشترك كلواء فى حملة سليمان باشا على الهند . وهو أصلاً من بكات المماليك أى من أتراك مصر ، وكان مستشارا خاصا لسليمان باشا مختصا بالأمور الأفريقية (وخاصة الحبشة وجنوب البلاد العربية) . خدم أوزدمير بك ، الذى انتسب إلى الجيش العثمانى فى ١٥١٧ عندما كان برتبة نقيب (يوزباشى) ، فى أيالة مصر بصورة مستمرة .

كانت الخدمة الأخيرة التى قدمها سليمان باشا عند ذهابه إلى استانبول وقبيل مغادرته النهائية للقاهرة ، هى إرساله أوزدمير بك بأسطول إلى النيل بغرض الكشف . خرج أوزدمير بك الذى نزل إلى النوبة ، إلى البحر الأحمر فى سواكن ، وبذلك جذب انتباه الديوان الذى أمر بتقديم كافة التسهيلات والدعم لولاة مصر الذين تلوه لتحقيق حملات مشابهة لحملات أوزدمير بك .

تمكن أوزدمير بك على مر الزمن من أخذ كامل أريترة ، القسم الأكبر من الصومال واستقطع قسما من الحبشة الأصلية وربطه بأيالة مصر . لكن الديوان الذى ارتأى صعوبة إدارة هذه الأقطار النائية ، من القاهرة ، أسس أيالة الحبشة (حبش) وعين أوزدمير باشا واليا عليها . إن ملكية هرر ، أهم دولة إسلامية فى الحبشة وحاكمها إبراهيم أوغلو أحمد غران (١٥٠٦ ــ ١٥٤٣) كانت تحت نفوذ العثمانية . كان يهدف الديوان إلى دفع ملكية الحبشة الأرثوذكسية ــ اليعقوبية أى المسيحية ــ على مر الزمن ــ إلى أنجاد الحبشة ، وإبعادها عن البحار بصورة مطلقة ، وقطع علاقتها مع البرتغاليين التى تتعاون معهم .

وتجاه ذلك ، كان البرتغاليون يقدمون إلى **David** الثانى (١٥٠٨ ــ

١٥٤٠) ملك الحبشة مساعدات كبيرة لئلا يبتلعها المسلمون . وهكذا فإن مجالا كأنجاد الحبشة يصعب أن يخطر على البال ، أصبح أحد المراكز الحساسة للنزاع العثمانى ـ البرتغالى الاستراتيجى .

تسلم ملك الحبشة الجديد Glâvdêdos (Claudiius) (١٥٤٠ ـ ١٥٥٩) ، فى ١٥٤١ المدافع والبنادق المرسلة من لشبونة وهى أول مرة يمتلك فيها سلاح . انهزم أحمد غران الذى يحتوى جيشه على ٢٠ ضابطاً من الفرسان العثمانيين وعدة ضباط مدفعيين عثمانيين ، واضطر إلى ترك قطعة كبيرة من الأراضى . وعلى أثر ذلك ، أرسل والى اليمن محمد باشا ـ زاده مصطفى باشا ، إلى أحمد غران ١٠ مدافع و ٩٠٠ جندى عثمانى حملة بنادق . تمكن أحمد غران بهذه القوات من كسر الجيش الحبشى المسيحى الذى يحوى ٤٥٠ جنديا برتغاليا بقيادة Don Christopher بصورة شديدة فى معركة Afla الميدانية ، أسر Don Christopher da Gama (آب ١٥٤٢) . أرسل رأس الجنرال البرتغالى ، إلى مصطفى باشا فى زبيد أدت هذه الحرب الميدانية إلى تقوية النفوذ العثمانى فى الحبشة بشكل واسع . لكن أحمد غران استشهد فى إحدى الغارات المسيحية (١٥٤٣/٢/٢١) . خلفه أمير عباس .

حاول الأسطول البرتغالى أخذ عدن . أباد والى لواء عدن عبد الرحمن بك ، الأسطول البرتغالى وأسر الأميرال Don Marco وأرسله إلى استانبول . وعندما شرع أسطول تركى مكون من ٤٥ سفينة حربية من التجول فى البحر الأحمر ، خليج عدن وبحر عمان بصورة مستمرة ، أدرك البرتغاليون عدم إمكان اجتيازهم باب المندب . فتح أوزدمير باشا بعد ذلك أرضا واسعة من أراضى الأحباش المسيحيين . وخضعت للعثمانية دول محلية كثيرة فى السودان ، كانت أكثرها وثنية فى ذلك العهد . بدأت بدفع ضريبة سنوية لوالى الحبشة .

ولى أويس باشا اليمن بعد مصطفى باشا ، (وهو ابن السلطان سليم من جارية ملك يمين) . احتل قلعة تعز التى كانت بحوزة الزيديين (١٥٤٦/٢/١٢) . ثم سار أوزدمير باشا إلى الإمام الزيدى . وبعد مقاومة استمرت ٦ أيام ، احتل صنعاء . انتقل مركز الإيالة من زبيد إلى صنعاء . استدعى الديوان أوزدمير باشا بعد ذلك إلى استانبول . أصبح المستشار السرى للسلطان سليمان لشئون أفريقيا

وبقى سنوات عديدة دون أن يكلف بواجب رسمى . أرسل إلى الحبشة مرة أخرى . جاء إلى عاصمتها مصوع . توفى فيها فى ١٥٦٢ وعمره ٦٢ . ابنه الوزير الأعظم أوزدمير أوغلو عثمان باشا .

(٢٤) حملة بيرى رئيس (١٥٥٢)

محيى الدين بيرى رئيس ، من عائلة قرة مانية (قونية) ، ولد فى غاليبولى كعمه كمال رئيس (كمال الدين بك) ، لم يبق فى البحر الأبيض ساحل أو جزيرة أو ميناء أو صخرة لم يشاهدها ، رسم خرائطها كلها ، وبعد وفاة عمه ، عمل لدى أوروج رئيس ومن ثم لدى خير الدين باشا . وفى ١٥٠٠ أصبح قبطانا (عقيد بحرى) وهو شاب . اجتمع بالسلطان سليم بعد بايزيد الثانى . حرر وخطط كتابه المشهور المسمى « كتاب بحرية ودنيا خريطة سى » وقدمه إليه . شغل وظيفة قبطان (عقيد بحرى ربان سفينة) لسفينة الأميرالية التى ركبها الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا خلال تفتيشه مصر وأصبح مستشارا خلال إصلاحاته فى مصر والتى دامت سنة واحدة . وفى ١٥٤٧ ، عين لقيادة أسطول الهند بدلا من صولاق فرهاد بك وجاء إلى السويس . كان البرتغاليون قد احتلوا عدن . استرجعها بيرى رئيس (٢/٢٦/ ١٥٤٨) . جاء إلى مسقط مع ٣١ قطعة من السفن (٢٤ منها سفينة حرب) . كان البرتغاليون قد احتلوها كذلك . أسر الحامية البرتغالية فى مسقط التى قاومت ١٨ يوما مع الجنرال Zoao delisboa . جاء إلى شحر وحذر شيوخ حضرموت من مغبة خروجهم على تعليمات خليفة الكرة الأرضية ، وأوصاهم بعدم استقبال البرتغاليين ، وتنفيذ ماكلفوا به . جاء إلى قلعة هرمز التى فى حوزة البرتغاليين ، بعد أن احتل جزيرة كشم الموجودة فى ضفة لارستان فى إيران . حاصرها بشدة . لم يتمكن من أخذها . دخل ميناء إيران الذى سمى بعد ذلك باسم بندر عباس وقام بعرض فيه ولام المسلمين الذين يتعاونون مع البرتغاليين . زار إمارات عمان ، قطر وبحرين وحصل على اعتراف منهم بتابعيتهم للعثمانية . كان اعتبار العثمانية متبوعا فى هذه المناطق ، يعتبر اسميا فقط . دخل ميناء البصرة . أودع سفنه فى البصرة لإصلاحها وعاد إلى السويس تصاحبه ٣ سفن حربية . أبلغ كباد باشا (الذى يحكم مناطق جنوب العراق ، الكويت ، لحساء ، شمر ونجد كوال (بكلربك ، أمير

الأمراء ، فريق أول على البصرة) ، الديوان الهمايونى بأمر إيداع السفن فى البصرة لإصلاحها ، بصورة يدين بها بيرى رئيس . رفض وزراء الديوان الذين يجهلون المياه الهندية ، دفاع بيرى رئيس المتمثل فى أنه كان من الخطر إعادة السفن قبل إصلاحها . وحكموا عليه بالإعدام . استدعى الأميرال وعمره ٨٠ سنة من السويس إلى القاهرة وأعدم . وهذا من أسوأ أحداث عهد القانونى .

كانت مسقط بحوزة البرتغاليين منذ ١٥٠٦ . وفى السنة التالية لفتح بيرى رئيس لها ، استولى عليها البرتغاليون . وفى ١٥٨٠ فتحها على بك مجددا . عاد واحتلها البرتغاليون ، ثم أخرجوا من مسقط بصورة نهائية فى ١٦٥٠/١/٢٣ .

(٢٥) حملة مراد رئيس (١٥٥٢ ــ ٥٣)

عين والى قطيف اللواء البحرى مراد رئيس (ك١٥٥٢/١) ، لقيادة الهند مكان بيرى رئيس . جاء إلى البصرة . ترك فى قاعدة بصرة البحرية ٨ سفن من الأسطول الذى استبقاه بيرى رئيس ، وسار بـ ١٨ سفينة حربية وخرج إلى بحر عمان . هاجم أسطول البرتغال المكون من ٢٥ سفينة حربية . لم يتمكن أى من الطرفين من التغلب على الآخر . غرقت عدة سفن برتغالية وسفينتى سلمان رئيس ورجب رئيس . استشهد كلاهما . ارتأى مراد رئيس خطورة الذهاب إلى السويس بسبب العطب الذى أصاب سفينته وعاد إلى البصرة . عزل وعين مكانه سيدى على رئيس (١٥٥٣/١٢/٦) . تعتبر حرب مضيق هرمز ، من أشد الحروب الدموية التى جرت فى البحار المفتوحة بين العثمانيين والبرتغاليين . جرت فى صيف محرق شديد الحرارة .

(٢٦) قيادة الهند لسيدى على رئيس (١٥٥٣ ــ ٥٧)

ومع أن سيدى على رئيس من مواليد استانبول ، إلا أن عائلته من سينوب . وسواء جده أو أبوه ، كانا مستشارين بحريين (ترسانة كتخداسى) فى مصنع السفن . اشترك فى فتح رودس فى شبابه (١٥٢٢) ، ودخل ضمن أمراء البحر المعتمدين لدى بربروس . كان أميرال الجناح الأيسر فى بروزة . كان مساعدا لطرغد

رئيس فى فتح طرابلس عين مستشارا بحريا فى مصنع السفن ، ثم أصبح مستشارا خاصا للسلطان سليمان للشئون البحرية . كلفه السلطان سليمان بقيادة الهند أثناء وجوده فى حلب . وافق (١٥٥٣/١٢/٦) وجاء من حلب إلى البصرة عن طريق بغداد (١٥٥٤/٢/٣) . غادر البصرة مع ١٥ سفينة حرب (١٥٥٤/٧/٢) . جاء إلى بندر بوشير وقطيف والبحرين . **قطعت** ٢٥ سفينة حرب برتغالية طريقه فى مضيق هرمز (١٥٥٤/٨/٩) ،. ابتعد العدو عن الأسطول العثمانى عند غرق سفينة برتغالية . أخذ الإمدادات وعاد إلى مياه مسقط وجابه سيدى على رئيس مجددا (١٥٥٤/٨/٢٥) . كانت حرارة الجو مخيفة (Von Hammer ، ٦ ، ١٨٦) . كان Don Fernan do ابن نائب الملك Alfonsa de Noronha قائدا للبرتغاليين . استمرت الحرب مدة ١٨ ساعة بدون توقف بالقرب من الساحل والسفن جنبا لجنب وبشكل دموى لايمكن تصوره . غرقت ٧ سفن تركية و ٦ برتغالية . لم يعد للجدافة القدرة على سحب المجادف ولا للمدفعيين على إشعال نار المدفع . ابتعد الأسطولان أحدهما عن الآخر .

استمر سيدى على رئيس فى طريقه بـ ١١ سفينة . فاجأته فى سواحل بحضرموت عاصفة تسمى « طوفان الفيل » أدار الدفة نحو الشرق . تمكن بصعوبة كبيرة من الوصول إلى كجرات بسفنه التى تفككت خشبات أرضيتها ، ٣ من سفنه اصطدمت بالأرض ، و٨ سفن كانت فى حالة تحتاج معها إلى إصلاح طويل الأمد . كانوا قد رموا كافة المهمات الثقيلة فى البحر لإنقاذ السفن من الغرق .

ألقى سوء الأحوال الجوية بالأسطول التركى على مسافة بعيدة من ميناء Demen (Damao) جنوب ميناء صورات وعلى مسافة ١٦٠ كم عن شمال بومباى . أهدى سفينتين حربيتين إلى والى Demen العثمانى الأصل ملك أسد ودخل صورات (Seret) بـ ٦ سفن (١٥٥٤/٨/٣٠) . أهدى سفنه هذه ومدافعها إلى والى صورات العثمانى خداوند خان . ولأجل إمكان استعمالها ، ترك معظم طاقمها فى الهند . غادر مع نحو ٥٠ من جنوده الذين لم يرغبوا فى البقاء فى الهند . شكر سلطان كجرات أحمد شاه الثانى (١٥٥٣ ـــ ١٥٦١) ، سيدى على رئيس على مساعدته العسكرية التى قدمها وأعلمه بتابعيته السلطان .

جاء سيدى على رئيس وجنوده إلى دلهى . استقبل تيمور أوغلو همايون شاه (وهو ابن بابور فاتح الهند) الأميرال العثمانى بترحيب منقطع النظير وبشكل لم يكن يتوقعه أبدا ؛ حيث إن بنى عثمان وبنى تيمور وكلاهما سنى ــ حنفى لايحب أحدهما الآخر أبدا . لم يغفر العثمانيون حتى فى القرن ٢٠ ، لتيمور استيلاءه المفجع على الأناضول وسفكه دماء الأخوه . بينما كان سيدى على رئيس ، ينتظر البلاء من التيموريين بسبب تقديمه إلى شاهات كجرات أعداء التيموريين والذين يتظاهرون بتبعيتهم للعثمانية ، مساعدة عسكرية وإعطائه لهم المدافع والسفن والجنود ، لم يأخذ عليه ذلك التصرف همايون المثقف جدا مثل أبيه والشاعر باللغة التركية . أصبح مستشارا خاصا لهمايون . لكن همايون سقط من السلم الذى صعد عليه لإحضار كتاب من الرفوف العليا من مكتبته ومات بسبب النزيف الدماغى وعمره ٤٨ سنة . كان ابنه أكبر شاه طفلا . لم يبد أمراء الأتراك الذين وضعوا اليد على الدولة باسمه ، نفس الترحيب بالعثمانيين ، وتساءلوا عن سبب وجودهم فى الهند . لكنهم لم يزيدوا على ذلك بسبب قبول الحاكم السابق لهم . غادر الأميرال العثمانى وجنوده البحريون الذين استثقل وجودهم حاكم الدولة قره قويونلو (أصحاب الخرفان السود) بايرام خان (وهو شاعر مهم فى اللغة التركية) ، دلهى فى سياحة سوف تستغرق ١٥ شهرا .

خرجوا من الأراضى التيمورية على طريق سند ــ ملتان ــ بشاور ــ خيبر ــ كابل وانتقلوا إلى أراضى تركستان لبنى جنكيز ، واتبعوا طريق سمرقند ــ بخارى ــ حيوه لكنهم لم يتبعوا طريق الشمال واستداروا إلى الجنوب ودخلوا أراضى عدو العثمانية اللدود الشيعى الصفوى . ومن خلال هذه المصاعب تمكنوا من التوصل إلى الأراضى العثمانية فى العراق وألقوا بأنفسهم فى بغداد . ذهب سيدى على رئيس إلى قصره المشهور فى غلطة فى استانبول (١٥٥٧/٥/١) . لكن السلطان سليمان كان فى أدرنة . دعى السلطان ، المعروف بهوايته للأمور البحرية ومحبته للبحارة ، سيدى على رئيس فى سراى أدرنة لزيارته الخاصة واجتمع به لعدة ليال ، وأمر بمنحه رواتبه المتراكمة وأمره بكتابة مذكرات سياحته .

كان سيدى على رئيس ، أحد أكبر شخصيات تاريخ العلوم المثبتة فى القرن ١٦ ، وله مؤلفات قيمة فى الجغرافية ، والرياضيات والفلك وفضلا عن ذلك فإنه شاعر .

اشترك فى حرب جربة عام ١٥٦٠ . توفى بقصره الكائن فى غلطة فى استانبول وعمره ٦٥ سنة (ك١٥٦٣/٢) ، وكان قد مضى عند وفاته ٣ سنين على حرب جربة و٦ سنين على عودته من الهند .

وخلال وجود سيدى على رئيس فى الهند ، عين لقيادة الهند قورد أوغلو خضر رئيس (ك ١٥٥٤/١) . بقى ١٥ سنة فى مقامه هذا . وعندما أرسل لحملة أندونيزيا فى ١٥٦٩ ، عين مكانه محمود رئيس . ثم جاء سنان رئيس إلى هذا المقام وانتصر على الأسطول البرتغالى فى المحيط الهندى فى ١٥٧٧ .

وباختصار يمكننا أن نقول ، إن إمبراطورية كجرات ، كانت دولة إسلامية فى دور اضمحلالها . كانت بالضبط كالدولة المملوكية (مصر) فى عهدها الأخير ، كانت قواتها البحرية والمدفعية وحتى ولاية إيالاتها قد انتقلت لإدارة الضباط العثمانيين .

لم يتمكن الديوان الهمايونى من الاستفاده من هذه الميزة ويحكم كجرات . ولو كان قد تمكن من ذلك ، لحل مشكلة البرتغال من أساسها ولأمكنه تكرار السياسة الموفقة التى اتبعها فى المغرب تجاه الأسبان والتى تكللت بالنجاح على الرغم من شدة قرب المسافة بين المغرب وإسبانيا .

أما بالنسبة للهند فقد كان هناك بحر كبير بين الأراضى العثمانية والهند ، ولكن كان يوجد بين البرتغال والهند محيطان . وعندما قوض تيمور أوغلو أكبر شاه ، دولة كجرات فى ١٥٧٢ وألحقها كأيالة ، لم يبق للعثمانية مجال فى تلك الأراضى . إن محاربة بنى تيمور الذين يحكمون الدولة ٣ فى العالم بعد تركية وإيران ، لم تكن مطروحة ، ولو كانت ، لكان من المحتمل أن تخرج العثمانية من تلك الحرب وهى مغلوبة .

وفى أواخر القرن استلفت الأنظار تحركات والى عدن اللواء البحرى على بك . ذهب إلى مسقط وطرد البرتغاليين منها . ثم جاء بأسطوله إلى كينيا ورسا فى ميناء مالیندى Malindis (١٥٨٤) . استقبل المحليون وخاصة الأقلية العرب والسواحليون والهجناء العرب ــ الزنوج الموجودين فيها ، العثمانيين بحفاوة بالغة . أسس على ، منهم وحدة عسكرية . احتل جزيرة لاموفى الشمال ، وميناء مومباسا

فى الجنوب والساحل الذى ينحصر بينهما ، وألحقها بالحكم العثمانى . كانت هذه المناطق حتى موزمبيق فى الجنوب قد اعترفت بالسلطان سليم متبوعا لها ، من قبل أسرة شيرازى المحلية . (هذا يعنى أن العثمانية لم تكن تجهل هذه الأراضى) . كافحت القوات العربية التى شكلها على بك بنجاح وتمكن البرتغاليون من أخذ ماليندى فقط .

وفى ١٥٨٩ ، جاء على بك ثانية مع ٤ سفن حربية وسفن نقل كثيرة . دخل مومباسا . أرسل نائب الملك البرتغالى فى Goa — وهو أكبر موظف برتغالى فى المحيط الهندى — أخاه (de Souza Countinho) (Don Thome) ، بأسطول للحملة على على بك . أسر على بك وأرسل إلى لشبونة . فر جنود البحرية الأتراك إلى المناطق الداخلية من تنجانيقا . ظفر بهم زنوج Zimbas الذين دمروا أفريقيا وأكلوهم بعد شيهم فى النار . وهكذا فشلت عملية إخراج البرتغاليين من سواحل تنجانيقا وموزمبيق . لكن الشيرازيين سيطروا على مناطق من هذه البلاد هنا وهناك واستمروا تابعين للعثمانية . وخلال هذه الأيام كان رمضان باشا فى فاس ، قد أفنى الجيش ، والأسطول ، والملك ورجال الدولة البرتغالية وقوض دولتها . ولو أن الديوان أرسل أسطولا أكبر إلى المحيط الهندى ، لكان من الممكن إخراج البرتغاليين من شرق أفريقيا وانتشار المسلمين بوضع أفضل من الوضع الحالى والحيلولة دون دخول الدين المسيحى .

كانت فتوحات أوزدمير باشا التى حققها فى السودان والحبشة خلال ٥ سنوات ، عظيمة .

كان تحت إمرته ٣٠٠٠٠ جندى ؛ ١٠٠٠ منهم انكشارية حملة بنادق جلبوا من استانبول و ٦٠٠٠ متطوعين جمعوا من أتراك مصر والأكثرية الباقية هم أبناء جنود الدولة المملوكية السابقة . اكتشفت مناطق لم تطأها قدم أجنبى حتى ذلك التاريخ . تجول فى الأراضى المنحصرة بين الشلالات ١ ً و ٦ ً . تأسس الحكم العثمانى على ضفتى النهر وتأسس نظام الحماية العثمانية فى المناطق الداخلية . تأسست حاميات فى جميع الأماكن ، وكان الضباط من الأتراك فقط والأفراد من السكان المحليين . فتحت أريتره والصومال وأدخلت قطعة ليست صغيرة من المناطق الداخلية للحبشة تحت الحماية . توفى أوزدمير باشا فى مدينة بندية التى

اتخذها قاعدة له بعد إصابته بمرض استوائى . دفن جثمانه فى القبر الفخم الذى شيده ابنه فى مصوع . وعين مكانه ابنه عثمان بك وعمره ٣٤ سنة بلقب بكلربك (أمير أمراء والى) الحبش عثمان باشا (١٥٦٠) . ولحين استدعائه إلى استانبول (١٥٦٧/٨/٢٢) ، وسع مجال فتوحات أبيه . نشر الدين الإسلامى ، والمساجد وأدخل النظام العثمانى وعناصر المدنية والثقافة التى لم تشهدها تلك الأقطار أبدا .

(٢٧) الحملة الهمايونية ٦ : حملة إيران ١ (١٥٣٣ - ٣٥)

جمدت ضربة جالدران ، الإمبراطورية الإيرانيه الصفوية التركية وهى الإمبراطورية الثانية فى العالم بعد تركية وجعلتها دون حراك لمدة ١٩ سنة حتى عام ١٥٣٣ .

تنازعت خلال هذه المدة إيران مع خاقانية تركستان الشرق .

وفى ١٥٣٣ ، كانت قد مضت ٩ سنوات على وفاة الشاه إسماعيل وأدرك ابنه الشاه طحمسب الـ ١٩ من عمره . أصبح طحمسب بالنسبة للسلطان سليمان ، أكبر منافس وعدو بعد شارل - كوينت . كان القانونى يكبر شارل - كوينت بـ ٥ سنوات وطحمسب بـ ١٩ سنة .

كان يتحتم على الدولة العثمانية التى تسيطر على شمال العراق ، لكى تصون اعتبارها ، أن تنزل إلى خليج البصرة وتسيطر على بغداد . ومن ناحية أخرى ، لم تكن إيران الصفوية قد تركت بعد أطماعها فى مناطق عديدة من شرقى الأناضول . كانت تحتفظ بـ « وان » ، وكانت تغرى خان بتليس التابع للعثمانية ، باتباع الشاه (١٥٣٢/٩/٢١) .

إزاء هذا الوضع ، سار الوزير الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا ، إلى إيران (١٥٣٣/١٠/٢١) . قضى الشتاء فى حلب . ثم جاء إلى مدينة عامد (دياربكر) (١٥٣٤/٥/١٤) حيث بقى فيها شهرا واحدا . أخذ من إيران كل من أخلاطه وعادل جواز ، وأرجش ثم وان (١٥٣٤/٦/٢٣) ، وأخرج الصفويين من منطقة بحيرة وان ، وكذلك احتل فى شمال شرقى أرضروم مناطق تبارا من باسينلر إلى

أولطو ، وكذلك أخذت بايزيد (ولاية آغرى الحالية) من الصفويين .. وبذلك تكونت حدود تركية الشرقية .

أما السلطان سليمان ، فقد سار من استانبول (١٥٣٤/٦/١١) للانضمام إلى قوات الوزير الأعظم . وهذه هى حملته الهمايونية ٦ التى تشكل حملة إيران الأولى ، وتشتهر فى التاريخ العثمانى باسم حملة « العراقين » (العراق العربى والعراق العجمى) ، وهى أشهر حملة همايونية للسلطان سليمان ، ذلك أن حملة موهاج ٣ أكسبته لقب فاتح المجر ، وأكسبته هذه الحملة لقب فاتح بغداد . ترك أولو شهزاده (ولى العهد) مصطفى ، كمحافظ للعرش (نائب السلطنة) فى استانبول .

دخل إبراهيم باشا إلى تبريز (١٥٣٤/٧/١٣) مدينة عرش إيران السابقة . لم يمس أحد بسوء . عين أولاما باشا ، واليا على تبريز (جنوب آذربيجان) . كان قد مضى على فتح ياوز لتبريز ١٩ سنة و١٠ أشهر و٧ أيام أعلن دوباج إسحاقى أمير كيلان (رشت) خروجه عن تبعيته للصفوية وإقراره بالتبعية العثمانية (١٥٣٤/٨/٢١) . دخل أيضا الشيروانشاهيون الموجودون فى شمال آذربيجان إلى التبعية العثمانية . ولم تعد تبريز حينذاك مدينة العرش لإيران . كانت مدينة العرش قد تحولت قبل عدة سنوات إلى قزوين فى الداخل . كانت تبريز قريبة إلى الحدود التركية ولم يكن بالإمكان الدفاع عنها تجاه العثمانية .

خلال ذلك ، تم أخذ حكارى والأراضى التى تشكل حاليا أرمنستان السوفيتية . جاء القانونى السلطان سليمان خان الثانى ، خلال جريان هذه الأحداث ، إلى قونية وقبل حاشية ستار ضريح مولانا (١٥٣٤/٧/٢٠) . وإبان وجود البادشاه فى قيصرى ، كان بربروس خير الدين باشا يغادر استانبول (١٥٣٤/٨/١) لفتح مدينة تونس . وفى ٢٠ آب ، عرض شيروانشاه تبعيته للبادشاه الذى كان فى أرزنجان . جاء البادشاه إلى تبريز فى ٢٨ أيلول . فقدت المدينة التى كانت وقت أن فتحها ياوز ، إحدى أكبر وألمع المدن فى العالم ، إعمارها وأهميتها السابقة . التقى البادشاه والوزير الأعظم فى ٢٩ أيلول فى هضبة أوجان .

سار الجيشان بعد التآمهما فى ٥ ت١ تحت قيادة البادشاه متحركا من هضبة

أوجان . وصل سلطانية فى طريق تبريز – قزوين فى ١٣ ت١ . صدر أمر عودة أمير كيلان إلى رشت . كان السلطان سليمان يتلكأ ويقوم بالتحريات للعثور على الجيش الصفوى . أما الشاه فقد كان عازما بصورة أكيدة على عدم الخروج والتورط فى حرب ميدانية لئلا تصيبه العاقبة التى أصابت أباه فى جالدران . لم يتمكن السلطان سليمان من إغراء وإجبار شارل – كوينت أو طحمسب لدخول حرب ميدانية . أسس البادشاه أيالة أرضروم على أن تشمل شمال شرقى الأناضول وعين لإدارتها دلقادر أوغلو محمد خان (باشا) الذى كان أبوه ابن خال السلطان سليم . جاء الجيش الهمايونى إلى همدان (٢٩ ت١) وهى مركز العراق العجمى . كانت العراق مقر عرش السلاجقة . كانت تلك المناطق مسكونة بالأتراك أيضا كما هو الحال الآن .

عندما اتضح أن الجيش الهمايونى سائر إلى بغداد أدرك تكه لو (من أنطالية) محمد خان توركمن والى بغداد الصفوى تعذر مقاومة المدينة أمام العثمانية ، فأخلى المدينة .

دخل السلطان سليمان مدينة الخلفاء بغداد (١٥٣٤/١١/٢٨) .

قال الشاعر التركى الكبير فضولى البغدادى الذى يعيش فى هذه المدينة المصراع التالى باللغة التركية ، والذى معناه : « جاء البادشاه الشهير إلى برج الأولياء » ، ويشير به الشاعر إلى تاريخ (٩٤١) وهو مصراع من قصيدته الشهيرة ذات الـ ٧٠ بيتاً التى استقبل بها السلطان مهدياً له إياها . ذهب البادشاه فى الحال إلى مرقد الإمام الأعظم أبى حنيفة وزاره وأمر بإعمار الأعظمية . وفى هذه الأيام ذاتها انتقلت مدينتى الشيعة المقدستين (كربلاء والنجف) لحوزة العثمانيين . واعتنى بهما كذلك لكونهما مقدستين لدى السنة أيضاً .

ظل البادشاه فى بغداد مدة ٤ أشهر ، ويوم واحد وغادرها (١٥٣٥/٤/١) . فتح كامل العراق الأوسط . تمت الموافقة على تابعية الأمير رشيد فى البصرة . جاء إلى بغداد وقبل يد الخليفة . استرجع الشاه تبريز وقت وجود البادشاه فى بغداد (١٥٣٤/١٢/٩) ، وبذلك يكون حكم العثمانية الثانى فى تبريز ٤ أشهر و٢٧ يوما . زار الخاقان فى آذار ١٨ ــ ٢٣ كربلاء ونجف ووزع الصدقات فى قبرى

الحسين (ر.ع) وأبيه على (كرم الله وجهه) . أسس إيالة بغداد ، وعين رمضان أوغلو أوزون سليمان باشا واليا عليها ، وهكذا صار الأمير التركمانى ، أول وال على بودين (المجر) .

أما الشاه الذى أظهر علنا عدم قبوله الحرب الميدانية بإجلائه ــ لفترة من الزمن ــ مدينة العرش قزوين كذلك ظنا منه أن العثمانية قادمة (Von Hamner ، ٥ ، ٢٠٨) فإنه بدخول الجيش الهمايونى إيران مجددا ، لم يدافع عن تبريز .

احتلت تبريز للمرة ٣ (١٥٣٥/٦/٣٠) ، ومكث الخاقان ١٧ يوما فى سراى شاه إيران . دام الحكم الصفوى فى الفترة بين الاحتلالين ٦ أشهر و٢٢ يوما .

حضر أخو الشاه ميرزا وعمره ١٨ سنة والذى كان واليا على خراسان = هرات ، إلى تبريز ولجأ إلى السلطان سليمان (١٥٣٥/٧/٢١) . وقد كان ذلك حدثا مهما .

أرسل الشاه أسطة جالوخان تركمن كسفير وطلب الصلح . كان شرطه ، ترك الأقطار التى فتحت فى الأناضول فى الحملة الهمايونية على يد العثمانيين والتى تبلغ مساحتها التقريبية ٥٠٠٠٠٠ كم² إلى العثمانية ، واستعادة الأراضى المحتلة فى أذربيجان وإيران والتى تبلغ مساحتها ٤٠٠٠٠٠ كم² .

كان الشاه الذى أحس بالخطر على نفسه فى قزوين فى هذه الأيام ، قد انسحب إلى أصفهان ، ولاشك ان العثمانية كانت قادرة على المجىء إلى قزوين وأصفهان . انسحب الشاه والجيش التركمانى إلى مشهد ، هرات وقندهار ، وهكذا وضحت الاستراتيجية الصفوية . عاد السلطان سليمان الذى بحث عن الشاه مدة ١٨ يوما ، إلى تبريز بعد ٣١ يوما (٢٠ آب) . تحرك فى ٢٧ آب . جاء إلى أخلاط . كان هذا موطن الأجداد للعثمانيين . ومنها حضروا إلى سوغت Sogut . لكن الصفويين كانوا قد احتلوا وان ، وتعذر استرجاعها حينذاك .

جاء الجيش الهمايونى إلى دياربكر فى ٢٠ ت ١ وبقى فيها ٢٢ يوما . جاء إلى حلب فى ٢٤ ت ٢ ، بقى ٨ أيام وغادرها .

عاد السلطان سليمان فى هذه المرة إلى استانبول بصفة فاتح بغداد .

دامت الحملة الهمايونية (السلطانية ، الامبراطورية) مدة ١ سنة و٦ أشهر و٢٧ يوما . أما اعتبارا من مغادرة إبراهيم باشا من استانبول ، فكانت قد مضت مدة ٢ سنة ، وشهرين و ١٨ يوماً .

تكتسب هذه الحملة أهميتها من أنها ضمت العراق إلى الاتحاد العثمانى ، وأبعدت الصفويين عن العالم العربى بصورة نهائية . تأسست إيالة أرضروم (١٥٣٥/١١/١) ، وتم تأمين حدود تركية فى القفقاس . وعند عودة العثمانية ، استرجع الصفويون تبريز والأراضى التى بقيت لدى إيران حاليا . وكانت لاتزال بحوزتهم فى الأناضول ، بعض المناطق كوان .

بذلت الدولتان التركيتان الإسلاميتان الكبيرتان جهودهما خلال ١٥٣٦ ـــ ٤٨ للحفاظ على بقاء الوضع على حاله Stafu quo .

حدثت تطورات فى صالح العثمانية . فتح دلقادر أوغلو محمد بك والى (فريق أول) أرضروم ، آهسكة (١٥٣٦/٧/٤) وأخضع قسما كبيرا من كرجستان للنفوذ العثمانى ، ورغم أن التركمان كانوا ينتسبون إلى المذهب الشيعى بسهولة ، فإن الأكراد كانوا يثبتون على المذهب السنى (الشافعى) ، ولذا كانوا على الأغلب يلتزمون الجانب التركى . أخذ النفوذ العثمانى فى الازدياد فى المنطقة الجنوبية ـــ الغربية من إيران ، المسكونة بالأكراد .

تأسست إيالة البصرة (١٥٣٨/٧/٢٤) ، وارتبطت بها مناطق جنوب العراق ، الكويت ، الحساء ، قطيف ، نجد ، قطر ، بحرين ، عمان المتصالح وجبل همراما رأسا أو بقبول شيوخ العرب الحماية العثمانية .. وهكذا تحقق انتشار عثمانى واسع على خليج البصرة .

جاء القاس ميرزا الأخ الآخر للشاه إلى استانبول فى ١٥٤٧ ولجأ إلى البادشاه . وأصبح ذلك بداية لفتح حملة جديدة على إيران .

كان السبب الأصلى للحملة هو استمرارهم فى إرسال عملاء الشاه الذين يطلق عليهم اسم « خليفة » خلسة إلى الأناضول وجنوب القفقاس لبث المذهب الشيعى ونشر الدعاية للانحياز إلى الشاه .

تأكدت ضرورة القيام بحملة جديدة ، عند بدء الصفويين فى تطبيق ذلك بشكل

دموى فى شيروان (شمال آذربيجان) ، أما فى الأناضول ، فإن عملية تبديل العقيده كانت تجرى بدعاية دقيقة وسرية . أراد الصفويون بعد شيروان ، تبديل مذهب شعب داغستان السنى الشافعى فى شرق قفقاسيا الشمالية وإدخالهم إلى المذهب الشيعى بحد السيف .

لجأ أمير (بك) داغستان ، قرم شامخال إلى العثمانية وطلب المعونة . قرر الديوان الهمايونى أن إيران التى لم تتمكن من هزيمة العثمانية ، سوف لاتتوقف لتعويض خسائرها ـــ عن سياسة التسلط على جميع الدول السنية الصغيرة .

احتل العثمانيون داغستان وشيروان . اضطرب الشاه الذى شاهد تطويقه من الشمال . وافق على اقتراحات شارل ـــ كوينت ، واتفق مع ألمانيا ـــ أسبانيا . أما فى الأناضول ، فقد شوهد مجددا خروج كثير من التركمان والأكراد من المذهب السنى وإقرارهم المذهب الشيعى . ثبت أن عملاء الصفوية قد أثروا فى مناطق توقاط ، آماسيا ، جورم ، سيواس ، طرابزون ، أرزنجان ، أورفة ، دياربكر وحتى قونية . عجز أئمة السنة ورجال الدين حيال هذه الدعاية الشيعية . كان النظام العثمانى لايسمح بشهر السلاح على رعية البادشاه غير العصاة والضغط عليهم بسبب العقيدة والمذهب ، وبناء عليه ، كان المسئولون العثمانيون عاجزين كذلك . إلا أنه تم إعدام عدة أشخاص من الذين يتجاوزون الحدود ويحرضون شعب أناضول علنا ضد العثمانية ويدعونهم للانحياز إلى جانب الشاه كـ « بير سلطان إبدال » . كان كل شخص يقر بالعلوية يدفع ضريبة إلى الشاه تسمى « نذر » ، وتذهب هذه النقود إلى إيران . ثبت أن الدعاية العلوية قد تفشت بين أفراد الجيش فى إيالة روم (سيواس) كذلك . لم يكن من الممكن أن تسمح الدولة العثمانية بشىء من هذا القبيل .

ثبت أن ٢٠ لوندا (جنود حرس الوالى) ، كانوا يعملون كعملاء لإيران وصدر أمر بالقبض عليهم وقد تم ذلك أثناء هروبهم إلى إيران ، جىء بهم إلى أرضروم وتم إعدامهم . قرر الديوان إعلان الحرب على إيران فى الوقت الذى أوشكت فيه الأناضول أن تدخل حربا أهلية دموية كالتى بين الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا . حرر كتاب سلطانى (نامة همايون) إلى خاقان تركستان ، طلب فيه الهجوم على إيران من الشرق .

كانت سياسة الأناضول الشرقية للسلطان سليمان سياسة حكيمة وواقعية . كانت هذه السياسة تحرص على عدم إجراء أي ضغط على العلويين أو الذين يتظاهرون بالعلوية مالم يمارسوا دعاية علنية مضادة للدولة . لكن إيالتى أرضروم وفى الجنوب دياربكر لم تستطيعا حماية الأناضول من تعرض إيران المادى والمعنوى . أنشأ الخاقان (الذى شعر بضرورة تأسيس إيالات جديدة فى أقصى الشرق) ، إيالة قارص فى شرق أرضروم وإيالة وان فى شرق دياربكر ، ومنح كل من دلقادر أوغلو ميرزا على بك وجركس صارى إسكندر بك رتبة فريق أول ولقب الباشوية وأصبح كل منهما أول وال على قارص (الأول) وعلى وان (الثانى) .. وهكذا أمكن فى ١٥٤٨ فقط ، تثبيت وضمان حدود تركية الشرقية الحالية بصورة قطعية ، وقد سلف أن ذكرنا الحدود التى توصلت إليها العثمانية فى هذا التاريخ .

أعلن القانونى القاس ميرزا السنى شاها مكان أخيه الكبير طحمسب ، ورغم أن ميرزا استولى على عدة بلدان إيرانية من بينها قم ، وكاشان لكنه لم يتمكن من إظهار كفاءة وبسبب هذا ، ولضعف شخصيته ، لم تتحقق إمكانية دحر الحكم الشيعى فى إيران (تاريخ أعلم آراى عباسى ، ص ٧٤ ـــ ٥) .

من ناحية أخرى ، كان الحكم العثمانى فى شيروان (شمال أذربيجان) عبارة عن ٥/٢ سنة . وتأخر فتح الأقضية الأخيرة لآرتفين وقارص من الصفويين ، لغاية ١٥٥١ .

(٢٨) الحملة الهمايونية ١١ : حملة إيران الثانية (١٥٤٨ ـــ ٤٩)

تبلغ الفترة مابين الحملتين الإيرانيتين للسلطان سليمان ١٣ سنة ، حقق خلالها ٤ حملات همايونية على أوروبا . والحملة الإيرانية ٢ ، هى حملته الهمايونية ١١ .

بدأت هذه الحملة بتحركه من استانبول (١٥٤٨/٣/٢٩) . اشترك فى الحملة أصغر أبناء البادشاه شهزاده جهانكيز . أما القاس ميرزا فقد أرسل قبل القوات الأخرى ومع القوات العثمانية الأمامية إلى إيران .

كان الشاه فى تبريز . أجلى المدينة وانسحب إلى قزوين بعد أن علم بمجىء البادشاه إلى خوى . كان عازما بشكل أكيد على عدم المجابهة فى حرب ميدانية . احتل

العثمانيون تبريز (١٥٤٨/٧/٢٧) . كان قد مضى على إخلاء العثمانيين لتبريز للمرة ٣ ، ١٢ سنة ، و١١ شهرا ، ويوم واحد . جاء الخاقان إلى وان ، بعد أن بقى فى المدينة ٥ أيام . استسلم الصفويون فى ٢٩ آب بعد أن قاومت القلعة ١٠ أيام . غادر البادشاه بعد أن حصن القلعة بصورة جيدة إلى دياربكر (٢٩ أيلول) ، ومنها إلى حلب (٢٥ ت٢) حيث قضى الشتاء فيها . مكث البادشاه فى حلب مدة ٦ أشهر ، و١١ يوما حتى ١٥٤٩/٦/٦ .

خلال ذلك ، كان القاس ميرزا قد قام بحملات كرمنشاه ــ همدان ــ قم ــ كاشان – أصفهان ، لكنه لم يتمكن من إجبار أخيه الكبير على إحناء رأسه . ظفر به أخوه الكبير وأرسله إلى قلعة قهقهة (آلاموت) .

قضى القانونى الشتاء فى حلب مع ابنيه بايزيد وجهانكيز وتحرك . حط قرب دياربكر مع الجيش الهمايونى لمدة طويلة (٢٥ آب ــ ٥ ت١/ ١٥٤٩) . استمرت حملة السلطان سليمان الذى عاد إلى استانبول فى ٢١ ك ١ مدة ١ سنة و ٨ أشهر ، ٢٣ يوما . جاء الشاه طحمسب فى صيف سنة ١٥٥١ إلى شرق الأناضول واجتاح إيالتى وان وأرضروم .

(٢٩) الحملة الهمايونية ١٢ : حملة إيران ٣ (١٥٥٣ ــ ٥٥)

سار السلطان سليمان من استانبول (١٥٥٣ /٨/٢٨) بحملته الثالثة على إيران بعد عودته من حملة إيران ٢ ، بـ ٣ سنوات ، و٨ أشهر ، و٨ أيام . تسمى هذه الحملة « حملة نهجوان » . كان عمره قد تجاوز الـ ٥٨ سنة . استصحب أصغر أبنائه شهزاده (الأمير) جهانكيز وانضم إليه فى الطريق ابناه الأوسطان شهزاده سليم (الثانى) وشهزاده بايزيد . قرر قضاء الشتاء فى حلب التى يحبها ، كما فعل قبل ٥ سنوات . مكث فى حلب مدة ٥ أشهر ، ويوما واحدا (١٥٥٣/١١/٨ ــ ١٥٥٤/٤/٩) . جاء إلى روان (أريوان) فى ١٨ تموز . احتل هذه المدينة التى هى مركز إيالة ، واحتل كذلك مدينة نهجوان ــ التى سميت الحملة باسمها ــ فى الساحل الشمالى لنهر آراس ، واجتاز آراس إلى جنوب آذربيجان . طلب الشاه الصلح . أبلغت الاستخبارات العثمانية البادشاه بأن الشاه مصمم على عدم الدخول

فى حرب ميدانية وأن العثور على الجيش الصفوى غير ممكن . عاد الخاقان إلى الأناضول . مكث ٢٤ يوما فى أرضروم وغادر فى ٢٨ أيلول . وصل آماسيا وقضى فيها الشتاء ، وبقى فيها ٧ أشهر ، و ٢٢ يوما (١٥٥٤/١٠/٣٠ ــ ١٥٥٥/٦/٢١) .

قضى البادشاه ــ خلافا للعادة ــ شتائين متعاقبين فى الأناضول ، أخاف الشاه . عقدت بين تركيا وإيران ــ بعد مفاوضات طويلة جدا ــ معاهدة آماسيا (١٥٥٥/٥/٢٩) . اقتسمت كرجستان ، وتم الاتفاق على الحدود الحالية تقريبا بالنسبة للأناضول . كانت الحدود فى العراق فى الجنوب كما هى حاليا تقريبا .

جرت مفاوضات طويلة مع السفير الألمانى البارون Von Busbek كذلك . ولكن لم يتم عقد صلح ، وإنما جرت هدنة لمدة ٦ أشهر فقط فى ٢ حزيران .

دخلت كل من الدولتين العظمتيين الأولى والثانية فى العالم ، تركية العثمانية وإيران الصفوية فى فترة صلح ستستمر ٢٣ سنة .

فى غضون ذلك ، تخلى شارل ــ كوينت وانفصلت ألمانيا وأسبانيا عن بعضهما ، وتنفست أوروبا والعثمانية الصعداء .

سوف تحارب العثمانية ألمانيا وأسبانيا مرة أخرى ، ولكنها فى هذه المرة ستحارب دولتين منفصلتين .

كان من نتائج عقد الصلح مع إيران بعد ٣ حملات همايونية ، إلحاق العراق وشرق الأناضول ، تحقق الوحدة الأناضولية واكتسابها صفتها القطعية لصالح العثمانية ، والحصول على مكاسب مهمة فى قفقاسيا .. وكل هذه تعد مكاسب عظيمة للعثمانية ، وإن كانت بعيدة عن أن تكون حلاً جذرياً .

لاشك أن معاهدة أماسية هى إحدى الوثائق العديدة التى تثبت أن العثمانية دولة عالمية عظمى ، ولكنها فى الوقت ذاته ، تعتبر وثيقة تبين انقسام العالم التركى إلى قسمين بمعنى دخول إيران الشيعية بين تركيا وتركستان وعدم إمكان اجتياز هذا السد ، وبالتالى ترك ملايين من الاتراك تحت رحمة إيران لينقلبوا إلى إيرانيين ويصبحوا من رعايا إيران ، وإضافة إلى ذلك ، فإن الدولة العثمانية العالمية التى لم تعترف

لشارل ــ كوينت وخلفه فرديناند بلقب إمبراطور والتى أجبرتهما على قبول عدم اعترافها هذا ، كانت قد أقرت بصورة رسمية بكون الشاه حاكما تعادل درجته البادشاه وتساوية . إن مقولة « لولا الشاه ، لوصلت العثمانية إلى الراين » الشائعة الدائرة فى أوروبا ، صحيحة . وإن كانت المقولة المقابلة « لولا أوروبا ، وخاصة أسبانيا وألمانيا ، لوصلت العثمانية إلى تركستان » لم تتردد فى إيران على الرغم من كونها حقيقة .

ربما يقال ماكان ينبغى على العثمانية أن تجتاز سد فينا ، ويحتمل أن ذلك لم يكن ضروريا أبدا ، ولكن تحطيمها السد الصفوى ، كان سيغير أحداث التاريخ فى صالح آسيا .. لكن إمكانات العثمانية لم تكن كافية لذلك ..

(٣٠) قضية ولى عهد - شهزاده (الأمير ولى العهد) سلطان مصطفى خان

أولاد السلطان سليمان القانونى هم : ولى عهد - شهزاده (١٥٢١/١٠/٢٩ - ١٥٥٣/١١/٦) مصطفى (١٥١٥ - ١٥٥٣/١١/٦) ، شهزاده محمد (١٥٢١ - ١٥٤٣/١١/٦) ، مهرماه سلطان (السلطانة) (١٥٢٢ - ١٥٧٨/١/٢٥) ، سليم الثانى (١٥٢٤/٥/٢٨ - ١٥٧٤/١٢/١٥) ، شهزاده بايزيد (١٥٢٥/٩/١٤ - ١٥٦٢/٧/٢٣) ، شهزاده جهانكيز (١٥٣١ - ١٥٥٣/١١/٢٧) . عدا ٥ شهزاده و٣ سلطان (سلطانة) ماتوا وهم أطفال . كان كبير أبنائه أولو شهزاده (ولى العهد) محمود ، قد توفى وعمره ٩ سنين (١٥٢١/١٠/٢٩) . وولد محمد ، مهرماه ، سليم ، بايزيد وجهانكيز كلهم من خرم خاصكى سلطان (١٥٠٦ - ١٥٥٨/٤/١٧) . أما والدة أولو شهزاده مصطفى ، فهى ماه دوران خاصكى (١٤٩٩ - ٢/٣/ ١٥٨١) .

حصلت خرم خاصكى على نفوذ متزايد لدى السلطان سليمان وأصبحت كأنها زوجته الوحيدة ، وكانت هى والدة الأولاد ، عدا الشهزاده الكبير (ولى العهد) . كان عليها أن تنحى ولى عهد - شهزاده لتضمن العرش لأحد أبنائها . ولأجل ذلك ، بدأت فى اتباع سياسة تتسم بالصبر والدقة والمؤامرات واستمرت سنوات طويلة . ونذرت نفسها لهذا العمل .

كان داماد مقبول إبراهيم باشا (١٤٩٥/٤/٢٥ - ١٥٣٦/٣/١٥) الذى عينه

القانونى للوزارة العظمى بعد إحالته بيرى محمد باشا على التقاعد قد ظل فى مقامه مدة ١٢ سنة ، و٨ أشهر ، و١٨ يوما (١٥٢٣/٦/٢٧ - ١٥٣٦/٣/١٥) . كان زوجا لأخت البادشاه خديجة سلطان (١٤٩٦ - ١٥٨٢ . كان سياسياً لامعاً ، وسير أعمال الحكومة بكفاية تامة . لم يكن بالإمكان تحريك وزير أعظم كهذا ضد ولى العهد الشرعى . إن أحد أسباب سقوط إبراهيم باشا وإعدامه فجأة ، هو المؤامرات الدقيقة الخفية التى لاتطفو على سطح الماء لخرم التى حفرت البئر له . تخلصت خرم من وزير أعظم ذى نفوذ . حيث لم يتمكن أى وزير من الذين تلوه ، أن يحصل على نفوذ إبراهيم باشا . إن الذين تلوه كوزير أعظم هم بالتسلسل : آياز محمد باشا (١٥٣٦/٣/١٥) ، وبوفاته ، صهر البادشاه المتزوج بأخت أخرى له داماد لطفى باشا (١٥٣٩/٧/١٣) ؛ وبعزله خادم سليمان باشا (١٥٤١/٤/٢٧) ، وأخيرا داماد (صهر) رستم باشا (١٥٤٤/١١/٢٨) .

توفى خلال ذلك كبير أبناء خرم وثانى أبناء القانونى شهزاده محمد فى مانيسا (صاروخان) التى كان واليا عليها . جىء بجثمانه إلى استانبول ودفن فى مقبرته الكائنة قرب جامع شهزاده الفخم الذى شيده والده وأوصى المعمار سنان بهندسته . كان على خرم أن تسعى بعد الآن لأبنائها الآخرين . لم يتغير تصميمها بشأن ولى عهد - شهزاده مصطفى ، بعد وفاة شهزاده محمد .

تزوج داماد رستم باشا (١٥٠٥ - ١٥٦١/٧/١٠) ، بابنة القانونى الوحيدة التى يحبها كثيرا مهرماه سلطان (١٥٣٩/١١/٢٦) . وسواء ابنتها أو صهرها أصبحا واسطتين لخرم خاصكى . بدأت هذه المؤامرة تسير نحو هدفها خطوة فخطوة . وفى النهاية ، وصلوا إلى حد ترتيب أوراق مزورة بشكل فنى تتضمن هذه الأوراق ، أن السلطان مصطفى قد اتفق مع الشاه طحمسب على أن يصاهره وأن الشاه سوف يساند الشهزاده لإجلاسه على عرش أبيه .

كان الشىء الذى يخيف الديوان الهمايونى فى السياسة العثمانية لذلك العصر أكثر من غيره ، هو سريان التشيع إلى الأناضول .

ونتيجة مؤامرات متتابعة لالزوم لذكرها هنا ، اقتنع السلطان سليمان ، بأن ابنه الكبير سيعصاه وسوف يزج بالدولة فى بلية كبيرة . استعد لحملته الهمايونية ١٢

(حملة إيران ٣) تجاه إيران ، وكان السلطان قد قرر التخلص من ابنه الكبير فى الطريق .

خنق ولى عهد شهزاده فى معسكر آقتبة قرب قونية أركليسى بالجبل (١٥٥٣/١١/٦) . إستاء الجيش بصورة كبيرة وأظهر عدم رضائه وسخطه وحدثت ردود فعل شديدة . اضطر السلطان سليمان إلى عزل عضو المؤامرة الكبير صهره رستم باشا .

يعتبر قتل السلطان مصطفى خان ، أحد أبشع وأشأم الأحداث التى جرت على عهد القانونى . كان عمره ٣٨ سنة وكان وليا للعهد منذ ٣٢ سنة ، و١٠ أشهر والوارث الشرعى اللائق لعرش بنى عثمان الذى يفتخر بكونه سلطنة العالم . راح السلطان سليمان ضحية دسائس عديدة وقسى على أغلى أبنائه . كان السلطان مصطفى محبوبا لدى الجيش والشعب وكان نموذجا مطابقا لجده السلطان ياوزسليم . إن شبهه الشديد بالسلطان سليم – وجهاً – زاد فى محبته . كان شاعرا وخطاطا . ماتت ابنتاه بعده . توفى ابن السلطان سليمان الأصغر جهانكير الذى تأثر كثيرا لهذا الحادث فى حلب وعمره ٢٢ سنة . دفن مصطفى فى قبره الكائن فى بورصة ، أما جهانكير فقد دفن في استانبول . شيد أبوه جامعا فى استانبول وسماه جهانكير . وهكذا بقى للعرش العالمي وريثان : ولى عهد – شهزاده سليم وشهزاده بايزيد الذى يصغره بـ ١٦ شهرا فقط . كلاهما ولدا من خرم . كان بايزيد أكثر فعالية وأكثر حرصا . والآن سوف يتنازعان على العرش العالمى .

أصبح الوزير ٢ وزوج إحدى شقيقات البادشاه داماد قرة أحمد باشا وزيرا أعظم ، بعد عزل رستم باشا (١٥٥٣/١١/٦) . كان عسكريا كبيرا . أعدم بغير حق (١٥٥٥/٥/٢٩) . عاد رستم باشا وأصبح وزيرا أعظم .

(٣١) قضية شهزاده سلطان بايزيد

كان تبديل لواء شهزاده بايزيد الذى كان يديره منذ ١٧/٥ سنة من كرميان (كوتاهية) إلى أماسيا التى أبعد منها إلى استانبول بمسافة كبيرة (١٥٥٨/١٢/٢١) ، وبقاء أولو شهزاده فى قونية ، إشارة إلى أن البادشاه عازم

على مساندة ولى العهد الشرعى سليم . ثار بايزيد على أخيه الكبير . لكنه هزم فى حرب قونية الميدانية (٣٠ - ١٥٥٩/٥/٣١) . جاء أماسية وغادر إلى إيران بجيش عدده ١٢٠٠٠ جندى . لم يتمكن الجيش الذى تعقبه من اللحاق به . دخل إيران . دخل مدينة العرش الإيرانية قزوين بعد ٣/٥ شهر (١٥٥٩/١١/٢٤) . كان قد دعاه الشاه طحمسب واستقبل ، بحفاوة بالغة . شتت جيشه عندما اكتشفت محاولة قلبه الشاه بالجيش الذى يقوده ، ووضع هو تحت رقابة شديدة . وافق الشاه فى النهاية على طلب السلطان سليمان وأمر بقتل شهزاده بايزيد مع أبنائه الـ ٤ وسلمهم إلى السفراء العثمانيين (١٥٦٢/٧/٢٣) . أرسلت نعوش الأمراء إلى سيواس حيث شيدت لهم قبور دفنوا فيها .

طلب الشاه من السلطان سليم لقاء العمل القذر ١٢٠٠٠٠٠ ليرة ذهب وقلعة قارص . أخذ ٥٠٠٠٠٠ ليرة ذهب ومجوهرات قيمة فقط كان عمر شهزاده بايزيد ٣٧ ، وعمر أخيه الكبير سليم ٣٨ ، والقانونى ٦٧ سنة . أما الشاه فكان عمره ٤٨ سنة .

كان شهزاده بايزيد شاعرا فى اللغتين التركية والفارسية (مخلصه شاهى) ، خطاطا وعسكريا قديرا . اشترك فى الحملات الهمايونية ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . شاهد الأقطار اعتبارا من البلاد العربية إلى المجر وإيران . قتل كذلك ابنه الخامس وأكبر أبنائه أورخان الذى كان واليا (سنجق بك ، لواء) على لواء جورم وعمره ١٩ سنة . بناته الـ ٤ بقين على قيد الحياة .

تزوجت هماشاه سلطان (١٥٤٤ ــ ١٥٨٢) ابنة الشهزاده محمد ، ٣ مـرات . أنجبت حفيدة القانونى هذه أولادا كثيرين . ولكن وبعد سقوط بايزيد ، بقى أمير واحد يمكنه أن يعتلى العرش وهو السلطان سليم .

مات رستم باشا ، عندما كان السلطان بايزيد فى قزوين (١٥٦١/٧/١٠) . دامت صدارته الأولى ٨ سنة و ١٠ أشهر و ٨ أيام ، والثانية ٥ سنة و ٧ أشهر ، و ١٩ يوما ومجموع صدارتيه ١٤ سنة و ٧ أشهر و١٩ يوما . وهو الوزير الأعظم الذى ظل فى مقامه أطول مدة فى عهد القانونى ، وحسب ا لتسلسل يعتبر هو ٨ بين رؤساء الوزارة فى التاريخ التركى فى طول مدة بقائه فى المنصب . غير

محبوب من طبقة الشعب والمثقفين . بخيل تجاه الأشخاص ، وإن كان كريما فى إنشائه المؤسسات الاجتماعية ، الوقفية والخيرية ، خلف مؤسسات خيرية تدهش العقل . حصل على قسم من ثروته عن طريق الرشاوى . له شهرة سيئة كإدخاله الرشوة إلى الدولة العثمانية . حرر تاريخا عثمانيا ترجم إلى اللغة الألمانية ، ليست له قيمة كبيرة . ماكر متآمر ، لديه استعداد للظلم لولا خوفه من البادشاه . حازم فى الأعمال الحكومية وأهل لها . لايبتسم .

احتل سميز (بمعنى بدين) على باشا مكانه تلقائيا لكونه وزيرا (٢) ، كان هذا على عكسه بشوش الوجه فى جميع الأوقات صاحب دعابة ، ممازحا وسياسيا ذكيا ورجل دولة قدير . كان بدينا جدا . دامت صدارته ٤ سنة إلا ١١ يوما . مات بأجله (١٥٦٥/٦/٢٨) . احتل مكانه تلقائيا الوزير ٢ صوقوللو داماد محمد باشا . هو آخر وزير أعظم للقانونى وهو الصهر الكبير لأولو شهزاده سليم (الثانى) الذى يصغره سناً .

(٣٢) الحملة الهمايونية ١٣ والأخيرة : حملة سيجتوار Sigervar (١٥٦٦)

كان السلطان سليمان قد أعلن عن شيخوخته بعدم مسيرته بحملة منذ عودته من حملة نهجوان قبل ١٠ سنة و ٩أشهر . كان قد انهار بسبب وفاة أبنائه الأربعة وزوجته . لم يرغب الموت فى قصره . أراد أن يموت بين جيشه ، بين أصوات المهتر (الموسيقى العسكرية) والمدافع . سار من استانبول (١٥٦٦/٥/١) . هناك أدلة تشير إلى توقعه عدم عودته حياً من هذه الحملة .

نصب فى ٢٩ حزيران السرادق الهمايونى فى صحراء زملن Zemlin فى الساحل المقابل لبلغراد . مثل بين يديه هنا أمير أردل الملك يانوش Janos الثانى . سمح للملك الذى ركع ثلاث مرات وقبل الأرض ، بتقبيل يده ورحب به ترحيبا كبيرا بقوله « كيف حالك ياولدى العزيز ؟ » يانوش هذا ، هو ابن زابوليا الذى جعله القانونى ملكا على المجر ، وعلى أثر وفاة أبيه أصبح ملكا وعمره ١ سنة ، قابله القانونى وهو طفل فى القماط ، أرسل إلى ترانسلفانيا بعد منحه إمارة أردل . أصبح عمره الآن ٢٦ سنة . كانت قد مضت ٤٠ سنة على انتصار السلطان سليمان فى حملة موهاج وفتحه المجر وتعيينه زابوليا ملكا ومضى كذلك منذ مجيئه إلى

صحراء زملن الموجود فيها الآن وفتحه بلغراد فى حملته الهمايونية الأولى ٤٥ سنة كاملة . كان يانوش الثانى قد ترك الكاثوليكية وأقر بالبروتستانتية .

جاء السلطان سليمان فى ٥ آب أمام قلعة سيجتوار . كانت قلعة ألمانية تبعد ٣٠ كم عن جنوب غربى مدينة بسج pec إحدى مراكز لواء إيالة بودين . كان خان قرم دولت كيراى فى هذه الأيام فى سلوفاكيا (هامر ، ٦ ، ٣١٠). كانت Sigervar قد حاصرها قبل ١٠ سنوات والى (فريق أول) بودين على باشا مدة ٦٩ يوما ، ولم يستطع إسقاطها . امتطى السلطان سليمان جواده وهو مريض ، ورغم رجاء معيته إياه وهم يتباكون ، فتش صفوف الحصار وأعطى أوامره النهائية . من الواضح أنه كان يريد التطلع لآخر مرة لجنوده الذين يعشقهم . ذهب إلى سرادقه منهار القوى وألقى بنفسه على الفراش ولم يتمكن من القيام بعدها . سقطت القلعة الخارجية فى ٥ أيلول ، كانت القلعة الداخلية تقاوم .

مات « خاقان العالم » الذى يسميه الأتراك « القانونى » و « غازى » ، والأوروبيون « العظيم » (Magnificent) و « الكبير » السلطان سليمان خان الثانى فى وقت مبكر جدا فى الساعة ١/٣٠ من صباح يوم السبت الموافق ٧ أيلول ١٥٦٦ . هو السلطان الثانى الذى مات فى ساحة الحرب ولو أنه لم يمت شهيدا مثل مراد الأول . ومع أن فاتح وكذلك ياوز لم يموتا فى السراى وماتا أثناء الحملة ، لكنهما لم يكونا فى أراضى العدو وساحة الحرب .

كانت قد مضت ٤ أشهر و ٦ أيام على مسيرة السلطان سليمان من استانبول . دامت حملته الهمايونية ١٣ التى انتهت بمجيء جثمانه إلى استانبول ، مدة ٧ أشهر و ٥ أيام . كان عمره قد تجاوز ٧١ سنة بـ ٤ أشهر و ١٠ أيام . ولم يصل من سبقه من السلاطين إلى هذه السن عدا أورخان غازى . معظم السلاطين الآخرين ماتوا وهم فى أعمار تعتبر اليوم سن الشباب أو متوسطى العمر . دامت سلطنته ٤٦ سنة إلا ١٥ يوما على التقويم الميلادى وتقريبا ٤٧ سنة و ٤ أشهر على التقويم الهجرى . ولم يتمكن من مشاهدة القلعة الداخلية لسيجتوار ، لسقوطها بعد وفاته بـ ٥ ساعات . دفن فى قبره الكائن فى جامع سليمانية . أما أعضاؤه الباطنية فقد دفنت خلف الموضع الموجود عليه عرشه ثم شيد عليه قبر .

وهذا القبر موجود حاليا فى المجر والذى يسميه السواح « المكان الذى دفن فيه قلب سليمان العظيم » .

(٣٣) شخصية السلطان سليمان القانونى

كان السلطان سليمان شاعرا صاحب ديوان كبير (مخلصه محبى) ، خطاطا ، أخصائيا فى الأحجار الكريمة وعدا إجادته اللغات الشرقية ، كان يجيد اللغة العربية كذلك . كان ينشغل بهذه الأمور وبالقراءة للترويح عن نفسه .

مجموع المدة التى استغرقتها حملاته الهمايونية الثلاث عشرة هى ١٠ سنة و ٧ أشهر و ٧ أيام . قضى السلطان سليمان هذه المدة ، خارج استانبول بين جنوده على ظهر حصانه أو فى سرادقه ، أما إقامته فى أدرنة دفعات متكررة ، وذهابه إلى بورصة والمدن الأخرى فهى خارج هذه المدة .

يلى فاتح من ناحية الدهاء الذى أبداه فى النواحى الدبلوماسية وإدارة الدولة بين كافة بنى عثمان ، ويلى فاتح وأبيه من ناحية الدهاء العسكرى .

شخصيته كحاكم نموذجى ، لاتقبل القياس إلا مع شخصيات قليلة . « لايوجد أى حاكم فى عصره حصل على تعليم أفضل من سليمان القانونى ولانشأ نشأة عملية لامعة فى إدارة دولة عظمى مثله » ,The Middle, S.N. Fisher East) A Hisrory ، نيويورك ١٩٥٩ ، ص ٢٢٢) . « كانت شخصيته أعظم من شارل ـــ كوينت . طوّر الإمبراطورية التركية التى يحكمها وسلمها إلى خلفه بدرجة من التكامل ، لايمكن قياسها مع تكامل أية دولة أوروبية خلال المدة ذاتها » (Voyageurs Français dans l'Orient, N.Iorga ، ص ٢١) . « أعظم حاكم فى القرون الحديثة . يمكن قياس عظمة لويس ١٤ فقط بعظمته » (Atlas, Hallert ، ص ٢٠ ب) . « إن السلطان سليمان الذى يتقاضى الضريبة من أربع دول كبيرة كألمانيا وروسيا وبولونيا والبندقية ، أدخل فرنسا كذلك تحت حمايته » (Tableau General de l'Empire Ottoman, d'Ohsson ، ٧ ، ٤٤٣) .

نشر القانونى الكثير فى أوروبا عن تركية فى تلك السنوات ؛ وعلى سبيل المثال ، صدر فى أوروبا ٥٦ كتابا يبحث عن تركية خلال سنة ١٥٢٩ و ٧٦

كتابا خلال سنة ١٥٣٢ و ٥٩ كتابا خلال سنة ١٥٣٣ و ٧١ كتابا خلال سنة ١٥٤٢ وصدرت كتب فى السنوات الأخرى على هذا القياس (Die Europäisehen Jahrhunderts Türkendruck des, Göllner ، بخارست (١٩٦١) . كما أصبح فى أوروبا موضوعا لروايات ، أوبرات وتمثيليات عديدة .

وبالنسبة لـ Geuffroy أحد فرسان مالطة الذى شاهدة شخصيا « طويل القامة ، ضعيف ، أسمر الوجه ذو جبهة عريضة وعالية » . وتكتب المصادر الأخرى عنه أنه ، مع أنه ليس مقطب الجبين ، فإنه نادرا مايتسم . جاد ، وقور ، وهو لايستحسن عدم المبالاة ، يتكلم قليلا وبشكل حاسم . كان عالما فى مجالى الحقوق والآداب . إن القوانين التى وضعها مع شيخ الإسلام أبو السعود أفندى بقيت نافذة المفعول حتى بداية القرن ١٩ ، ولم تبدل بعض موادة حتى نهاية الامبراطورية . إن قانونامة سلطان سليمان (دستور السلطان سليمان) ، هو دستور مكمل لدستور فاتح . والقوانين الأخرى التى سنت ونشرت على عهده كثيرة وقد وضع أيضا قوانين كثيرة للإيالات كذلك راعى فيها الظروف الخاصة بتلك الأقطار ، كيفها ولاءمها أبو السعود أفندى مع الشريعة والقواعد العرفية بمهارة فائقة .

وضع قوانين كثيرة باسم الخاقان ، دون أن تعارض أسس الفقه الحنفى . طبقت هذه القوانين بدقة .

لم يطلق الشعب لقب « القانونى » على السلطان سليمان لوضعه القوانين ، بل لتطبيقه هذه القوانين بعدالة ، والألقاب التى أطلقها الأوروبيون فى حينه وبعد ذلك مثل « الكبير » « العظيم » تعتبر تافهة عند قياسها بلقب القانونى الذى يمثل العدالة .

وضع مواد قانونية متقدمة جدا ، ومرعية حاليا لدى العالم المتمدين كافة ، وماكانت هذا المواد يمكن أن تخطر على البال فى أية دولة أخرى فى ذلك العصر . أحدها ، تمتع الرعايا بحقوق متساوية . وتطبق العقوبة الموضوعة بالنسبة للجرم المقترف على الأشخاص الذين اقترفوها مهما كانت منزلتهم (قانو نامه سلطان سليمان ، الباب ١ ، الفصل ١) .

إن تقسيم الأراضى الامبراطورية على القارات حين وفاة السلطان ياوز سليم

(١٥٢٠) هى كما يلى :
١٧٠٢٠٠٠ كم[٢] فى أوروبا + ١٩٠٥٠٠٠ كم[٢] فى آسيا + ٢٩٥٠٠٠٠ كم[٢] فى أفريقيا = ٦٥٥٧٠٠٠ كم[٢] .

توسعت الخارطة السياسية إلى أكثر من الضعفين قبل مضى نصف قرن وأصبحت ١٩٩٨٠٠٠ كم[٢] فى أوروبا + ٤١٦٩٠٠٠ كم[٢] فى آسيا + ٨٧٢٦٠٠٠ كم[٢] فى أفريقيا = ١٤٨٩٣٠٠٠ كم[٢] .

كانت الفتوحات التى جرت على عهد القانونى فى أوروبا ــ بالنسبة للحدود السياسية الحالية ــ هى المجر عدا Eszak ، أردل (ترانسلفانيا ، رومانيا الحالية) ، Banat (فى رومانيا الحالية ويوغسلافيا) ، بلغراد وفويفودينا (فى يوغسلافيا) ، خرواتيا وسلوفينيا ؛ فى إيجة جزر كيكلاد وسبورات ، فى مورا ميناء Nauplion ، فى جنوب صقلية جزر بانتللاريا ولامبادوسا .

أما الفتوحات فى قارة آسيا فهى : رودس والجزر الإثنتى عشرة ، البلاد العربية ، كرجستان الغربية ، قسم من شرق الأناضول (وان ، آغرى ، حكارى الخ .) .

كانت المناطق التى دخلت تحت الحماية والنفوذ والتبعية العثمانية فى البلاد العربية هى جنوب اليمن ، حضرموت ، قطر ، عمان المتصالح ، نجد ، عمان ، الكويت والبحرين . والمناطق كجزيرة ساقز وأرضروم ، قارص وآرتفين ألحقت مباشرة وبشكل قطعى .

والمكاسب فى قارة أفريقيا : أريترة ، جيبوتى ، صومالى ، مناطق حرار وأوكادن فى الحبشة ، ليبيا ، القسم الأعظم من تونس (عدا مدينة تونس ومحيطها)، الصحراء الكبرى ، مناطق حماية فى منطقة جاد ــ نيجر .

وتبلغ مساحة الأماكن التى فتحت على عهد القانونى ولم يمكن الحفاظ عليها والتى لم تكن ضمن الحدود العثمانية حين وفاة البادشاه فى ١٥٦٦ ، تبلغ ١ مليون كم[٢] تقريبا وهى لاتدخل ضمن المجاميع أعلاه : إمارة قزان ، إمارة استرخان ، جواشستان ، استولى عليها الروس قبل وفاة القانونى بـ ١٠ أعوام . إن الشيروانشاهيون فى شمال آذربيجان ، شمهالية داغستان ، الإمارة الإسحاقية فى كيلان (رشت) تبعن العثمانية لفترة من الزمن ثم بقين لدى الصفويين . واحتل العثمانيون قطعاً من

جنوب آذربيجان ، لورستان ، همـدان ، خـمسة ، كرمـنشاه ، أردلان (كردستان) ، جنوب خوزستان (عربستان الإيرانية) ، يزد ، قزوين وري ، لمدد متفاوتة ، لكنها بقيت لدى الصفويين .

أما شمال فاس ، وشمالها ـــ الشرقي ، عدة إيالات من النمسا ، موانيء ريجيو Reggio ، أوترانتو Otranto ، مسينا Messina في إيطاليا ، جزركورسيكا وغوزو ، جزر الباليز ؛ Rutenya ، Nijniy Novgorod (Gorky) في روسيا ، ومناطق أخرى كثيرة فهي أراض أخرى بقيت تحت الاحتلال التركي الموقت .

لم يكن عهد القانوني ، عهد توصلت فيه الحدود إلى أقصاها من الاتساع . إنما هو العهد الذي تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إداري . إن الحدود القصوى التي توصلت إليها العثمانية ، تحققت بعد ربع قرن من وفاته ، في السنوات الأخيرة من عهد حفيده مراد الثالث .

يعبر لطيفي الذي عاش في تلك السنوات عن دور القانوني بهذه الجملة البليغة التي لاتنطوي على مبالغة (تذكرة الشعراء ، ص ١٣) « إنه عظيم الشأن ، تتلى خطبته في كل حطة ، وله جنود في آلاف القلاع » .



فهرس
محتويات المجلد الأول